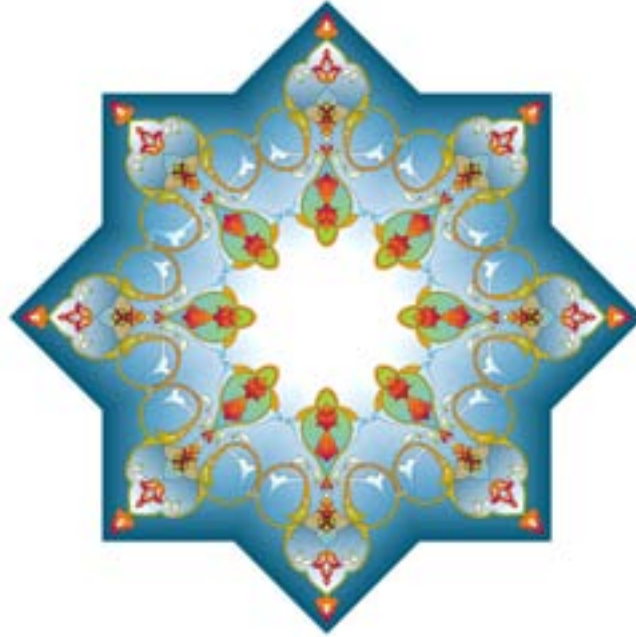


فترة التكوين في حياة الكائدق الأملن

FORMATIVE PERIOD  
IN THE  
LIFE OF MUHAMMAD



February 18, 2008

Arabic

خائل عبء الكرللم

KHALİL 'ABD-UL- KARİM

# فترة التكوين في حياة الصادق الأمين

الكتاب : فترة التكوين في حياة الصادق الأمين  
المؤلف : خليل عبد الكريم  
الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٠٤  
الناشر : دار مصر المحروسة  
المدير العام : خالد زغلول  
مدير النشر والتوزيع : يحيى إسماعيل  
المراجعة اللغوية : عبد المنعم فهمي  
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٣ / ٢٠٥٧٠

الآراء الواردة بهذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن دار مصر المحروسة  
يحظر إعادة النشر أو الاقتباس إلا بإذن كتابي من الناشر أو الإشارة إلى المصدر.

# فترة التكوين في حياة الصادق الأمين

خليل عبد الكريم

# الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	مدخل .....
١٥	قيـدام .....
٢٣	فرشة .....
	<b>الفصل الأول:</b>
٣١	هذا الشاب لا بد أن أباعله .....
	<b>الفصل الثاني:</b>
٧٧	الأم الرؤوم .....
	<b>الفصل الثالث:</b>
٩٥	التحديق في الهندوز .....
	<b>الفصل الرابع:</b>
١٤٥	التفرس في اليعسوب .....
	<b>الفصل الخامس:</b>
١٧٥	موجبات الاختيار .....
	<b>الفصل السادس:</b>
٢٣٣	أطوار التجربة الكبرى .....
٣٦١	أولاً: المصادر .....
٣٦٢	ثانياً: كتب الأحاديث وشروحها .....
٣٦٢	ثالثاً: المراجع .....
٣٦٥	رابعاً: المعاجم والقواميس وكتب المفردات .....

[Blank Page]

مدخل  
قيادام  
فرشة

أ - طية أولى  
ب - طية أخرى

[Blank Page]



## مدخل

### (١)

في وسط جزيرة العرب وغربها وبالأخص في منطقة الحجاز وقبيل الثلث الأخير من القرن السادس الميلادي كانت كافة الظروف تستدعي «القادِم الجديد» بل تلح في طلبه وتستعجله وقد أعطينا الأحوال المادية بسائر ضروبها حظها من التحميص والبحث والدراسة في كتابنا «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية».

أما عن الجانب التيولوجي<sup>(١)</sup> فنكتفي بتسطير ما أورده ابن هشام في السيرة النبوية بشأنه:

— قال ابن إسحق: وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع إذ كانت هي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالآ حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرّفوها<sup>(٢)</sup>.

وكانت آنذاك في قرية القداصة — مكة — فئة مع قدر معلوم من التجاوز يمكن أن نطلق عليها الأنتلجنتسيا<sup>(٣)</sup> هي أكثر أهلها تشبعا بفكرة القادِم الجديد أو النبي المنتظر وأعظمها تشوقاً إليه وأشدّها تشوقاً إلى ظهوره.

ومن بين تلك الفئة السيدة خديجة بنت خويلد التي تجيد القراءة

والكتابة وهذا ما سنطرح في أوانه أدلة الثبوت عليه وهي من رهط أسد بن عبد العزى «من قريش» الذي ظهرت فيه النصرانية<sup>(٤)</sup>. وتعمق في دارستها بعض بنيه حتى وصل إلى رتب منيفة فيها مثل ورقة بن نوفل «القس» وعثمان بن الحويرث «البطرك» وقتيلة أو أم قتال أخت ورقة «الكاهنة» والثلاثة هم أبناء عمومة خديجة وارتفعت العلاقة بينهم «خاصة القس والكاهنة» وبينها إلى مستوي الحميمة المقرونة بالاختلاط.

وحظيت خديجة قبل الإسلام بألقاب ذات نكهة دينية لا تخفى على ذي اللب ولا تستبهم على الفطن ولا تستغلق على الأريب فهي: «سيدة نساء قريش» أو «سيدة قريش» وهذا للتو لا على التراخي يستحضر إلى ذاكرتك ما وصفت به مريم بنت عمران في الإسلام: «سيدة نساء العالمين» وسيأتي في ثنايا البحوث أو الدراسات القوادم أن محمداً كثيراً ما كان يقرن بين السيدتين: «سيدة نساء العالمين» و«سيدة نساء قريش أو سيدة قريش»، يقرن بينهما في المقام والدرجة في منازل جنة عدن ولم يأت ذلك اعتباراً أو عفو خاطر فحاشا أن يفعل محمد ذلك.

ومن الألقاب التي حلت جيدها «= الطاهرة» وهو لقب تفوح منه أيضاً رائحة مسك ديني أو لاهوتي ويذكرك بلقب تحمله مريم أم المسيح لدى النصارى وهو «معدن الطهر والجود والبركات» وفي القرآن عنها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

وليس مصادفة إضفاء ذلك اللقب على خديجة بل لعة كامنة «أو مكنونة» وإلا فلماذا لم تلقب بالشريفة أو الكريمة أو العفيفة مع أنها تحوزها بجدارة؟ ولماذا هي دون غيرها فازت بهذا اللقب ولم ينفخ لامرأة خلفها إن قبل الإسلام أو بعده<sup>(٦)</sup>؟

وفي المسيحية يبدأ التطهير من الداخل أي من القلب وناشد ابن مريم تبعه أن يحبوا بشدة بعضهم بعضاً من قلب طاهر<sup>(٧)</sup>.

خلاصة القول إذن أن لقب الطاهرة تضمخ بعبق ديني أو لاهوتي نفاذ، وان من المستحيل أن تجيء إضافته في حق خديجة مصادفة أو خبط عشواء.

إن اللقبين «سيدة نساء قريش والطاهرة» لهما دالة لا تغيب عن ذهن

الذكي اللوذعي، أو ذلك الذي يقرأ سيرة محمد بعقل يقظ وعين مفتوحة وبصيرة ثابتة ولب واع وهذا ما نادينا ولا زلنا ننادي به.

إن فاز بنو أسد بسهم وفير من بين فروع قريش بصفة الأنتلجنتسيا فكانت من بينهم القس «ورقة بن نوفل» والبطرك «عثمان بن الحويرث» والكاهنة «قتيلة أو أم قتال بنت نوفل» والطاهرة وسيدة نساء قريش «خديجة بنت خويلد».

بيد أن الذي لا ريب فيه ولا يختلف بشأنه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان أن خديجة فلجت على الثلاثة الآخرين وبزتهم لأنها امتازت عليهم بخصال وملكات نفسية افتقروا إليها، يأتي في مقدمتها استشراف المستقبل والفراسة التي لا تخيب وموهبة الإلهام الصادق وغريزة اختيار المجلى «السابق والفائز» والرهان عليه، والصبر العرى عن الضروب «الذي لا مثيل له ولا حتى شبيهه» للوصول إلى الهدف وتحقيق الغاية والحصول على المنية.

فالطاهرة من دونهم لم تنتظر القادم الجديد فحسب، بل فلتت مجتمع مكة وخاصة شبابه ودققت النظر في قوادمه وخوافيه وحدقت في حناياه ولم تتعجل أو تتسرع وصبرت سنوات طويلة قاربت الربع قرن حتى اهتدت إليه: إلى القادم الجديد وبمعنى أدق إلى من يصلح لذلك، وهنا ضربت عرض الحائط بالتقاليد الرواسخ رسوخ الجبال بل وحطمتها فقدمت نفسها إليه ومدت هي يدها إليه ولم تعبأ بفارق السن والمال حتى إذا تشبأ اللحم على الأرض وتحول إلى واقع انتقلت من مرحلة الفرز والتجنب والسبر والاختبار إلى مرحلة الإعداد والشحن والإمداد والتعبئة والتهيئة واستغرقت تلك المرحلة من عمرها المبارك «خمس عشرة سنة» قدمت فيها تضحيات جسيمة من المال والنفس والبدن حتى أثمرت الشجرة وطرحت أكلها الحلو وأن للطاهرة أن تعلم لأهل مكة: هاكم «القادم الجديد» الذي طال انتظاركم له وشوقكم إليه.

## (٢)

أما ورقة بن نوفل أو القس فلم يكن دوره هامشياً أو جانبياً كما قد يتبادر إلى الذهن، صحيح أن ابنة عمه قد استعملته كأحد العوامل الفاعلة في تحقيق الهدف الذي تغيتته بيد أن ذلك لا يعني أنه كان ألعوبة في

يدها، إذ من المستحيل تصور ذلك لأنه الأستاذ والمرشد والمستشار والمرجعية وكان بجوارها خطوة وراء خطوة ومرحلة إثر مرحلة ولكنه على نقبض سيدة قريش كان متسرعاً وكثيراً ما كان يصرح متى يا خديجة.. لقد طال صبري.. الخ، إنما هي لرجاحة عقلها أدركت أن مثل هذا العمل يحتاج إلى وقت ممدود لأن التجارب الخطيرة تستتفر قدراً وفيراً من الحشد الذي يستغرق زمناً وسيعاً وأن العجلة تفسدها ولو أنها طوعت أستاذها ومرشدها لقدر لها الإخفاق ولما نجحت ذلك النجاح الذي لم يكن يخطر على بال أحد.

ولكن والحق يقال فإننا نلتمس العذر للقس فقد غدا في أواخر فترة التأسيس وإبان الإعداد وزمن التكوين شيخاً كبيراً فقد بصره ولذا فإنه قد توفي بعد أعوام قلائل — قيل إنها لم تزد على ثلاثة — بعد الإعلان عن نجاح التجربة ورفع الستار عن القادم الجديد وكان القس يتمنى لو كان جذعاً آنذاك لينصر الله نصراً مؤزراً لا يعلمه إلا هو، ولكن ما هو دور القس الذي نفينا عنه الهامشية والجانبية؟

كان ورق بن نوفل واحداً من أهم شخصيات تيار الحنيفية الذين رفضوا التعددية الإلهية وآمنوا بالتوحيد أو بوحداية الله بيد أنه اختار النصرانية وقرأ التوراة والإنجيل وتبحر في علوم الكتاب، ولم يكتف بذلك بل خطا خطوة فاذة وهو تعلم اللغة العبرية أو اللسان العبراني مما أتاح له نقل أجزاء عديدة من التوراة والإنجيل الأمر الذي أتاح لمن يقرأون ويكتبون، قراءتها واستظهارها، ولا شك أن الذاكرة الحافظة كانت لدى أفراد ذلك المجتمع قوية أشد ما تكون القوة وقد طالعنا في ذلك أخباراً معجبة فعبد الله بن عباس بن عبد المطلب كان يحفظ القصيدة الطويلة غب «بعد» ما تلقى عليه مرة واحدة، وما لنا نذهب بعيداً فالمسلمون الأوائل حفظوا سور وآيات القرآن بعد سماعها من محمد على الفور وهناك حديث ذو دلالة عميقة يصفهم في هذه الخصوصية بأنهم «أناجيلهم في صدورهم» فإذا كان النصارى قد دونوا إنجيلهم فإن صحبه قد استودعوا صدورهم القرآن.

بعد هذه الاستطرادة نعود إلى السياق:

خديجة هي ابنة عم ورقة وعلى صلة وثقى به وهناك اختلاط وزيارات

متبادلة وكانت تقرأ وتكتب فهي ومن باب اليقين قد استوعبت تلك الأسفار التي نقلها القس من العبرانية إلى العربية من التوراة والإنجيل وحفظتها واخترنتها في ذاكرتها، تلك كانت واحدة.

أما الأخرى ففي ليالي مكة الطويلة فإن عقد جلسات ممتدة يشكل ورقة أحد أطرافها أمر محتوم وفيها كان يطرح ما ورد بالتوراة من أخبار وقصص ونوازل بداية بالخلق والتكوين وآدم وحواء والشيطان والشجرة والحية ومروراً بقصص أنبياء بني إسرائيل وفي مقدمتهم قصة موسى ثم حكاية فرعون وبني إسرائيل وما جاء بالإنجيل عن عيسى وولادته الفريدة ومعجزاته المدهشة ونحن نرجح أن تلك الجلسات الطوال كانت من أهم مكونات فترة التأسيس وأنها أفادت فوائد لا تقدر بعد إعلان نجاح التجربة.

بخلاف ذلك.

فإننا نستطيع أن نقول إن ظهور القس في مسيرة التجربة بدأ مبكراً فما إن عازمت أم هند «خديجة» على الزواج بمحمد حتى بارك هذا الاختيار وتحمس له إذ تنقل إلينا بعض كتب السيرة المحمدية ذات الوزن الثقيل والمقام المحمود أن ورقة كان حريصاً على حضور مجلس العقد وما إن انتهى أبو طالب عم محمد من إلقاء خطبته التي أبدى فيها الرغبة في مصاهرة بني أسد في خديجة زوجاً لمحمد؛ حتى انبرى ورقة وتكلم مبدئياً الموافقة رغم وجود عمها عمرو بن أسد الذي كان يعتبر وليها في عقدة النكاح الأمر الذي لفت انتباه أبي طالب وأصح عن ضرورة سماع رأي العم والولي.

هل كان القس يخشى أن يرفض العم والولي أو حتى يتردد ويتلجلج لأنه بمقاييس ذلك الزمان كان من حقه أنه يرفض إذ إن هناك روايات تنص على رفض أبيها خويلد بن أسد بل وتقوّهه بعبارات سقيمة في حق محمد — الأمر الذي كان سوف يثير حفيظة بني هاشم ويثورون لكرامتهم وينصرفون وبذلك يفسد التدبير الذي نسجت خيوطه السيدة خديجة وصدق عليه ابن العم ورقة ومعلوم أن ذلك كان بداية الشوط.

لا نستطيع أن نصدر حكماً قاطعاً في هذه الخصوصية بيد أن الذي ندرسه على وجه اليقين أن القس كشف عن حماس بيّن في إتمام الزواج

بعد أن اقتنع بصواب بنت عمه أم هند في اختيار محمد زوجاً من بين شباب ورجال قريش.

بعد ذلك ثابر القس في مد يد العون الذي لا يقدر لسيدة نساء قريش في اجتياز مراحل الإعداد والتهيئة والحشد بكافة ضروبها: من الإتاحة لها بالاطلاع على الأسفار المترجمة إلى اللسان العربي ولا نستبعد السماح لها بأخذها إلى دارها.. إلى جلسات المذاكرة والمدارسة والمحاضرة والنفاش والحوار...

وقد أخبرتنا كتب السيرة أن القس سافر إلى الشام وقابل الأحبار والقسس والرهبان والبطارقة وناظرهم ووعى ما لديهم من أفكار ونظريات ولذلك قيل عن ورقة إنه قد استحکم في علم الكتاب، ومن غيره كان يصلح أن يغدو موجهاً ومرشداً ومعلماً؟

ونظراً لتلك الصلة الوثقى فقد كان على إحاطة تامة بأدوار الترقى والصعود من درجة إلى درجة ولا بأس من تقديم النصيحة وطرح المشورة وإعطاء الرأي السديد ونفح الفكرة الحكيمة. إذن هو كان على علم دقيق بمجريات التجربة وتفصيلات مسيرتها ودقائق خطواتها – إنما الذي كان يعيبه أنه كان عجولاً يتسرع قطف الثمرة قبل نضجها بل قبل بدوها بعكس الطاهرة فقد كانت متأنية رقيقة صبورة لأنها كانت على ثقة تامة ويقين كامل بحسن اختيارها وصواب نظرتها ونافذ بصيرتها، وأخيراً نجحت وفازت وتكللت مساعيها التي سلخت من عمرها المبارك خمسة عشر عاماً والتي كلفتها ما لا يحصيه إلا الله وحده من الجهد والمال والمعاناة توجت بالنصر الساحق إذ ما فتى وجود «القادم الجديد» أن غدا حقيقة بعد أن كان حلمًا.

وفرح القس – ساعتذاك – فرحاً طاغياً أخرجه عن وقار الشيخوخة ومرق به عن موجباتها وفاه بعبارات تتم عن ذلك.

تلك التجربة المدهشة التي قادتتها وخاضتها الطاهرة بتمكن واقتدار يعزان على المثلل والتي ظاهرها فيها القس ورقة بأستاذية ومهارة فائقتين، تدفعنا إلى ضرورة دراستها دراسة موضوعية عبر مسيرة هاتين الشخصيتين اللتين تتالان منا كل إجلال وتقدير.

## قيـدام

نحن نؤمن أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب لم يطالع صحيفة أيا كانت المادة المصنوعة منها ولم يمسك قلماً ولم يخط بيمينه كلمة ولا حرفاً، ومع تقديرنا للبحاث الذين أجهدوا أنفسهم لإثبات أنه لم يكن أمياً بل كان يعرف القراءة والكتابة فإننا نرى أن ما طرحوه لا يعدو أن يكون قرائن لا ترقى إلى رتبة الأدلة.

ونصدق ما جاء بالقرآن من أنه كان أمياً وما ورد في العديد من الآيات التي تقطع بذلك منها ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾<sup>(٨)</sup>، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾<sup>(٩)</sup>، ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ﴾<sup>(١٠)</sup>.

١ — أما ما يدعيه بعض المستشرقين إن من الفرنجة أو من الصقالبة أن المقصود بكلمة «الأمي» التي ذكرت في القرآن وصفاً لمحمد أنه «الأمي» أي من قوم لا يدينون بالكتاب المقدس «اليهود والنصارى» ويعبدون الأوثان وغير موحدين ولا يوجد لديهم كتاب أو أنبياء أو رسل فهذا مردود عليه بأن القرآن لم يكن يعجزه أن يقول — على سبيل المثال: «هو الذي أرسل في الأمميين رسولاً منهم»، «وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين»، «والنبي الأمي» وهكذا.

ذلك أن اللغة العربية تطلق على من لا يعرف القراءة والكتابة أمي وقيل فيه عدد من التفسيرات أبسطها أن الأمي حاله كحال من ولدته أمه «الأمية» = مصدر صناعي بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة<sup>(١١)</sup>. وفي مفردات غريب القرآن: «الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمل ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾»<sup>(١٢)</sup>. ثم يستمر الأصفهاني في تأكيد ذلك فيقول:

«منه قوله تعالى: ﴿ومنها أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي إلا أن يتلى

عليهم. قال الفراء: هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب و«النبى الأمي الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» قيل منسوباً إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم.. وقيل سمي بذلك لأنه لم يكتب ولم يقرأ من كتاب وذلك فضيلة له لاستغائه بحفظه واعتماده على ضمان الله له»<sup>(١٣)</sup>.

وفي هذا غنية (بضم الغين وكسرها) لأننا لسنا بصدد كتابة بحث في هذه النقطة.

وما نقلناه عن الراغب فيه رد كاف على مزاعم أولئك المستشرقين الذين صرحوا بأن العلة الكامنة وراء ادعاء المسلمين أمية محمد هو إثبات معجزة القرآن إذ كيف يتأتى لأمي أن يورد فيه ما حواه من قصص الخلق والتكوين وآدم وحواء وإيليس والحية والطوفان والأنبياء والرسول بخلاف العقائد والعبادات المواعظ والرقائق والأخلاقيات والحدود والحكم والشرائع... الخ؟ إذن لا بد أن هذا القرآن منزل من عند الله سبحانه وتعالى، والذي نراه أن هذا المنزل يؤكد فسولة رأى أولئك النفر من المستشرقين وضيق أفقهم وعطن فكرهم وفساد نظرتهم ووهن ذهنهم وضعف قريحتهم وسوء استنباطهم واعوجاج استقرائهم وأنهم قرأوا سيرة محمد قراءة عجلى وطالعوها مطالعة نزقة ولم يمعنوا النظر فيها ولم يدققوا التحديق فيها ولم يفلوا قوادمها ولم يبحثوا في خوافيها، مع أن المشهور عنهم العكس.

ولو أنهم قرأوها «= سيرة محمد» قراءة مستأنية وطالعوها مطالعة صبورة ودرسوها على ريث ولبدوا «= أقاموا ولزقوا» بين صفحاتها ولم يفروها<sup>(١٤)</sup> لما كانت بهم حاجة لطرح تلك الفكرة الخائبة فإن الأمر أهون من ذلك ولا يحتاج إلى هذا التمثل ولا يستدعي ذلك التكلف ولا يستتفر ذلك الاصطناع كما سوف يلمس القارئ بحواسه قبل أن يدركه بعقله ويرى ببصره قبل أن ينفذ إليه ببصيرته وسيتبين بوجدانه قبل أن يفقه بوعيه.

٢ – سبق صناديد مكة أولئك المستشرقين الذين ذكرناهم بفكرة لا تقل ركا وتتافسها في السخف وتباريها في الضعف وهي أن محمداً تعلم القرآن من قَيْن «حداد» بمكة يسمى بلعام وفي رواية من عبيد صقليين أحدهما يسمى يسار والآخر جبر وثلاثتهم من النصارى ولقد سجل القرآن تلك الأحدوث<sup>(١٥)</sup> وقد أورد السيوطي بشأنها روايتين:

● أخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون



رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(١٦)</sup>.

• «وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان أحدهما يقال له يسار والآخر جبر وكانا صقليين فكانا يقرآن كتبهما ويعلمان علمهما وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيستمع قراءتهما فقالوا: إنما يتعلم منهما فنزلت الآية...»<sup>(١٧)</sup>.

هذه الحكاية أو هاتان الحكايتان تحملان في طياتهما أدلة عوارهما ف:

أ — من المستقر عليه لدى الباحثين في تاريخ منطقة الحجاز في ذلك الإبان أن العبيد النصارى الذين كانوا في مكة علمهم بـ «الكتاب» كان مهزولاً وكانت لدى بعضهم وريقات من الإنجيل لا تسمن ولا تغني من جوع وبالتالي فمن المحال أن يغذوا محمداً بذلك الكم الوفير من المعلومات والقصاص... الخ وحتى ولو فرض أنه كان لديهم إصحاحات من التوراة فينسحب عليها ذات الحكم.

ب — أن الغالبية العظمى من أولئك العبدان النصارى كانوا أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وفاقد الشيء لا يعطيه.

ج — أولئك العبيد كان في لهجتهم أو لغتهم عجمة وفي لسانهم حكمة مما يجعلهم عاجزين أو معوقين عن نقل ما لديهم من علم، هذا مع التسليم الجدلي البحث بأنهم يحوزون علماً.

وحقيقة أن محمداً بما أوتي من فصاحة ورزق من بلاغة ونفح من لسن ومنح من ذرابة كان في مقدوره ترجمة ما يتلقاه منهم إلى اللسان العربي المبين بيد أن المشكلة تكمن في البداية وهي صعوبة أو عسر توصيل ما عندهم من معارف إلى محمد وهذا مشاهد فيمن يريد أن يشرح وجهة نظره بلغة لا يجيدها فيعسر عليه ذلك.

د — المدة التي كان يمكنها محمد مع بلعام أو يسار أو جبر حتى ولو كان هؤلاء يجيدون الحديث باللغة العربية لا تتيح لهم أن يمدوه بهذا الفيض الزاخر من المعارف، ولم تنتقل لنا إحدى الروايتين أو كلاهما أن محمداً كان دائم اللبأث عندهم أو كان كثير اللزام لهم أو كان طويل المكث لديهم يقضي معهم الليالي الطوال أو يعقد معهم الجلسات المادّة أو يمضي معهم اللقاءات الوسيعة أو ينفق لديهم وقتاً في المقابلات الفسيحة.

وترتيباً عليه فإن تلك القعدات الخاطفة يستحيل في ميزان المنطق أن تطرح هذا المحصول الثرى من العلم الذي تحتويه سور وآيات القرآن على الأقل المكية منه.

إذن ترهات أئمة «الكفر في مكة» زمن محمد وشطحات بعض المستشرقين «فرنجة وصقالبة» التي عرضناها آنفا لا تعدو أن تكون محاولات متهاكة لتفسير ما جاء بالقرآن العظيم وانصوائه على هذه الروائع في كل الأغراض وبداهة هم ينسبونه إلى محمد وبالتالي يقدمونها «الترهات والشطحات» كتعليل لصدوره أي القرآن الكريم منه وقد قمنا بتفنيدها جميعها وكشف زيفها ورفع الحجاب عن فسادها وتبيين تهافتها والإفصاح عن وهنها وتوضيح ركاكتها وتوصيف هزالها ونحن على يقين أن القارئ بعد أن طالع ما سطرناه بشأنها ألقاها جانباً وأعرض ونأى عنها بل ضرب بها عرض الحائط بعد أن فقدت في نظره كل قيمة وافنقرت لأي قدر من الثمالة.

٣ — وهذا الكتاب يقدم رؤية جديدة نزع أنها غير مسبوقة لحل هذا اللغز الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس» وقد التزمنا فيها «الرؤية» بالمنهج الأثير لدينا والذي غلب على مؤلفاتنا الأخيرة وهو المنهج التاريخي.

فقد بدأنا مع محمد قبل أن يلتقي أبوه بأمه ثم وهو جنين في بطن أمه ثم صاحبناه ليلة مولده ثم وهو مولود ثم طفل ثم صبي ثم شاب حتى التقطته «سيدة قريش» بعد أن توسمت فيه بفراصة يعز مثلها أنه هو «القادم المنتظر» الذي طال شوق أصحاب جميع الملل وكل الأديان والمعتقدات وسائر النحل إليه وعلى رأسهم سدنة الأصنام والكهان والرهبان والأخبار ثم قيامها بمعونة سخية من ابن عمها «القس» الذي استحكم فن «علم الكتاب» بدور لا نجد له في تاريخ الأديان مجرد شبيهه. ملحمة خالدة سلخت من عمر الطاهرة والقس عقدا ونصف عقد من الزمان في الإعداد والتصنيع والتهيئة والتأهيل حتى طرح ذلك العمل الصبور الدؤوب المتأني المخطط والمرسوم بدقة متناهية ثمرته الناضجة. وحدثت واقعة «غار حراء» بصورة فاذة معجبة أدهشت حتى فاعليها «بفتح اللام»: سيدة نساء قريش وورقة لأنها جاءت بصورة لم تكن تخطر لهما على بال ولم يحلما بها قط.

ولا شك أن هذا النجاح الكبير والفلج الفريد والفوز المبين يؤوب بنسبة كبيرة إلى موضوع التجربة نفسه فقد كان عبقرياً لا يفري فريه أحد ذلك

أن سيرته الذاتية وخبراته الشخصية وملكاته العقلية والنفسية واللسانية كانت ركائز أساسية في فلاح التجربة.

ولم يسيطر هدف هذه الدراسة علينا ونحن نبحت وننقب وننقر ونحفر بل العكس هو الصحيح فقد كنا نقاوم هذا الفرض ونعارضه بل ونغربه وننفيه بيد أنه بسلوك منهج البدء بالشك ثم السير والتقسيم الاختبار والامتحان والاستنباط والاستقراء ولكل منها كما هو معلوم أدواته الخاصة، وبصبر ودأب عبر قراءة العشرات من المصادر «الكتب التراثية» والمراجع «الكتب الحديثة» واللسوق بين صفحاتها والمكوث الطويل بين دفتيها.. غب هذا الجهد المضني والمشقة البالغة والمعاناة الشديدة.. بدأ الهدف يظهر وخطوة إثر خطوة طفت ملامحه تبدو وقسماته تبين حتى اشتد عوده واستوى على ساقيه بالأية<sup>(١٨)</sup> التي يطالعها القارئ.

ونحن لا نزع أن غاية الكتاب هي الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها إنما هي جهد متواضع لفتح مغلق طالما أرق الكثيرين رفع مرتاجه «أي فتحه».

ثم نورد ملحوظة نذهب إلى أنها على درجة كبيرة من الأهمية والخطر وهي أنه مهما كانت الجهود التي بذلتها «الطاهرة» وعاضدها فيها ابن عمها «القس» فإنها لا تنفي عن التجربة وفي مقدمها «حادث الغار» جانبها الغيبي وناحتها الميتافيزيقية إذ لا تعارض بين الأمرين بل إن كلا منهما يكمل الآخر ويدعمه.

وأمل – وهذا أمر متوقع – ألا يسيء البعض فهم هذه الدراسة ويفسرها على نحو لم يرد على خاطرنا وكنا قد طلبنا وألحنا بل ألحفنا في الطلب بضرورة كتابة التاريخ العربي الإسلامي كتابة علمية موضوعية بدياب الحبيب المصطفى وكررنا أن الكتابة فيه بطريقة مغايرة للكتابة التقليدية يتعين أن تقابل بأفق رحيب ونظر ثاقب وعقلانية رصينة وبصيرة واعية ونظرة هادئة بعيدة عن التشنج والعصاب ونذكر هؤلاء بأن الأمين ذاته أكد أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ونحن نأمل أن نحظى بالأجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة.

٤ – وسوف يلاحظ القارئ أننا أخذنا بما جاء في الكتب التراثية حجة مسلمة خاصة فيما يتعلق بالخوارق والمعجزات والمدهشات التي ارتبطت به «= أبي القاسم» من قبل ولادته ثم حملته فوضعه ورضاعته وطفولته وصباه.. الخ مما يراه البعض حتى من بين الكتاب الإسلاميين المحدثين

بعيداً عن العقلانية ومجافياً لطبائع الأمور ومضاداً للمنطق وكانت البواعث الدوافع لولوج هذا الدرب ولسلوك هذا الطريق عديدة نكتفي منها بالآتي:

أ – أن الطعن في هذه الأخبار يعطي خصومنا في الرأي سلاحاً – ولو أنه مغلول – اننا نطعن في الأحاديث والسنة وهي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية ووجه القل في هذا السلاح أننا في كل كتاباتنا دافعنا عن السنة ووصفناها بأنها «ديوان الإسلام» وطالبنا بقبول الأحاديث حتى المغلول منها لأنها تعكس صورة ولو تقريبية عن أحوال ذلك المجتمع المعجب.

ب – أن المعجزات والأعاجيب والمدهشات والمخاريق جزء من معتقدات تلك البيئة شبه المتبدية ومكون من مكونات شخصياتهم ونذهب إلى القول إن احتقارها وتجاهلها والتعالي عليها هو المسلك أو المنزع اللاعقلاني والرجل أو المرة في ذياك الزمان الطريف والذي شاء له حسن حظه أن يسيطر بتوجهاته وأفكاره على عقول أتباع «يد ولد آدم» لأكثر من أربعة عشر قرناً – نعود فنقول إن الرجل أو المرأة آنذاك كان أسيراً لذلك التفكير الخرافي الأسطوري الذي يؤمن بالقوى الغيبية والكائنات اللامنظورة والعوالم المستخفية... الخ فأئى لمن يكتب عن تلك البيئة ويشخصها أن يتغاضى عن المعجزات والمدهشات والأعاجيب والمخاريق ولو فعل ذلك هل تغدو كتابته موضوعية أم العكس هو الصحيح؟

ج – إن تلك الأعاجيب والمعجزات والمخاريق والشعبذات جزء عضوي في البانوراما التي جهدنا جهدنا لتقديمها للقارئ عن ذلك الجو «الفضاء» الذي تشكلت فيه الأحداث التي عيننا بدارستها قدر الطاقة «عناية» مضاعفة ولا يدل هذا على أنها جاءت كاملة عرية من أي نقص.

وفي معتقدنا أننا لو أسقطنا من حسابنا تلك المعجزات والشعبذات للحق بها «الدراسة» القصور ووسمها الإهمال وركبها العجز وشابها التهاون.

د – أن الشعبذات والمخاريق استمرت تضرب المجتمع الإسلامي حتى الآن فعلى سبيل المثال نرى جمال الدين أبو الفضل الأفريقي المصري المشهور بابن منظور الذي صنف واحداً من أشهر المعاجم والقواميس «لسان العرب» والذي ولد في الثلث الأول من القرن السابع الهجري، وتوفي في أول سنة من العقد الأول من القرن الثامن الهجري يفتح كتابه ذاك بطب الحروف وطلسمات الكتابة «وأنه إذا تمازجت طبائع الحروف

مع أفعال الكواكب المقدسة نجمت عن تمازجها أسرار.. تخرق عقول من لا يهتدي إليها»<sup>(١٩)</sup>. بل إن تلك المخاريق متواصلة في مجتمعاتنا الإسلامية «عربية وعجمية» وقد أهلّ علينا القرن الحادي والعشرون.

فكيف يتسنى غض البصر عنها إذا عزمنا على الكتابة عن هذه المجتمعات منذ فجر الإسلام حتى وقتنا هذا كتابة علمية؟!

هـ – تلك الأعاجيب وخوارق العادات حملتها لنا كتب تراثية عظيمة الاحترام وفيرة التقدير فإذا نأينا بجانبنا عنها رُمينا بالطعن في التراث والهجوم عليه وتحقيره.. الخ أو على أقل تقدير إهماله وتجافيه وهذه تهم يسارع كثير من الكتبة المحدثين المحسوبين على الإسلام بتوجيهها لكل من يكتب بمنهج يخالف الطريقة التقليدية الدوجماتيقية التي تبيست عقولهم عليها فلا تفرز سواها.

و – إزاء تلك الخوارق والمعجزات فإن الكتاب المحدثين «الإسلاميين» لهم موقف متناقض ومرجع تناقضه هو المنهج الانتقائي إذ إنهم في الوقت الذي يدينون أو يستنكرون أو حتى يتجاهلون كثيراً مما حدث في السيرة المحمدية من معجزات مثل: انفلاق البرمة التي وضع محمد تحتها غبّ ولادته – أو الإنصات إلى الهواتف من قبل أمه أثناء حملها به ثم عند ولادتها إياه – أو سماع صوت يدل أهله على مكانه عندما فقدوه – أو تصديه وهو صبي للفحل الذي كان يقطع الطرق عندما كان في سفر بصحبة أحد أعمامه – أو رؤية غلام خديجة ميسرة لملكين يظللانه من حرارة الشمس أثناء سفره إلى الشام في تجارة لها وكذلك رؤية الطاهرة إياهما هي ونسوانها لما عاد محمد إلى بيتها ليقدم لها كشف حساب عن المكاسب التي حققه في تلك الرحلة.. الخ.

في حين أن «الكتبة الإسلاميين المحدثين» يصدقون بالمعجزات الأخرى مثل شق صدر محمد على أيدي ملكين عندما كان في بادية بني سعد في حضانة المرضعة حليلة السعدية وبمعجزة شق القمر في مكة أمام أبصار المشركين ومعجزة الإسراء والمعراج التي يؤكدون أنها كانت عيانية وليست منامية.. فلماذا يكفرون بالأولى ويؤمنون بالأخرى، قد يكون بين الاثنتين فرق ولكنه درجي لا نوعي فهما في آخر المطاف يستندان معاً إلى قوى غيبية.

أليس شق البرمة أيسر من شق الصدر وما تلاه من إخراج القلب وغسله وتنقيته من العلقة السوداء ومن شق القمر فلقنتين كل واحدة منهما

على جبل وأيهما أقرب للتخيل لتظليل الملكين له وهو يسير في الصحراء أم الإسراء من مكة إلى القدس على الحيوان العجيب «البراق»؟

ولا يقال دفعاً لذلك إن الأخيرة وردت في القرآن المجيد ذلك: أن شق القمر من الممكن تأويله تأويلات أخرى لا تعني حدوث معجزة الشق حالاً وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنه سوف يحدث في الآخرة.

كذلك الإسراء والمعراج لم ينص القرآن الكريم على أنهما حدثا عياناً لا مناماً دعك من الاستناد إلى كلمة «عبده» في الآية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ لأن هذا تمحل في التفسير فهذه اللفظة كانت تقرأها عائشة بنت أبي بكر ومع ذلك ذهبت إلى أن الإسراء والمعراج حدثا في المنام وهي «عائشة» أعلم بما لا يقاس من المتحذلقين الذي يؤكدون أنهما حدثا عياناً بحجة واهية هي كلمة «عبده» والتي يدلون بها بصورة استعراضية فيها المزيد من النرجسية كأنما قدموا كشفاً باهراً مثل تفتيت الذرة وما أدركوا أنه ساذج وعبيط وأنه أقل قيمة من تكسير الجرة.

هذه واحدة.

أما الأخرى:

فإن عدداً لا يستهان به من المعجزات الأولى وردت في بعض كتب الصحاح الستة التي تلقفتها الأمة الإسلامية بمنتهى الاحترام ألا يعني عدم الاعتراف بها طعناً مستتراً في هذه الكتب المجمع على تقديرها وكدت أكتب تقديسها وفيهم إذن نعيمهم على الآخرين طعنهم في السنة المصدر الثاني في الإسلام.

أما الثالثة: ليست التفرقة بين نوعي المعجزات بإنكار النوع الأول والاعتراف بالنوع الآخر ثم السماح لأنفسهم بالطعن الضمني للصحاح الستة وحظر ذلك على غيرهم أليس هذا وذاك كيلاً بمكيالين وازدواجية معيبة في المسلك الفكري؟

ونتهي هذه الفقرة بأن إيراد المعجزات التي سوف يطالعها القارئ فيما بعد لا يعيب الكتاب ولا ينزع عنه صفة العقلانية بل هو على العكس يتسق مع المنهج التاريخي الذي التزمناه فيه لأن تلك المعجزات جزء أصيل من الأحداث التي شكلت السياق التاريخي الذي أنتج تلك النازلة المفردة «واقعة غار حراء» وما أعقبها والتي نحاول في هذا الكتاب أن نقدم تفسيراً جديداً لحدوثها غير مسبوق أملين أن يكتب لنا التوفيق في إقناع القارئ به.

## فرشة

### ● الطية الأولى:

خديجة هي التي سعت للزواج من محمد وروايات هذا السعي الحثيث متعددة واختلفت البحوث في البواعث اختلافاً كثيراً بيد أن لنا رأياً فاداً فيها لا رغبة في الفذوذ أو الإغراب أو الإدهاش ولكنه ضفيرة من نسيج الفكرة التي يتمحور أو يتمركز عليها الكتاب وسوف يكشف القارئ ذلك بنفسه.

إن زواج خديجة من محمد أثار في حينه دهشة جميع المحيطين بهما ومن بينهم خاصة أهلها: أبوها في مذهب من قال إنه كان حياً وقت إتمام عقدة النكاح<sup>(٢٠)</sup> وعمها عمرو بن أسد الذي أنجز العقد وكان وليّ خديجة فيه، بل إن الدهش لحق بني هاشم وبني عبد المطلب لدرجة أن أبا طالب فرح فرحاً طاعياً لأنه لم يتوقعه.

فخديجة سيدة قريش أو سيدة نسوان قريش ذات مكانة اجتماعية سامية وتاجرة ناجحة تملك المال الوفير بكافة أنواعه:

النقد والعروض والعبدان والإماء والعقارات ووصفها الوصافون بالجمال والوضاءة وتقدم لخطبتها العديد من وجوه قريش وأعيانها أصحاب الحسب والنسب الأغنياء وقدموا لها الأموال الطائلة كمهر أو سياق ولكنها صدتهم فرجعوا خائبين.

وفي الطرف المقابل محمد فقير مملق لا يملك شروى نقيير يرعى الغنم بأجباد على قراريط<sup>(٢١)</sup> وهي عمالة لا تليق به فهو من بني هاشم أحد أفخاذ قريش السوامق بيد أنه فتى يفيض شباباً وقوة وحيوية وسيماً قسيماً بل يعتبر مثالا للبهاء وقد ورث ذلك من أبيه عبد الله بن عبد المطلب الذي بمحياه الطلق أحرق قلوب نسوان القبيلة: عذارى وأيامى. وهو لا

ضروب له في حسن الخلق: الصدق في القول والوفاء بالوعد وأداء الأمانة فاشتهر في محيطه بـ«الصادق» و«الأمين».

ولكن الأمر في قريش اختلف من أثر التحولات التي ضربت مجتمعها بعد ازدهار مكة كمركز تجاري يصل الجنوب بالشمال والغرب بالشرق وإثر تدفق الأموال لدى التجار والمرابين لم يعد ذلك المجتمع يعبأ بعراقة النسب ولا أصالة الحسب وغدت الثروة هي ميزان التقويم شأنه «= مجتمع مكة» شأن المجتمعات الرأسمالية.

وتفككت عرى التقاليد القبلية التي لها موازينها وموجباتها الخاصة<sup>(٢٢)</sup> ونتيجة لذلك لم يجد محمد ما يتعیش منه سوى رعى الغنم مع أنه من بطن أو فخذ أو فرع في نظر الناس يعد من القمم العوالي والذرا الشوامخ. وعمل محمد في رعى الأغنام قطع نياط قلوب الكثيرين ومنهم أم هند «خديجة» فضربوا كفاً بكف وتساءلوا متعجبين أو تعجبوا متسائلين كيف يحدث هذا؟ كيف يحترف سليل هاشم وحفيد عبد المطلب سيد قريش منذ أعوام قلائل هذه المهنة التي هي وقف على العبدان واللسقاء والزعانف الذين يشكلون قاع المجتمع والطبقة ذات السفولة والغور.

وليست خديجة فتاة غرة طائشة ذات غفلة أو شابة مأفونة قليلة التجربة وتعوزها الخبرة وتتقصها الدربة بل هي سيدة عاقلة لبيبة حاذقة حازمة في طور الكهولة عرکت الحياة أو عرکتها الحياة وأنضجت رأيها وعمقت بصيرتها صاحبة حجي موفور وحكمة بالغة كيف لا وقد تزوجت مرتين وأنجبت البنين والبنات ولها تجارة وسيعة تديرها بحنكة.

واختلف الروايات في عمرها أو سنها عندما نكحها محمد فمن قال: أربعون ومن أخبر أنها ثلاثة وأربعون ومن أكد أنها خمسة وأربعون.

فكيف تقبل أن تنكح شاباً في سن أولادها عمره واحد وعشرون أو ثلاثة وعشرون أو خمسة وعشرون وهو المشهور أو الشائع<sup>(٢٣)</sup> ونحن ننبذ بصرامة ما لمح إليه بعض كتبة السيرة المحمدية التي هي كما المسك الفائح من أن الباعث الدافع لنكاح خديجة محمداً هو شبابه الرائع وفتوته الظاهرة وقوته الواضحة فضلاً عن قسامته ووسامته وجماله وحسنه.

وأنه إذا تقدم لخطبتها ذوو النسب والحسب والنشب «المال» فإنهم افتقروا إلى الشباب والفعالة اللذين يسببان قلوب النسوان ويأسران



عقولهن خاصة الشهلات الكهلات<sup>(٢٤)</sup>. ورغم أن هذا الرأي الفطير جمع بين السفولة والفسولة أو السفالة والفسالة فإنه لا ريب أثبت أن معرفة أولئك الكتبة بالطاهرة وشلة وعلمهم بتاريخها ضحل وإدراكهم لاتجاهاتها التيلوجية مهزول ونحيف وأعجف.

ولو أنهم أمعنوا النظر في سيرتها المعطار وتفرسوا في مشوارها المبروك وحدثوا في خطاها المبرورة قبل نكاحها لمحمد لما أقدموا على عرض هذه الفكرة الخائبة.

وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فقد اطلعت على عدد من الكتب التي خبت وأوضعت في الكلام عن سيدة نسوان قريش فلم أر واحداً منها أولى حقبة ما قبل اقترانها بأبي القاسم قدراً ولو ضئيلاً من الاهتمام كأنما تاريخ الطاهرة لم يبدأ إلا بعد تماسها بـ «الأمين» بدياً باستئجارها إياه ليتجر لها في سوق حباشة أما قبل ذلك فهو من نافلة القول أو سقط المتاع.

ولو أنهم طالعوا قصة خطى عمرها المبرور الذي حير الباحث في الماضي والحاضر:

لماذا نكحت «المعصوم» دون غيره من فتيان قريش الذين هم مثله يفيضون شباباً وفحالة وبهاء؟ ولماذا لم ترسل لأحدهم دسيساً لخطبته أو لجس نبضه؟ ولماذا كما فعلت مع «سيد الخلق» لم تتقدم إلى أحد أولئك الشباب المملوئين قوة وقسامة وتقول له إنني رغبت فيك وذلك بعد أن ترملت أو طلقت من زوجها الأخير «الثاني»<sup>(٢٥)</sup>؟ ولماذا ظلت أيمًا «بلا زواج» ربحاً من الزمان قبل أن تبدي رغبتها «للسادق المصدوق» صراحة دون مواربة في نكاحه ولماذا ضربت بالتقاليد والأعراف المتمكنة من النفوس والغائرة في أعماق حنايا المجتمع عرض الحائط وأهمها اثنان:

الأول: أنها نكحت شاباً في سن ولدها وربما أصغر، غير عابئة بأي نقد أو تجريح أو غمز أو همز.

الآخر: أنها تقدمت إليه سواء بنفسها أو بإيفاد مرسال تقول إنني رغبت في الاقتران بك وإنني ذلت كل العقبات وسهلت كل الصعاب وأزلت كل الحواجز ورفعت كل الموانع من طريقك وليس عليك إلا أن تحضر أنت وعمومتك ستجدون كل شيء معداً حتى الجواري «الإماء» الرواقص في الفرح<sup>(٢٦)</sup>.

هذه الألباز والأحاجي سوف تحلّ ونحن نمضي في هذا الكتاب صفحة وراء صفحة فقط كل ما نرجوه من القارئ أن يطالعه بعين يقظة وبصيرة نافذة وعقل متحرر من الوهم أو الخيل الناشئ عن المقدسات الزيوف<sup>(٢٧)</sup> وبأفق وسيع لا تحده أو تحجر عليه القيود أو السدود التي تراكت عبر السنين.. وأن يبعد عنه الأفكار السوابق بحجة أنه مسور عليها بأسوار لا يجوز القفز عليها دعك من اقتحامها وألا يهاب مما يطلق عليه سدنة الإسطير وحراس التراث «المحرمات» لأنها من صنعهم فهم الذين ابتدعوها لا أبدعوها ويعضون عليها بالنواجذ لأن مصالحهم ومنافعهم ومكاسبهم تتعلق بها وتدور حولها.

وتراهم يتوعدون كل من يقترب منها مجرد اقتراب بالويل والثبور وعظائم الأمور ويهيجون عليه العامة ويثيرون عليه الطبقة الشعبية الواسعة العريضة المضمومة «طيبة القلوب» بشتى أنواع التهيج وكافة ضروب الإثارة حتى المناير. كما حدث منذ قريب ضد واحد ظلوا يعدونه منهم وفي صفهم لمجرد أنه حوّم من بعيد حول إحدى تلك التي يسمونها «محرمات» وما هي كذلك واضطر صاحبهم «ولا نقول صاحبنا كما هو الدارج» إلى تبني أحد أفكارها وهو: كل شيء قابل للنقد والتفنيد سوى «النصوص المقدسة».

### ● الطيبة الأخرى:

على إثر أن فلجت أم هند في نكاح محمد بعد أن بذلت في ذلك جهوداً مختلفة طفقت على الفور تنظر إليه وتعامله معاملة الأم الحنون لابنها الفرد الذي رزقت به بعد لأي، وتعاقد على ذلك أمران:

الأول: غريزي أو طبيعي أو عاطفي حسب النظر إليه فالبعض يرى أن رثمان الوالدة على ولدها هو غريزة والآخر يذهب إلى أنه طبيعة مركوزة في المرة «المرأة» والثالث يرجح أنه اقترب من العاطفة. ومهما كان الأمر فإن هناك شطراً منه وجد لدى الطاهرة نحو «الحبيب المصطفى» لأن فارق السن بينهما تراوح ما بين خمسة عشر عاماً وربع قرن «وقد رجحنا الأخير أ. ه».

الآخر: إن معاملة سيدة قریش لبعلمها كأم حنون وإشعاره بذلك دائماً وبالبحاح دفعه إلى الاقتناع بتلك الفكرة خاصة وأن أباه مات وهو جنين وفي رواية أنه ابن ثلاث سنوات، أما أمه فمن المتفق عليه أنها

توفيت وهو في السادسة من عمره المبارك وهي عائدة من يثرب إلى قرية القداسة بكة ودفنت في الأبوأ أي أنه حرم رعاية الأب وحنان الأم ودفء عاطفتها.  
فما إن منحته إياه خديجة حتى تلقفها تلقف الصادي للماء البارد في يوم قائف، ونذكر أنه أن ذاك قد عدى العشرين بعام واحد أي أنه تخطى الصبا منذ قليل.

وحتى إذا قلنا إنه تجاوز العشرين بخمسة أعوام فإنه أيضاً قد ترسب في نفسه شعور البنوة نحوها لأنها تكبره بربع قرن «من الزمان» أو بأقل من ذلك بعشرة أعوام.

فعلى كلا الفرضين فإن الشعور الذي ألمعنا إليه قائم ومتحقق إذ إننا بعد قليل سنجد الباحث المحدثين الذين يعنفون بالفارق الأقل يومئذ إلى أن الشعور بالبنوة لدى الأمين وعاطفة الأمومة عند الطاهرة متعنان بل متوافران فإذا تمكن هو من وجدان «سيد الخلق» غدا طلاب «بكسر الطاء» الطالب ومنية الممتني لدى خديجة لأن الابن غالباً إزاء أمه يصبح على قدر كبير من المهاددة والموادعة والملاينة والمطواعة.. بخلاف البعل فهو يقف في وجه بعلته في أكثر الأحيان وقفة المجادلة والمحاورة والمشاكسة والمعاندة والملاحاة، والصنف الأول من هذه الصفات هو المطلوب هنا بحزم وهو المرغوب دون سوم لأن الأمر جد كله لا هزل فيه والتجربة المقبلة خطيرة وصارمة تخلو من أقل ذرة من الهزر<sup>(٢٨)</sup>، وتناقض العيب وتتأى بجانبها تماماً عن اللعب كيف لا والذين مروا بها «= التجربة» هم من ذوي العزم عرفوا بالحزم وركبهم الهم وملاً نفوسهم الغم ولازمهم الحزن وصادقهم الأسى لأنهم رجال بخلاف غيرهم من الناس وعلى النقيض من أمثالهم من البشر، وبدائيات التجربة أصعب ما فيها وأقسى مراحلها وأقل درجاتها فإن لم يصر محلها أو موضوعها مطووعاً سهلاً لبنا خبتاً تعود على الموافقة وربى قبل دخوله إياها على المسألة فلا يقدر لها النجاح ولا يكتب لها الفوز.

وسيدة قريش بأسرها كما نقلت إلينا كتب السيرة المحمدية الفانحة بالمسك حازمة رجلة في عزمها وإرادتها<sup>(٢٩)</sup> قوية الشكيمة.

واشتغلت بالتجارة فنجحت فيها نجاحاً لم يحققه كثير من الرجال ذوي

اللى حتى إنها تملكت على الدوام شطر «نصف» القافلة المسافرة إلى الشام أو اليمن وباقي بطون وأفخاذ قريش الظواهر والبطاح كلها لها الشطر الآخر.

ومن ثم فإنها إذا خاضت تجربة أو أقدمت على مشروع أو هندزت بناءً فهي نعم الهندوز لا تسمح بأي خلل ولا ترضى بأي تجاوز ولا تقبل أي هفوة.

وبالتالي فإن من يشاركها التجربة لا بد بطريق الحتم واللزوم أن يصير ضرورياً لها في تلك النوعت شبيهاً لها في تلك الخصائص وهي بسعة أفقها ونفاذ بصيرتها أدركت أن المبادئ «البدايات» هي المهمة وأن الأساس هو الذي عليه المعول، ومن ثم اختارت الزوج الابن لكي تتلقى منه الحب والمطاوعة معاً فيقيض للتجربة الفوز المبين وذلك ما حدث فقد فلجت «التجربة» فلجاً لم يخطر على بال أحد من أطرافها وتركت وراءها أثراً أو أثراً لم يحلموا بها لا في منام ولا في يقظة.

وعندما اختارت خديجة الزوج الابن أو الابن الزوج لم تتخير أي «زوج ابن» أو أي «ابن زوج» فهذا من المحال في حق سيدة نسوان قريش بل اختارته بعناية دقيقة أشد الدقة وانتقته بأعمق الانتقاء إذ ظلت تلاحظه لمدة عشرين عاماً. هذا في معتقدنا أو لمدة ربع قرن كما تذهب إليه الأغلبية دون تمحيص. لقد طفقت تتلقى أخباره قبل أن ترى عيناه الكريمتان نور الدنيا فمثلاً منذ أن حاولت عرفتان أو متكهنتان أن تغويا أباه مع بذلك إغراء مالي كبير «مائة ناقة» له ليتنقل إلى إحداها نوره المبارك وفاتهما أنه من المحال أن يجيء إلى العالم الذي ظل ينتظر قدومه الميمون بطريق الحرام، واستمرت تتابع معجزاته منذ الحمل حتى رحلة الشام مع عبدها ميسرة وهنا تيقنت أنه هو وليس أتياً بعده أحد مثلما سأل المعمدان ابن مريم أنت هو أم الآتي؟

فحين إذن تحركت بكل ثقلها لكي تتكحه «تتزوج» خاصة وأن هناك أمراً قديماً قد صدر لها من مرجعية رفيعة المقام لكي تفعل وفعلت ونفذت الأمر وبدأت معه التجربة الفريدة التي تعد في نظرنا من أخطر التجارب التي شهدتها العصور الوسيطة.

## الهوامش

- (١) يعرف توماس الأكويني التبولوجيا أنها تلك التوجيهات الصادرة من الله والتي يعلمنا إياها لكي تقودنا إليه.
- (٢) سيرة ابن هشام — الجزء الأول ص ٢١١ — تحقيق د. محمد فهمي السرجاني — د. ت. ن/ المكتبة التوفيقية.
- (٣) قاموس وبستر العالم الجديد يعرف الأنتلجنتسيا: هم الناس الذين ينظر إليهم أو هم ينظرون إلى أنفسهم أنهم الطبقة أو المجموعة المثقفة.
- (٤) وهي غير المسيحية وأبسط مظاهر التفرقة بينهما أن النصرانية لا تؤمن ببولس ولا تعترف به بل تنتهمه بأنه هو الذي بدل دين المسيح ولذا نجد أن القرآن تحدث عن النصارى لا عن المسيحيين.
- (٥) الآية ٤٢ من سورة آل عمران.
- (٦) والمطهر عند النصارى هو مكان تطهر فيه النفس بعد الموت بعذاب موقوت. المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية.
- (٧) القاموس الموجز للكتاب المقدس — مادة: تطهر — الطبعة الثانية ١٩٩٢م — مكتبة كنيسة الإخوة بمصر.
- (٨) الأعراف: ١٥٨.
- (٩) آل عمران: ٢٠.
- (١٠) العنكبوت: ٤٨.
- (١١) الأعراف: ١٥٧.
- (١٢) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة ١٣٨١هـ — ١٩٦١م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- (١٣) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني — مصدر سبق ذكره.
- (١٤) في قواميس اللغة: فر — أسرع.
- (١٥) في مختار الصحاح للرازي — الأحدث بوزن الأعجوبة — ما يتحدث به ويزيد المعجم الوسيط: أنها الكلام المضحك أو الخرافة. أ. هـ، ونضيف أن العامة في مصر تقول: الحدوتة.
- (١٦) النحل: ١٠٣.
- (١٧) أسباب النزول للسيوطي — ص ص ١٠٧، ١٠٨، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م، طبعة الشعب — دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة.
- (١٨) في القاموس المحيط الآية هي الهيئة.
- (١٩) لسان العرب لابن منظور — باب ألقاب الحروف وطبائعها وخواصها — المجلد الأول ص ١٥، ١٦ — نقلاً عن كتاب «نقد العقل العربي — إشكاليات العقل العربي» لجورج طرابيشي، ص ص ١٤١، ١٤٢ — الطبعة الأولى ١٩٩٨م — دار الساقى بيروت — لبنان.
- (٢٠) البعض يرى أنه توفي في حرب الفجار أو قبلها أو في عامها أ. هـ.
- (٢١) اختلف شراح السيرة العطرة هل القيروط مساحة من الأرض كما هو عند أهل مصر أم نوع من العملة؟ أ. هـ.
- (٢٢) لمزيد من المعرفة بهذه النقطة: فضلاً ارجع إلى كتابنا «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية».
- (٢٣) نرجح أنه في الواحد والعشرين وهي في الخامسة أو السادسة والأربعين أي أن الفارق بينهما في العمر حوالي ربع قرن. أ. هـ.
- (٢٤) في القاموس المحيط للفيروزآبادي — الشهلة — المرأة النصف «بفتح النون والصاد» العاقلة. أ. هـ.
- (٢٥) اختلف كتاب السيرة المحمدية الرائعة في ترتيب زوجي سيدة قريش وهل انفصمت عرى النكاح بالموت أو الطلاق بالنسبة لكل منهما. أ. هـ.
- (٢٦) «الإمام» الرواقص في الفرح، الفرح: حفلة العرس «محدث» من المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية. أ. هـ.
- (٢٧) لا المقدمات الصحيحة التي لا يمكن لكائن مهما سما قدرة المساس بها. أ. هـ.
- (٢٨) في المعجم الوسيط: هزر الرجل هزراً أي ضحك.
- (٢٩) في الحديث كانت عائشة رضي الله عنها رجلة الرأي. أ. هـ.

[Blank Page]

## الفصل الأول

ضرورة نكاحه (هو)  
أو هذا الشاب الذي (هو) لا بد أن أباعله

[Blank Page]



استقر في بؤبؤ عين يقين خديجة أن محمداً (هو) أي القادم المنتظر الذي أظل أو أطل زمانه وتحدث عنه أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان القبائل وسدنة الأصنام والكعبات<sup>(١)</sup>، وتؤكد د. بنت الشاطبي: «أن التنبؤات بظهور نبي جديد حان مبعثه كان يتناقلها الرواة والسّمار على رهبان النصارى في الشام ونجران وأحبار اليهود في شمال الحجاز ومكة عن الخصوص والتي كانت المركز الذي تتلاقى فيه تلك الإرهاصات ثم تضيف إلى أولئك الذين يبشرون بالقادم المنتظر شعراء العرب وحكماءهم وكهانهم وأن كل هذا الإرهاصات والتنبؤات ترسبت في وعى السيدة خديجة»<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن إسحق: «وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فيما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه لما كان في عهد أنبيائهم إليهم فيه»<sup>(٣)</sup>.

وفي عجالة سريعة أن من يقرأون كتب أهل الكتاب من صفوة أهل مكة توقعوا ظهور «القادم الجديد» أو النبي المنتظر ومنهم السيدة خديجة فمنذ أن حملت به أمه أمانة فهي ما انفكت تذيع أخباراً مُعجبة عن حملها وولادته ورؤى تراها وهواتف تخاطبها إلى أن وضعته بخلاف ما لمستها بعد ذلك من أمور معجزات عند ولادته.. وابنة وهب لدة أم هند ولاهما من قريش.

وبنو زهرة وبنو أسد من البطون السامقة ولا بد أن الود بينهما موصول وأن الطاهرة هنأت أم محمد بوليدها وأن الأخيرة قصت عليها الأعاجيب التي ألمت بها في الحمل والولادة.



ربطت سيدة قريش بين ما سمعته من بنت وهب وبين ما حدث منذ

عهد قريب من فداء لزوجها عبد الله «أبي محمد» بمائة من كرائم الإبل منجاة له من الذبح وفاءً للنذر الذي صدر من والده عبد المطلب دون روية أو تدبر وهو الشيخ الوقور ذو العقل الوفير.

وتذكرت الطاهرة تعرض الكاهنتين أو المتكهنتين (وقيل ثلاثة) لعبد الله وطلبهما منه بجرأة غير معهودة لا في نسوان العرب ولا في نسوة العربان الجفاة أن يقع على أي منهما وتتفحه عدداً من الإبل مماثلاً لإبل نذر أبيه.

وكلتاها – مثلها تجيد القراءة والكتابة وتقرأ كتب اليهود والنصارى، وهما ليستا من أصحاب الريب ولم تعرف عن أي منهما عهورة حتى الخثعمة الحسينة.

وأولاهما هي بنت عمها وتسمى «قتيلة أو أم قتال» وكلتاها صرحت بأنها إنما عاينت في جبينه نور النبوة وأنه بعد أن رفضها وضاجع زوجته انتقل إليها ذلك النور فهيناً لأمنة به، وأضافت أم قتال أنها أقدمت على ذلك لأنها سمعت بقرب ظهور نبي من أخيها القس ورقة.

ومن ثم فمن الحتم اللازم أن ابنة العم «نعني خديجة» سمعته من ذات الشخص «ورقة» للصلة القوية التي تربطهما.

ولم تبلغ الطاهرة هذه «النبوة يوشك ظهور القادم المأمول» من أعلم المكين بالتوراة والإنجيل فحسب بل تعلمت على يديه الكثير والكثير مما فيها. فما دامت قتيلة بنت نوفل تقرأ وتكتب ومثل أخيها طالعت الكتب «نعني المقدسة لدى أهل الكتاب ولكن بداهة أقل منه»، فإن معرفة سيدة نساء قريش بالقراءة والكتابة تغدو أثبت وأعمق خاصة وأنها «ولو أنه حدث فيما بعد» صاحبة تجارة وسيدة تستدعى إجادة القراءة والكتابة ومن ثم يصير أمر استعادتها للصحف التي ترجمها ورقة من التوراة والإنجيل «ونحن نرجح أنه إنجيل العبرانيين» قريب الاحتمال بل إنه متشئ.

بعد هذه الاستطرادة نؤوب إلى السياق: خديجة بعد أن ترامى إلى أذنيها هذا الكم الوفير مما حدث لأم محمد من أعاجيب أثناء حملها «بسيد الخلق» وعند وضعها إياه وربطت ذلك كله بما حدث لأبيه عبد الله قالت مع القائلين وعلى رأسهم الجد عبد المطلب والأم أمنة بنت وهب إن لهذا المولود لشأناً وأي شأن.

وظلت عاماً بعد عام وسنة وراء سنة تتلقى أخبار أعاجيب محمد ومعجزاته البواهر حتى أيقنت أنه «هو» الموعود أو المنتظر أو المأمول الذي طال شوق الناس وحنينهم إليه، ولهذه الأعاجيب والمعجزات والخوارق

والمدهشات والمضادات للنواميس الطبيعية باب مستقل ندرسها فيه ببسط لا يعرف التحجير وطلوقة لا ينالها التقليد وحل «بفتح الحاء» لا يقربه الإسار وفتح لا يجوز عليه المغلاق.

### لماذا؟

لأن تلك الأمور المعجزات التي تتابعت وتوالت مع أطوار محمد منذ الولادة حتى الشباب حازت قصب السبق وكبشت<sup>(٤)</sup> نصيب الأسد من انتباه الطاهرة إلى محمد وأنه فاذ لا مثيل له وفريد لا ضروب له ووحيد لا شبيه له وأنه دون غيره هو القادم والمنتظر والمأمول الذي بشرت به الكتب التي ترجمها ورقة إلى العربية وقرأتها عنده.

وإضافة إلى أمور أخرى منها:

أ — إنه جاء في «الكتب» أنه قرب ظهوره وأظل زمانه ودنا إيانه وحن وقته وظهرت بشائره وتفتحت أكمامه ومن المستحيل ألا يتحقق فالعهد بهذه الكتب صدق نبوءاتها.

ب — خصائص محمد الرائعة ونعوته السامية وصفاته المدهشة وأخلاقه الحميدة وشمائله الكاملة.. لأن الآتي أو القادم المنتظر يتعين وبطريق الحتم واللزوم أن يغدو على هذه الشاكلة وأن يجيء على هذه الأيأة وأن يصبح على هذه الصورة.

فكل الذين سبقوه هم كذلك، إذ من المحال أن يتصف «المنتظر» بأنه مهتلس العقل «مسلوبه» أو هززع «جبان» أو ذو زعارة «شراسة» أو أفكاك أو أثيم أو كذوب أو خائن أو سيء الخلق... الخ.



ولذا نلاحظ أن سيدة نساء قريش ركزت على هذا الجانب من «البشير النذير» فمثلاً عندما تقدمت إليه لتخطبه لنفسها ثم لتتكحه «تتزوج به» قالت له لقد رغبت فيك لأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ولما... الخ، ولما مر بحادث الغار المدهش الذي ذكر في قصته وهو الصادق أنه التقى بملاك الرب جبريل أول مرة أسرع إلى بيته وتلقفته بين ذراعيها وأسلمته حضنها الدفئ وقال مذعوراً لقد خشيت على نفسي فكان ردها حاسماً: والله لن يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتعين الكل... الخ.

هذه هي صفات جميع «الأتين» قبله كما قرأتها في الصحائف أو الإصحاحات التي نقلها القس ورقة من اللسان العبراني ودرسها لها وعلمها إياها فاستوعبتها وخرزنتها في ذاكرتها. إنما الذي يلفت البصر

والبصيرة معا أن سيدة نساء قريش وصلت صفات «حامل لواء الحمد» الممتازة بأحقيته كما يتحول إلى «المنتظر» الذي طال شوق الناس إليه خاصة أولئك الذين نسميهم المتقفين «الأنتلجنسيا».

كذا وضعت خصائصه العلية والعالية في بؤرة شعورها بحسبان أنها المقياس الذي لا يخيب والميزان الذي لا يختل.

ج — إن مرجعية دينية ذات مقام محمود ورتبة عالية ودرجة رفيعة لدى خديجة أشارت عليها بأن هذا الفتى هو «المأمول» وأنه حتم لازم أن يتاعله لكي تبدأ معه تجربة التأهيل والإعداد والتصنيع والتحصير والصلق والتهيئة الضرورية كما ينتقل من فتى قرشي هاشمي إلى القادم المنتظر «قالت خديجة لمحمد قد أخبرني به ناصح غلامي وبحيري الراهب أن أتزوج منذ أكثر من عشرون عاماً»<sup>(٥)</sup>.

بعد أن تكاملت كل الخيوط في يد أم هند رفعت شعار «هذا الشاب الذي هو لا بد أن أباعله» ومن ألزم اللازم أن أنكحه بل وأسارع حتى لا تنتشه مني<sup>(٦)</sup> إحدى عذراوات أو أيامي قريش وعلى رأسهن بنت عمه أبي طالب أو غير قريش من القبائل مثل تقيف التي موطنها الطائف والقريبة من مكة أو جارية «فتاة غضة» من بني النجار أخواله في يثرب.

إن هاجس قيام شابة بكر أو ثيب «مثلها» في بكة أو ما حولها بنشل الحبيب المصطفى<sup>(٧)</sup> ونكاحه أرق خديجة وطير النوم من عينيها الاثننتين ودفعها إلى ملاحقته بهيئة تشي بالإلحاح وتقطع بالإلحاف وتؤكد الإصرار وتدل على المثابرة. إن موسوعات السيرة المحمدية المعطار أجمعت على أن الطاهرة سيدة كاملة وفيرة العقل عميقة الحجا، رزان فطنة، لبيبة حكيمة لا تسيرها العاطفة.. الخ.

ورغم ذلك فإن العجب يملوك والدهش يستولي عليك والحيرة تأخذ أقطار نفسك وأنت تطالع أخبار المحاولات الدؤوب والعروض المتلاحقة كما يوافق «الأمين» على المباعلة ويرضى بالنكاح ويسلم بالزواج منها.



في موضع آخر فندنا الرأي الفطير الذي ألمح إليه في جبن وخساسة ودهاء بعض كتبة السيرة المحدثين من أن سر اختيار خديجة لـ «الصادق المصدوق» هو إعجابها بشبابه وقسامته ووسامته وقوة عضلاته وفحالتة وفتوته وهي الصفات التي تأخذ بلب الكهلات والشهلات مثلها<sup>(٨)</sup>، ونضيف إلى توهين هذا الرأي وتهزيله وإضعافه دليلاً آخر بخلاف ما سبق لنا أن طرحناه وهو: أن قريش الظواهر والأباطح عجت أن ذلك بالشباب الذين

يتملكون تلك الصفات ويتمتعون بذات الخصائص ومنهم من انتمى إلى بطون الذروة مثل: بني عبد الدار وبني مخزون وبني أسد «رهطها» وبني أمية وبني زهرة ومن هؤلاء من لا يقل عن بني هاشم مكانة في ذيك الزمان لأن هؤلاء لم يتسنموا القمة إلا بعد ظهور أمر محمد وصيرورته «سيد ولد آدم» فلماذا لم تختار من أولئك واحداً إذا كان القصد هو التمتع بالفحولة والفتوة وقوة العضلات وطلاقة المحيا مع الوضع في الحسبان أن من بين هؤلاء من هو أغنى من «الأمين المأمون» «راعي الغنم – الفقير – اليتيم». إننا نصكم بهذه الحجة ونصدمهم بهذا البرهان ونفاجئهم بهذه القرينة فلا يملكون إجابة ويسقط في أيديهم.

إذن انتقاء السيدة الطاهرة لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب لم يتم بدافع جسدي أو عاطفي بل نتيجة تمحيص وتدقيق وفحص ثم اقتناع بأنه الآتي الذي فاض كيل الصبر في انتظاره والتشوف إليه.

وبعد قراءة مستأنية في أمهات مؤلفات السيرة المحمدية الذكية الريح مثل الند تبين لنا أن سيدة قريش جفّ ريقها وحفيت قدماها وداخت السبع دوخات كما يقول التعبير الدارج حتى وافق «إمام الأولين والآخرين» على خطبتها فنكاحها. لقد ساقنا إليه العديد من الأشخاص فيهم ذكور وإناث أحرار وعُبدان وموالي وأقارب وأبعاد ومنهم من كلمه وألح عليه مرات عديدة مثل نفيسة بنت منية صاحبة ابرز الأسماء في المراسيل «جميع مراسل» الذين بعثتهم إليه.

ولما أوشكت حبال صبرها أن تنقطع لم تجد مناصاً من توجيه مندوبة تمنهن عمالة «بضم العين» دينية لها في قريش مكانة مرموقة وهي المستنشئة<sup>(٩)</sup>. ولا يقال دفعاً لذلك إن أم هند كما ذكرنا حازت ثقافة دينية كتابية وعلى تماس بمن لديهم علم من الكتاب كالفلس وعَداس وبحيرا «سوف يأتي ذلك تفصيلاً في موضعه» وقرأت الصحف التي عربها ابن عمها ورقة بعد أن نسخها من التوراة والإنجيل وقام هو بتعليمها إياها.

فكيف إذن يصح في العقول أن تستعين بمستنشئة أي كاهنة «قريش»؟

والجواب على ذلك:

إن الشخص عندما يقع في ورطة أو يتعرض لأزمة أو يجد نفسه في زناق<sup>(١٠)</sup> أو يمسي في مخنقة يعجز عن العثور على فكاك لها يؤم من يتوهم – ولو مجرد توهم – أنهم يساعدونه على الحل ونحن الآن في أوائل القرن الحادي والعشرين نرى أعداداً جمة غفيرة ممن يحملون شهادات عليا عندما يبتابهم قلق أو يلم بهم غم أو تدهمهم أزمة يفزعون إلى

أضرحة أولياء الله الصالحين عليهم يجدون عندها الدواء الناجع مع أنهم يسمعون من أهل السنة والجماعة أنه نوع من الشرك الخفي. هذه واحدة.

• • •

أما الأخرى فهي أنه في العادة أن من يمارسون الكهانة والعرافة والعيافة لديهم من اللباقة واللسن والفصاحة.. ما ليس لغيرهم ومن ثم فهم أصحاب قدرة على التفهيم والإقناع والتبصير وبالتالي فإن الكاهنة أو المستنشئة التي زقتها<sup>(١١)</sup> خديجة على محمد — في نظرها أقدّر من غيرها على استخلاص موافقته على المبالغة.

أما الثالثة والأخيرة فهي أنه:

كما أن الكاهنة أو المستنشئة تتمتع في قبيلتها بقدر من المكانة الاجتماعية وتحظى بتجلة واحترام، ولقد قرأنا في السيرة المحمدية التي هي كالورد المتفتح الذي ينثر شذاه في كل اتجاه أن جده عبد المطلب رأى رؤيا أفزعته فذهب إلى كاهنة «مستنشئة» قريش ولم يقبل يدها — كما يفعل سائرهم — ثم قص عليها الرؤيا فأولتها بظهور حفيد له يملك العرب والعجم والشرق والغرب.

والذي يهمننا أن تقبيل يد الكاهنة أو المستنشئة فرض واجب على القبيل «أفراد القبيلة» ومعنى ذلك أنها تتمتع بمكانة اجتماعية مرتفعة<sup>(١٢)</sup>. وبالتالي فإنها أي الكاهنة «المستنشئة» إذا قصدت أحدهم في طلب فإنه من باب الحياء «ليس ضرورياً من باب الاعتقاد فيها أ. هـ» يجيبها إليه ويوافقها عليه. إذن طلب أم هند المعونة من مستنشئة قريش لإقناع «المعصوم» بنكاحها إياه لا مساس له بعقيدها وليس شرطاً أنها غدت من شيعتها.

وأخيراً فإن هذا التحرك من جانب سيدة قريش — التي لا ترد لها الكاهنة المستنشئة رغبة ولا تخيب لها رجاء — يدل وحده على أن خديجة أعيثها الحيل، وضربتها الحيرة وعمتها اللخمة<sup>(١٣)</sup>. وشملها التردد والعجز وأسقط في يدها فلم تجد مناصاً من أن تؤم الكاهنة لتحصل منها بما تتمتع به من موقع متميز في القبيلة على فرج لهذه المعضلة التي نغصت عليها عيشتها وأوقعتها في ربك شديد وليس من الضروري أنها آمنت بالأساطير التي تمنهها تلك الكاهنة أو المستنشئة كل هذا من جانب.

• • •

أما من الجانب الآخر:

فإن الأخبار التي حملتها مؤلفات سيرة محمد ذات الرائحة التي ترد

الروح كما تقول العامة تقطع بأن أم هند في وقت من الأوقات دارت أو لفت حول نفسها وبلغت ذرى اليأس، إذ قرأنا أن المراسيل الذين خاطبوا «سيد الأولين والآخرين» في هذا الشأن لم يتركوا نوعاً من أنواع الإغراء إلا أوصلوه إلى سمعه الشريف فأفهموه أنها سيدة حازمة شريفة جميلة نبيلة من أعظم قريش حسباً ونسباً وأكثرهم مالاً وتقدم لزواجها كثير من الأغنياء فرفضت أن تتزوج أحداً منهم.

وقالوا له بلسان واحد: يا محمد لقد دعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة وكفيت «أي لا مؤنة عليك بأي نوع» رداً على جوابه كيما يبرر رفضه إياها «ليس بيدي ما أتزوج به» فبتعهد له المرسل «أو الرسول» أنه سوف يذلل له من كل العقبات ويسهل جميع الصعوبات ويرفع من طريقه كافة الموانع ويحل سائر المشكلات، فما إن يهز رأسه الكريمة بالموافقة حتى يجد كل شيء معداً وكل شأن جاهزاً وكل أمر حاضراً من وليمة العرس حتى الجواري «الإماء» الرواقص اللاتي يحيين الفرح وهو إغراء عريض وإغواء شديد وترغيب عميق لشباب مثل «أبي القاسم» في تلك الأيام مليط من المال عري من النشب خالي الوفاض.

إن هذا الحشد القوي والتجبيش المضاعف والتعبئة المخططة من قبل سيدة النساء إزاء «البشير النذير» وهذا الحصار المحكم له حتى رفع الراية البيضاء وسلم لها بطلبها ورضى أخيراً نكاحها إياه رغم الاعتراضات التي انتصبت في نفسه وشخصت في وجدانه والتي لها في هذا الكتاب محل رحب سيغدو مصلياً ويجيء تالياً نقول إن لذلك كله علة مفردة لا تؤم لها وهي أنه «القادم» الذي طال انتظاره و«المأمول» الذي مر حين من الدهر من التشوق إليه و«الغائب» الذي تقطعت الرقاب لإيابه وال «هو» الذي بشرت به التوراة والإنجيل.



وعسى أنه قد حان الأوان لإلقاء نظرة عجل على الوسائل التي استعملتها «سيدة قريش» والطرق التي سلكتها والفجاج التي اقتحمتها لإصابة هدفها والوصول إلى بغيتها وتحقيق طلبتها:

رغم مكانتها السامقة وحسبها الشريف ونسبها الرفيع وغناها الواسع وثروتها الممدودة وكهولتها وحزمها ورجاحة عقلها فقد ضربت بتقاليد القبيلة وكافة القبائل عرض الحائط، تلك التقاليد الرواسخ كالجبال وتقدمت إلى «سيد أهل الله» بنفسها تقول له «إنني رغبت فيك» ولم تعبأ

بفارق السن الذي يقارب أو يجاوز الربع قرن وعرضت نفسها عليه ولم يحدث أن سيدة قبلها جرّوت على ذلك.



إن الكتاب المحدثين للسيرة المحمدية التي هي أذ من عسل الموصل سطوروا في كتبهم المعجبة أن أول اتصال بين «أم هند» و«خيرة قرابين الله» تم في سفرته إلى الشام مع عبدها المخلص ميسرة والتي حقق لها فيها ربهاً وفيراً في متاجرته بمالها وما حكاها ذلك العبد عن خصاله المدهشة وأموره المحيرة مثل إضلال الملكين له وما قاله الرهبان عنه.

وهذا غير صحيح ونحن نتحرى الدقة المطلوبة في كل بحث موضوعي علمي فنقول: إن هذا بعض الحقيقة وليس كلها — لقد بدأ التماسّ بينهما قبلها:

«عن ابن شهاب الزهري وقد قال ذلك غيره من أهل البلد: إن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله ﷺ ورجلاً من قريش إلى سوق حباشة بتهامة»<sup>(١٤)</sup>. ولقد ورد هذا الخبر في (الروض الأنف) برواية الزهري أيضاً:

«روي أن رسول الله ﷺ قال شريكه الذي كان يتجر في مال خديجة معه: هلم فلنتحدث عند خديجة وكانت تكرمهما وتتخفهما»<sup>(١٥)</sup>.

وقد جاء به أن الزهري أورده في سيرته التي هي أول سيرة ألفت في الإسلام — ومما يؤسف له أنها مفقودة.

ويضع المقرئ تحت باصرتنا تفصيلات لم ترد لدى غيره من المؤرخين القدامى ممن أتيح لنا الاطلاع على مؤلفاتهم فيقول: «وكان حكيم بن حزام = ابن أخي خديجة» قد رأى رسول الله ﷺ بسوق حباشة واشترى منه بزاً من بز تهامة، فذلك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ تدعوه أن يخرج في تجارتها إلى حباشة»<sup>(١٦)</sup>. وهذا الخبر ينفحنا بمعلومة مهمة وهي أن أم هند هي التي أرسلت إلى «سيد ولد عدنان كيما يخرج في تجارتها إلى حباشة وهو سوق من أسواق العرب — قبل الإسلام — في تهامة — ثم يضيف المقرئ: «ثم أجر نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين» — أي سفر محمد لحساب سيدة النساء قد تكرر مرتين أو ثلاثاً لسوق حباشة ويمضى المقرئ قائلاً: «وخرج ثانياً إلى الشام في تجارة ومعه غلامها ميسرة»<sup>(١٧)</sup>.

وهذا يؤكد ما نقول به إن اتصال سيدة قريش بـ «البشير النذير» لم يبدأ بمرحلة الشام بل قبل ذلك في سفره الذي تكرر إلى سوق حباشة.



ومن أميز كتب الأحاديث «المستدرك» قد حمل لنا هذا الحديث أو الخبر: «عن جابر بن عبد الله قال: استأجرت خديجة رسول الله سفرتين كل سفرة بقلوص»<sup>(١٨)</sup>.

ومن الوهم أن ينصرف هذا الحديث إلى سفرة «المنصور بالرعب قرابة شهر» مع ميسرة إلى الشام والتي سوف يأتي الحديث عنها فإنها كانت سفرة واحدة كما أن الأجر أو الجعل الذي اتفقت بشأنه مع «المعصوم» أو مع عمه أبي طالب ضعف هذا الأجر ثم ضاعفت ما سمته له.

والزهري الذي عن طريقه روى الحديثان ليس مجرد تابعي بل هو من كبار التابعين وسادتهم ومن أوثقهم وأعرقهم في الرواية وله مقام محمود في مجال السنة أو الأحاديث، فعندما يروي لنا أن أم هند استأجرت «الأمين» مرتين إلى سوق حباشة «وكان ذلك قبل سفره في تجارتها إلى الشام» فإن هذا الخبر يصير صحيحاً لا مطعن عليه «وهو أن الزهري قرشي من تابعي المدينة رأى عشرة من أصحاب النبي ﷺ وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار وكان فقيهاً فاضلاً روى عنه الناس»<sup>(١٩)</sup>، ونخلص عن ذلك إلى أن سفر «خيار بني عبد مناف» إلى حباشة في تجارة لخديجة خبر أكيد وبالتالي فإن اتصالهما لم يبدأ بسفرة أو رحلة الشام مع العبد ميسرة.



بيد أن «سيدة النساء» لم تضع وقتاً، إذ بعد عودته من الشام بشهرين وعشرين يوماً وقيل بعد شهر وعشرين يوماً ظفرت به بعلاً بعد أن أمطرته بوابل من المراسيل والمبعوثين والمندوبين من كافة الأشكال والأصناف حتى سلم لها فنكحته.

وهناك خبر آخر يمدح فيه «أبو القاسم» السيدة خديجة ويصفها بأنها أخير أو أحسن «صاحبة عمل» إذ كل ما يعود هو وصاحبه من سوق حباشة يجدها قد خبأت لهما «تحفة من طعام» وتجلس تتحدث معهما:

«فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها والله ما إن رأيت صاحبة لأخير من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من الطعام تخبئه لنا»<sup>(٢٠)</sup>. وقبل أن نغادر هذه النقطة يجمل بنا أن نذكر أن الزهري قال: «كانت سن رسول الله ﷺ يوم تزوج خديجة إحدى وعشرين سنة»<sup>(٢١)</sup>.

وقد سبق أن أثبتنا أن المحب الطبري في «السمط الثمين» ذكره، أيضاً أورد أصلان عبد السلام ما يؤيده «وقبل الواحد والعشرين أو نحو ذلك أي في شرخ الصبا»<sup>(٢٢)</sup>.

وقال الصالحي في سيرته «وقيل إحدى وعشرون سنة وقدمه في الإشارة»<sup>(٢٣)</sup>. كما أورد ابن الأثير الجزري: «أن هناك من يقول إن خديجة عندما نكحت «الصادق المصدوق» كان عمره إحدى وعشرين سنة»<sup>(٢٤)</sup>. ومعنى ذلك أن اتصال «سيد الناس وديان العرب» بسيدة النساء تم والأول في الثامنة عشرة من عمره المبارك أي أنه تجاوز الصبا بقليل وأن عملية تشكيله وتطويعه لدخول التجربة بدأت مبكراً.

والسفر إلى سوق حباشة بعكس السفر إلى الشام ففضلاً عن المفاوز التي يتعين قطعها فإنها «= حباشة» تقع كما سلف في تهامة المشهورة بشدة صواعقها حتى قيل «لا صواعق كصواعق تهامة»<sup>(٢٥)</sup>. وترتيباً على ذلك فلا يقدم على المخاطرة بالقيام بها إلا العمال التجاريون ذوو العوز والحوحاء واختلال الحال.

إذن القصد الذي تغيته الطاهرة من وراء تكليف «المصطفى» بإنجاز هذه السفرات الخطرة الشاقة يتمثل في أمرين:

أ — اختبار معدنه وهل هو ناهض العزيمة قوي الشكيمة يتمتع بروح معنوية مرتفعة وإرادة ماضية ومن ثم يعتبر أهلاً لكي يغدو موضوعاً للتجربة على الوجه الأكمل.

ب — التعرف على قرب قريب على مدى مطاوعته وملاينته ومسالمة وهل لديه ولو ذرة واحدة من المعارضة والمناوأة والمشاكسة.. الخ.

وما يهمننا في هذه الأخبار هو أن سيدة نساء قريش طفقت بعدها تعامل «البشير النذير» معاملة فيها احتفاء مقرون بالحنية والتقرب لكي تزداد تفرساً فيه وتحديقاً في أحواله وتبصراً بشئونه فمن ناحية للتأكد أنه موضوع التجربة الخطيرة المقدمة عليها وأيضاً لاختبار صلاحيته للنكاح والمباعدة لأن الأمرين مقترنان متشابكان.

أما رحلة الشام التي تحتل حيزاً في فصل «المعجزات» ولها نصيب وافر في إثبات أن «الأمين» هو «القادم المنتظر» من وجهة نظر سيدة قريش.

فما إن وصلت القافلة إلى مكة وحاسبت محمداً على ما حققه من ربح جزيل وضاعفت له الجُعل الذي سمته له أي حددته له وهو في الأصل ضعف أجر العامل العادي أي أنها نفحت «سيد ولد آدم» أربعة أضعاف ما درجت على إعطائه لأي أجير نقول إنها ما إن أنجزت ذلك.. حتى طفقت تصوب لأبي القاسم السهم تلو السهم وما إن يطيش أحدها حتى تبادر إلى توجيهه آخر بعزم لا يني عن إصابة الهدف حتى تم لها ما أرادت.

• • •

نحن نبدأ هنا بالمحاولات التي شرعت فيها بنفسها لا لأنها الأولى والسابقة لكن لأنها الأهم وذات الوزن الثقيل والمغزى العميق والدلالة الصريحة والمفهوم الواضح. إنما قبل طرح هذه المبادآت نخرج على الأفعال التي حايتها أو حدثت قبلها والتي في نظرنا لا تتفصل عنها وتشكل معها كلا لا يتجزأ ومجموعاً لا ينفصم.

بدأت قافلة قريش تتجهز لرحلة الصيف أي لرحلة الشام «وكان لخديجة مال كثير حتى إن غيرها الذي يحمل بضائعها كان يعادل غير قريش كلها في حجمه ونفاسته ما اجتمع عليه من بضائع التجار»<sup>(٢٦)</sup> ومن كتب التراث التي تؤكد أن حصة خديجة في قافلة قريش توازي أو تجاوز النصف: كتاب «عيون الأثر» لابن سيد الناس.

«وكانت خديجة امرأة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتكون غيرها كعامة غير قريش»<sup>(٢٧)</sup>.

### وكذلك السيرة الشامية:

«وكانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فيكون غيرها كعامة غير قريش»<sup>(٢٨)</sup>.

ووصل على علم أبي طالب عم «الحبيب المصطفى» خبر القافلة المسافرة إلى الشام وأن شطرها بالتمام والكمال تملكه سيدة قريش التي تستأجر رجالاً «عمالاً تجاريين» يتجرون في مالها ولهم جعل معلوم فخاطب العم ابن أخيه قائلاً إنه أملط<sup>(٢٩)</sup> من المال وقد أضرت بهم السنون العجاف واقترح عليه أن يذهب إلى الطاهرة يعرض عليها أن تستخدمه كسائر العمال بيد أن «الصادق المصدوق» معتر بكرامته يشعر بأنه ليس كالأخرين وأن أنفته تأبى عليه ذلك وعزة نفسه ترفضه وحميته تنفر منه فلم يجد العم البائس الفقير بدأ من أن يمشى بنفسه إلى أم هند «أبو طالب كلم خديجة حتى وكلت إلى رسول الله ﷺ بتجارتها»<sup>(٣٠)</sup>.

ونذكر هنا أن أبا طالب رغم حوجته فهو سيد قريش بعد أبيه عبد المطلب وقيل إنه من القلة القليلة أو النادرة التي تسيدت على قبيلتها رغم عوزها وفاقتها.

• • •

استقبلته خديجة بترحاب يليق بمكانته ولأنه عم «القادم المنتظر» ولم يضع وقتاً ودخل في الموضوع مباشرة فقال لها: «هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا بكريين ولسنا نرضى

لمحمد دون أربعة أبكار، وكان رد خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا فكيف وقد سألته لحبيب قريب»<sup>(٣١)</sup>.

إن من العبط<sup>(٣٢)</sup> والبله والغفلة أن نظن أن جواب سيدة النساء على أبي طالب عفو الخاطر أو زلة لسان أو رمية من غير رام. إن هذه العبارة كشفت عن مكنون شعورها وخبيئ إحساسها ودفين وجدانها نحو الفتى المأمول والقادم والمنتظر إذ إنها وصفته بالحبيب – القريب.

الوصف الأول ينصرف إليه كبعل المستقبل الذي عقدت العزم على نكاحه أما النعت الأخير فهو توصيف لموضوع التجربة فهي في قرارة نفسها عزمت ألا تلتفى منه سوى المقاربة والألفة والمطواعة.

وقد استجابت لما طلبه العم الشيخ بأن تنفخ «الأمين» ضعف ما تعطى لغيره من الوكلاء أو العمال التجاريين أو المضاربيين وقد وقت بما وعدت، بل إن سيرة محمد التي فحاويها طيب وعنبر تخبرنا دواوينها أنها «الطاهرة» منحتة ضعف ما سمته له أي أنها أعطته أربعة أضعاف ما تعودت على إعطائه لغيره أي أنها إذا درجت على تسليم الأجير العادي بكرة أو قلوفاً فإنها نفحت «سيد الناس» أربعة ولم يتهياً له ذلك لأنه حقق لها ربهاً وفيراً فحسب كما ذهب إليه كتاب السيرة الشريفة القدماء ثم تابعهم عليه المحدثون بل إنها أقدمت على مضاعفة الأجر إلى أربعة أمثال كنوع من التحية أو الترغيب أو المراضاة ليقابلها «= المضاعفة» بالتوافق مع ما رسمته وطفقت تلح عليه حتى حققته بعد أقل من ثلاثة أشهر وهو نكاحها إياه الذي هو بدوره فرشة للتجربة الكبرى التي صممت على إنفاذها.



وهناك ملحظ فائق الأهمية شديد الدقة بالغ المدى من الحساسية غاب عن الجميع وبهذه المناسبة فإن هذا الكتاب من أهم أغراضه الكشف عما فات القدامى والمحدثين في السيرة المعطار خاصة في علاقة سيدة قريش بـ «المصطفى» وفي مقدمها ذاك الذي حير الجميع فك طلاسمه وحل رموزه وتوضيح شفرته.

#### ثم نعود إلى السياق:

ذلك الملحظ هو أم مبالغة الطاهرة في الترحيب بشيخ قريش والموافقة الفورية على شرطه مع أنها «خديجة» تاجرة ماهرة تحسب لكل شيء حسابه من أهم دواعيه وأبرز علله وأوضح دوافعه: أن أبا طالب هو أبو أم هانئ التي شكلت في ذياك الإبان منافساً خطيراً لسيدة قريش لأن

محمداً كان يأمل في زواجها إذ إنهما تربيما في بيت واحد ولا بد أن نشأت بينهما عاطفة طاهرة شريفة مصيرها المباعلة، إذ إن العرف استقر آنذاك وما زال حتى الآن في شبه الجزيرة العربية المباركة بل في صعيد مصر الذي دهست أراضيها قبائل كثيرة مع الغزو العربي الاستيطاني بقيادة عمرو بن العاص ذلك الذي فعل الأفاعيل هو وجنوده في مصر المحروسة عكس ما يزعمه حملة المباخر من المؤرخين المحدثين، جرى العرف على زواج ابن العم بابنة عمه فعلى سبيل المثال السريع: العدوي عمر بن الخطاب مع ابنة عمه زيد بن عمرو بن نفيل، وأوشك أن «يعملها» ورقة بن نوفل مع ابنة عمه خديجة بنت أسد. إن ترحيب الطاهرة بالعم ونزولها على شرطه بلا شك أنه يسئل سخيمته عندما تستلب «الأمين» من كريمته ذلك الذي طالما سمع من أبيه عبد المطلب أن مستقبلاً باهراً في انتظاره لا يحلم به أي عربي. هذا من ناحية.

ومن الجانب الموازي فإن سيدة نساء قريش حينما تضاعف الجعل أربعة أضعاف لمحمد فإنها بذلك تبلسم<sup>(٣٣)</sup> ما قد يعتور قلب محمد من ندوب وما قد يصيب شغاف فؤاده من جراحات عندما تطير منه أم هانئ لما تفلح سيدة قريش في نكاحه، وسوف نرى ونحن نهول في صفحات هذا الكتاب أن عملية المداولة أو البلسمة هذه استمرت وتواصلت وكلفت خديجة ما لا يعمله إلا الله وحده من الثمن الجزيل والمال الوفير والتقدمات النفيسة.

إنما كيف فعلت ذلك وهي التاجرة الناجحة والتاجر الموفق لا يصنع ذلك بل إنه كما يقول التعبير الشائع «يحسب الهواء الطائر»؟ إن العثور على الجواب السديد لا تعوزه الفطنة ولا يحتاج إلى الذكاء ولا يفنقر إلى الألمعية.

إن الطاهرة لم تقدم عليه من موقع التاجرة الشاطرة «كلمة فصيحة» بل من موقف «منفذة» تجربة فائقة الخطورة ومن ثم فهي لا تلتفت إلى حساب المكسب والخسران.



إنها بما تتمتع به من أفق رحيب ونظر بعيد وبصيرة نفاذة تعلم أن «موضوع التجربة» ينبغي عليه أن يولى ظهره للماضي وينسأه بالكلية حتى يتفرغ تماماً للتجربة التي يعاينها ويكابدها كيما يقيض لها الفوز، ومن أهم ما يعاضد على التفرغ هو الإغراق في البلهنية والإغداق بلا حساب والغمر في النعيم وهذا ما صورته «الصادق المصدوق» الذي لا ينطق عن

الهُوى حينما قال: «الحمد لله الذي أطعمني الخمير وألبسني الحرير وزوجني خديجة وكنت لها عاشقاً»<sup>(٣٤)</sup>. فهنا نجد قرن بين لبس الحرير وأكل الخمير وعشق خديجة، وفي المنطقي بل البديهي أن هذا العشق — عشقه لخديجة — قد جبّ ما قبله ومحا سابقه وأزال ما تقدمه وأزاح سلفه.

### ولكن من هي أم هانئ تلك التي خايلت الطاهرة منذ قليل؟

«اختلف في اسمها قيل هند وقيل فاطمة وقيل فاخنة وهي أخت عليّ وأمها فاطمة بنت أسد التي أولاها محمد معزة فائقة واعتبرها بمثابة أمه، أسلمت أم هانئ يوم فتح مكة وهرب زوجها هبيرة وهي التي نقلت عن محمد صلاة الضحى»<sup>(٣٥)</sup>.

وقد تكررت محاولات «المعصوم» للزواج من فاخنة أو أم هانئ: وكان النبي ﷺ قد خطبها إلى أبيها أبي طالب في الجاهلية ولكن أبا طالب كان قد وافق على خطبتها إلى هبيرة فقال لابن أخيه: يا ابن أخي إنا قد صاهرنا إليهم والكريم يكافئ الكريم.

وحين انفصمت علاقتها بزوجها «بعد أن هرب ومات كافراً أ. ه.» بعد إسلامها خطبها النبي ﷺ إلى نفسها «بداهة حدث ذلك بعد وفاة خديجة أ. ه.» فقالت: والله ما كنت لأرفض طلباً لرسول الله ولكنني امرأة كثيرة الأولاد — وقيل إنها قالت: يا رسول الله — لأنت إليّ من سمعي وبصري وحق الزوج عظيم فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأنِي وولدي وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق الزوج»<sup>(٣٦)</sup>.

وعبارة أم هانئ التي وجهتها لـ «ديان العرب» لأنت أحب إليّ من سمعي وبصري، شديدة الوضوح حتى إنها غنية عن التعليق.

ولم تتوقف محاولات محمد نكاحها إذ بعد أن كبر أولادها وسقط عذرها ولم يعد لديها ما تحتج به تلا على تبعه الآية الخمسين من (سورة الأحزاب) التي قصرت زواج «الحبيب المصطفى» على بنات عمه اللاتي هاجرن معه وهي لم تفعل فأصبحت لا تجوز له<sup>(٣٧)</sup>.

وهنا كف محمد عن طلبها لأنها غدت محرمة عليه بنص القرآن العظيم.

ويبدو أن أم هانئ تمتعت بقدر وفير من الملاحة والحسن ونظراً لحدائثها عهدتها بالإسلام فلم تر بأساً من إظهار جمالها ووسامتها وفي ذات مرة أبصرها عمر بن الخطاب على هيئة اعتقد ساعته أن فيها مخالفة فلفت نظرها وأفهمها أن شفاعته محمد لن تتجيبها من المساءلة

فشكت العدوي إليه فغضب «المصطفى» وصعد المنبر وقال في خطبته: إن شفاعته سوف تنال «حا وحكم» فكيف لا تنال رهطه الأذنين أي بني هاشم. و «حا وحكم» قبيلتان من القبائل السك<sup>(٣٨)</sup>.

### ثم نعود إلى السياق:

إن الروايات التي قصّت علينا ذهاب العم أبي طالب إلى سيدة قريش قليلة إنما غالبية مؤلفات السيرة المحمدية الطيبة سواء التراثية أو المحدثّة نصت على أنها «خديجة» هي التي أرسلت إلى «الصادق الأمين» ورجته أن يخرج بمالها «تجارته» إلى الشام ووعدته بأن تعطيه أكثر مما تعطى غيره:

«فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يتجر لها في مالها ويخرج إلى الشام وتعطيه أفضل من غيره من التجار ثم أضعفت له ما سمت»<sup>(٣٩)</sup>.

إن هذا العدد الوافر من المصادر الذي ضم الذرا الشوامخ والقمم العوالي من دواوين السيرة المحمدية العظيمة مثل سيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام والسيرة الشامية وتاريخ الطبري وإمتاع الأسماع وأنساب الأشراف... الخ.

ومن المراجع التي صنفتها أصحاب أسماء لوامع مثل: طه حسين والخضري وبنيت الشاطي وعبد الوهاب حمودة «وترجم أحدها الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر».. الخ، جميعها أطبقت على أن الطاهرة سعت إلى «الأمين» وتوسلت إليه لكي يتولى أمر تجارتها — ضمن قافلة قريش المتوجهة إلى الشام وتعطيه أفضل من غيره، وفي رواية ضعف ما تمنح غيره وإثر عودته سالمًا رابحاً أضعفت ما وعدته.

وما قلناه عن علة تلك المبادرات من قبل أم هند في الفقرة الخاصة بسفارة العم أبي طالب إليها ينطبق هنا وربما أكثر لأنها هي بنفسها التي يممت شطر «سيد الناس» ورجته في إلحاف أو ألحفت في رجاء لكي يقبل أن يرحل بعيرها في القافلة إلى الشام متجرراً في مالها وأغرته بمضاعفة الجعل، وحين أوبته وقد سلم وغنم أعطته ضعف الضعف أي أربعة أمثال الأجر المتعارف عليه في سوق العمالة التجارية.

ولعله من النوافل أن نسطر أن هذا كله تمهيد لإتمام عقد النكاح بينها وبين «الأمين» الذي هو بدوره المدخل لغمسه في «التجربة الكبرى».

بيد أنه لماذا هو على وجه التعيين والتحديد فمكة تطفح بالعمال

التجاريين الذين يرضون شاكرين ممتنين بالأجر أو الجعل العادي ولا شك أن فيهم أمانة خاصة وأن أم هند كانت تشترط أن يسافر معهم عبداً الأمين ميسرة بمثابة عين لها وحتى يغدو الأجير منهم تحت الرقابة الصارمة. نسطر هذا رداً على من يقول إن دافعها لاستئجار «سيد ولد آدم» هو أمانته — هذا من جانب.

ومن جانب آخر هناك فتية وشبان قريشيون لا يأنفون من وكالة خديجة لهم لأن فروع أو بطون قريش ليست جميعها موسرة بل فيها بطون بين بين، نذكر منها تيم رهط ابن أبي قحافة وعدي عشيرة العدوي عمر بن الخطاب بالإضافة إلى ناشئة قريش البطح مثل عبدة بن أبي الجراح كل هؤلاء وأولئك يسعدهم أن تستخدمهم الطاهرة في تجارتها وتسلمهم عروضها ليتجروا لها فيها مع الوضع في الاعتبار أن تحمل التوكيل عن خديجة في البيع والشراء هو في النهاية عمل تجاري وقريش كما أخبرنا المؤرخون قوم تجار ومن ليس تاجراً فيهم فهو لا شيء.

فضلاً عن أن الناشئ أو الشاب أو الفتى يعثر في هذه الوكالة على ضالته، إذ أنه يحصل على خبرة أو دربة هو في أمس الحاجة إليها إذ إنها تفيده عندما يكبر ويستقل ويصبح هو نفسه رب عمل تجاري كما أنه «الناشئ أو الشاب أو الفتى» يجد متعة في الرحلة إلى الشام من نواح عديدة — يرى بلداناً ويقابل أشخاصاً ويزور معالم لا تتاح له فرص الاطلاع عليها لولا السفر الذي يقول مثلهم عنه إن فيه فوائد سبعة ثم عندما يؤوب يلقى لديه خزيناً وفيراً من الحكايا والأخبار والطرائف يقصها على لداته وأترابه في مجالس السمر في ليالي مكة الطويلة.

إذن اختيار سيدة نسوان قريش لـ «الصادق المصدوق» لم يأت اعتباراً كذلك ليس مرجعه أمانته وصدقه إذ لا يعقل أن تخلو قرية القداصة من الشرفاء ذوي الأمانة عداه.

من هنا فإننا نؤكد أن اختيار «المنصور بالرعب» لا يؤوب لأمانته فقط — بدهة أن أمانته لا ينتج فيها عنزان — بل لأنه المرشح الأوحى للنكاح وتوابعه شديدة الخطر بالغة الأهمية.



تعددت المراسيل التي بعثتها الطاهرة لـ «أبي القاسم» لكي يوافق على أن تتكحه ذلك أنها كما ذكرنا صممت عليه وبيتت النية وعقدت العزم فلا يثنياها عن طلبتها شيء ولا تنتصب في سكتها عقبة ولا يحول دونها حائل، ولا تضارب بين سعيها الحثيث وتقدمها بنفسها إليه وعرضها بلسانها



ذلك وبين أن تمطره بوابل من المبعوثين لأنها عملية حصار محكمة فهؤلاء الرسل منهم من يذهب إليه في موطنه وثن يقابله في الطريق وثالث يفتعل المقابلة وكأنها مجرد صدفة ورابع يفاجئه إبان زيارته لسيدة نساء قريش وأثناء حديثه معها فيفاته في الموضوع مباشرة مع التقدير أنه آنذاك في الواحدة والعشرين من عمره أو قريباً من ذلك.

«قالوا لما جاوزت سنو رسول الله ﷺ العشرين قال له أبو طالب: يا ابن أخي إن خديجة امرأة موسرة.. فسارعت ورغبت فيه ووجهته إلى الشام»<sup>(٤٠)</sup>.

فإذا كانت سفرة الشام استغرقت ثلاثة أشهر وتم الزواج بعدها في أقل من شهرين فإن معناه أن «أول شافع وأول مشفع» بالكاد بلغ تلك السن.

ولدينا واحد من الكتابة المحدثين يعتقد هذه الفكرة: «ومع ذلك ظلت خديجة وحدها وزوجته ما يقرب من ثمان وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين»<sup>(٤١)</sup>.

فإذا قلنا إن «حبيب الله» في عام الحزن وهو عام وفاة السيدة خديجة وصل إلى الحادية والخمسين ومكث معها ثمانياً وعشرين سنة فإن دلالاته أنه عندما نكحته لم يكمل الثالثة والعشرين إذن هو في مجلس خديجة عندما يفتحه المندوب أو المفوض أو المرسال أمامها مباشرة في أمر نكاحها إياه يتراوح عمره ما بين الحادية والعشرين والثالثة والعشرين وهي في السادسة والأربعين (أي بينهما ربع قرن من الزمان) وهذا ما نص عليه البلاذري<sup>(٤٢)</sup>.

بالإضافة إلى المصادر السوابق التي وثقت ذلك وأنه أجبر لديها فإن النتيجة المتوقعة أو المحتومة أن يوافق من باب الحياء كما في الخبر الذي أورده السهيلي وسنسطره فيما بعد.

إزاء ذلك يجد «المعصوم» نفسه في دائرة محكمة أفرادها متعددة منهم ذكور أحرار نسوان حرائر وعُبدان وموالى وكاهنة فلا بد أنه إذن يستسلم لرغبة سيدة النساء، فقد قرأنا في سيرته التي تتضوع روائح طيبة أنه حتى آخر لحظة من سنى حياته المبروكة ظل كالعذراء المخدرة حياءً وأدباً.

إن أبرز الأسماء في مضممار المراسيل الذين سلطتهم الطاهرة عليه: نفيسة بنت منية فقد نسبه الواقدي أحد أكابر كتاب السيرة المحمدية القدامى والذي قيل بشأنه إن الناس عيال في السيرة عليه وكتابه عن الغزوات الذي حققه مارسدن جونز من أوثق المؤلفات في هذا المضممار.

«قال الواقدي: كانت التي سمرت بين رسول الله ﷺ وبين خديجة نفيسة بنت منية أخت يعلي التميمي حليف بني نوفل بن عبد مناف.

أسلمت نفيسة عام الفتح فذكرت رسول الله بما كان منها فبرها وأكرمها»<sup>(٤٣)</sup>.

أما أن «سيد العرب والعجم» برها وأكرمها فلا غرابة في ذلك فهو المثل الأعلى للوفاء وكثيراً ما قال لتبعه من عمل فيكم معروفاً فكافئوه خاصة وأن ابنة منية لا مشاحة «وجه السعد» عليه كما تقول العبارة الشعبية الدارجة.

واختلف البُحاث القدامى والمحدثون في توصيف صلة نفيسة بأم هند فمن قائل إنها صاحبته أو أنها سفيرتها أو ذات قرابة وأخطأ محمد رضا في كتابه «محمد رسول الله» عندما قال عنها إنها مولاة لخديجة مع أنه باحث رصين ومؤلفه هذا من أميز كتب السيرة المحمدية في المحدثين وهذا هو الخبر الذي ورد بشأن نفيسة في هذه الخصوصية.

«أم سعد بنت سعد بن ربيع عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة شريفة فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع بعيرها من الشام فقالت يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به؟ قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت خديجة. قال: فكيف لي بذلك؟ قال: قلت علي هذا. قال: فأنا أفعل. فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن ائت ساعة كذا وكذا»<sup>(٤٤)</sup>.

وقد طرحته لنا عشرات المؤلفات التراثية والكتب الحديثة في السيرة المحمدية التي هي أطيب من رائحة العود الهندي. قد يزيد جملة هنا أو ينقص جملة هناك ولكن النقاط الرئيسية في كل منها واحدة، وهنا ملحظ لا يفوت العين اللاقطة أي التي تلتقط اللمحات الموحية ذات الدلالة العميقة وهو أن تلك الكتب أجمعت أو كادت على أن بنت منية اعترفت أن أم هند أرسلتها «دسيساً» لـ «سيد ولد آدم» فمن هو الدسيس؟

هو الذي تدسه ليأتيك بالأخبار<sup>(٤٥)</sup>. ويضيف المقرئ الفيومي معنى جديداً ألصق بالوصف الذي درجت كتب السيرة المحمدية الفاخرة على إطلاقه على نفيسة بنت منية فيقول: «يقال للجاموس: دسيس القوم»<sup>(٤٦)</sup>.

وهناك تعبير دارج يتداوله العامة فيما بينهم ولا نرى ثمة بأساً من استعارته منهم وهو «يجس نبضه» أي يعرف نواياه ويدرك مراميه ويتنبه إلى مقاصده ويفقه أهدافه.. الخ، يفعل ذلك قبل محادثته في الموضوع مباشرة فإن وجد «الدسيس» عنده قبولا فأتحه هو أو من أرسله في الأمر وإلا طوى أوراقه وانصرف.

ونورد فيما يلي ثبناً بالمصادر ثم نتبعه بالمراجع التي تؤكد أن نفيسة هي دسيس الطاهرة<sup>(٤٧)</sup>.



وينتهي الخبر بنجاح «الدسيس» نفيسة في مسعاها ويوافق «محمد» على مطلب خديجة أن تتكحه فتهرع إليها وتبلغها بالنتيجة الباهرة التي توصلت إليها ولا تضيع الفرصة وتسارع إلى اهتبالها وتطلب إلى دسيسها أو سفيرتها أن تبلغه أن يأتي ساعة كذا وكذا فيحضر هو وأعمامه فيجدون كل شيء معداً ويتم عقد القران وبعد الوليمة ورقص الجواني يدخل بها دون تباطؤ.

إنما أي دافع هذا الذي حث الطاهرة على الإسراع وتجهيز كل شيء من الألف إلى الياء والدخول بها على الفور لا على التراخي؟ لا نستطيع أن نجزم فنطرح باعاً معيماً إذ إن هناك افتراضات متعددة ومتباينة منها على سبيل المثال لا الحصر:

أن يقع الشاب الغض الإهاب الذي جاوز مرحلة الصبا منذ قريب تحت تأثير عماته وكن متعدّدات إذ تعلن له:

ما الذي يدعوك إلى الارتباط بـ «ثيب» تزوجت مرتين وأنجبت البنين والبنات وفي عمر والدتك «لو عاشت» وقريش مليئة بالعداوى الأبيكار الجميلات اللاتي يتمنين نكاحك؟

أو ينتصب اعتراض «وقد حدث ذلك فعلاً» من أبيها سوف نفند رأي من قال إنه توفي من قبل أو من عمها أو من أخيها فيحتجون قائلين أو يقولون محتجين: ما هي الضرورة التي تلجئك لنكاح يتيم قريش الفقير راعي الغنم وقد تقدم إليك «وما زالوا يتقدمون» عليه ملاً قريش الذين يملكون المال الوفير والقسامة والرجولة والنضج؟

أو تضغط عليها صواحبها وقد أخبرنا العميد طه حسين أنهم عارضنها عند ما لمحت لهن به؟

أو ربما ينجح أصحاب «درة بني هاشم» وأصدقاؤه في إثناؤه عن عزمه وينصحونه بالتريث والانتظار فالمستقبل — في التجارة — أمامه مفتوح فهو علاوة على أنه من رهط رفيع المستوى في القبيلة فإنه يملك كافة مقومات النجاح في التجارة مثل طلاقة اللسان والجد في العمل والصدق في القول والأمانة، كما أنه لا داعي للعجلة فهو لم يتجاوز العشرين إلا بعام أو أقل.



كل هذه الاحتمالات قائمة ولا شك أن الطاهرة التي اشتهرت بسعة

الأفق والتفكير العميق والبصيرة النافذة تدبرتها وأدارتها في رأسها وتعمقت في دراستها فلم تر مناصاً من التعجيل بإنجاز عقدة النكاح قولاً وفعلاً.

ولا شك أنها فطنت أن كل هؤلاء في وادٍ وهي في وادٍ آخر فهي لم تختبر «الحبيب المصطفى» لشبابه أو فحاله أو جمال محياه إنما لتخوض به تجربة كبرى لم تدر بأخلاقهم.



نجيء إلى مرسال من نوع خاص وهي المستنشئة وسبق أن تحدثنا عن عمالتها وموقعها الديني ومكانتها في القبيلة التي وزت سيدة قريش وزوزة<sup>(٤٨)</sup>. لأن تهرول إليها كيما تسفر بينها وبين «سيد ولد آدم» لكي تلحف في رجاوته ليقبل نكاح الطاهرة إياه ولتباعله وهي أي الكاهنة شكل لقاءها بـ «الصادق المصدوق» نوعاً من الرسم أو التخطيط أو التدبير وربما يعود ذلك إلى المكانة الاجتماعية التي لها والتي تحول دون ذهابها إليه: لأن العادة جرت والعرف ترسخ على أن القبيل «أفراد القبيلة» هو الذي يسعى إليها حتى لكي تفسر له رؤيا رآها.

ولا سبيل إلى بعث أو إرسال محمد إليه وإلا انكشفت التلعابة<sup>(٤٩)</sup>. إذن لا حل لهذا الأمر الملتبس سوى تدبير لقاء بينهما كأنه تم مصادفة.

«وعن الزهري في سيرته أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة ليتحدث عندها فلما قام جاءت امرأة (سوف يأتي فيما بعد أنها الكاهنة أو المستنشئة أ. ه) فقالت: أخاطباً يا محمد فقال: كلا. فقالت: ولم؟ فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفنأ لها فرجع رسول الله ﷺ خاطباً لخديجة مستحياً منها<sup>(٥٠)</sup>».

### وهنا يثور اعتراض:

كيف تزور الكاهنة أو المستنشئة خديجة وسبق أن قلنا إن القبيل «أفراد القبيلة» يزورها وهي لا تفعل. حتى عبد المطلب جلال قدره أتاها ولم تأته؟ والرد على ذلك أن عبد المطلب عندما أمها «قصد إليها» إنما بهدف تأويل رؤياه أي جاءها من أجل عملها كما يذهب المريض إلى الطبيب والمتقاضي إلى المحامي والمعيون إلى الرافي، والكاهنة هنا ذهبت إلى سيدة نسوان قريش لتزورها لا لتمارس عملها.. أما إذا قصدت «الرحمة المهداة» فلأي غرض؟

وفي الخبر إحياء شديدة وإغراء له بخطبة خديجة وتبيين لمكانتها وفي الوقت نفسه تهيئة لـ «الأمين» بإخطاره أن أي مرة في مكة تعتبره كفيئاً لها

وذلك لتكدّ «تكسر» أي تردد في نفسه وهذا ما حدث بالتمام والكمال فقد فعل فعل السحر إذ لم يلبث «محمد» برهة بسيرة إلا ورجع خاطباً وهذا على وجه التعيين ما سطرناه عن لباقة هذه النوعية من البشر ودلاقة لسانها وقوة منطقتها.

ومن لديه ذرة من ريبة أن المرّة التي ورد ذكرها في خبر السيرة الشامية هي المستنشئة فليرجع إلى السهيلي:

«جاءت امرأة مستنشئة وهي الكاهنة كذا قال الخطابي في شرح الحديث فقالت له جئت خاطباً إلى آخر الخبر»<sup>(٥١)</sup>.

ثم توضح لنا بنت الشاطئ الأثر الذي تركته كلمات الكاهنة على محمد بعد أن قالت له ما قالت مما حمله إلينا الخبران السالفان في «السيرة الشامية» و«الروض الأنف» «ثم لم تكن إلا فترة قصيرة المدى حتى تلقى دعوة خديجة فسارع إليها ملئياً»<sup>(٥٢)</sup>.

• • •

هكذا حمل إلينا خبر الكاهنة أو المستنشئة اثنان من ذروة سنام كتب التراث ومصنف حديث وضعته باحثة جادة.

وهذه المؤلفات الثلاثة إنما أوردناها للتمثيل لا الحصر أو الاستقصاء وفيها الغنية للتدليل على أن من بين مراسيل أم هند كاهنة قريش أو المستنشئة وهذا يقطع بدوره على أن خديجة عزمت عزماً أكيداً على نكاح «محمد» مهما تعددت إليه الوسائل.

• • •

عمار بن ياسر مولى من موالي قبيلة مخزوم وفي ذات مرة بعد أن أعلن «محمد» دعوته وفي قرية يثرب حدثت مشاحنة بينه وبين خالد بن الوليد بن المغيرة في حضرة «صفوة الخلق»، ويبدو أن ابن ياسر أغلظ القول لمولاه السابق وابن سيد مخزوم «الوليد بن المغيرة» وأحد صناديدها وصاحب المال الممدود كما وصفه القرآن العظيم فأخذت الحمية خالداً فوجه «لمحمد» سؤالاً: أتترك هذا العبد يشتمني؟ فرد عليه «أبو القاسم» معلماً إياه: «من أغضب عماراً فقد أغضبني ومن أغضبني فقد أغضب الله» وهنا اضطر سيف الله المسلول إلى ابتلاع خنزوانته «كبريائه» واعتذر لابن سمية مولاه السابق.

كما أن عماراً من السابقين من تبع «الحبيب» وعُذّب هو وأمه وأبوه في سبيل دعوته. أما قبل الإسلام فإن الخبر القادم يشي بأن العلاقة بينه وبين «ديان العرب» وطيدة ورغم أنه من القمة الشامخة من قريش إنما

لتواضعه وحسن أخلاقه وكرم شمائله صادق العُبدان والموالي والصلقاء... الخ، ومن ثم ربطته بعمار صلة حميمة، والطاهرة وقد وضعت «المعصوم» تحت المجهر وعلمت الصغيرة والكبيرة من شأنه تفتنت إلى عمق صحبة الاثني عشر ومن ثم انضاف ابن سمية «عمار» إلى طاوور رسلها إلى «محمد» بيد أنه نظراً لمكانتها السامية وقدرها الرفيع ومقامها المحمود استحال عليها أن تخاطب عماراً مباشرة فهو مولى أو عبد — كما وصفه القائد المظفر الذي لم يهزم في جاهلية أو إسلام والذي شكل أهم العوامل المؤثرة في الهزيمة الوجيعة التي أصابت المسلمين في الغزوة الثأرية «أحد» — ومن ثم سلطت عليه أختها فحادثته وهو بدوره فتح الموضوع مع «المزمل»<sup>(٥٣)</sup>.

«عن عبد الله بن الحارث أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة ويكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها إني كنت تريباً له وكنت إلفاً له وخذنا خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى وإذا كنا بالحرزورة (ضاحية بمكة) أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها فنادتني فانصرفت إليها ووقف رسول الله ﷺ فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته: فقال: بلى لعمري — فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة»<sup>(٥٤)</sup>.

في هذا الأثر وصف عمار العروة الوثقى التي شدته به المدثر فهو = ترب وخذن وإلف ولا شك أن أم هند أدركت ذلك لأنها وضعت «محمداً» تحت رقابتها من زمن، وترتيباً عليه اختارته أي عماراً سفيراً لـ «سيد ولد آدم» ليجس نبضه في عزمها على نكاحه، وفي خبر أيضاً أن «صاحب القبليتين» ما إن أعطى إشارة التسليم حتى طلب منه الحضور في الصباح الباكر من اليوم التالي وعند ذهابه — هو ومن معه — وجدوا أن كافة الاستعدادات قد أنجزت وفي مقدمها ذبح بقرة، وفي كتب التراث عند الحديث عن عرس «فرح» نقرأ عبارة «فأولم بشاة» بيد أن الطاهرة للفرحة الغامرة التي شملتها مع ثروتها الطائلة ذبحت بقرة.

أما ادعاء ابن سمية «أنا أعلم الناس بنكاح خديجة من محمد» فهذا غير دقيق فهو في ذياك الوقت مجرد مولى لا خلطة له بعلية قريش وعلى رأسهم سيدة نساءها حتى يمكنه أن يتعرف على أحوالهم ويعلم دخائلهم، وهو لم يرتفع قدره إلا بعد ذلك بأكثر من عقدين من السنين عندما غدا لسابق إسلامه من أقرب المقربين لـ «سيد ولد قصي».

«روى بعضهم عن عمار بن ياسر أنه قال: أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد: كنت صديقاً له فإننا لنتمشى بين الصفا والمروة إذ بخديجة وأختها هالة فلما رأت رسول الله ﷺ جاءتني أختها هالة فقالت: يا عمار أما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلت: والله ما أدري فرجعت فذكرت ذلك له فقال: ارجع وأضعها يوماً وعدّها يوماً نأتيها فيه فقلت (أي فقلت ذلك لهالة أخت خديجة) فلما كان ذلك اليوم.. إلى آخر الخبر الذي سوف نسرده في فاصلة من الذي تولى العقد عن خديجة»<sup>(٥٥)</sup>.

من هذا الخبر الذي حمله إلينا اليعقوبي في تاريخه عدة معطيات:

١ — إن اسم الأخت هالة ولم يذكر أنها تتبع أماً أو خلفاً.

٢ — ان خديجة آنذاك بصحبة هالة.

٣ — ذهبت هالة لعمار تعرض عليه أن تتكح خديجة «سيد ولد آدم» وبداهة أن ذلك ليس من عندياتها بل بإيعاز من الطاهرة.

٤ — أمر «المصطفى» عماراً أن يرجع إليها لتحديد يوم يأتيها فيها.

٥ — ودلالة ذلك أن «المعصوم» لم يعط كلمته بالموافقة وهذا ما سبق أن ألمحنا إليه، ومع ذلك فإن خديجة «حسب نص الخبر» اعتبرت ذلك موافقة وأسرعت في الاستعداد، إنما في اعتقادنا أن عجز الخبر يتعين أن يؤخذ بحذر لأن الطاهرة اشتهرت بالحصافة.

وفي السيرة الشامية ورد هذا الخبر بالصورة الآتية:

«عند يعقوب بن سفيان في تاريخه عن عمار قال: مررت أنا ورسول الله ﷺ بأخت خديجة فنادتني فانصرفت إليها ووقف له رسول الله ﷺ فقالت: أما صاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ فقال عمار: فأخبرته. فقال: بلى لعمرى، فذكرت لها ذلك فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلة»<sup>(٥٦)</sup>.

وهو خير مختصر عن سابقه لم يذكر عمار صلته بالحميمة بـ «سيد الأولين والآخرين» ولا بأنه أعلم الناس بقصة نكاح الطاهرة إياه.

إنما أضاف أنهم وجدوا خديجة قد لبست حلة الفرح أو العرس وهو معطى عميق الدلالة هو أن أم هند ذللت جميع العقبات خلا موافقة «المصطفى» فلما أعطها إياها عن طريق أختها اعتبرت أن النكاح تم لأن لبس الحلة أو فستان الفرح بالتعبير الحديث هو إشارة إتمام الزواج، إذ لا يعقل أن سيدة رفيعة المقام مثل خديجة تقبل أن تغدو مضغة الأفواه وموضوع أحاديث مجالس السمر في قرية القداسة ولغظ عجائزها إذ

يقال إنها ليست حلة الزفاف لمحمد بن عبد الله لكنه أي العرس أو الفرح لم يكتمل لأن أباهما أو عمها أو أخاهما أو لأن رهط بني هاشم اعترضوا.

• • •

في هذين الخبرين اللذين أورد أولهما ابن كثير وآخرهما الصالحي الشامي أن الأخت – أخت الطاهرة ما إن سمعت الوفاق من «الأمين المأمون» حتى ردت أن أغدوا علينا إذا أصبحنا فهي لم تطلب منهما اللييثة قليلاً أو كثيراً حتى تردّ عليهما بأن تستأمر أم هند ثم ترجع إليهما بالرد أو الجواب بل على الفور لا على التراخي دعتهم للحضور في صبيحة اليوم التالي إلى دار العروس.

علام يدل هذا؟

الجواب معروف لأنه بديهي أن طلب الأخت هالة من «طه» – عن طريق عمار تزويج خديجة لم يصدر منها بل هي مأمورة به من قبل أم هند.

أعرض على «الحبيب» عن طريق صاحبه الأليف أو إلفه الصاحب أن يستجيب إلى طلبي أن أنكحه فإن فعل فأمريهما أن يحضرا غداً، وسوف يجدان كل شيء جاهزاً وسأنتظرهما وأنا في حلة العرس أو فستان الفرح إذ ليس من المنطقي أن تخاطر الأخت بذلك فإذا أتيا للدار لم يلفيا شيئاً.

إذن الدعوة عن طريق الأخت كانت مخطئة ومرتبطة ومرسومة.

• • •

في الفترة السابقة الخاصة بالمولى ابن سمية جاء دور أخت سيده نسوة قريش وهو ما يمكن أن نطلق عليه الرسول أو المرسال غير المباشر، فهي حادثت عماراً وهذا خاطب «سيد الناس وديان العرب» فالأخت في الخبرين كليهما لم تكافحه «تواجهه». ورغم القرائن القوية التي طرحناها لإثبات أنه من المستحيل أن تقدم عليه من نفسها فإننا – منعاً لأي مشاكسة أو معارضة – نورد هذا الخبر «حدث أبو مجلز أن خديجة قالت لأختها: انطلقني إلى محمد فاذكّرني له أو كما قالت وأن أختها جاءت فأجابها بما شاء وتواطوا على أن يتزوجها رسول الله ﷺ»<sup>(٥٧)</sup>.

هذا الخبر يقطع بأن الطاهرة هي التي أمرت أختها بأن تتطلق أي تذهب مع قدر من العجلة والهرولة والسرعة إلى «أبي القاسم» وتسأله نكاح خديجة إياه فتواطوا عليه أي توافقوا «والمتواطئ أي المتوافق وهي من المجاز وحقيقتها كأن كلا منهما وطئ ما وطئه الآخر»<sup>(٥٨)</sup>.

فيما سلف تناولنا سفارة عمار والأخت إذ إن خبرين منهما جمعا بينهما – بقى المرسل الأخير وهو العبد ميسرة والشان أن لجوء سيده قبيلة



قريش كلها إلى عيد من عبدها كيما يغدو رسولها إلى «الصادق المصدق» في مسألة المبالغة أي لتصير هي بعله<sup>(٥٩)</sup>. يقطع بصحة ما سطرناه منذ قليل أنها تعبت تعباً شديداً ولغبت لغوباً بالغاً وأرهقت إرهاقاً وجيعاً حتى أعيت فلم تر مناصاً من اللجوء إلى ميسرة ومهما كانت صلته بها فهو غلام من أغيلمتها ومملوك من مماليكها لكن تظفر ببعولة «خير من وطئت قدماه الأرض».

في رحلة الشام الثانية ذاق ميسرة حلاوة أخلاق «الأمين» بل تزلع منها وشرب عللاً بعد نهل ورغم أنه في السفر تظهر سجية المسافرين على حقيقتها فإن غلام أم هند لم يجد لدى «خير شافع ومشفع» سوى رقة الشمائل وحسن المعاملة وأدب الخطاب وتواضع النفس فلا مشاحة أن العبد ميسرة ظن في مبدأ الأمر إن هذا الذي في الرحلة سيظهر له التعالي ولا يلقى منه إلا الكبرياء ولن يقابله سوى بشموخ الأنف كيف لا وهو من بني هاشم ذروة سنام قريش خاصة أن السفر يظهر الفرد على حقيقته ويكشف عن وجهه الحقيقي ويسفر عن صفاته وأخلاقه دون زيف أو تصنع:

«لما أراد الحسن البصري الحج قال له ثابت البناني: يا أبا سعيد بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن نصطحب فقال: ويحك دعنا نتعاش بستر الله إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه»<sup>(٦٠)</sup>.

بيد أنه فوجئ بالعكس: دماثة في الخلق ولين في القول وكمال في الأدب ولطف في المعاملة.. ولنترك جانباً المعجزات التي شاهدها بعينيه والتحايا والتجلة التي قابل الرهبان بها «محمدًا» وكذا من يملكون علماً وفيراً بالكتاب ستملاً مكاناً وسيعاً في باب المعجزات.

إنما الذي يهمننا هنا الخلق العظيم الذي لمسه العبد من «سيد الناس» في رحلة الصيف وشعر بمضاعفة الإحساس بالامتنان والعرفان لسيدته لأنها أتحتته بصحبة هذا الشاب الذي بالكاد تخطى سنوات الصبا وولج مرحلة الشباب علاوة على الأمانة والصدق في القول... الخ، ومن ثم توطدت العلاقة بين العبد وسيدته وتفطنت أم هند لعمق هذه الوشيحة بين أجيرها وغلماها مما أشار به الأخير على الأول بضرورة سرعة الذهاب إليها كيما يبشرها بالتوفيق في السفارة والأرباح الوفيرة التي تحققت مع أن العادة أنه هو الذي يفعل ذلك حتى يظفر منها بالبشارة والحلوان<sup>(٦١)</sup>.

ومما ذكره لها — بانبهار وإعجاب — عن شمائل محمد التي لا ضريب لها وأخلاقه التي لا مثل لها فاستنتجت أن ميسرة يصلح ليسفر بينها وبين

«ابن عبد الله» وأن يقنعه بالاستجابة لرغبة سيدته العارمة بأن تنكحه، وفي ثانيا الخبر وردت عبارات تكشف عن ذلك «فأسرعت لأبشرها فغمرها السرور» وربما إدراكه لتلك الإرادة والرغبة من جانبها هو الذي زفه زفيفاً «دفعه دفعا» إلى الإسراع لـ «حبيب الله» وإلى إصراره على إنجازها والنجاح فيها.

«قال ميسرة: أرسلتني سيدتي بعد شهر وعشرين يوماً من عودتنا من الشام إلى محمد فقلت له: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به. قال: فإذا كان ما تملكه على قلبه يكفي ودعيت إلى الجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قال: إنها خديجة. قال: إنك هازل كيف أجرؤ على أن أتقدم لطلب يدها وما أملك من مهر؟ قال ميسرة: لا عليك وأنا بحل تلك العدة لكفيل وكانت نعمة سيدي في حديثه كافية لمعرفة عواطفه نحو سيدتي فأسرعت في العودة لأبشرها فغمرها السرور فأخذت في الاستعداد للزواج»<sup>(٦٢)</sup>.

ولقد أيد المقرئى سفارة العبد ميسرة «وقيل سفر بينهما ميسرة»<sup>(٦٣)</sup>. في هذا الخبر نقاط على درجة من الأهمية منها أن خديجة أرسلت غلامها لـ «سيد ولد آدم» بعد خمسين يوماً فحسب من عودتهما من الشام أي أنها عجلت من أمرها وملتلفة على النكاح.

وأن عبدها ميسرة طرح مغريات شتى أمام عيني «أول من تنشق عنه الأرض».

#### — الجمال — المال — الشرف — الكفاءة.

وهي مرغبات كفيلة بأن تدفع شاباً خرج من الصبا منذ وقت قريب إلى القبول الفوري إذ ما الذي يبيغيه في الزوجة أكثر من هذا بالإضافة إلى حل مشكلة المهر التي تنكسر على شاطئها أمواج الخاطبين حتى الآن.

ومنها رد «الحبيب المصطفى» على الغلام أو العبد: إنك هازل. لأنه «الأمين» لم يدر بخلده أن الطاهرة تنكحه وهو منذ أقل من شهرين عمل أجيراً لديها وهي ليست صاحبة عمل عادية بل هي ذات ثراء ممدود حتى إنها تملك نصف القافلة وسائر قریش بالكاد تملك الشطر الآخر.

ومنها أن غلام خديجة استشف من حيدث «سيد ولد عدنان» عاطفته نحوها وهذا أمر متوقع لأنه إذا اقترن بها فسوف يجد عندها العطف والحنان اللذين حرم منهما مبكراً بموت أمه ولم يتخط الخامسة إلا بقليل بيد أن هذه العاطفة منه ألا تتعارض مع ما ذكرناه أنه قد شدته إلى أم هانئ عاطفة دفعته إلى خطبتها إنما لم يكتب له التوفيق؟

## إن الرد على ذلك يتحصل في أمرين:

أ — أن عاطفته نحو الطاهرة تولدت بعد يأسه من أم هانئ إثر خطبتها لهبيرة أو خطبة هبيرة إياها.

ب — بعد تماسه بسيدة نساء قريش وجلوسه معها كما ألمعنا تولدت لديه أو بمعنى أدق تيقظت من حنايا صدره عاطفة البنوة أي شعوره بالحاجة الملحة إلى حنان الأم، ومنها أن السرور غمر الطاهرة فأسرعت على الفور لا على التراخي في عمل الترتيبات اللازمة لنكاح «الذي سيفه على عاتقه» لتأكدها من فلج الخطة شديدة الإحكام للظفر بـ «المعصوم» زوجاً من ناحية وموضوعاً للتجربة من جانب آخر.

• • •

هذه حكايا المراسيل أو المندوبين الذين أطلقتهم على «راكب الأتان» حتى استجاب لندائها وهذا بخلاف ما سردناه سابقاً ونعنى «الجهود الذاتية» التي باشرتها هي بنفسها، وطرحها جميعها لازم لتبيين أو توضيح الأمور التي سبقت التجربة الفاذة ولكن لماذا تعددت المساعي ألا يكفي أن ينجح أحدها فتقع خديجة به ولا ترى بعده أي حاجة لغيره؟ بمعنى أنه إذا فلجت هي في الحصول على موافقة «أول من يفيق من الصعقة» على النكاح فما الذي يدعوها إذن للاستعانة بالمستنثثة أو بعمار أو بأختها أو بصديقتها أو بصاحبها الروح بالروح نفيسة بنت مينة؟

• • •

نحن لا نشكك في الأحاديث ونخاصم فكراً بكل قوة أولئك المتنتعين والمتفهبين والمتشدين الذين ينادون بمقاطعة الأحاديث والأخبار والآثار المتعلقة بـ «صاحب لواء الحمد» والاكتفاء بالقرآن العظيم ونرى أنها دعوة فسيدة لم يتعمق أصحابها دراسة العلوم الإسلامية بكافة جوانبها، ومع ذلك فنحن لا نرميهم بتهمة العمالة لعدو الإسلام، كل ما في الأمر أنه ينقصهم النضج في التفكير والاستقامة في المنهج. ومن جانبنا فإننا نسبق بخطوات أهل السنة والجماعة في تقدير حتى الأحاديث الضعيفة ونرى أن صرف النظر عنها عوج وهوج وقلة حنك لأنها «= الأحاديث» هي «ديوان الإسلام» ومن أراد أن يتعرف عليه فليتوجه إليها ويدرسها بأناة وعمق سبق أن ذكرنا ذلك في أحد أسفار كتابنا «شدو الرابطة» أ. هـ.

ومن هذا المنطلق فإننا لا نشك في الآثار والأخبار التي قدمت لنا مسألة التعددية المرسالية من قبل سيدة نسوة قريش وفي مذهبنا أنها أقرب إلى المنطق وأدعى للتصديق وأدنى إلى العقل. لماذا؟

تلك الأخبار تقص علينا وقائع تجسدت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ونسبت لأشخاص «إناث وذكور» عاشوا في بيئة مغايرة لبيئتنا وفي مجتمع مخالف لهذا المجتمع الذي نحيا بين جنباته.

ومن أهم مظاهر التباين – ولا أقول التنافر – بين ذيك المجتمع والمجتمع الراهن هو التقديس المبالغ فيه للتقاليد والقيم والموجبات الاجتماعية في مكة وداخل قبيلة قريش وقت ذاك؛ لأنه من ناحية فهو محدود العدد بخلاف مجتمعات المدن الكبيرة مثل القاهرة ودمشق وبيروت والتي تضم أشتاتاً من الأعراق والجنسيات والطوائف، وأفراد ذلك المجتمع تربطهم بعضهم بعضاً وشائج القرى والنسب والمصاهرة والولاء حتى إنه يمكن أن يقال إن كل واحد أو واحدة فيه يعرف الآخر أو الأخرى معرفة وثيقة. و«الملا أو قمة هرم أو ذروة جبل ذلك المجتمع أكثر تمسكاً بتلك التقاليد والأعراف والموجبات... الخ، والسيدة الطاهرة منهم.



وفي مضمار موضوعنا هذا وهو عقدة النكاح فإن من أوليات الأمور التي تواضعوا أو تواطأوا عليها هو أن العروس وأهلها لا يعلنون الزواج إلا إذا استوثقوا من جدية العريس أو الخاطب لأنهم إن ادعوا الزواج ثم استبان أن العريس أو الخاطب وأهله هازلون وعابثون لصارت العروس أو المخطوبة وأسرته موضع سخرية وهزاء في القبيلة كلها ومحل زراية في المجالس بين الرجال وفي البيوت بين النسوان خاصة في حالة اتسام الزواج بقدر من الإدهاش وأدنى إلى التكذيب مثل عدم الكفاءة بين الطرفين إما بسبب المكانة الاجتماعية أو الغنى أو وجود فارق في العمر بين طرفيه.

فهنا يتعين على العروس أو المخطوبة وأهلها أن يستوثقوا ويتثبتوا من جدية العرض وأن العريس أو الخاطب – من شواهد الحال – يتم عقد النكاح أو أنه لن يفنحه<sup>(٦٤)</sup>. وإن يفعلوا وصموا بالخفلة ورموا بالعبط ووصفوا بأفن العقل<sup>(٦٥)</sup> وضعف التفكير والبلاهة والحوجة «الافتقار» إلى النضج وبالنزق والطيش.



وخديجة سيدة قريش كلها بعيدة عن هذه الصفات الذميمة وإلا لما حازت هذا اللقب المنيف لذا وجب عليها ألا تذيع خبر نكاحها لـ «الظفور – محمد» إلا إذا ملأت يديها الاثننتين من صدق الخبر ووثقت تماماً من الموافقة وهذا لا يتأتى إلا إذا وصلتها «= تلك الموافقة أ. ه»، وتمكنت منها

وكما يقال في التعبير الدارج وضعتها في جيبها، ومن ثم فليس أمامها سوى أن تسمعها من شخص تثق فيه وتطمئن إليه وجربت صدقه أكثر من مرة. فأرسلت إلى «الأعظم» أكثر من مندوب وسأقت إليه عدداً من الرسل أو المراسيل وبعثت إليه بعضاً من السفراء كلهم أمناء أشد ما تجيء الأمانة وأعمق ما يتوافر من الإخلاص وأكثر ما يحوز من الصدق حتى إذا نقل إليها وفاق «صاحب الملحفة» اطمأنت إليه ووثقت فيه وإذا تواترت مصادر الخبر دل ذلك على مصداقيته إذ لا يعقل أن أولئك المراسيل أو المرسلين الذين غالبيتهم من خاصة بطانتها<sup>(٦٦)</sup>. وأقرب وليجتها إليها<sup>(٦٧)</sup> ومحض<sup>(٦٨)</sup> المقربين إليها وزبدة<sup>(٦٩)</sup> المحيطين بها مثل: أختها ونفيسة صاحبها وميسرة غلامها أو عبدها والمستنشئة كاهنة قريش أن يكذبوا عليها أو يزيفوا الخبر لديها أو يطرحوا الدخل (الفساد) والريبة أمامها، خاصة إذا علم أن غيره قد كلف بالحصول عليه إذن لا بد أن يأتي الخبر من جمعيتهم موثقاً فيه.

ومن جانب آخر: فلندع الكذب والتزييف والدخل (بفتح الخاء) جانباً ولنقدم فرضاً آخر وهو أن أحدهم أو بعضهم أخطأ في الفهم أو تسرع في الاستنتاج أو شط في التقدير ففهم السكوت موافقة والتريث إجابة والتمهل قبولاً فإن باقئهم لا يعقل أن يجيئوا على هذه الشاكلة أو ينسجوا على ذات المنوال أو ينهجوا نفس الطريق.

هذا هو الباعث الدافع أو هذه هي البواعث الدوافع التي حثت الطاهرة الحصيصة الأريية على اختيار مسلك التعددية في المراسيل ولم تكف بذلك بل تعمدت أن يصبحوا تشكيلة<sup>(٧٠)</sup>. فمنهم الحرة والعبد والقريبة والمولى لأن ذلك أدهى للثبوت من صدق الخبر. إذن ليس في الأمر تضارب في الأخبار أو تناقض في الآثار أو التباس في الوقائع أو تنافر في الأحداث كما قد يتبادر إلى الأذهان.

وبعد أن تأكدت سيدة نسوان قريش من أن «الأوسط» قد أعطى شارة القبول وعلامة الموافقة وآية الرضى تقدمت إليه بنفسها وأبلغته أنها رغبت فيه لتتكحه وجاء جوابه كما توقعت: مرحباً بك يا ابنة العم بعلاً لي.

«وعند ابن اسحق في المبتدأ أن خديجة قالت له: يا محمد ألا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا. قال: ومن لي بك أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش، قالت: اخطيني، وكان تزويجه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً»<sup>(٧١)</sup>.

أما في السيرة بقلم ابن إسحق: «فقال له فيما يزعمون يا ابن عم إني قد رغبت فيك. ثم عرضت نفسها عليه»<sup>(٧٢)</sup>.

إن صدور هذا التخطيط المحكم والتدبير المتقن والرسم الدقيق من الطاهرة خديجة ليس عجباً أو مستغرباً فهي قد عرفت بالحنكة واشتهرت بالعقل وذاع عنها الحزم والدرية واللب (العقل).

وبهذه الصفات الباهرة والنعوت المدهشة والخصائص المذهلة أدارت بمقدرة فائقة يعز مثلها لا في نسون ذيك الزمان المفرد بل بين نساء كل الأزمان بعدها حتى الآن، أدارت «التجربة الكبرى» التي غيرت مجرى تاريخ الجزيرة العربية وما حولها. فيا لها من سيدة تعد من القليلات اللاتي تركز وراءهن أثراً بعيد الغور.



بعد أن حظيت سيدة نساء قريش بأمل حياتها ومنية عينها وطلبة «بكسر الطاء» عمرها نعني شرف موافقة «المستقيم» على أن تنكحه خاضت معركة أخرى لا تقل شراسة وهي رضاء وليها في عقد الزواج أبيها في رواية وعمها عمرو بن خويلد في رواية أخرى. أما أنه أخوها عمرو بن أسد فهو قول ضعيف. فأبوها كان يعارض بقسوة هذا الزواج فهي قد رفضت كل من تقدم لها من سادة قريش حسباً ونسباً وثروة.

فكيف إذن تباعل يتيم قريش أو يتيم أبي طالب راعى الغنم الفقير المملق الذي لا يملك حتى قيمة المهر أو الصداق الذي يسوقه إليها.

واختلف القدامى فيها بينهم عمن زوجها هل هو أبوها أو عمها عمرو بن أسد فمنهم من قال الأول ومنهم من قال الأخير لا حياً في الخلاف أو هوى في الاختلاف إنما لأنهم «القدامى» كما ذكرنا سالفاً ونكرره يسطرون ما توصلوا إليه دون أي اعتبار، بيد أن المحدثين أطبقوا على أن وليّ عقدة النكاح هو عمها لعله سوف يأتي كشفها في حينه.

فزوجها «= خديجة» منه «= أول من تنشق عنه الأرض» أبوها وقيل عمها وقيل أخوها<sup>(٧٣)</sup>.

فهنا نجد الإمام البرزنجي لم يستطع أن يجزم فذكر أباهها وعمها وأخاها وهو أيضاً يسمى عمرو مثل عمها، أما ابن سيد الناس فقد وفاق ابن إسحق أن المزوج لها هو أبوها «فخرج مع عمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ حتى دخل على خويلد فزوجها»<sup>(٧٤)</sup>. وفي أميز كتب السيرة المحمدية التي هي ذات ريح أجمل من رائحة العنبر الأصهب.

«فقال خديجة ذلك (إبداء رغبته في نكاحه) لرسول الله ﷺ ذكر ذلك

لأعمامه فخرج معه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها...»<sup>(٧٥)</sup>.

وابن هشام هنا - كما في غالبية سيرته - نقل عن محمد بن إسحق بالحرف الواحد: «حدثنا أحمد قال: حدثنا يونس عن ابن إسحق قال: فلما قالت لرسول الله ﷺ ما قالت ذلك لأعمامه - فخرج معه منهم حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها رسول الله ﷺ»<sup>(٧٦)</sup>.

ومما هو جدير بالذكر أن المحققين طه عبد الرؤوف وبدوي طه ذكرا في هامش الصفحة (١٥٤) «قيل كانت سنة ﷺ إحدى وعشرين» وهو ما رجحناه فيها سلف. وشيخ المؤرخين الطبري أكد أن خويلداً هو الذي تولى التزويج «فلما قالت لرسول الله ﷺ ذلك ذكره لأعمامه وخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها»<sup>(٧٧)</sup>.

محمد ابن إسحق كتب السيرة المحمدية العطرة في وقت مبكر ثم جاء ابن هشام فاختصرها ومن ثم اعتبر مؤلفه «بفتح اللام» هو المصدر الذي متح<sup>(٧٨)</sup> منه كتاب السيرة القدامى أو أغلبهم لأنهم عولوا على ابن هشام ومن ثم فما يسرده يغدو موثقاً به:

«روى محمد ابن إسحق أن خويلد بن أسد زوج خديجة ابنته من رسول الله ﷺ ومات بعد الفجار بعد خمس سنين» ولو أن أمانته العلمية أبت عليه إلا أن يذكر رأى غيره في هذه الخصوصية أي في تاريخ وفاة أبي خديجة «وروى بعضهم أنه قتل في الفجار أو مات عام الفجار»<sup>(٧٩)</sup>.

والزهري الذي سبق أن سطرنا أنه كتب في السيرة المحمدية العظيمة مؤلفاً يعتبر من أوائل ما كتب فيه ولكنه للأسف ما زال مفقوداً فقد «ذكر الزهري في سيرته أن خويلداً أباهما هو الذي زوجها منه»<sup>(٨٠)</sup>.

ويخبرنا الذهبي أن:

«بعثت خديجة إلى محمد تقول يا ابن عمي رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك ثم عرضت عليه نفسها فقال ذلك لأعمامه فجاء معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد فخطبها منه وأصدقها عشرين بكرة»<sup>(٨١)</sup>.

على عكس المحدثين الذين أطبقوا على رفض خبر تزويج خويلد لخديجة من «سيد الأولين والآخرين» كتب فتحي رضوان أن ذلك تم بولايته هو:

«قيل إن خويلاً لم يكن موافقاً على هذا الزواج فقد كان يرى شأن محمد الفقير راعي الغنم أصغر من أن يبني بابنته الغنية.. ولكن الذي لا شك فيه أن أبا خديجة دهش حينما أحس من ابنته ميلاً إلى إتمام هذا الزواج»<sup>(٨٢)</sup>.

ومع ذلك لا يفوتنا أنه ذكر الخبر بصيغة التمريض أو التشكيك «قيل» ولا غرابة في أن يرفض خويلد «الرحمة المهداة» زوجاً لابنته فهو من ناحية صنديد شريف غطريف سميدع<sup>(٨٣)</sup> ومن ناحية خديجة فهي كما وصفناها في حين أن «الغوٲ» في نظر خويلد: فقير – مليط – يتيم – راعي غنم ليس بيده ما يتزوج به.

• • •

نأتي بعد ذلك إلى المؤرخين القدامى الذين ذهبوا إلى تولي العم عمرو تزويج خديجة...  
الواقدي:

«والثبت عندنا أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ وأن أباه هلك قبل الفجار وهو المحفوظ عندنا عن عائشة وعن ابن عباس»<sup>(٨٤)</sup>.

«قال الواقدي بإسناده: وكانت امرأة عاقلة حازمة برزة مرغوباً فيها لشرفها ويسارها فدمت إلى رسول الله من عرض عليه أن يتزوجها فرغب في ذلك فبعثت إليه أن أئت في وقت كذا فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد فحضر وحضر رسول الله ﷺ ومعه عمه أبو طالب وحزمة وغيرهما من عمومته فزوجها إياه ومات بعد تزويجها بقليل»<sup>(٨٥)</sup>.

وذكر محقق سيرة ابن هشام في هامش ص ١٩٥: «عن ابن عباس وعن عائشة رضي الله عنهما أن عمرو بن أسد «العم» أنكح خديجة رسول الله وأن خويلداً كان قد هلك قبل الفجار»<sup>(٨٦)</sup>.

• • •

«وقال المؤملئ: المجمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه وهذا هو الذي رجّحه السهيلي وحكاه عن ابن عباس وعائشة قالت كان خويلد مات قبل الفجار وهو الذي نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن فقام خويلد في ذلك وقام معه جماعة من قريش»<sup>(٨٧)</sup>.

هذا الخبر أيده الواقدي والسهيلي من القدامى ونقله عنهم السرجاني – من المحدثين أحد محققي سيرة ابن هشام – وإذا تفرسنا في الخبر نجد أن مصدره اثنان عائشة وابن عباس.

أما عائشة فإنها لم تتحدث عن وليّ خديجة في نكاحها لمحمد وإنما تحدثت عن منزلة خويلد وتصديه لتبع عندما عزم على نزع الحجر



الأسود من الكعبة ونقله إلى اليمن وهذا يؤيد ما سطرناه قبل قليل أنه (أي خويلدا) وكان في قريش من المرابية<sup>(٨٨)</sup> الججاج<sup>(٨٩)</sup>. ومن ثم فهي لا تعتبر مصدراً لقيام عمرو عم سيدة نساء قريش بتزويجها لـ«سيد الثقلين» أما ابن عباس فواقعة التزويج هذه حدثت قبل ولادته بأكثر من ثلاثين عاماً لأنه عندما انتقل «سابق العرب» إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً لم يتجاوز عمره العاشرة إلا بعامين أو ثلاثة فهو لم يشهدها.

وقد أخذ على ابن عباس إكثاره من رواية الأحاديث والأخبار وأنه كان يروي ما لم يحضر أو يعاين أو يسمع مباشرة دون أن يبين السند الذي تلقاه منه وهو بهذه الطريقة يوهم أنه سمع الحديث من المعصوم مباشرة أو أنه شاهد الخبر بذاته وعاينه بنفسه — والمثل يقول ليس راءٍ كمن سمع، والمثل الآخر يقول ليس الخبر كالعيان وسنورد بعد سطور معدودة رواية عمار بن ياسر الذي أكد أنه حضر عقد القران وأن وليّ النكاح عن سيدة نسوان قريش هو أبوها خويلد لا عمها عمرو.

أما ما يقوله المؤمل: إن المجمع عليه أن عم خديجة عمرو هو الذي زوجها من المصطفى فهو قول فسيء وبعد قليل سنقدم أدلة فساده وللأسف فإن هناك طائفة من المؤرخين أو الباحثين تطلق أحكاماً دون تدقيق أو تمحيص.



إذا قارنا بين المصادر التي ذكرت أن خويلدا هو المباشر أو الولي في التزويج وبين التي قالت إنه العم عمرو نلّفى أن الأولى هي الأكثر عدداً والأعلى مقاماً فمن بين من ذكر الأب:

- ١ — السيرة النبوية: ابن إسحق.
  - ٢ — سيرة ابن هشام.
  - ٣ — عيون الأثر: لابن سيد الناس.
  - ٤ — تاريخ الطبري.
  - ٥ — تاريخ اليعقوبي.
  - ٦ — الزهري: صاحب السيرة المفقودة ونقل عنه ذلك كثير منهم.
  - ٧ — الصالحي الشامي في السيرة الشامية.
  - ٨ — السيرة النبوية للذهبي.
- بينما ذكر العم:
- ١ — الواقدي وقد نقله عنه البلاذري في:
  - أنساب الأشراف.

— وكذلك نقل عنه «أي عن الواقدي» الطبري في تاريخه.

— السيرة النبوية لابن كثير.

وإذا نحينا جانباً الكثرة العددية التي رجحت جانب الأب فإنه من المحال أن نغمض العين عن الثقل العلمي لأولئك الأثبات الذين أكدوا أن خويلاً هو الذي باشر العقد بصفته ولياً عن ابنته الطاهرة خديجة.

إن مما يجافى المسلك الموضوعي والمنهج العلمي للذين لا تحركهما العواطف الفجة والحماسة الفطيرة «غير الناضجة» أن ننأى بجانبنا عن: سيرة الزهري وسيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام والسيرة الشامية وعيون الأثر... الخ ونغلب عليه أي مؤلفات أخرى في نطاق السيرة المحمدية الذكية المعطار وهذا ما فعله للأسف الشديد كتاب السيرة المحمدية المحدثون. إن من العرب أو الأعاجم (في كتبهم التي ترجمت إلى العربية) مما يدفعنا دفعاً إلى أن نؤكد أن كتاباتهم في السيرة بل وفي غيرها من العلوم بعيدة بعد السماء عن الأرض عن المنهج العلمي الموضوعي بل لا تبدو مغالين إن قلنا إنهم يجنحون إلى التزييف ولكن لماذا يفعلون ذلك؟ لعل الإجابة على هذا السؤال لا تحتاج إلى ذكاء ولا تفنن إلى فطنة.

أما في هذه الخصوصية ونعني بها تأكيد أن العم هو وليّ عقد النكاح دون الأب بحجة أنه مات في حرب الفجار أو قبلها وهو خير واه أضعف من بين العنكبوت.

وفيها «هذه الخصوصية» فإن العلة تتضح بعد قراءة الأخبار الآتية:

«أخبرنا محمد بن عمر بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها خمراً قال حتى سكر ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة فلما صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير؟ قالت: زوجتي محمداً. قال: ما فعلت أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل»<sup>(٩٠)</sup>.

محمد بن عمر الذي ورد اسمه في الخبر هو الواقدي أستاذ ابن سعد المشهور بكتابت الواقدي كما ذكرنا من الذي نفوا مقولة أن أبا خديجة خويلاً هو الذي تولى عقدة نكاحها بصفته وليها مما يقطع بأنه نقل أخباراً سمعها وليس خبر تزويج خديجة على يد عمها عمرو الذي نسب إليه فيما سبق هو رأيه الذي اعتقده وجزم به.

وفي الخبر أن الطاهرة سقت خويلاً خمراً حتى سكر وطيبته بطيب وخلعت عليه حلة حبرة وهي ثوب يمان من قطن أو كتان مخطط مزين لأن حبر الشيء زينه ونمقه مأخوذ من الحبور وهو أثر النعمة والحسن والوشي<sup>(٩١)</sup>.

وفي حالة سكره البيّن وافق على الزواج فلما أفاق تساءل عن كل شيء: البقرة المذبوحة والطيب الفاتح والحلة اليمينية الغالية. فسارعت خديجة وأخبرته بأنه زوجها من «الزمرى» فأنكر ذلك بل استنكره وأتى ببرهانه وهو رفضها العليّة من قريش فكيف يباعها محمداً؟!

وخلع خديجة على أبيها الحلة الحبرة نوع من الرشوة ليوافق على التزويج أما ذبح البقرة فهو من ناحية يشي ببراء أم هند الوسيع لأن العامة في مثل هذه المناسبة تذبح شاة يقال أولم بشاة، والوليمة في طعام العرس.

ومن ناحية أخرى يقطع بأن سيدة نسون قريش انتابها فرح طاع إذ يبدو أنها يُست من إتمام الزواج للأسباب العديدة التي ألمعنا إليها.



«في التنبيهات على باب نكاح خديجة محمداً أورد الصالحي الشامي ما يلي: وذكر الزهري في سيرته أن خويلداً أباهما هو الذي زوجها منه وكان قد سكر من خمر فألقت عليه خديجة حلة وضمّخته بخلوق فلما صحا من سكره قال: ما هذه الحلة وما هذا الطيب؟ فقل له إنك أنكحت محمداً خديجة وقد ابتى بها فأنكر ذلك ثم رضيه ووافقه ابن إسحق على ذلك»<sup>(٩٢)</sup>.

في هذا الجزء أكد الصالحي الشامي صاحب السيرة الشامية وهي من أطول مؤلفات السيرة المحمدية الطيبة أن الزهري أورد في سيرته وأن ابن إسحق وافق عليه وهو «= الخبر» لا يخرج في مضمونه عن سابقه عدا أنه يعد توثيقاً لمسألة إسكار خويلد وإنكاره أنه رضى بنكاح خديجة محمداً ثم رضاؤه بعد ذلك ولعل مرده حدوث الدخول الفعلي.

أورد ابن سعد خيراً آخر عن ذات الموضوع بيد أنه أشد وعورة مما سبق:

«وأن أبا خديجة سقى من الخمر حتى أخذت منه ثم دعا محمداً فزوجه قال وألقت على الشيخ حلة فلما صحا قال: ما هذه الحلة؟ قالوا كساها خنتك محمد. فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم رغبة ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك»<sup>(٩٣)</sup>.

في هذا الخبر معطى بالغ الخطر هو أن خويلداً سقى خمر<sup>(٩٤)</sup> فلما صحا من سكره رفض الزواج بل غضب وأكثر منه أنه امتشق سيفه ليقا تل دون إمضاء القران وفعل بنو هاشم ذات الصنيع (= رفعوا أسلحتهم) وصرحوا بما تكنه صدورهم وهو عدم ميلهم لهذه المباعلة وكاد ينشب

قتال بين الحيين «بني هاشم وبني أسد» لولا أنه كالعرف المستقر في قريش عدم نشوب قتال بين بطونها فانتهى الأمر إلى المصالحة.

وهذا الأمر يؤكد ما قلناه إن هناك عقبات كبيرة وقفت في طريق الطاهرة تحول بينها وبين نكاح «ذى الميسم» ومن اختمرت في ذهنه ذرة من ريب فيما سطرناه يجيء هذا الخبر فيلقى اليقين في روعه والاطمئنان في نفسه والتصديق في وجدانه فيوقن أن أم هند خاضت وقعة عنيفة لتغدو بعلاً لـ«المصلح» لتتولى به ومعه عملية الصقل والتدريب والتشذيب والسنفرة<sup>(٩٥)</sup>. ولتضع على أرض الواقع وتشبيء في حيز الحقيقة الأمر الذي صدر لها (= خديجة) من مرجعية ذات مقام محمود بحتمية نكاح «المسد» وصيرورتها بعلاً له.

«وقالت خديجة له — يعني اللبيب — قد أخبرني ناصع غلامي به وبحيرا الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»<sup>(٩٦)</sup>.

«قال الواقدي أيضاً إن خديجة أرسلت إلى النبي ﷺ تدعوه إلى نفسها تعني التزويج فدعت أباه فسقته خمراً حتى ثمل ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة ثم أرسلت إلى رسول الله ﷺ في عمومته فدخلوا فزوجه — فلما صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير «الخلوق» وما هذا الحبير «الحلة الحبرة التي ألبسته خديجة إياها» قالت: زوجتني محمداً بن عبد الله. قال: ما فعلت أني أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل — قال الواقدي: وهذا غلط والثبت عندنا أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ وأن أباه هلك قبل الفجار وهو المحفوظ عندنا من حديث مسلم عن عائشة وعن ابن عباس»<sup>(٩٧)</sup>.

هذا الخبر أورده الطبري في تاريخه وتاريخ الطبري مثل تفسيره يحظى بفائق الاحترام من أهل السنة والجماعة.

وبالإحالة إلى ما ورد في عجز الخبر على لسان الواقدي فقد سبق لنا تفنيده والكشف عن عواره والإبانة عن خطئه وتوضيح خطله.

أما صدر الخبر فهو يؤكد الأخبار في واقعة الإسكار حتى الثمولة ويوضح أن ذلك تم بيد أم هند «فدعت أباه فسقته خمراً حتى ثمل» ثم عند صحوه استنكر الأب خويلد حادث التزويج وتعليقه ذلك تعليلاً يبدو منطقياً.

قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: بلى لعمري — فذكرت قول رسول الله ﷺ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة وصفرت لحيت وكلمت أباها

فكلم أباه وقد سقى خمراً فذكر له رسول الله ومكانه وسأله أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً فقال: ما هذه الحلة وما هذه الصفرة وما هذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت كلمت عماراً هذه حلة كساها محمد بن عبد الله خنتك وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته فأنكر أن يكون زوجة وخرج يصيح في الحجر وخرج بنو هاشم برسول الله فجأوه فكلموه — فقال أين صاحبكم الذي تزعمون أنى زوجته خديجة؟

فبرز له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر إليه قال إن كنت زوجته فسبيل ذلك وإن لم أكن فعلت فقد زوجته.

وقد ذكر الزهري في سيرته أن أباه زوجها منه وهو سكران وذكر نحو ما تقدم حكاة السهيلي<sup>(٩٨)</sup>.

هذا الخبر ينفرد بميزة تفنقر إليها الأخبار السابقة وهي أنها رواية عمار بن ياسر خذن «المترحم» وخله كما وصف هو نفسه — قبل الإسلام — وصاحبه ومن أخلص تبعه ومن السابقين للإيمان بدعوته وممن عذب بسبب إسلامه، ومن له هذه المناقب المنيفة من المستحيل أن يفترى هذا الخبر. أما الذي حمله إلينا فهو شيخ المؤرخين وشيخ المفسرين الطبري وهكذا أحاطت بالخبر عوامل تتأى به عن التزييف وتبعد به عن التدليس وتحميه من التزوير.



خمسة أخبار ضمنتها مؤلفات تعد في الذروة السامقة من دواوين السيرة المحمدية العظيمة؛ فلماذا ينبذها الكتبة المحدثون الذين ألفوا فيها ويتمسكون بخبر أعجف مهزول مشكوك في سنده وهو أن أبا خديجة مات في حرب الفجار أو قبلها أو في عامها وهذا تضارب يدعو إلى الشك فيه. هل بسبب ما ورد فيه أن خديجة أسكرت أباه حتى أخذته الثمل من كل أقطاره<sup>(٩٩)</sup>.

وماذا في ذلك؟

من ناحية: الطاهرة لم ترتكب محرماً لأن المزّة «الخمرة» مباحة ولا تثريب على ساقها وشاربها وكان تعاطيها شائعاً في الفترة السابقة على الإسلام.

ومن ناحية أخرى:

من مستلزمات الأعراس «الأفراح» تقديم الزرّجون «الخمرة» لشهوده وحاضريه سواء من أهل العروسين أو من المدعوين.

فإذا قدمت أم هند العروس وقد أخذتها فرحة عارمة الصريفية «الخمير»<sup>(١٠٠)</sup> لأبيها كضرب من التحية فإنها لم تفعل منكراً بل جرت على عرف مستقر وقت ذلك وربما حتى الآن «عند غير الملتزمين» فإذا انتهزها خويلد فرصة ليروي غليله وشرب منها نهلاً بعد علل وتعيب<sup>(١٠١)</sup>.

فهذا ليس ذنبها «= أم هند» ولا في مقدورها آنذاك أن تحوشه<sup>(١٠٢)</sup> فهو في نفس الوقت أبوها كما أنه ليس من اللائق أن تمنع العروس واحداً ممن حضروا الحفل من أكل أو شرب.

فإذا سكر أبوها وفقد وعيه فما جريرتها في ذلك؟

(قال ميسرة: فأسرعت في العودة لأبشرها «سيدتي خديجة» فغمرها السرور وأخذت في الاستعداد للزواج وأول ما فكرت فيه أن تحصل على موافقة أبيها الذي كان يرفض دون ما رحمة كل الطامحين إما أنهم ليسوا من ناحية الشرف أكفاء وإما لأن ثرواتهم أقل مما ينبغي لهذا استعملت ابنته في الوصول إلى ما تريد طريقة التحايل الآتية:

صنعت طعاماً وشراباً ودعت أباها ونفراً من سادات قريش ومحمداً وأعمامه وكان خويلد يحب النبيذ حباً جماً فشرب منه حسب عادته أكثر مما ينبغي فانتهزت ابنته الفرصة وقالت: أباي إن محمد بن عبد الله طلبني للزواج وأرجوك الموافقة على ذلك، وكان خويلد تحت تأثير الخمر يأخذ الحياة من جوانبها السارة فقبل عرض ابنته بدون تفكير وما إن حصلت على رضاء أبيها حتى قامت حسب عادتهم إلى تعطير أبيها وألبسته حلة نفيسة وصحا خويلد من سكره فسأل ابنته ما هذا؟ قالت: إنك يا أبت به عليم فقد قبلت زواجي بمحمد بن عبد الله: قال: أنا أزوجك اليتيم الذي كفه أبو طالب؟ كلا إن هذا لا يحدث ما دمت على قيد الحياة. قالت: ألا تستحي أن تسفه نفسك عند قريش تخبر أنك كنت سكران، وضربت خديجة على تلك النغمة طويلاً حتى ارتبك واضطر إلى القبول النهائي<sup>(١٠٣)</sup>.

هذا الخبر يؤيد الأخبار الخمسة السابق ذكرها والتي حملتها شوامخ مؤلفات سيرة «سيد ولد آدم» أن المزوج هو الوالد لا العم وأن إسكار الأول تم تدبير سيدة نساء الأرض «كما ورد في حديث للفخر» بل إن الخبر وصف فعلها بأنه «تحايل» وأنها بعد صحوه عرفت أم هند نغمة إقناعه وفي مقدمها أن قريشاً سوف تعييره بسكره. كما أن هذا الخبر له قيمة ويحمل إمارة ثمانته فضلاً عن أن مؤلفيه مسلمان أولهما مستشرق مسلم وحسن إسلامه فإن مترجميه أولهما غدا فيما بعد شيخاً للأزهر «رأساً

للمؤسسة الدينية الرسمية في مصر» وأخرهما «ثانيهما» أستاذ في الأزهر مما يجعلهما بمنأى عن التجريح والغمز واللمز.

هكذا أثبتنا أن امتناع الكتبة المحدثين عن ذكر هذه الواقعة وبسببها أصروا على رفض تولي خويلد مراسم العقد نوع من الطفولة أو المراهقة الفكرية ومن أسف أن من بينهم أصحاب أسماء لوامع.



وإذ أن الكتبة المحدثين لا يقرأون بتدقيق ولا يطالعون بتمحيص ومن ثم فإن مؤلفاتهم محشوة بالعبارات البيانية والصيغ الإنشائية والجمال البلاغية فهي قرعاء من البحث العلمي<sup>(١٠٤)</sup> جرداء من الدراسة الموضوعية.

إنهم لو قرأوا لعرفوا أن العلة التي من أجلها استبعدوا الأب من مجلس العقد والولاية عن الزوجة ونعني بها «= العلة» هي معاقرة القهوة «الخمير» فهي متوافرة تماماً في العم الذي يصرون على أنه هو ولي الطاهرة خديجة في عقد نكاحها لـ «العارف. العابد» وإذ إننا لا نلقى الكلام على عواهنه بل ننصب له الدليل فإننا نطرح أمام عيونهم الخبر الآتي.

«قال لعمار: ارجع فواضعها وعدّها يوماً نأتيها فيه فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمرو بن أسد فسقته ذلك اليوم ودهنت لحيته بدهن أصفر وطرحته عليه حبراً ثم جاء رسول الله في نفر من أعمامه تقدم أبو طالب فخطب أبو طالب فقال... الخ فتزوجها وانصرف فلما أصبح عمها عمرو أنكر ما رأى فقيل له هذا خنتك محمد أهدى لك هذا قال: ومتى زوجته؟ قيل له بالأمس، قال: ما فعلت. قيل له: بلى تشهد أنك فعلت فلما رأى عمرو رسول لاله قال اشهدوا أنني إن لم أكن زوجته بالأمس فقد زوجته اليوم...»<sup>(١٠٥)</sup>.

وليس ما رواه عمار بن ياسر هو المصدر الوحيد على أن خديجة سقت عمها الرحيق «الخمير» ليوافق على نكاحها لمحمد وهو أي عمها عمرو بن أسد مخمور، بل البلاذري في أنسابه ينفحنا بخبر آخر رواه عن الكلبي يوثق أن العم عمراً أجاز المباعلة أي أن تغدو الطاهرة بعللاً لـ «صاحب السيف» وهو «سكران».

«قال الكلبي: بعثت خديجة سراً إلى النبي ﷺ أن أخطبني إلى عمرو بن أسد وكان شيخاً كبيراً فأمرت شاة فذبحت واتخذت طعاماً ودعت عمها عمراً وبعثت إلى رسول الله ﷺ فأتى ومعه حمزة وأبو طالب فأكلوا وسقت عمراً ثم قالت لرسول الله ﷺ قل لأبي فليخطبني فخطبها

أبو طالب إلى عمرو فزوجها رسول الله على اثنين وعشرين أوقية ونشأ - والأوقية أربعون درهما»<sup>(١٠٦)</sup>.

في الخبر الأول نجد أن الذي رواه هو عمار بن ياسر وقد سبق منذ قليل أنه أكد بين الأخبار الخمسة أن الأب خويلاً هو الذي باشر العقد وفي هذا الخبر يفصح أنه العم فكيف السبيل إلى حل هذه الإشكالية؟

أما نحن فلا نرى أن في الأمر أدنى إشكالية لأنك لو على مذهب القائلين بأن العم عمراً هو متولى العقد فعليك أن تأخذ بشهادة الصحابي عمار أنه سقى الهباء «الخمير» حين مضاه ولما أفاق من سكره أنكره.

أما إذا كنت مثلي تعتقد أن خويلاً هو وليّ ابنته في إتمام النكاح فالخطب يسير إذ نهضت عدة حجج على صحته.

الخلاصة إذن أنه على كل الفرضين تم العقد ووكيل الزوجة غائب عن وعيه تحت تأثير الشمول «الخمير».

بيد أنه لماذا فعلت سيدة نسوان قريش ذلك؟ الإجابة على هذا السؤال جاهزة أنها اضطرت اضطراراً لأنه من الحتم اللازم أن تتكح «محمدًا» أي تتخذة زوجاً أن تصير هي بعله لأنها من جانب تطيع أمراً صارماً صدر لها - من سنوات كيما تفعل وسبق أن قدمنا دليل ثبوته.

ومن جانب آخر فإن مباحلة «الشدقم أي البليغ المفوه» هي الطريق الأوحى لكي يغدو الزوج الابن أو الابن الزوج «وجود ربيع قرن من الزمان هو فارق السن بينهما» وتسهل من ثم عملية التشكيل والإعداد والتهيئة وهذا هو الركن الأقل أهمية. أما الركن الجوهرى والعمود الفقري فهو أنه ولا أحد غيره لا في قريش ولا في ثقيف ولا في غيرهما هو المرشح لكي يصبح «القادم المنتظر».

هذه هي السيدة خديجة الارستقراطية ذات الحسب العريق والنسب الرفيع بنت أحد صناديد قريش ومن رهط قوي من الذروة والتي تملك الثروة الممدودة والمال العريض والتجارة الواسعة والمتقنة والتي ساعدت معرفتها بالقراءة والكتابة على مداها بمقومات الثقافة في زمانها والتي سمعت ما رده الرهبان والأخبار الذين لا بد أنها تعودت الاجتماع بهم فهي برزة تقابل الرجال الذين يجلسون عندها للحوار والحديث وعلمت منهم منذ سنوات أمر «القادم المنتظر»، وقرأت الصحف والإصحاحات التي ترجمها ابن عمها اللازق إلى اللغة العربية فتوثق لديها وترسب في وجدانها أحداث الموعود المأمول ظهوره ثم دققت البصر في فتيان ورجال القبيلة حتى عرفته بالمعجزات التي سبقت مولده الشريف وحايثت ذلك



الميلاد المدهش وما حدث بعده وظلت تعاصره مرحلة إثر مرحلة وكذلك بصفاته الخلقية «بضم الخاء» والخلقية «بكسر الخاء» وزاد الشأن سفوراً وتبيناً عندما أشار عليها المرجع العالي المقام السامي الرتبة الرفيع الدرجة بأن هذا الصبي أو الشاب هو المأمول والمنتظر وأن عليها أن تتكحه.

وهنا قررت أن تباعله وصممت على زواجها منه وبذلت في ذلك كل وسعها وطاقتها حتى ظفرت به وقد سطرنا فيما سلف الأفاعلي التي قامت بها في هذا السبيل.

وذلك أيضاً هو رأس اليعسوب لأنه فقه أن نكاحها إياه مع فارق العمر الذي يبلغ كما ذكرنا خمسة وعشرين عاماً سوف يؤدي بطريق الحتم واللزوم إلى نجاح عملية تحويله من يتيم قريش كما صف نفسه لديها أو يتيم أبي طالب حسب تعبير والدها إلى ذلك الذي تتطلع إليه العيون في اشتياق وتترقبه القلوب مع نفاذ صبر، ولذا فما إن ألمحت سيد نساء الأرض إلى القس بعزمها على نكاح «المطيع. المطاع» حتى هرول إلى الموافقة وأسرع إلى القبول وبادر إلى التبريك، وهذا ما حكاه لنا الدكتور طه حسين في كتابه المعجب «على هامش السيرة»: «ولكن خديجة استبقته «ورقة» قائلة: أقم فإن حديثي لم ينته قال ورقة أقدمي يا ابنة عم على ما تدبرين في نفسك لا تحجمي ولا تترددي فأنت أسعد نساء قريش بل أسعد نساء الأرض إن أتم الله لك.. وتلظفي في تدبير أمرك فإن أحببت توفيقاً فأذنيني بذلك فإني أتمنى أن تكون لي يد ما في هذا الزواج الذي سيكون له في حياة الناس أسعد الأثر وأبقاه»<sup>(١٠٧)</sup>.

ولقد أحسن العميد وأجاد في تصوير موقف اليعسوب من أمر الزواج، زواج «المتضرع في الدعاء» من الطاهرة، فهو ما نصحها بالتلطف في تدبير أمرها إلا أنه يعلم أن هناك صعوبات كأداء سوف تقف في طريقها، وصرح بحرصه على قيامه بدور في هذه المناكحة وهو ما حدث بالفعل كما سنوضحه بعد سطور — بيد أن الأخطر والأهم والأوعر هو تقريره بأن هذا الزواج سيغدو غائر الأثر في حياة الناس لأنه سيسهل عليهما «أم هند والقس» فلاح التجربة التي سيقومان بها والتي سوف تغير تاريخ المنطقة وما حولها تغييراً كلياً ولقد صدق القس في مقاله.

## الهوامش

- (١) وجدت آنذاك في وسط وغرب جزيرة العرب اثنتان وعشرون كعبة بخلاف التي في قرية القداسة بكة. أ. ه.
- (٢) مع المصطفى في عصر المبعث: ل بنت الشاطي ص ١٨ وما بعدها.
- (٣) السيرة النبوية لابن إسحاق، المجلد الأول ص ١٨٢، ط أخبار اليوم.
- (٤) في المعجم الوسيط: كبش الشيء كبشاً - تناوله بجمع يده أ. ه.
- (٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٧ وما بعدها.
- (٦) في القاموس المحيط للفيروز آبادي، وفي المعجم الوسيط: نتش الشيء، جذبته واستخرجه والعامه في مصر تستعمل الكلمة في ذات المعنى أ. ه.
- (٧) في القاموس المحيط للفيروز آبادي: نشل الشيء، انتزعه بسرعة أ. ه.
- (٨) تفاوت سننها ما بين الأربعين والسادسة والأربعين حسب الروايات التي ذكرتها كتب السيرة المحمدية التي هي أحلى من تفاح الشام مضرب المثل في الحلاوة.
- (٩) الكاهنة: سميت بذلك لأنها تستثنى الأخبار أي تبحث عنها أو هي تستحدث الأمور وتجدد الأخبار - من تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي. أ. ه.
- (١٠) العامة تقول مزق أ. ه.
- (١١) كلمة عربية فصيحة.
- (١٢) لا زال حتى الآن بعض رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية ييوس «كلمة فصيحة» أتباعهم أيديهم كلية البركة أ. ه.
- (١٣) لحم فلانا شغله بما ثقل عليه. أ. ه.
- (١٤) تاريخ الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، ص ٢٨١.
- (١٥) الروض الأنف للسيهيلي: ص ٢١٤ سابق.
- (١٦) إمتاع الأسماع (الأول) المقريزي ص ٣٦.
- (١٧) السابق ص ٣٦.
- (١٨) المستدرک للحاكم النيسابوري الحديث ٤٨٣٤، ٤٣٢ المجلد الثالث سابق، وقال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
- (١٩) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د. فاطمة محبوب، المجلد الرابع والعشرون حرف الزين ص ٥٩٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، د. ت. ن الناشر: دار الغد العربي، بمصر.
- (٢٠) أخرجه الدوالي: السمط الثمين للمحب الطبري، ص ١٢، ١٣، ط الكليات الزهري.
- (٢١) عيون الأثر لابن سيد الناس: ص ٥٠ المجلد الأول، سابق.
- (٢٢) زوجات الرسول ﷺ: أصلان عبد السلام حسن، ص ١١.
- (٢٣) السيرة الشامية: للصالح، الثاني، ص ٢٢٥.
- (٢٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين، المجلد السابع، كتاب النساء، ص ٨٠، د. ت. ن: دار الشعب بالقاهرة.
- (٢٥) كتاب المسالك والممالك: لأبي عبيد البكري تحقيق وتقديم وفهرست أدريان فان ليوفن واندرى فيري، الجزء الأول فقرة ٨٤ ص ٤٩٤، طبعة ١٩٩٢م من إصدارات بيت الحكمة مع وزارة الثقافة.
- (٢٦) دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨١، ٨٢، سابق.
- (٢٧) عيون الأثر: لابن سيد الناس الأول، ص ٤٧ سابق.
- (٢٨) السيرة الشامية: للصالح الشامي ص ٢١٥.
- (٢٩) الأملط الذي لا ريش أو شعر له. أ. ه.
- (٣٠) إمتاع الأسماع: للمقريزي الأول، ص ٣٦.
- (٣١) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١١٢، «حياة محمد» لهيكل ص ١٣٧، «محمد الثائر الأعظم» لفتحي رضوان ص ٨٩.
- (٣٢) الافتقار إلى النضج أ. ه.
- (٣٣) في المعجم الوجيز: البلسم دواء تضمده به الجروح أ. ه.
- (٣٤) المستدرک للحاكم النيسابوري: الحديث رقم ٤٨٤٠ - ٣٠ المجلد الثالث.
- (٣٥) أسد الغابة لابن الأثير الجزري، كتاب النساء، المجلد السابع ٧٦١٢، ص ٤٤، ط كتاب الشعب بمصر.
- (٣٦) حياة الصحابييات: د. حمزة النشترتي وآخرين، ص ١٤٨ وما بعدها.
- (٣٧) المرجع ذاته ص ١٥٠.
- (٣٨) السكك: البئر الضيقة الخرق وسد الشيء والدرع الضيقة الحلق من «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، والعامه في مصر تقول هذا الرجل سكة أي قليل القيمة، أو درجة ثانية أ. ه.
- (٣٩) أولاً: المصادر أو الكتب التراثية:
  - ١ - السيرة النبوية لابن إسحاق، الأول، ص ١٥٣.
  - ٢ - السيرة النبوية لابن هشام الأول، ص ١٩٣.
  - ٣ - السيرة الشامية للصالح الشامي الثاني، ص ١٤.
  - ٤ - الخصائص الكبرى للسيوطي الأول، ص ٢١١.
  - ٥ - عيون الأثر لابن سيد الناس الأول، ص ٤٧.

- ٦ - تاريخ الطبري: الطبري الثاني، ص ٢٨١.
- ٧ - السمط الثمين: المحب الطبري، ص ٣٢.
- ٨ - الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي الأول، ص ١٤٣.
- ٩ - السيرة النبوية للذهبي، ص ٣٠.
- ١٠ - امتع الأسماخ للمقرئزي الأول، ص ٣٦.
- ١١ - أنساب الأشراف للبلاذري الأول، ص ٩٧.

#### ثانياً: المراجع أو المؤلفات الحديثة:

- ١ - علي هامش السيرة لطف حسين الثاني، ص ١٤٨
  - ٢ - محمد لتوفيق الحكيم، ص ١٥.
  - ٣ - محمد رسول الله لناصر الدين آئين دينيه، ص ٩٥.
  - ٤ - نساء النبي لينت الشاطي، ص ٢٧.
  - ٥ - الرسول في بيته لعبد الوهاب حمودة، ص ٧.
  - ٦ - نور اليقين في سيرة المرسلين للخضري، ص ١٨.
  - ٧ - محمد رسول الله لجلال مظهر، ص ٤٥.
  - ٨ - حياة سيد المرسلين للأبراشي، ص ٣٢.
  - ٩ - موسوعات أمهات المسلمين لعبد الصبور شاهين وأخرى، ص ٧٥.
  - ١٠ - أوائل العرب، الأول لحبوش، ص ١٠٩.
  - ١١ - دراسات في السيرة وعلوم السنة لموسى شاهين وآخر، ص ٨١.
- (٤٠) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ٩٧.
- (٤١) زوجات الرسول ﷺ: لأصلان عبد السلام حسن، ص ١١ سابق.
- (٤٢) أنساب الأشراف: للبلاذري، الجزء الأول، ص ٩٩، مصدر سابق.
- (٤٣) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول ص ٩٨.
- (٤٤) عيون الأثر: لابن سيد الناس، المجلد الأول ص ٤٩، د. ت الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (٤٥) القاموس المحيط: للفيروزآبادي.
- (٤٦) المصباح المنير: للمقرئ الفيومي والجاسوس والجسيب من يتجسس أخبار الأعداء وتجسس الخبر جسه «المعجم الوسيط».
- (٤٧) أولاً: المصادر:

- ١ - السيرة الشامية: الصالحي الأول، ص ٢٢٣.
- ٢ - عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩.
- ٣ - الطبقات الكبرى الأول لابن سعد، ص ١١٣.
- ٤ - أنساب الأشراف: للبلاذري الأول، ص ٩٩.

#### ثانياً: المراجع:

- ١ - علي هامش السيرة: طه حسين الثاني، ص ١٧٨.
  - ٢ - محمد رسول الله: ص ٣٩، محمد رضا.
  - ٣ - حياة محمد: هيك، ص ١٣٨.
  - ٤ - محمد النائر العظيم: فتحي رضوان، ص ٩٢.
  - ٥ - دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨٣.
  - ٦ - الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من حياته: عبد الحلیم محمود، ص ٧٠.
  - ٧ - موسوعة أمهات المؤمنين: عبد الصبور شاهين وأخرى، ص ٧٨.
  - ٨ - محمد رسول الله ﷺ: جلال مظهر، ص ٤٥.
  - ٩ - محمد: لتوفيق الحكيم، ص ١٧.
  - ١٠ - حياة سيد المرسلين: الأبراشي، ص ٣٣.
- (٤٨) الوزوزة: مقارنة الخطو وسرعة الوثب، من القاموس المحيط للفيروزآبادي.
- (٤٩) العامة في مصر يقولون: انكشف الملعب أ. ه.
- (٥٠) السيرة الشامية: للصالحي الثاني، ص ٢٢٣.
- (٥١) الروض الأنف: للسهيلي الأول، ص ٢١٤.
- (٥٢) نساء النبي: بنت الشاطي، ص ٣٣.
- (٥٣) في مصحف عبد الله بن مسعود «المتزمل» انظر كتاب د. عبد الصبور شاهين «تاريخ القرآن» ص ١٤١ من الطبعة الأولى ١٩٦٦م، دار القلم الناشر، الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص ٢١١، ٢١٢ من الطبعة الثانية ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م والناشر هو المؤلف.
- (٥٤) السيرة النبوية: لابن كثير الأول، ص ٢٥١.
- (٥٥) تاريخ اليعقوبي، الثاني ص ٢٠، ٢١.
- (٥٦) السيرة الشامية: للصالحي الشامي الثاني، ص ٢٢٢.
- (٥٧) الطبقات الكبرى: لابن سعد الأول، ص ١١٣.
- (٥٨) تاج العروس من جواهر القاموس: الجزء الأول للزبيدي.
- (٥٩) ويقال للمرأة أيضاً بعلة، من مختار «الصحاح للرازي».

- (٦٠) ثمار القلوب في المضائف والمنسوب: لأبي منصور الثعالبي النيسابوري، ص ٣٢ سابق.
- (٦١) الحُلوان بالضم: العطاء، من «المصباح المنير» للمقري الفيومي، العامة في مصر تقول: الحلاوة. أ. هـ.
- (٦٢) محمد رسول الله: لناصر الدين آتني دينيه وسليمان إبراهيم بتعريب الشيخ عبد الحلیم محمود وابنه، ص ٦٧.
- (٦٣) إمتاع الأسماع: للمقريزي الأول، ص ٣٧.
- (٦٤) في المعجم الوجيز: فتح العقد لم يمض والعامة في صعيد مصر يتداولون فيما بينهم هذا اللفظ بذات المعنى. أ. هـ.
- (٦٥) في المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية: أفن الشيء أفنا، نقص.
- (٦٦) يقال فلان بطانة لفلان أي مداخل له مؤانس «المعجم الكبير» مجمع اللغة العربية.
- (٦٧) الوليجة من نتخذه معتمداً إليه من غير أهلك من «المعجم الوسيط» مجمع اللغة العربية.
- (٦٨) في المعجم الوسيط: المحض كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه.
- (٦٩) في المعجم الوجيز: زبدة الشيء، خلاصته.
- (٧٠) شكل الأمر التيس: القاموس المحيط للفيروزآبادي.
- (٧١) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢٢٢ — ٢٢٤.
- (٧٢) السيرة النبوية: لابن إسحق، الجزء الأول، ص ١٥٣ — ١٥٤ تحقيق طه عبد الرؤوف وبدوي طه، الطبعة الأولى ١٩٤١هـ / ١٩٩٨م، ط أخبار اليوم.
- (٧٣) مولد النبي: للبرزنجي، ص ١٣.
- (٧٤) عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩.
- (٧٥) سيرة ابن هشام الأول، ص ١٩٥، تحقيق السرجاني طبعة ١٩٧٨، المكتبة التوفيقية بمصر.
- (٧٦) السيرة النبوية، لابن إسحق، الجزء الأول، ص ١٥٤، ط أخبار اليوم بمصر.
- (٧٧) تاريخ الطبري، الثاني ص ٢٨١.
- (٧٨) في القاموس المحيط: متح الماء، نزع.
- (٧٩) تاريخ اليعقوبي: الثاني، ص ٢٠، ٢١.
- (٨٠) السيرة الشامية: الثاني، ص ٢٢٥ — ٢٢٧.
- (٨١) السيرة النبوية: للذهبي، ص ٣٠ — ٣٣.
- (٨٢) محمد الثائر الأعظم: فتحي رضوان، ص ٩٢، ٩٣.
- (٨٣) السميديغ: السيد الموطأ الأكتاف من كتب «تثقيف اللسان وتنقيح الجنان» لابن مكي الصقلي ص ١٢٧، أما في «القاموس المحيط» للفيروزآبادي فهو السميديغ بالذال المعجمة.
- (٨٤) تاريخ الطبري: الثاني، ص ٢٨١.
- (٨٥) أنساب الأشراف: البلاذري، ص ٩٧ — ٩٩.
- (٨٦) هامش ص ١٩٥ من سيرة ابن هشام، الأول، بقلم السرجاني الذي حقق الكتاب طبعة المكتبة التوفيقية.
- (٨٧) السيرة النبوية: ابن كثير، الأول، ص ٢٦٦، ٢٦٧.
- (٨٨) جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم «المعجم الوسيط».
- (٨٩) الجحاح جمع ججاج وهو السيد المسارع إلى المكارم من «أساس البلاغة» للزمخشري.
- (٩٠) الطبقات الكبرى: لابن سعد الأول، ص ١١٣.
- (٩١) وهي ثوب يمان من قطن أو كتان مخطط مزين لأن حبر الشيء زينه ونمقه مأخوذ من الحبور وهو أثر النعمة والحسن والوشىء من «المصباح المنير والمعجم الوجيز والقاموس المحيط».
- (٩٢) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢٢٥ — ٢٢٧.
- (٩٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١١٣.
- (٩٤) «جاء الفعل مبنياً للمجهول وللسنا في حاجة إلى زكاة لمعرفة ساقية الخندريس أي الخمر. أ. هـ».
- (٩٥) الصنفرة ورقة مرملة يلمس به الخشب، من المعجم الوجيز.
- (٩٦) السيرة النبوية: ابن كثير، الأول، ص ٤٠٧ — ٤١٠.
- (٩٧) تاريخ الطبري: الثاني، ص ٢٨١، صفحة ٢٥٧.
- (٩٨) السيرة النبوية: ابن كثير، الأول، ص ٢٦٦، ٢٦٧.
- (٩٩) العامة في مصر تقول: «سكران طينة».
- (١٠٠) أسماء الخمر التي وردت في هذه الفقرة من كتاب «نظام الغريب في اللغة» ص ٩٤ مصدر سابق.
- (١٠١) في المعجم الوسيط: تعيب الشراب تجرعه بكثرة وألح فيه حتى فقد وعيه. أ. هـ، والعامة في مصر تقول: «سكر سكرة يني».
- (١٠٢) تمنعه وهي كلمة فصيحة.
- (١٠٣) محمد رسول الله: لآتين دينيه ناصر الدين وسليمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ عبد الحلیم محمود وابنه الشيخ محمد، ص ٩٦ — ٩٨، ط أولى ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.
- (١٠٤) في المعجم الوسيط: قرع الفناء، خلا من الساكنين.
- (١٠٥) تاريخ اليعقوبي: الثاني، ص ٢٠، ٢١.
- (١٠٦) أنساب الأشراف: البلاذري، ص ٩٧ — ٩٩.
- (١٠٧) على هامش السيرة: طه حسين، الثاني، ص ١٧٧ سابق.

## الفصل الثاني

الأم الرؤوم فاتحة أطوار التجربة

[Blank Page]

في الفرشة ذات الطيتين والتي نأمل ألا يسأمها القارئ لطولها النسبي إذ حاولنا أن نوصل إليه ما يعينه على استيعاب الفكرة الرئيسية التي يدور حولها الكتاب فطرحنا فيها «= الفرشة» ما نعدّه إرهاباً لها «= للفكرة الرئيسية» تجمع بين القادم<sup>(١)</sup> والمدماك إذ إنها تمهد لها وتحببها أي تشد إزارها في نفس الوقت.

ولقد أدرك الأقدمون ذلك وهذا يتضح بسهولة في كتبهم التراثية التي خلفوها لنا والتي ذكروا فيها كل الوقائع حتى التي يسرع إلى الذهن أن فيها ما فيها مما يجل أو يستحسن ستره أو إخفاؤه.

بعكس الكتبة المحدثين الذين فعلوا النقيض، بل إن الأمر وصل ببعضهم إلى حد التدليس أحياناً والتلفيق أحياناً أخرى والتبرير والتسويع ولي أعناق النصوص أحياناً ثالثة. نقول إن القدامى أدركوا حقيقة العلاقة بين «سيد الناس وديان العرب» كما قال له الأعشى فيما بعد ونعني به محمداً وبين سيدة النساء خديجة إذ لم يخف عليهم شعور البنوة الذي أبداه محمد، نحوها وعاطفة الأمومة الفيضة بالحنو التي سكبها عليه.

وفي بدي التجربة — وقد عدت ذلك من بشائر نجاحها — ما إن يلقي محمد ملاك الرب جبريل فتتلقاه بين ذراعيها وتأخذه في أحضانها وتهدهه وتطمئن فؤاده وهي تفعل ذلك كما الوالدة على ولدها.

ومن جانب آخر كيما تثبته حتى لا يتوقف فتفسد التجربة بأسرها وتذهب هباءً منثوراً أدراج الرياح كل الجهود التي بذلتها والأموال التي أنفقتها.

... ثم انصرف «= ملاك الرب جبرائيل» ثم انصرفت إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيقاً إليها — يعني ملتصقاً<sup>(٢)</sup>.

ونكتفي بهذا العدد من المصادر والمراجع.

في هذا الخبر ما إن فارق الملاك الرب «الصين. المصون» حتى سارع إلى الطاهرة جالساً على فخذه ملتزقاً بها شأن الابن الصغير مع أمه الحبيبة الشفيقة عليه وهي تدعه جالساً على فخذه وتضمه إلى صدرها بقوة وحنية.

وهنا يتعين علينا أن نتذكر أن محمداً في الأربعين من عمره أو الثالثة والأربعين على مذهب من يقول إن إسرافيل «وفي رواية ميكائيل» لازمه ثلاثة أعوام قبل جبرائيل، ومع سلخه هذه السنوات من عمره المبارك فقد ظل يشعر نحو أم هند بشعور الابن نحو أمه الحنون.

لماذا؟ لأن سيدة قریش تعاهدته به «= هذا الشعور» منذ أول لحظة نكحته فيها واستدام معه ينمو بنموه ويكبر معه حتى طور الكهولة لأن من شب على شيء شاب عليه، والمحب الطبري يخبرنا في «السمط الثمين» أن محمداً بنى بخديجة وهو ابن إحدى وعشرين سنة (ص ١٤) ولو أنه يضيف: وقيل خمس وعشرين وعليه الأكبر.

والمحب الطبري ليس وحده هو الذي ذهب إليه «= ابن إحدى وعشرين سنة» بل العديد من الأقدمين والمحدثين شاركه فيه.



أما المحدثون الذين ألفوا كتباً في السيرة المحمدية التي تتضوع مسكاً فقد تناولوا العلاقة بين الزوجين المباركين لكن تفاوت منهجهم تفاوتاً كبيراً.

فمثلاً نرى كارين أرمسترونج وهي كما يشي به اسمها من الفرنجة أثبتت أنها على قدر لا بأس به من الأمانة العلمية: «ألقى محمد بنفسه في حجرها «خديجة» وهو يزحف على يديه ورجليه بينما يرتعد الجزء الأعلى من جسده.. فأخذته خديجة بين ذراعيها وهي تخفف عنه وتحاول أن تبعد عنه الخوف..»

وفيما بعد كان يتلقى الرؤى إلى جانب الجبل وكان أيضاً في كل مرة يسرع إلى خديجة راجياً إياها أن تحتضنه وتدثره في عباة.. لكن خديجة راجياً إياها أن تحتضنه وتدثره في عباة.. لكن خديجة لم تكن شخصية أم تبعت الطمأنينة فحسب... الخ<sup>(٣)</sup>.

أما الكتبة المحدثون العرب فقد ألمحوا ولم يصرحوا وجمجموا ولم يبينوا:

«... وكانت خديجة ربة البيت تستقبله بوجه مبتسم ونفس راضية وقلب يحنو عليه ثم يحيطه بكل أنواع الرعاية...»<sup>(٤)</sup>.

هذا كل ما قدر عليه المؤلفون، إنهم يصفون ما صدر عن أم هند:



الاستقبال بالوجه المبتسم والنفس الراضية وحنو القلب والتحويط بكل أنواع الرعاية..

وتركوا لفظانة القارئ لكي يترجمه بشعور الأم نحو وليدها ولا تثريب عليهم إذ فعلوا لأن عاطفة الوالدة إذا اقترنت بحنو الزوجة أضاف إلى رصيدها زيادة وضاعف مكانتها، وكانت هي «أم هند» في الأربعين من عمرها «أي عند مباعلتها أو نكاحها لمحمد أ. ه». فعوضه الله سبحانه وتعالى عن أمه التي فقدها في صدر حياته وقت الحاجة إليها بزوجة وأم وخير رفيقة في الحياة<sup>(٥)</sup>.

«... ووهبته ما تملك في سبيل الدعوة وكانت له الصدر الحنون ساعات روعه ومحنته.. وظلت إلى جانب الرسول ﷺ تعاضده وتعينه»<sup>(٦)</sup>.

ورغم أن خديجة نفحت محمداً في ساعات المحنة وأيام المنحة صدرها الحنون ولم تقتصر على أوقات الأزمات مما يدل على خطأ حبوش في تحجيره وصرفه لزمان الشدة فحسب فإن عبارته كشفت عن تقطنه إلى «العلاقة» ويسطرها في كتابه، ومنهم من قال:

«تزوج محمد من السيدة خديجة بنت خويلد التي وهبته إخلاصها وحنانها»<sup>(٧)</sup>.

وبأحث آخر لا يكفي بهبة الطاهرة محمداً حنانها وإخلاصها بل قال عليها «وإنها لتذوب رحمة به وحناناً وإشفاقاً عليه وخوفاً»<sup>(٨)</sup>. والذي لا مشاحة فيه أن الأم هي التي تذوب رحمة وحناناً وإشفاقاً وخوفاً على ابنها الوحيد الذي لا ثاني له أما الزوجة فإن شعورها لا يصل إلى هذا المرقى العالى والذروة المرتفعة ولا يتجسم هذا المصعاد الجهيّد.

بيد أن الكاتب نكص على عقبيه ولم يمض حتى آخر الشوط فيضع تحت نظر القارئ أو بمعنى أوضح ينقل إليه ما استبان له من حقيقة الصلة الوشيحة التي ربطت بين «الشهم» والسيدة الطاهرة.

مثل العرب الذي يقول: «قطعت جهيزة قول كل خطيب» ينطبق على الدكتورة عائشة عبد الرحمان أو بنت الشاطئ، وهي كما يعرف القارئ كاتبة إسلامية أو مفكرة إسلامية ذات مقام محمود اتسمت في تناولها لهذه النقطة بقدر وفير من الشجاعة الفكرية فقد أكدت بوضوح لا لبس فيه أن شعور خديجة نحو محمد هو شعور الأم التي تفيض حناناً وعطفاً وحباً ورئماً على ولدها الذي لم ترزق بغيره.

وهذا بعض ما ذكرته: «... فأمسك الشاب اليتيم دمعة كادت تخونه

وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ أن تركته أمه في السادسة من عمره صبيّاً لتعرض عليه لكي يتقدم ليخطبها إذ إنها راغبة في نكاحه. أ. هـ» «وتتدّت عينا محمد وهو يفتقد أمه أمانة فإذا يد لطيفة رقيقة تأسو الجرح القديم في حنان غامر» (ص ٣٣).

«... وضمته إلى صدرها وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة في قلبها.. واستشعر الراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق إلى فراشه فتضعه فيه كما تفعل أم بطفلها الوحيد ثم تهدده بصوتها الحلو وتنتشر على مضجعه أسنى الأحلام» (ص ٣٦).. «وتلقته خديجة من صحوه بين ذراعيها وحدثته بما سمعت من ورقة بن نوفل – المرجعية الذي طفق يتابع التجربة عن كثب ويشير على الطاهرة بما تفعله في كل مرحلة. أ. هـ – فرنا محمد ﷺ إليها ملياً بنظرة تفيض شكراً وامتناناً» (ص ٣٧)<sup>(٩)</sup>.

لقد أجادت وأبدعت بنت الشاطي في وصف العلاقة بين خديجة ومحمد وربما يرجع ذلك إلى أن الدكتورة عائشة تحس بشعور الأم لأنها أنثى وأم..

والعبارات التي أوردتها في توصيف الرابطة تنطق بذاتها وليست في حاجة إلى شرح أو توضيح.

بيد أن الذي غاب عن المؤلفة في هذه الخصوصية مع أنها فطنة لبيبة أن هذا الشعور الدفاق الذي دلقت أم هند مبعثه ليس شعور الأمومة فقط إنما يضاف إليه حرصها المكين على فلج التجربة التي بدأتها مع «صاحب الرداء» منذ ما يقرب من عشرين عاماً فهذا الشعور له أثر السحر على محمد البيتيم الذي حرم منه وهو صغير فدفعه أن يقدم المزيد من التوافق مع السيدة الطاهرة.

وهو ركن جوهرى لا غنى عنه كيما يكتب للتجربة الظفر الكامل والفوز المبين.



من له أذنان فليسمع من له عيان فليبصر ومن له عقل فليندبر ومن له فهم فليفقه ومن له بصيرة فليدرك.

إذ ربما ينبرى لنا قارئ فلهاس من إياهم<sup>(١٠)</sup>. من باب المعاندة ويقصد المخالفة ولمجرد المفارقة ويدعي على غير وجه حق أن ما طرحناه أنفاً ليس فيه مقنع بأن «الحبيب المصطفى» نظر إلى الطاهرة نظرة الابن لأمه الحنون ولا أنها عاملته كما تعامل الوليد الوحيد أو أنها أغدقت عليه

فيوضاً من حنانها أو أغرقته في بحار عطفها أو حوّطت عليه ببررها. حقيقة ربط بينهما ود متبادل بيد أنه لم يخرج عن دائرة ما يحدث بين زوج وزوجة ولم يغادر نطاق ما بين بعل وبعلته<sup>(١١)</sup>.

ولكي نقطع عليه طريق المشاكسة ولكي نسك عليه منفذ المعارضة فإننا نضع تحت باصرته هذا الخبر: «قال محمد يا خديجة هذا جبريل، قالت: يا ابن عم قم فاجلس على فخذي اليسرى فجلس قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فاقعد على فخذي اليمنى فجلس على فخذاها اليمنى قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فاجلس في حجري ففعل، قالت: هل تراه؟ قال: نعم فتحسرت وألقت خمارها ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: أثبت وأبشر فوالله إنه ملك وما هذا بشيطان<sup>(١٢)</sup>.

وهناك إضافة للخبر المذهل: ... يونس عن ابن إسحق قال: فحدث عبد الله بن الحسن «بن الحسن بن علي بن أبي طالب» فقال: سمعت فاطمة بنت حسين «وهي أمه» تحدث بهذا الحديث عن خديجة إلا أنني سمعتها تقول: أدخلت رسول الله ﷺ بينها وبين درعها «يعني قميصها» فذهب عند جبريل عليه السلام<sup>(١٣)</sup>.

وتكملة أخرى لذات الخبر المعجب: وهي أن اختبار الآتي لمحمد أو تعبير السيدة الطاهرة «صاحبك» لمعرفة هل هو من الملائكة أو من الشياطين أنجز بإرشاد ورقة بن نوفل<sup>(١٤)</sup>.

والقس كما رأينا هو «مدير المتابعة» بالتعبير الحديث لـ «التجربة» المذهلة التي تقودها وتنفذها بدقة ومثابرة سيدة قريش.

بيد أن ورقة لم يأمرها سوى بالتحسر أي نزع الخمار أما إجلال «المعظم» على فخذيها ثم على حجرها ثم إدخاله في قميصها فهذا من إبداعها وصنعها. لماذا؟

مرجعه إلى شعورها بعاطفة الأمومة الذي غدا طاغياً تجاه «الخالص» حتى بعد أن ناهز الثالثة والأربعين هذا من جانبها.

أما من جانب «الخالص» فلا شك أن القارئ لم يفته أنه أصبح مثلاً فإذا في المطاوعة والملاينة. اجلس على فخذي يجلس – تعال في حجري.. يأت. ادخل بين قميصي وجسدي.. يدخل.

وهذا له دلالة لمن لديه ذرة من زكاة أو مسكة من فطانة على أن «الخالص» غدا ينظر إلى زوجته نظرة الابن إلى أمه الحبيبة الذي يرى سعادته في برها ومهاودتها وأن ما تأمر به واجب النفاذ العاجل لأن

الوالدة الحنون لا تشير إلا بكل ما هو في صالحه ولفائدته حتى ولو لم يعرف كنه الطلب ولا مغزى الأمر.

فهنا نجد صورة نادرة أشد الندرة للفتان في المحبوب بل للفناء فيه حتى إنها تذكرنا بالتعبير الشائع: «جسدان في روح واحدة» ونسأل: هل هو حلول أم فناء أم اتحاد؟

اختر ما شئت إنما لذي لا مشاحة فيه أنها صورة أندر من الكبريت الأحمر كما يقال في حب الزوج الابن أو الابن الزوج للزوجة الأم أو الأم الزوجة.



ولا نريد أن نغمط سيدة النساء حقها في هذه الخصوصية وحتم علينا أن نقر ونعترف بمهارتها عديمة الضريب في المزج الرائع بين الأمومة الفياضة بالحب والحنان وبين الإعداد الدقيق لتلقي التجربة ولولا هذا الخلط البارع الذي طالعنا أياته<sup>(١٥)</sup> منذ قليل لما قدر لها «التجربة» الفلج الذي ملأ الدنيا وشغل الناس منذ أربعة عشر قرناً وما زال يشغلهم حتى الآن وربما لأمد بعيد ما لم تتبدل جذرياً أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وما لم يتحلل حراس الأسطير المخيم وحلاس التراث المبارك عن أماكنهم الميمونة.



بعد الرحلة المباركة التي قطعتها السيدة خديجة انتقلت روحها الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية بعد أن هدها المرض وسوء التغذية طوال مدة الحصار الذي فرضه عليهم طواغيت قريش الذين خلت قلوبهم من الرحمة والإنسانية ورغم أنها ليست من بني هاشم إلا أنها أثرت أن تظل بجوار بعها وابنها الحبيب تشاطره الشدة وتقاسمه المحنة وتشاركه العسرة.

ذاك موقف يعجز القلم عن تصويره، فالسيدة البالغة الثراء المنعمة المترفة التي عاشت في رغد وبلهنية لم تتأ لها أخلاقها السامية أن تترك «الأواه» وحده يعاني مشقات الحصار الظالم ولكنها لم تتحمل لأنها ناهزت الخامس والستين — فأسلمت الروح وهي قريرة العين بعدما رأت وسمعت ولمست نجاح التجربة العظيمة التي استهلكت من مالها الكم الوفير ومن صحتها القدر الذي لا يعلم مداه إلا الله.

ويكفي ملازمتها لـ «إمام المتقين» كلما راح لغار حراء الذي يبعد عن

دارها ثلاثة فراسخ الصعب المرتقى الضيق المولج. في بداية التجربة على الأقل لمدة خمس سنوات والملازمة أمر لا غنى عنه وقت ذاك حتى يقيض لها «التجربة» الفوز والفلاح والتي لولاها لصار نجاحها مشكوكاً فيه.

وبدون الإرادة الفولاذية والشكيمة الحديدية والعزيمة الصلبة وهي الصفات التي تمتعت بها الطاهرة والخصائص النادرة التي تمتعت بها لما أفلجت التجربة ولما طرحت الثمرة الناضجة الباهرة.



صعق موت خديجة «الحبيب المصطفى» صعقاً وجيعاً حتى إنه سمي عام وفاتها «عام الحزن» خاصة وأن فيه توفي عمه أبو طالب حاميه وكافله ومؤازره. ويذكرنا حزنه الدفين عليها بحزنه الشديد عند موت القس ورقة الذي اقترن به فتور الوحي أو انقطاعه لدرجة أنه هم عدة مرات أن يلقي بنفسه من رؤوس شواهد الأجل لولا أنه كما حدثنا في آخر لحظة يظهر له ملاك الرب جبرئيل فيثنيه عن إمضاء عزمه.



كان الأسى المرير على فقد خديجة أمراً بديهيّاً لأنها الأم الرؤوم والوالدة الحنون والزوجة الحبيبة التي أزرتة وعضدته وثبتته والتي لولاها لما أكمل التجربة حتى نهايتها وهي التي فتحت له خزائنها يغرف منها كيفما يشاء والتي وضعت بين يديه كل ما تملك ورفعت عن كاهله هم الرزق وخوف الخلق وفرغته كيما يجتاز المراحل مرحلة وراء أخرى، وهي التي أتاحت له التماس بالقس ورقة وغيره مثل عداس وبحيرى وقضاء الليالي الطوال مع ابن نوفل في المدارس والذاكرة والمحاور.

أو تقرأ له وهو الأمي بشهادة القرآن الكريم الصحف التي قام القس بنقلها إلى اللسان العربي.

وهي التي هيأت له الاختلاط بأصحاب كافة الملل والنحل والعقائد والأديان الذين اكتظت بهم بكة التي يؤمنونها «يتوجهون إليها ويقصدونها» لأغراض متباينة: الموعظة، الدعوة، التجارة، الجاسوسية، الحج إلى البيت الحرام الذي اعتقدوا أنه إرث إبراهيم أبي الأنبياء وأكبر البطارقة.

ولولا التفرغ الدائم أحد عطايا أم هند لما انفسحت له الفرص الثمينة، إذ لا شك أن الخلطة بهم شكلت جزءاً من الخلطة المرسومة لما انضوت عليه «الخلطة» من تمرس واستماع وحفظ وحوار ومدراسة وتخزين معلومات فمن المعروف أن الأمي يتمتع بذاكرة خارقة.

منذ فجر التجربة المعجبة أدركت السيدة اللببية ببصيرتها النافذة وعقلها الراجح وأفقها الواسع أن احترافه التجارة بما يتطلبه من سفر وعقد صفقات ورسوم ومقابلات سيستنزف وقته وجهده بالكامل ولا يدع له فسحة من الوقت.

في حين أن التجربة تحتم ضرورة التفرغ لها بالكامل وطلاق كل ما يشغله عنها طلاقاً بائناً بينونة كبرى.



كذلك فإن «التجربة» علاوة على ما ذكرنا لها جانب شديد الأهمية بالغ الخطر وهو الانعزال عن الناس لفترة معينة في كل عام للتحنف والخلوة والتحنث والتبرير وهذه كلها تمثل الجانب الروحي وإعداد النفس والجسم معا لتلقي الرؤى والهواتف واستقبال الكائنات العلوية غير المنظورة للناس العاديين والحديث معها. وتراثات أهل الكتاب ومرويات غيرهم من سائر الملل والديانات الأخرى مليئة بأمور مماثلة أو حتى مشابهة.

وهنا نذكر بقيام ورقة بالتدريس وبت ترجمة صحائف من الكتاب المقدس وقراءة الطاهرة لها — فهي تقرأ وتكتب — واستيعابها ثم تلقينها وتحفيظه إياه. بقى التطبيق العملي الذي مارسه بحذق ومهارة يعز مثلها ونفذه الابن البار المتفاني في المحبة والمهاودة — نفذه بصورة عرية عن الضروب ولا غرو فهو عبقرى لا يفري فرية أحد ومنذ ظهوره المبروك، لم تر له جزيرة العرب نظيراً وحتى مقارباً.



وظلت ذكرى سيدة نسوان قريش متأججة في نفس محمد لم تفارقه لحظة وبقي حتى آخر يوم في عمره الميمون شديد الوفاء الذي يتغلغل في أعماق حنايا نفسه لها.

وحتى عندما أصبح سيد الجزيرة العربية بأسرها وديان العرب جميعهم فإنه طفق يصرح بأعلى صوته أنها صاحبة الفضل عليه وأنها وحدها من دون الجميع آمنت به بينما كذبه قومه وأزرتة وعضدته ووقفت بجواره في الحوالم والأزمات ورزق منها الولد في حين عجزت سائر نساءه.

وسوى بينهما وبين الصديقة المصطفاة على نساء العالمين بنص القرآن الكريم مريم بنت عمران وأم المسيح عيسى «عن عبد الله ابن جعفر عن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — سمعت رسول الله ﷺ يقول خير نساءها مريم بنت عمران وخير نساءها خديجة»<sup>(١٦)</sup>.

ولقد أورد البخاري أصح كتاب بعد الذكر الحكيم ذات الحديث بنفس السند برواية عليّ بن أبي طالب فإذا خرّج البخاري والحاكم حديثاً فلا مطعن عليه ولا يتجاسر مسلم على تجريحه أو غمزه حتى ولو انتسب إلى نفاة السنة أو المشككين فيها، هداهم الله. وهذا الحديث ليس هو الفذ أو اليتيم بل أمثاله كثير وقد اكتفينا به منعاً من التطويل وفي أحاديث أخرى سوى بين خديجة وسارة وآسيا زوج فرعون.

ونستغنى بالحديث المذكور ففيه التصريح بالمساواة التامة بين مريم أم عيسى على الحقيقة «دعك الآن من مسألة الولادة العذراوية وما دار حولها من بحوث تيولوجية فلا مجال لها هنا فضلاً عن أنها بالغة التعقيد أ. هـ» وبين سيدة نسوان قریش أم محمد عن طريق المجاز أو أمه المعنوية أو الاعتبارية.

فالأولى: مريم — بنص القرآن العظيم — مصطفاة نساء العالمين أي سيدتهن ومقدمتهن، وصديقة فبالمثل تغدو الأخرى «أم هند» في ذات الرتبة والمقام والدرجة وتتمتع بالألقاب نفسها فضلاً عن أن هذه التسوية بين السيدتين الجليلتين لها مدلول عميق ومغزى غائرة وإشارة خبيثة سوف تتفتح أكاميمها سنة سنة<sup>(١٧)</sup> من هذا الكتاب.

وتعود محمد على بر صديقات الطاهرة وقل أن يذبح شاة دون أن يهدي إليهن منها ولمح مرة وهو يمشي مع بعض صحابته واحدة منهن فانتحى جانباً من الطريق وسلم عليها ووقف يحادثها ويبدو أن الحديث طال — لأن من شمائله الجميل كما الورد المتفتح ألا يترك محدثه حتى ينصرف عنه — فسأله أحدهم عنها فردّ عليه أنها اعتادت تزورهم أيام خديجة.



ولا شيء يثير ثائرة محمد ويدفعه إلى الغضب ويحثه على الحنق ويجره إلى الغيظ قدر كلمة فيها إساءة أو تعريض بسيدة قریش مهما بلغ قائلها من مكانة سواء في المجتمع أو في نفسه هو.

فعائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة أصبى زوجاته وأجملهن وأصغرهن خطبها وهي في السادسة ودخل بها في الثامنة وقد ناهز الخامسة والخمسين.

ومن هذات ما فتنت تتدلل عليه وما انفك هو يصرح بحبه إياها.

وسائر نسونه عرفن ذلك عنه فغرن منها إنما الغيرة المكتومة لأنها لو ظهرت فستجر على صاحبها المتاعب.

الزوجة منهن إذا أيقنت أنه لم يعد لديها ما يغرى «صاحب الهراوة»

باستبقائها على ذمته وتستنشر عزمه على فراقها تسرع إليه وتطلب إليه بإلحاح أن تظل زوجة له وتهب ليلتها لعائشة.

إذ هي تدرك مدى حبه لها وتليها أم سلمة ثم زينب بنت جحش «لجمالهن الفائق وحسنهن الزايد وبهائهن المفرط» ثم حفصة «لا لملاحتها إنما لأنها ابنة العدوي عمر بن الخطاب».

ففي القرآن المجيد ﴿ثُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾<sup>(١٨)</sup> «وكان فيمن أرجأ رسول الله ﷺ سودة وأم حبيبة وميمونة فأراد فراقهن فقلن لا تفارقنا ودعنا على حالنا وأقسم لنا ما شئت من نفسك ومالك فتركهن على حالهن وقسم لهن ما شاء قال وكان ممن أوى عائشة وأم سلمة وزينب وحفصة وكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء».

وهذا الحديث في مسند أحمد.

وقال المحقق في هامش الصفحة: «أرجأهن بعد أن كبرن فلم يقسم لهن أيامهن...»<sup>(١٩)</sup>.

ونضيف أن مرجع ترجى سودة وأم حبيبة وميمونة منه «المعلم» عدم طلاقهن واستبقاءهن دون قسم الليالي هو اعتقادهن أنهن لو بقين على ذمته لدخلن معه أعلى عليين في الفردوس بخلاف لو طلقهن لما ظفرن بهذه الرفقة.



وفي وقت من الأوقات اجتمع محمد بعدد من صحبة في حجرة عائشة على غداء أو عشاء فأرسلت زوجة أخرى هي صفية بنت حيي طبقت فيه طعام «ونظراً لأنها يهودية ومن العلية بين قومها فهي على درجة حضارية أرقى ومن ثم تجيد الطبخ أ. ه».

فما إن رأت بنت أبي بكر الطبق حتى كسرتة واندلق ما فيه أمام «المتوكل» ومن حضر فلم يزد على قوله «لقد غارت أمكم» وأمرها أن تصنع طعاماً بدله وترسله إلى ضررتها صفية.

هذه الأحذوثة<sup>(٢٠)</sup> تقدم الحجة الساطعة والبرهان القاطع على مدى تدلل بنت أبي بكر على «صاحب التاج».

بيد أن هذا الخبر أوعر: «هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها كانت تقول لنساء النبي ﷺ أما تستحي المرأة أن تهب نفسها فأنزل الله تعالى: ﴿ثُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ (الأحزاب: ٥١) فقالت عائشة: «أرى ربك يسارع لك في هوك»<sup>(٢١)</sup>.



وفي رواية ابن إسحق بذات السند: «قالت عائشة: كنت أغار فقلت لامرأة ممن وهبت نفسها لرسول الله ﷺ أما تستحي المرأة أن تهب نفسها بغير صداق وكان رسول الله ﷺ قد اعتزل بعضهن وكنت على رجاء فلما نزلت الآية المذكورة ﴿شُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾... الخ أبيت وقلت إني لأرى ربك يسارع لك في هواك»<sup>(٢٢)</sup>.

العبرة الأخيرة الواردة في لخبر ذي المصدرين والرواية الواحدة وهي قول عائشة: «أرى ربك يسارع لك في هواك» لا تجرؤ مسلم سوى التيمية بنت ابن أبي قحافة على التقوه بها فهي تقطع بأن الذات العلية تهرع إلى مرضاة محمد في هواه وتلبى طلباته فوراً وحاشا لله جل جلاله أن يفعل.

ومن طريق أخرى نسبت الهوى إلى «الناطق بالحق» وهو كما نعلم جميعاً ما ينطق عن الهوى وثالثاً أن الهوى الذي نسبته التيمية بنت ابن أبي قحافة إلى «الهمام» يتعلق بأمر نسائي – حتى لو في نطاق الحلال الصرف – والمأمول منها أن تنزهه عنه، وبهذه المناسبة تقفز إلى أذهاننا العاصفة التي أثرت أخيراً من أن كتب الأحاديث حتى الصحاح منها فيها أحاديث شديدة الواقع على نفس المسلم التقى<sup>(٢٣)</sup>.

وعلى أي حال فإن الذي لا مشاحة فيه أن التيمية بنت ابن أبي قحافة لها عند «صاحب النعيلين» مكانة عالية حتى إنها جرّوت على أن تقول له وتفعل في حضرته ما لا يتجاسر عليه مسلم أو مسلمة ومرجعه إلى صغر سنها «بالنسبة إليه» ووضاعتها وأنها الوحيدة من بين نسوانه التي تزوجها عذراء بكرًا.

فضلا عن أنها بنت «الثاني في الغار»، إن الزوجة الغندورة<sup>(٢٤)</sup> اعتقدت أن بما لها من حظوة لدى «راكب البعير» أن تدوس على طرف سيدة النساء الطاهرة. بيد أنها فوجئت بأنه قابلهما بغضب عارم وأمسك بشدقها «جانب فمها» وحذرها من العودة لمثله فامتثلت وحرمت.



في مرة قالت عن سيدة نسوان قريش إنها عجوز حمراء الشدقين وإن الله أبدله خيراً منها فبان الغضب على قسماط وجهه بشدة شديدة وصكها بقوله إنه غير صحيح بالمرّة وإن الله لم يبده خيراً منها:

فقد أمنت حين كفرت قريش به وواسته بنفسها ومالها وأزرتة ورزق منها الولد في حين أن أي واحدة من نسائه التسع لم تفعل.

وفي خبر آخر «أن أم رومان» = أم عائشة دخلت حجرتها فوجدت «صاحب الشملة» مغضباً من ابنتها فقالت له يا رسول الله مالك ولعائشة

إنها حدثت «أي صغيرة إذ يبلغ الفارق بينهما في السن أكثر من خمسة وأربعين عاماً» أ. هـ.  
وإنك أحق من يتجاوز عنها – فأخذ بشدق عائشة وقال: ألسنت القائلة: كأنما ليس على الأرض  
امرأة إلا خديجة والله «أي أنه أقسم» لقد آمنت بي إذ كفر قومك ورزقت منها الولد وحرمتموه»<sup>(٢٥)</sup>.  
ومن حديث آخر والله «قسم» ما أبدلني الله خيراً منها.

• • •

والعجب كله أن الإخباريين يضيفون إلى صفات التيمية بنت أبي قحافة الذكاء والفظانة فكيف لم  
تدرك أن خديجة بالنسبة لمحمد ليست زوجاً وأما فحسب بل هي صاحبة الفضل وهندوز التجربة التي  
خلدت اسمه في الأولين والآخرين ودفعت تبعه «المصدقين به» أن يقرنوا باسم رب العزة ذي الجلال  
والإكرام تقدست الأؤه، اسمه الشريف فكيف يرضى إذن بأي مساس بها حتى ولو من أصبى زوجاته  
وأحلاهن وأملهن وأبهاهن<sup>(٢٦)</sup>.

ولقد ترك «الذي تنام عينه ولا ينام قلبه» عدداً وفيراً من الأحاديث التي لا تعبر فحسب بل  
تقطع بعلو مكانة وارتفاع مقام وسمو قدر أم هند عنده وعن مدى اعترافه بالجميل لها وقد وردت  
«الأحاديث» في دواوين السنة التي تقدسها أمة لا إله إلا الله.

وفي مقدمها على سبيل المثال لا الحصر صحيح البخاري الذي وصف بأنه أصح كتاب بعد  
الذكر الحكيم نذكر منها:

١ – سمعت عبد الله بن جعفر عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: خير نسائها مريم  
وخير نسائها خديجة.

٢ – عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: – وأتى جبريل النبي ﷺ – فقال: يا رسول الله  
هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني  
وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

٣ – عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: قال «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد  
ومريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون»<sup>(٢٧)</sup>. بيد أن حديثاً صدر من «الألمعي» وقفت عنده  
ملياً.

٤ – عن ابن أبي داود قال دخل رسول الله ﷺ على خديجة في مرضها الذي ماتت فيه فقال لها  
بالكره مني ما أثنى عليك يا خديجة وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً أما علمت أن الله تعالى زوجني  
معك في الجنة

مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وأسية امرأة فرعون فقالت وقد فعل ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، قالت: بالرفاء والبنين»<sup>(٢٨)</sup>.

ولقد استشعر «صاحب الخلق العظيم» ما في نقل هذا الخبر إلى خديجة من حرج ولذا قال لها «بالكره مني» لأنه يعلم أنه ما يسوء الزوجة شيء قدر الزواج عليها أي إحضار ضرة لها حتى ولو في مكانة مريم أم عيسى وأسية حرم فرعون خاصة وأن الطاهرة تلقت هذا الخبر وهي في مرض الموت. إنما «المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض» له حجته لأنه من نص الحديث ذاته أن الذي زوجه أولئك النسوة — حسب ما قال — هو ربه أي لم يقع بمحض إرادته.

والسؤال الذي يدور في الذهن: هل النسوة في الجنة بل في أعلى عليين منها يشعرن بالغيرة كما تشعر بها نساء الدنيا؟

وما هو إحساس الطاهرة آنذاك عندما تعلم أن «المعطي جوامع الكلم» قد نكح بعد وفاتها عدداً كبيراً من الزوجات؟ اختلف كتاب سيرته التي هي أحلى من سكر الأهواز في تحديده — وبحسب أحاديثه المشرفة لا بد أنهم سيرافقنه في ذات المقام الذي سوف يتموضع فيه بأعلى الفردوس.

وهنا قد ينبري أحدهم فيتعرض أن صاحب «أسد الغابة» لم يظهر لنا سنده. فنرد عليه الآتي:

«عن أبي إسحق عبد خير عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ مسروراً فقال: يا عائشة إنا لله عز وجل زوجني مريم بنت عمران وأسية بنت مزاحم في الجنة. قالت: قلت بالرفاء والبنين يا رسول الله»<sup>(٢٩)</sup>.

هذا الحديث رواه ابن ماجة في سننه وهو أحد الصحاح الستة. وأخرجه ابن السني في «عمل اليوم الليلة»، وأورده السيوطي في «الجامع الكبير».

ونشره مجمع البحوث الإسلامية وهو هيئة تابعة للأزهر أعطى نفسه في الأيام الأخيرة الحق في الرقابة على الكتب والدراسات التي تبحث «الإسلاميات».

• • •

إن لا يماري أحد في صحته.

والذي نراه بعد إمعان الفكر والمزيد من التدبير ومضاعفة التأمل أن «صاحب الفضل العظيم من الله» أراد به زيادة رفع مكانة خديجة بأن

قرنها بمريم بنت عمران ذات المقام المحمود في القرآن فهي صديقة ومطهرة ومصطفاة على نساء العالمين وقانئة وساجدة وراكعة.

وقد وضع الذكر الحكيم اسمها على رأس سورة من أُمير سورہ.

ونحن نؤكد أن تمجيد أو تقديس القرآن للعذراء البتول أم عيسى فاق بما لا يقاس ما جاء بالإنجيل الأربعة.

هذا بخلاف كلثم أخت موسى وآسية بنت مزاحم بعلة فرعون والكل منهما ذكر حميد في القرآن المجيد.

هذا الحديث رغم تزويج الله سبحانه وتعالى لـ «الورع. الوجيه» ثلاث ضرائر على خديجة في أعلى عليين في جنة عدن، فهو تكريم لسيدة نسون الدنيا ومن ثم فإنه «= نعمة الله» أخرها به وهي على سرير مرض الموت لأنه بعشرته الطويلة لها علم أنها سوف تتقطن إلى المعنى الخبيء الكامن بين طياته ومن ثم يحق لنا أن نصل إلى نتيجة حاسمة وهي أن هذا الخبر من شواهد سمو قدر أم هند عند محمد ومن أدلة عرفانه بجميلها وامتثانه لها.

ولم يتركنا «ذؤابة قريش» لكي نستخلص براهين ثبوت إقراره بفضل خديجة عليه من أحاديثه الشريفة فقط بل ترجمه عملياً وطبقه فعلياً وشيأه على أرض الواقع:

«عن أبي مليكة عن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال: كيف أنتم كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فلما خرجت قلت يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: يا عائشة إنها تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»<sup>(٣٠)</sup>.

هذا الأثر الشريف لا شك بلغ الذروة من الصحة والتوثيق وارتفع عن الطعن وبعد عن التوهين وسمما عن التشكيك وهو صريح النص والدلالة بحفاوته أن «المرتضى» برهن على عميق وده وسابغ امتثانه لسيدة قريش بحفاوته البالغة المقرونة بالإكرام لعجوز من صواحب خديجة ومن ثم فقد أورده «= الحديث» الإمام ابن حجر العسقلاني في الفتح في باب حسن العهد من الإيمان.

وقد حق لـ «المتين» أن يتغلغل في عمق نفسه وحنايا وجدانه الشعور بأسمى آيات العرفان بالجميل لخديجة صانعة التجربة المذهلة التي خلدت ذكره أبد الدهر.

## الهوامش

- (١) جمعها قوادم: ريش في أول جناح الطائر.
- (٢) تاريخ الإسلام: للذهبي ص ٥٩، والسيرة النبوية: لابن هشام — تحقيق السرجاني، المجلد الأول ص ٢٤٦، وعيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٨٦، والخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ٢١٨، والمستدرک: للحاكم النيسابوري تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، والسمط الثمين: للمحب الطبري، ص ٤٠ وما بعدها، والاكتفاء: للكلاعي، ص ٢٦٥، شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام: لأبي ذر الخشني، وتاريخ الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الثاني، ص ٢٠٣، السيرة الشامية: للصالح، الجزء الثاني، ص ٣١٤، السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ١٩٢، ط أخبار اليوم.
- ومن المحدثين: الرحيق المختوم: للمبارك فوري، ص ٥٩.
- (٣) سيرة النبي محمد: كارين أرمسترونج، ص ١٣٠.
- (٤) قصص القرآن: لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص ٣٠٠.
- (٥) دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨٣.
- (٦) أوائل العرب عبر العصور والحقب: الجزء الثاني، جيبوش، ص ١٠٦.
- (٧) الرسول في رمضان: لعلي حسن الخربوطلي، ص ١٦.
- (٨) محمد الثائر الأعظم: لفتحي رضوان، ص ١٠٢.
- (٩) نساء النبي: لبننت الشاطي، صفحات ٣٠ — ٣٣ — ٣٦ — ٣٧.
- (١٠) في القاموس المحيط: للفيروزآبادي: الفلحاس: السمع والعامة في مصر تقول فلحوص. أ. هـ.
- (١١) ويقال بعلة «المذكر والمؤنث»: لأبي بكر الأنباري ٣٢٨هـ، تحقيق الشيخ عزيمة ومراجعة د. رمضان عبد التواب ١٩٩٩م / ١٤١٩هـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.
- (١٢) أولاً: المصادر:

- تاريخ الإسلام: للذهبي، ص ٦٠.
- الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ٢١٨، ٢١٩.
- السيرة الحلبية: للحلبي، الأول ص ٣٨٦، ثم ذكرها أيضاً ص ٤٥، سيرة ابن هشام، بتحقيق السرجاني الأول، ص ٢٤٧، ٢٤٨.
- تاريخ الطبري: الثاني، ص ٢٩٨ — ٣٠٠.
- السيرة النبوية: لابن كثير، ص ٢٩٨ — ٣٠٠.
- السيرة الشامية: الثانية، ص ٣١٤.

### ثانياً: المراجع:

- حياة محمد: لهيكل ص ١٥٢، ومحمد رسول الله: لناصر الدين آتئين دينيه، ص ١٠٩. ولهوامش المترجمين الشيخ عبد الحلیم محمود وابنه محمد.
- الرسول في بيته: لعبد الوهاب حمودة.
- الرسول في رمضان: للخربوطلي، ص ٣١.
- محمد: لتوفيق الحكيم، ص ٢٤.
- (١٣) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ٢٠٤، ط ١٩٩٨م / ١٤١٩هـ، عن قطاع الثقافة بأخبار اليوم بمصر.
- (١٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٦.
- (١٥) في القاموس المحيط: للفيروزآبادي الآية هي الهيئة وزنا ومعنى. أ. هـ.
- (١٦) المستدرک على الصحيحين: للحافظ الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، المجلد الثالث رقم ٤٤٥ / ٤٨٤٧.
- (١٧) أطلقت السنة بفتح السين مع التشديد على الواحد مجازاً، «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي والعامة في مصر تقول سنة سنة بكسر السن. أ. هـ.
- (١٨) سورة الأحزاب: آية ٥١.

- (١٩) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ٣٤٥ وهامشها، ط أخبار اليوم مصدر سبق ذكره.
- (٢٠) في مختار الصحاح: للرازي، الأحذوثة بوزن الأعجوبة وهو ما يتحدث به والعامية في مصر تقول الحدوثة. أ. ه.
- (٢١) رواه البخاري في صحيحه.
- (٢٢) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول ذات الصفحة، مصدر سابق.
- (٢٣) إخواننا الفرس أو الإيرانيون يسمون المسلم المتمسك بالحرفيات والشكليات والمظاهر: مسلم أحماق أ. ه.
- (٢٤) في المعجم الوسيط: الغندور الناعم الحسن الشباب أ. ه.
- (٢٥) الروض الأنف: للسهيلي، الأول ص ص ٢٢٧ / ٢٧٨، مصدر سابق.
- (٢٦) في صعيد مصر يقولون: مرة صبية أي جمعت خصال الجمال والبهاء والحسن مع صغر في السن وفي «مختار الصحاح» للرازي يقال للجارية صبية والجمع صبايا مثل مطية ومطايا، ونضيف أن المقصود بالجارية هنا الفتاة الصغيرة أو الشابة الصغيرة لا الأمة أو العبد أو الجارية المملوكة أ. ه.
- (٢٧) مسند الإمام أحمد: ٣١٦ / ٢٩٣ / ٣٢٢ عن أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير الجزري، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخر، المجلد السابع، كتاب «النساء» ص ٨٣، دون تاريخ، طبعة الشعب مصر، وسبل الرشاد في سيرة خير العباد: للصالحي الشامي، ج ١٢ ص ٤٠، نقلا عن «حياة الصحابييات» لحمزة النشرتي وآخرين، ص ٩، د. ت. د. ن القاهرة.
- (٢٨) أسد الغابة: المجلد السابع، ص ٨٥، مصدر سبق ذكره.
- (٢٩) جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير: للإمام جلال الدين السيوطي ٨٤٩ / ٩١١ هـ، العدد السابع والعشرون من الجزء الخامس من السنن القولية، ص ٣٤١٤ — الحديث ٦٨٣ / ٢٧١٦٥، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، مجمع البحوث الإسلامية — الأزهر مصر.
- (٣٠) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: للإمام ابن حجر العسقلاني، والمستدرك: للحاكم النيسابوري، وقال عنه صحيح على شرط الشيخين أي البخاري ومسلم والذهبي في التلخيص وأورده السيوطي في جمع الجوامع الكبير ص ٣٤٢١، رقم ٦٩٥ / ٢١٧٧ من العدد السابع والعشرين من الجزء الخامس من السنن القولية من موسوعة السنة رقم ٥ — مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

## التحديق في الهندوز

[Blank Page]



## ● في البدى من هو الهندوز؟

يقال رجل هندوز: مجرب جيد النظر صحيحه، والجمع: هنادزة، ويقال هم هنادزة هذا الأمر أي علماء به<sup>(١)</sup>.

وإذ يقال للريح الطيبة التي تبشر بالخير والمطر ريح نشور «لا نشورة» وللمرة التي لا تكتم السر مرة فروج «لا فروجة»<sup>(٢)</sup>.

فيغدو وصف سيدة نساء الأرض بالهندوز لا الهندوزة صحيح، وهي «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب تزوجت عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وأبا هالة نباش بن زرارة من بني أسيد بن عمرو بن تميم حليف بني عبد الدار بن قصي»<sup>(٣)</sup>.

وقد اختلف الإخباريون اختلافاً كبيراً في ترتيب هذين الزوجين أيهما الأول وأيها الآخر وفي طريقة فصم عروة الزوجية وفي عدد الأولاد الذين خلفتهم من كل منهما بيد أن الذي يعيننا أن أحدهما من بني مخزوم الفرع الذي حاز أبناؤه مالا ممدوداً حتى إنهم في تلك الأيام الخوالي تمتع عدد منهم بجوار يونانيات أو روميات نصرانيات وهذا احد الأدلة على انتشار النصرانية في مكة، وكما كان لبني مخزوم جوار يونانيات كان لدى العباس جوار يونانيات.. «وكان هذا الرقيق الأبيض ذكوراً وإناثاً من جنسيات متعددة منهم من كان من أصل رومي.. ومنهم من أهل العراق مثل نينوى ومنهم من كان من بلاد الشام أو أقباط مصر وهم على النصرانية في الغالب»<sup>(٤)</sup>.

ولقد أخطأ محمد حسين هيكل في «حياة محمد» عندما ذكر أن الزوجين مخزوميان.

«كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها بشيء تجعله لهم ولقد زاد في ثروتها أنها وكانت من بني أسد قد تزوجت مرتين في بني مخزوم مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى»<sup>(٥)</sup>.

ونكاح أم هند للمخزومي نرجع أنه أحد أسباب ثرائها العريض.

وخديجة من بني أسد وهم يشكلون مفدعاً قوياً في قبيلة قريش وأبوها خويلد بن أسد بن العزى من سادة قريش ولدت بمكة عام ٥٥٦ للميلاد الموافق ٦٨ قبل الهجرة وكان أبوها من أشرف مكة وموسريها وزاد شرفاً عندما حالف بني عبد الدار بن قصي ثم مات في عام الفجار»<sup>(٦)</sup>.

أما ما ذهب إليه المصنفان أن خويلداً هلك في عام الفجار فقد طرحنا أدلة فساده.

وقد ذهبت كارين أرمسترونج أن عشيرة بن أسد في ذيك الوقت أقوى من بني هاشم «عشيرة سيد الخلق».

«كانت خديجة قد تزوجت مرتين وأنجبت عدداً من الأطفال وتتنمي إلى عشيرة بني أسد التي أصبحت في بداية القرن السابع الميلادي أكثر قوة من بني هاشم»<sup>(٧)</sup>.

إنما الذي لا مشاحة فيه أنه بعد ظهور «مقدم عترة الله» وإعلانه الإسلام غدا بنو هاشم أكثر شرفاً من بني أسد بل إنهم بزوا كل بطون قريش بل كل العرب والعجم.

وقبل ذلك اشتعلت المنافسة بين العشيرتين على تسنم ذروة المجد وقمة الشرف في مكة بأسرها.

ومن أدلة شرف بني أسد وارتفاع مقامهم في مكة وفي قريش أنهم حفروا بيراً أطلقوا عليها «سقية» قبل أن يحفر عبد المطلب جد «المحمود» بئر «زمزم».

وحفر البيار علامة من علامات السؤدد وشارة تدل على الرفعة وآية تنبئ عن السمو وقيل إن بني أسد حفروا «سقية» بعد أن حفر بنو هاشم بئرهم «بذر» كأنما يعلنون لأهل الحرم أن مقامهم محفوظ وأنهم لا يقلون عن الهواشم مكانة ورتبة<sup>(٨)</sup>.

ولخويلد ذاته مواقف مشهودة تقطع بأنه أحد صنّاديد<sup>(٩)</sup> قريش فهو الذي تصدى لتبع حينما شرع في قلع الحجر الأسود<sup>(١٠)</sup> من الكعبة ونقله إلى اليمن كذا ضمه وفد قريش لسيف بن ذي يزن لتهنئته بانتصاره على الحبش<sup>(١١)</sup>. بيد أنه لا يفوتنا أن نذكر أن عبد المطلب بن هاشم جد «المتربص» ترأس ذلك الوفد ونفحه سيف بن ذي يزن ضعف ما منح أي عضو في الوفد واختلى به وبشره أنه سيأتي من بين أحفاده من له مقام محمود وذكر خالد على مدى الدهر.

وعضوية الوفد تعد مكرمة لا ينالها إلا الغطاريف الجاحج في القبيلة

لأن الوفادة على الملوك تحتاج إلى خصائص فريدة ومناقب سامية.



«خديجة كانت تسمى سيدة نساء قريش ورد ذلك في سيرة التيمي وكانت تسمى الطاهرة في الجاهلية والإسلام»<sup>(١٢)</sup>.

هذا ما جاء في سيرة ابن هشام وهي أشهر دواوين السيرة ومنها استقى كل من جاء بعدها، وأن تلقب بسيدة نساء قريش فهذا مناسب نظراً لشرفها وانتمائها لعشيرة بني أسد القوية ولثروتها العريضة، أما تلقيبها بالطاهرة فهو ما يلفت النظر ويشدّ الذهن لمعرفة العلة الكامنة وراءه إذ إنه: لقب له عقب ديني فمريم أم عيسى يلقبها المسيحيون بـ «معدن الطهر»<sup>(١٣)</sup>.

وكذلك جاء في القرآن العظيم عن البتول أم عيسى عبد الله ورسوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٤)</sup>. وفي حق ابنها: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكِ وَرَافِعُكِ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾<sup>(١٥)</sup>.

ومن ثم فإن لقب الطاهرة ليس لقباً عادياً بل إن عليه مسحة تيولوجية ويفوح منه ريح مسك ديني ولعل مما يؤكد ذلك أن الختان في مصر يسمى «الطهارة كأن الفتى والفتاة يتطهران بهذا العمل»<sup>(١٦)</sup>، ولا أدل على اقتران عملية الطهارة أو الختان بالدين «ولو في معناه الشعبي أنها (الطهارة) كانت لوقت قريب تتم في أيام الموالد – ويحدثنا أحمد أمين عن قبيلة سودانية رغبت في دخول الإسلام «فكتب رئيسها إلى بعض علماء الأزهر يستوضحه الإسلام وما يفعله أفراد قبيلته لدخولهم في الإسلام فكتب إليه العالم الأزهرى قائمة بما يجب أن يعملوه فكان أولها الختان فرفضت القبيلة أن تسلم وقد كانت هذه المسألة قلة ذوق»<sup>(١٧)</sup>.

بيد أن الذي يهمننا في هذه القضية هو الاعتقاد بأن الطهور أو الطهارة طقس ديني به يتطهر من تجرى عليه عملية الختان.

ويذهب باحث أن الطهور أو الطهارة أو الختان في مصر بالذات ليس شعيرة من شعائر التكريس أو من شعائر المرور «إنما الاعتقاد الشعبي السائد هو ضرورة إجراء هذه العملية لأن هناك التزاماً دينياً بضرورة إجرائها»<sup>(١٨)</sup>.

وهكذا بعد هذا التفريع الطويل بعض الشيء لعلنا أفلحنا في طرح ما يقنع القارئ أن لقب الطاهرة الذي حلّى جيد خديجة قبل الإسلام<sup>(١٩)</sup> يحمل سمات تيولوجية وقسمات دينية وبصمات عقيدية بخلاف لقبها الآخرين سيدة نسوان قريش وسيدة قريش فهما بحسب التعبيرات الحديثة مدنيان. أما العلة الكامنة والسبب الخبيء والدافع المستتر

والباعث المتواري خلف هذا اللقب «الطاهرة» فسوف يرفع القارئ الواعي بنفسه الستار عنه كلما مضى في القراءة سنة سنة أو فصلاً فصلاً.

ويحق لنا أن نتساءل لماذا لم يطلق على خديجة الشريفة – الأمانة الصادقة مع أنها تحوز هذه الصفات عن جدارة؟

لعل في الرجوع إلى المعاجم ما يوضح لنا الأمر.

والطاهرة من النساء الخالية من الحيض وغيره.

وطهر طهارة وطهراً: نقى من النجاسة والدنس.

والطهورية هي الطهارة البالغة.

والمطهر – عند النصارى – مكان تطهر فيه النفس بعد الموت بعذاب موقوت<sup>(٢٠)</sup>.

أما الزمخشري فإنه يلقي عليه أنواراً كواشف دون أن يقصده على المجاز «تطهر من الإثم: تنزه عنه وطهره الله وهو طاهر الثياب تنزه من مدانس الأخلاق، والتوبة طهور للمذنب».

وعلى الحقيقة «امرأة طاهرة ونساء طواهر وطهرت من الحيض وهي ذات طهور وهن ذوات أطهار.

تطهر من الإثم: تنزه منه وطهره الله<sup>(٢١)</sup>.

أما الكتبة المحدثون فإنهم ينقلون لنا الخبر دون أدنى محاولة للتحليل أو التعليل.

«خديجة.. كانت تسمى الطاهرة قبل الإسلام وبعده وقد خطبها كثير من العظماء فرفضت وقدم لها كثير من المال فامتنعت لأنها كانت غنية»<sup>(٢٢)</sup>.

«خديجة... أبوها من أشرف قريش في الجاهلية.. وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة وتكنى بأُم هند»<sup>(٢٣)</sup>.

هذان المؤلفان لم يحاولا أن يعملوا فكريهما بأن يتساءلا لماذا لم يلق هذا اللقب دون غيره من الألقاب؟ «كلاهما ذكر أنه اسم في حين أنه لقب أ. ه».

ولعل القارئ اللقن سوف يهتدي بفطانتته إلى العلة عندما يمضي في قراءة هذا الفصل.



انتشرت النصرانية في بني أسد عشيرة خديجة بدرجة لم تتوافر في عشيرة أخرى وهذا ما أطبق عليه الإخباريون وكتاب السيرة المحمدية العطرة. إن من القدامى أو المحدثين حتى غدا حقيقة مؤكدة من يقدم على إنكارها يلقى كل الأدلة تنتصب ضده ونذكر فيما يلي أيضاً من فيض أو نقطة ماء من بحر تلك المصادر والمراجع:

(وقد ذكر «ابن قتيبة الدينوري» أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاة، وقال اليعقوبي: وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل)<sup>(٢٤)</sup>.

وبذلك جمع هذا الخبر بين روايتي ابن قتيبة الدينوري واليعقوبي وهما من أصحاب الأسماء اللوامع في هذا المجال.

ولم نكتف بما أورده جواد علي رغم أنه باحث رصين ونحن نكن له تقديراً إذ رجعنا إلى اليعقوبي ذاته فألفيناه ينص على الآتي:

«أما من تنصر من أحياء العرب فقوم من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل»<sup>(٢٥)</sup>.

وتشير كتب السيرة إلى أن شماساً زار مكة في الجاهلية وكان يعيش في مر الظهران راهب مسيحي كما كان في مكة نساء نصرانيات تزوجهن أهل مكة<sup>(٢٦)</sup>.

والسؤال الذي ينتصب في الذهن فور قراءة هذا الخبر: هل تزوج رجال من بني أسد بعضاً من تلك النسوة النصرانيات ومن هنا فشنت النصرانية فيهم وبعبارة أخرى يمكن أن نعزو انتشار النصرانية فيهم لهذا العامل أو على الأقل هو أحد العوامل؟

ومما يرسخ حقيقة فشو النصرانية في رهط بني أسد اعتناق عدد من الأسديين لها وتبخرهم فيها وتضلعهم من كتبها حتى إنهم حازوا فيها ألقاباً نصرانية عالية لا يحصل عليها إلا من بلغ فيها درجة من التعمق رفيعة المقام منهم ورقة بن نوفل ابن عم أم هند والذي كان مرشحاً لنكاحها كما سوف نورد فيما بعد والذي لعب دوراً شديداً الخطورة في متابعة «التجربة».



وهناك كاتب من المحدثين يذهب إلى فرسخة<sup>(٢٧)</sup> النصرانية في أنحاء شتى من الجزيرة العربية.

«كذلك عرفت النصرانية في مدن الحجاز التجارية إذ كان سكان هذه المدن على اتصال وثيق بالشام ونعلم أن بعض القرشيين قد تنصر مثل عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل، وكان بيثرب وبالبحرين نصارى أيضاً كما كانوا في كثير من الأماكن الأخرى من جزيرة العرب»<sup>(٢٨)</sup>. ثم يعود إلى تأكيد انتشار النصرانية ولكنه يضيف إليها اليهودية ثم وسع دائرة البسط والفرطحة فجعلها تشمل بلاد العرب بكاملها.

ثم «إنه لا ينبغي أن ننسى أن النصرانية واليهودية كانتا قد انتشرت في

بلاد العرب، وكانت قبائل عربية قد اعتنقتها فما حاربها أحد ولا عارضها معارض فضلاً عن أنه كان يوجد بمكة مبشرون بالمسيحية بل لقد كان من أهل مكة ومن بني عبد مناف ذاتهم رجل حكيم عاقل فاضل تنصر، هو ورقة بن نوفل فما عارضه أحد وما اضطهده أحد وما أجبره أحد على الارتداد عن دين الآباء والأجداد»<sup>(٢٩)</sup>.

بيد أن جلالاً أخطأ في أمرين:

الأول: انه نسب العاقل الفاضل المنتصر ورقة إلى بني عبد مناف بينما هو من بني أسد.

الآخر: في قوله «إنه كان يوجد بمكة من يبشرون بالمسيحية» وهذا شطط فإنهم بشروا بالنصرانية وهناك فرق واسع بينهما ونلفت الانتباه إلى أن القرآن العظيم ذكر النصارى ولم يذكر المسيحيين.

ولقد لاحظنا أن كثيراً ممن كتبوا في السيرة المحمدية التي هي أطيب ريحاً من العود الصنفي خانهم التوفيق ولم يتحرروا الدقة في كتاباتهم «أما ورقة بن نوفل فدخل النصرانية وقيل إنه نقل إلى العربية ما في الأناجيل أما عثمان بن الحويرث وكان من ذوي قرابة خديجة فذهب إلى بيزنطة وتنصر وحسنت مكانته عند قيصر ملك الروم»<sup>(٣٠)</sup>.

أما هذا الخبر فقد جاء في «السيرة النبوية» لابن كثير وفي كتاب «حياة محمد» لهيكل وأولهما يعد في مقدمة الكتب التراثية في السيرة والآخر له مكان متميز في مؤلفات المحدثين.

«أما ورقة فاستحکم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب...»

وأما عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى فقدم على قيصر الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده»<sup>(٣١)</sup>.

والأثر حملته إلينا سيرة ابن هشام وسبق أن أوضحنا مكانتها السامية، أما كتاب محمد رضا فهو من ضمن المؤلفات الحديثة التي نالت القبول والتقدير.

ونكتفي بهذين الخبرين لأن القس ورقة بن نوفل سنفرد له فاصلة مستقلة ونأمل أن نوفيه حقه لذاته ولما قام به من دور متميز في إنجاز التجربة.

• • •

هناك ابن عم آخر لسيدة نساء قریش توغل في النصرانية وعب من علومها الشيء الكثير حتى منحته دوائرها المتفذة لقب البطريق الذي هو بذاته يشي بعلو كعب حائزه، ذلكم هو عثمان بن الحويرث بن أسد»<sup>(٣٢)</sup>.

والخبر القادم في كتاب في النسب ولو أنه لاحق لكتاب المصعب الزبيري إلا أن مؤلفه من النجوم اللامعة في سماء العلوم الإسلامية وله باع طويل في عدد منها.

«وكان قد تنصر من قريش نفر يسير وهم: شيبعة بن ربيعة بن عبد الشمس وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي وابن عم له: ورقة بن نوفل بن أسد ولا عقب للحويرث ولا ورقة»<sup>(٣٣)</sup>.

ويؤكد لنا السهيلي في روضه الأنف وصول عثمان بن الحويرث إلى مرتبة «البطريق».

وكان يقال لعثمان بن الحويرث «البطريق»<sup>(٣٤)</sup>.

ومن المحدثين من ذهب إلى رجحان كفة النصرانية على اليهودية: «بعض رجال مكة تبرموا بالوثنية وخرجوا عليها وتنصروا أمثال: ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، وقد كان أثر النصرانية في مكة أكثر من اليهودية»<sup>(٣٥)</sup>.

ثم يبدأ د. حسين مؤنس في إطلاعنا على أول الخيط المؤدي إلى النهاية المأساوية التي لقيها عثمان بن الحويرث.

«وقد تنصر رجل آخر من قريش وهو عثمان بن الحويرث الذي حاول الدعوة للمسيحية في مكة وربط دعوته إلى دعوة الروم»<sup>(٣٦)</sup>.

ذلك أن البطريق لم يكتف بالرتبة الدينية التي تحصل عليها بل أراد أن يمزج الديانة بالسياسة وهذا داء قديم بأن يصبح ملكاً على قرية القداسة بكة ويجعل الحجاز ولاية رومانية.

وهذا يدل على أنه من ذوي الطموح بعكس ابن عمه ورقة الذي اكتفى باللقب الديني «القس».

ولا يفوتنا أن ننوه إلى خطأ حسين مؤنس أن عثمان بن الحويرث حاول الدعوة إلى المسيحية وأن المرء ليعجب كيف أن كاتباً في قامة مؤنس لا يفرق بين المسيحية والنصرانية التي عرفها واعتقها ابن الحويرث وابن نوفل وأضرابهما — وبعد هذه الملحوظة الضرورية نرجع إلى السرد.

وقد أثار هذا الأمر طائفتين: القرشيين أشراف مكة الذين أبوا على ابن الحويرث ذلك وثاروا في وجهه وصاحوا أن مكة لقاح لا تملك ولا تملك:

«وأما عثمان بن الحويرث فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ثم رأى الذهاب إلى الروم وتقرب إلى قيصر وحسنت منزلته عنده وتنصر ومنح لقب بطريق وأراد تنصيبه ملكاً عليهم ولكن قومه أبوا عليه ذلك... وفي رواية أخرى أنه خرج إلى قيصر فسأله أن يملكه على قريش وقال احملهم على دينك فدخلوا في طاعتك ففعل»<sup>(٣٧)</sup>.

أما الطائفة الأخرى التي نقتت عليه هذا المسعى وهو تحويل الحجاز إلى ولاية رومانية فهم الغساسنة الذين خشوا على أنفسهم منافسته لهم في المكانة لدى قيصر الروم فسعوا إلى قتله — ولو أن ختام حياته الدامي اختلف عليه الإخباريون إذ ترى محمد حسين هيكل يطرح سبباً آخر لقتله حيث يقول «فطرده المكيون فاحتفى بالغساسنة وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة فوصلت إلى الغساسنة هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسموماً»<sup>(٢٨)</sup>.

وقد نقل هيكل هذا الخبر من مصادر تراثية دون أن يشير إليها منها «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم الأندلسي:

«ولد الحويرث بن أسد بن عبد العزى: عثمان بن الحويرث أراد التملك على قریش من قبل قيصر فامتتعت قریش من ذلك فرجع إلى الشام وسجن من وجد بها من قریش ومن جملتهم أبو أحيحة سعيد بن العاص فدست قریش إلى ابن الغساني فسم عثمان الحويرث فمات بالشام ولا عقب له. وكان قد تنصر»<sup>(٢٩)</sup>.

وتحقيق هذا الشأن يند عن صلب الموضوع إنما الذي يعنينا هو أن عثمان بن الحويرث أحد بني أسد تنصر وحسنت نصرانيته وارتقى فيها حتى حاز رتبة منيفة والأهم من ذلك أنه سعى لنشر النصرانية في أحياء بكة مما يجعلنا نرجح أنه بدأ بعشيرته بني أسد ورهطه الأذنين بني عمومته وأنه نجح في ذلك بدرجة أو أخرى حتى إن الإخباريين وأصحاب السير عدوا بطن بني أسد من البطون أو الأفخاذ أو حتى القبائل التي فشت فيها النصرانية مثل: غسان وتميم وقضاة وربيعة.



ولم يقتصر اعتناق بني أسد على الرجال بل تعداهم إلى النسوة وهذا ملحظ شديد الأهمية.

فهناك ثالث أو ثالثة أبناء عم الطاهرة الذين يتنصرون وهي قتيلة أو أم قتال، وقيل فاطمة بنت نوفل أي أخت ورقة وهي واحدة من المرثين اللتين تعرضتا لأبي محمد: عبد الله بن عبد المطلب وهو في طريقه مع أبيه كيما ينكح أمنة بنت وهب الزهرية بأن يفاخر كلا منهما بعد أن رأتا بين عينيه نور النبوة وله مائة من الإبل لا عن ربيبة أو عهورة فيهما ولكن عن عفة بقصد أن تقوز إحداهما بنور النبوة وتغدو أم القادم المنتظر.

وهذه الأحداث لا يكاد يخلو منها كتاب من السيرة المحمدية الزكية كما المسك ونكتفي بما أورده البلاذري في أنساب الأشراف برواية نقلها عن الواقدي: «وقال الواقدي: المرأة التي قالت لعبد الله ما قالت هي قتيلة بنت



نوفل من أسد بن العزى ورقة بن نوفل وكانت تنظر في الكتب»<sup>(٤٠)</sup>.

وبالإضافة إلى ما يحظى به البلاذري وكتابه الأنساب من تقدير فهناك سبب آخر وراء إيرادنا لخبره هو أنه ذكر فيه أن بنت نوفل كانت تقرأ الكتب إذ إننا سوف نتخذ من معرفتها للقراءة والكتابة قرينة أو دليلاً لإثبات أن سيدة نسون قريش كانت تعرفها «القراءة والكتابة».

وهناك أخبار تنص على أن قتيلة أو أم قتال بنت «أخت» ورقة ذكرت أن ما دفعها لعرض نفسها على عبد الله بن عبد المطلب لبياطنها وتعطيه مائة من الإبل أنها سمعت من أخيها القس ورقة بقرب ظهور القادم المنتظر وأنها بما أنها تعترف وتقرأ الكتب توسمت النور في جبينه بيد أنه لما خالط زوجه أمنة انتقل إليها ذيك النور وهنأتها بحيازتها له وبشرتها بحملها للقادم المبارك.



وهكذا نشأت الطاهرة في فرع تغلغت فيه النصرانية وهو «أسد» وبين أقربائها الأقربين بني عمومتهما الذين تنصروا بل تبحروا في ديانة ابن مريم لدرجة أنهم فازوا فيها بدرجات سامقة فأحدهما «بطريق» والآخر «قس» (قد تقدم لخطبتها بيد أنه لم يتوفق له ذلك) والثالثة «متكهنة» أو معتافة قرأت الكتب وحازت قدراً من الفراسة به حدثت في عبد الله أنه أبو القادم الذي طال شوق العلمين ببواطن الأمور إليه.

ونحن ندع القارئ الفطن لكي ينقه<sup>(٤١)</sup> دلالة ذلك وكما يدرك مدى تأثير الوسط على الناشئ الذي ينشأ فيه<sup>(٤٢)</sup>.

ولا ندري على وجه التحقيق هل هو مصادفة أم تدبير وهل هو خبط عشواء<sup>(٤٣)</sup> أم تخطيط محكم وقصد سابق أن تقدم أم هند بعد أن غدت صاحبة تجارة عريضة ومال وفير وغنى ممدود على شراء الأعبد النصراني وتشغيلهم في أعمالها عيوناً على الرجال الذين تستأجرهم ليتاجروا بمالها لقاء جعل معلوم وذلك لشدة ثقتهما في أولئك العبدان النصراني أو النصراني العبيد. وقد حفظت لنا دواوين سيرة «الحيي» التي هي أسنى من ذكاء «ضم الذاء»<sup>(٤٤)</sup> اسم اثنين من أولئك المماليك النصراني أولهما يسمى ناصح ومع التنقيح والبحث والتدقيق عثرنا على خبر مفرد فحسب.

«قالت خديجة لمحمد: قد أخبرني به ناصح غلامي وبحيرى الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»<sup>(٤٥)</sup>.

وغلامي هنا تعني عبدي ومملوكي لأنه لم يوجد للسيدة الطاهرة ولد

باسم ناصح لا من زوجها السابقين ولا من «البهي»<sup>(٤٦)</sup> والخبر قرن ناصحاً عبد خديجة ببحيرى مما يقطع بعلو كعبه في النصرانية إذ شارك الراهب بحيرى الذي نرجح أنه المسئول عن أبرشية الحجاز «وفيه مكة» في المشورة بضرورة أن تتكح «الأعز. الأعظم».

• • •

أما الغلام أو العبد الآخر فهو ميسرة فله ذكر مفرطح<sup>(٤٧)</sup>.

في كتب سيرة «صاحب الدعوة المستجابة» التي هي أطيب من زعفران ثم فهو الذي خصصته سيدة قريش لخدمته «الشاهد الداعي» في رحلته إلى الشام كذلك سفر هذا المملوك بينهما في مسألة الزواج كما أسلفنا. أما المعجزات التي رآها هذا العبد في تلك السفارة فموضوعها في فصل المعجزات إنما الذي يهمنا هنا هو ما يقطع بنصرانية ميسرة.

«وأنا رجل نصراني كما تعلمين يا سيدتي أحب الرهبان وأكبر الأبحار — ميسرة»<sup>(٤٨)</sup>.

فهنا يؤكد د. طه حسين أن العبد ميسرة من النصارى بل وعلى وشيخة حميمة بالرهبان والأبحار والبطارقة الذين يقطنون أطراف الشام والذين سوف تثبت أنهم من الفرقة التي باينت تبع شاؤول «بولس» حين خربق<sup>(٤٩)</sup> النصرانية بتأليه ابن مريم وأمه.

وتنصر هذا المملوك يتضح في كافة المؤلفات التي تناولت سفره «الصحيح» في تجارة سيدة نسون الدنيا ومعه ميسرة وهذا خبر سريع لتأكيد ما ذهبنا إليه من نصرانية العبد المملوك ميسرة.

«قال ميسرة لخديجة: إن هذا الغيم — الذي يظل محمداً — لم يتخلف عن مرافقتنا منذ أن غادرنا مكة إلى أن عدنا إليها ومنذ أن تركنا بصرى وقد عرفني رهبان حوارن العلماء من هو محمد فعرفت أن هذا الغيم ليس إلا أجنحة ملكين مكلفين بوقاية سيدي من قبض الشمس المهلك»<sup>(٥٠)</sup>. فهنا يصرح الغلام ميسرة أنه على علاقة خاصة برهبان حوارن وعلمائها الذين أخبروه من هو «الصفى» عندما أحاطهم علماً بالمعجزات التي لمسها بيديه ورآها بعينه إبان سفره معه.

• • •

إذن خديجة من عشيرة قرشية فشت فيها النصرانية من دون أبطن القبيلة ومن فرع داخلته ديانة المسيح فأعتنقها ثلاثة أفراد من بني عمومتها وتعمقوا فيها حتى حازوا فيها ألقاباً باذخة، وليس هذا فحسب بل إن خاصة عبدانها وأقرب وليجتها<sup>(٥١)</sup> وألصق بطانتها بها<sup>(٥٢)</sup> نصارى

وهذه المعارف جميعها مستقاة وموثقة من كتب السيرة المحمدية الكريمة ذات الرائحة التي هي أطيب من عنبر الشجر<sup>(٥٣)</sup> وهي «المعارف» من دون أدى ريب تعني الكثير الذي لا يند عن فطانة القارئ اللبيب.



أطبقت كتب السيرة المحمدية المنيفة على بكرة أبيها دون استثناء تراثية أو حديثة على أن السيدة خديجة في زمانها من أغنياء مكة إن لم تعد أغناهم ومن الأدلة التي تطرح على ذلك أن قافلتني قريش اللتين تخرجان من مكة في رحلتي الشتاء والصيف شطراهما للطاهرة بمفردها والشطران الأخران لسائر تجار قريش وسبق أن قدمنا الأخبار التي تؤكد ذلك ولكي يأخذ القارئ فكرة سريعة عن مدى الثراء العريض لسيدة قريش نذكر له أن القافلة التي أفانت من المسلمين الذين خرجوا للقائها وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب وأعقبتهما غزاة بدر الكبرى بلغت عدة البعير الذي يحمل العروض ألف جمل ودلالة ذلك أن سيدة نساء الدنيا وحدها تملك خمسمائة بعير بما عليها من بضائع أو نحوها أو ربما أقل قليلاً.

«قالت خديجة: ولئن كنت كثيرة المال ضخمة الثروة»<sup>(٥٤)</sup>.

هذه مجموعة من المصادر والمراجع التي تؤكد الثراء العريض والغنى الواسع والأموال الطائلة التي احتازتها الطاهرة والتي رصدتها لإنجاح التجربة فهي فرغت «الظاهر» تماماً وأخلت ذهنه البينة من هم الرزق كيما لا يشغله شاغل من أي نوع يعوق نجاح التجربة التي رشحته لها ليتحقق حلمها بأن يغدو القادم المنتظر، وقد قرأنا فيما سبق ما قاله «المنصور بالربيع قرابة شهر» أنه بعد زواجه منها أكل الخمير ولبس الحرير.

بيد أنه ما هي العمالة التي مارسها إبان فترة التفرغ أو حقبة التأسيس وهي مدة متوالية في الظل في كل كتب السيرة لا تجد عنها خبراً. فبعد أن نكحته خديجة وذكرت المؤلفات وقائع الزواج قفزت مباشرة إلى حادث الغار إذن ما هي أعماله أو ممارساته أو أنشطته إبانها؟ لقد تفرغ أو بمعنى أوضح فرغته الطاهرة للتجربة ففي النهار يمشي في الأسواق يقابل ويحادث ويحاور أصحاب مختلف العقائد والملل والنحل الذين ماجت آنذاك بهم قرية القداسة من يهود ونصارى وأحناف وصابئة ومجوس وغنوصية.. الخ، ولا يفوته حضور الأسواق التي تنصب أو تقام في مواعيد معروفة مثل عكاظ ومجنة وذو المجاز ويسمع خطبهم ومحاوراتهم وأشعارهم فيها وقد حفظت لنا كتب السيرة سؤاله وقد إياها عن مصير قس بن ساعدة الأيادي والذي قال إنه سمع خطبه في عكاظ وغيرها

وسألهم عن يحفظ منهما شيئاً فاستجاب له أحد أعضاء الوفد وأسمعه إداها.

«وقال قس بن ساعدة في خطبته التي حكاها عنه النبي ﷺ يا أيها الناس اسمعوا وعوا»<sup>(٥٥)</sup>.

والنص هو افتتاح خطبته بعكاظ التي رويت للنبي فقال فيه: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»<sup>(٥٦)</sup>. واستماع «الفضل العظيم عليه من ربه» لقس بن ساعدة أمر ثابت في العديد من كتب التراث، والخبر الذي أورده واحد منها وهو من أدلة الثبوت على أنه «سيد أهل الله» كان دائم التجوال في الأسواق للاستماع لعلماء مختلف النحل والملل والعقائد ومحاورتهم والاستفسار منهم «وهذا أحد طقوس التجربة الكبرى» إذ إن محمداً آنذاك قد طلق التجارة فلا تفسير لحضوره الأسواق إلا لذلك هذا بالنهار.

أما بالمساء وفي ليل مكة الطويل شتاءً فمع الطاهرة بمفردهما أحياناً وبحضور القس أحياناً أخرى تتم في تلك القعدات مذاكرة الإصحاحات التي نقلها ورقة من اللسان العبراني إلى اللسان العربي إما بتلقيها منه مباشرة ثم إدارة الحوار بشأنها، وإما بتلقيها من الأم الرؤوم والزوجة الحنون خديجة التي لا شك أنها أجادت القراءة والكتابة «وسوف يصبح ذلك مادة للفقرة القادمة» وقرأت تلك الإصحاحات وخرزنتها في ذاكرتها أو أنها طفقت تقرأها له مباشرة.

وكل هذا: ما يدور بالنهار في الأسواق والحوانيت والأعياد والمواسم وما يتم سماعه من القس ورقة وخديجة من الإصحاحات التي عربها القس في الليالي الطوال وما يعقبها من شروح وإيضاحات وحوارات بالجلسات التي قد تستمر حتى بزوغ الفجر، نقول كل هذا يجري تخزينه وبرمجته في ذاكرة العبقري الذي لم تر جزيرة العرب له مثيلاً ولم تشهد له ضربياً ولم تعاني له شبيهاً أو نداً.

خاصة وقد آمننا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب والأي أمي أي يتمتع بذاكرة حديدية وحافظة واعية أشد الوعي فما بالك إذا اجتمعت الأمية والعبقرية الفاذة في شخص وسوف نورد فيما يستجد أمثلة معجبة على القدرة على الحفظ.



والذي يماري في أن سيدة قرش رصدت ثراءها الممدود وأوقفته على إنجاح التجربة نتحفه بالخبر الآتي:

«ويروى أنه ﷺ دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك قال:

الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحيى منك وإن أنا لم أبذل أخاف الله — فدعت قريشاً ومنهم الصديق، فقال الصديق: فأخرجت دنانير حتى صبتّها وبلغت مبلغاً لم يقع بصري على من كان جالساً قدامي ثم قالت اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه»<sup>(٥٧)</sup>.

والذي أورد الخبر القمّيّ النيسابوري من أعلام مفسري القرآن الكريم وكتابه أو موسوعته «غرائب القرآن» من أميز كتب التفسير ويحظى بالقبول والتقدير.

والخبر في ذاته ليس في حاجة إلى توضيح فإذا أحضرت الطاهرة لـ «الحال — الشجاع» جزءاً من مالها ذكر ابن أبي قحافة أنه بلغ من الضخامة أنه حجب عنه الجالس أمامه فكم تبلغ ثروتها مع ملاحظة أن تلك «الصبة» من دنانير لا من دراهم<sup>(٥٨)</sup>.

كما أن سيدة نسوان قريش فوضت زوجها الحبيب في إنفاق المال كيفما أراد «إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه» وهنا ينتصب سؤال في ذهن القارئ وهو: لم فعلت خديجة ذلك؟

هي فعلت ذلك وأمثاله كيما يتجه «المنتدب» بالكلية لموجبات التجربة الخطيرة ولا يصرفه عنها صارف حتى يكتب لها الفلج وهو ما حدث ونجحت التجربة نجاحاً فاق كل التوقعات.



ومن الأدلة التي نسوقها على اتساع ثروة أم هند أنها عند زواج ابنتها زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس أهدتها داراً وبوفاتها انتقلت ملكيتها إلى زوجها المذكور ومنه إلى وريثته ثم بيعت من أحدهم بثمانين ألف دينار فالتى تهدي داراً هذا ثمنها فكم بلغت ثروتها.

«الدار التي صارت لجعفر بن خالد بن برمك بفوهة أجياد الكبير عمرها جعفر بن يحيى بالحجر المنقوش بثمانين ألف دينار وكانت هذه الدار لأبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس زوج زينب بنت النبي ﷺ وفيها ابنتى بزيبب ابنة رسول الله ﷺ أهدتها إليها أمها خديجة...»<sup>(٥٩)</sup>.

ومما هو جدير بالذكر أن أبا العاص هذا كان يلقب بالأمين.

كذلك نفحت ابنتها المذكورة قلادة وعندما أسر زوجها أبو العاص في غزاة بدر الكبرى بعثت بها «= بالقلادة» فداء له من الأسر فلما رآها «صاحب الشفاعة الكبرى» رق لها فألمح إلى تبعه أن يطلقوا إليها زوجها ويردوا لها القلادة فعلى الفور لا على التراخي نفذوا إشارته، وقد رق لها

لأنها ذكرته بأيامه العزيزة عليه مع الأم الرؤوم والبعلة الحنون – وفي ذلك الزمن فإن الأم التي تمنح ابنتها عند نكاحها داراً وقلادة لا بد أن تبلغ درجة من الثراء وفيرة.

وهكذا تتراكم الأدلة على أن سيدة نساء الدنيا وصلت في الغنى إلى درجة غير عادية وفي الثراء إلى رتبة عالية وفي الملاء إلى مستوى غير مسبوق لا في مجتمعها فحسب بل وفي غيره من المجتمعات حتى إننا من الميسور علينا أن نطلق عليها «مليونيرة».



هذه السيدة العظيمة ذات الصفات البواهر والخصائص الممتازة والمناقب الحميدة والتي أجمعت دواوين السيرة المحمدية ذات الريح الذي هو أطيب من العنبر الأصهب على أنها حازمة لبيبة برزة<sup>(١٠)</sup>.

والتي أنجبها «= خديجة» والد من غطاريف قريش أسمى قبائل الحجاز بل والجزيرة العربية بأجمعها.

خديجة التي انتمت إلى أسد أو بني أسد أحد الأبطن العالية في قريش والتي تملك تجارة واسعة والتي تستأجر الرجال يعملون لديها. من المستحيل عقلاً أن تظل أمية تجهل القراءة والكتابة بل كل الشواهد تقطع بعكس ذلك وتثبت نقيضه، وهذه بعض البراهين التي تؤكد معرفتها التامة للقراءة والكتابة:

١ – كيف تسنى للطاهرة أن تدير تلك التجارة العريضة وتحاسب الرجال الذين تستخدمهم وكيف تزدهر «تلك التجارة» حتى تصل إلى نصف قافلة قريش والقافلة تسافر مرتين في العام مرة في الصيف وأخرى في الشتاء، وقد سطرنا فيما سبق أن القافلة تضم ألف جمل أي أن أم هند لها فيها «في القافلة» خمسمائة جمل، نقول كيف تسنى لها ذلك لو أنها أمية لا تعرف الكتابة والقراءة إلا أمانى؟

٢ – كيف يستسيغ العقل أن قتيلة أو أم قتال أو فاطمة بنت نوفل وأخت ورقة إحدى المرثتين اللتين تعرضتا لأبي محمد ليعتليهما أو ليعتلي كلا منهما على حدة نقول كيف يستسيغ أن هذه المرة – وهي بنت عم الطاهرة – تعرف القراءة والكتابة في حين أن خديجة وهي أعلى منها مرتبة وأرفع مقاماً وأسنى درجة في كل ناحية تجهل القراءة والكتابة؟

٣ – كذلك المرة الأخرى فاطمة الخثعمية التي طلبت من عبد الله بن عبد المطلب أن يأخذها وأغرته بجمالها الفائق وحسنها الباهر ومحياها الطلق وملاحظتها الظاهرة حتى إن فتیان قريش تعودوا على التحلق حولها والاجتماع بها ليتملوا من بهائها ووضاعتها – وأغوته

كذلك بنفحه مائة من الإبل إن ركب عليها وجامعها — هذه المرأة كانت تقرأ الكتب.  
فأنى يدخل العقل أن هذه الخثعمية التي تتكسب من العيافة والكهانة.. الخ تقرأ وتكتب وسيدة  
نساء الأرض تجهلها.

«انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ماضياً إلى بني زهرة مرّ بامرأة من خثعم يقال لها فاطمة،  
وكان فتیان قريش يتحدثون إليها وكانت عفيفة ويقال إنها كانت من بني أسد بن خزيمه وكانت تعترف  
وتقرأ الكتب»<sup>(٦١)</sup>.

ولقد تأكد هذا الخبر من مؤلفات أخرى في السيرة المحمدية المعطير نقتصر على ثلاث منها:  
«مر به امرأة كاهنة من أهل تباله «بلدة باليمن» قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر  
الخنعمية..»<sup>(٦٢)</sup>.

«عن الكلبي عن أبي الفياض الخثعمي قال: مرّ عبد الله بن عبد المطلب بامرأة من خثعم يقال  
لها فاطمة بنت عمرو وكانت من أجمل الناس وأشبهم — أشبهم بتشديد الباء أكثرهم شباباً وقوة — وأعفه  
وكانت قد قرأت الكتب...»<sup>(٦٣)</sup>.

والأخير في الوفا بأحوال المصطفى: «لما خرج عبد المطلب بعبد الله ليزوجه مرّ به على كاهنه  
يقال لها فاطمة بنت مرّ من أهل تباله قد قرأت الكتب...»<sup>(٦٤)</sup>.

٤ — حازت خديجة لقبين لم تحظ بهما واحدة من قريش قبلها أو بعدها، أولهما سيدة قريش،  
وآخرهما سيدة نسون قريش فهل يجوز أن تتسيد نسوة قريش ورجال قريش جميعهم أمية لا تعرف  
القراءة والكتابة؟

٥ — عند تعرض «صفوة بني قصي» لأحدثة غار حراء<sup>(٦٥)</sup>، والتي أخبر عنها وهو الصادق  
المصدوق أن ملاك الرب جبرائيل ظهر له في غار حراء وغدا وقعها على نفسه شديداً ورجع إلى  
الطاهرة ترجف بوادره وقد اعتبرتها هي ختم التصديق على نجاح التجربة وأن مساعيها كللت بالنجاح  
الباهر أرادت أن تتأكد وتستوثق من حدسها فتوجهت إلى ابن عمها ورقة ثم إلى عدّاس «وهو راهب»  
وقصت عليهما تفاصيل الحادثة فبشراها بفلج التجربة التي ظلت تحمل على كاهلها موجباتها والتزاماتها  
من كافة النواحي البدنية والمالية ما يقرب من عشرين عاماً وسوف تأتي دقائقها في باب «التجربة»  
ولكن لم يواتها الحظ بوجود الضلع الثالث وهو بحيرى الراهب في مكة حتى تخبره ثم تزداد وثوقاً منه  
لأنه سافر إلى الشام «بُصرى مركزه الدائم» فاضطرت سيدة نسون قريش إلى الكتابة إليه وقد ورد هذا  
الأثر بأكثر من مصدر.

«ذكر ابن دحية أنه ﷺ لما أخبر خديجة بجبريل ولم تكن سمعت به قط كتبت إلى بحيرى الراهب فسألته عن جبريل فقال لها: قدوس قدوس يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم»<sup>(٦٦)</sup>.

«وفي رواية أنها ركبت لبحيرى بالشام فسألته عن جبريل فقال لها: يا سيدة قريش أنى لك بهذا الاسم... الخ»<sup>(٦٧)</sup>.

ولعل ما جاء في الخبر أنها ركبت إلى بحيرى وقع فيه تصحيف والصحيح أنها كتبت إليه، وسواء هذه أو تلك فهذا الخبر يقطع بانتصاب علاقة حميمة بين سيدة نسوة الدنيا وبين الراهب بحيرى. وممن ذكرها الإمام العدل سليمان التيمي في سيره.

«ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ورد في «السيرة الحلبية» من أن ما يسمى بالإمام العدل سليمان التيمي ذكر في سيره أن السيدة خديجة رضى الله عنها عندما قص عليها محمد خبر الغار ركبت إلى بحيرى الراهب في الشام...»<sup>(٦٨)</sup>.

وهنا نجد الدكتور حسين مؤنس يسخر من الإمام التيمي ويتهكم عليه لأنه ذكر خيراً «وهو الركوب أو الكتابة إلى شماس مكة الذي سافر وقتها للشام كيما تتأكد منه عن واقعة الغار أ. هـ» لا يرضى هو عنه وهو منهج يناقض العلمية وينافي الموضوعية ويجافي الأصول المتعارف عليها في البحث التاريخي والإمام التيمي الذي هزئ به د. مؤنس هو أحد مصادر ابن هشام عند كتابته السيرة المحمدية التي هي أطيب من مسك ثبّت»<sup>(٦٩)</sup>.

وسيرة ابن هشام عمدة دواوين السيرة المحمدية ومن ثم فلا يتصور أن يعوج صاحبها إلى مصادر مهزولة أو عجفاء أو ضامرة.

ونحن نطلب من القارئ الرجوع إلى سيرة ابن هشام بتحقيق السرجاني المجلد الأول (ص ١٩٢) ليستوثق بنفسه من مدى احترام مؤلفها للإمام التيمي ومن ثم يدرك خطأ د. مؤنس في هجومه عليه، وابن هشام ليس هو الوحيد الذي أب إلى الإمام التيمي بل فعل ذلك السهيلي أحد أكابر شراح سيرة ابن هشام وهو مؤلف موسوعي مدقق وشرحه المسمى بـ «الروض الأنف» من أقيم المؤلفات التي كتبت في نطاق السيرة المحمدية التي هي أجمل من ربح بنفسي الكوفة — ومن أكثرها عمقاً ونفاًسة.

ومثله لو أنه رأى في الإمام التيمي ركركة<sup>(٧٠)</sup>. أو فهة<sup>(٧١)</sup> أو يأتي بعضيهة<sup>(٧٢)</sup> لما أقدم على الاستشهاد بما ورد في سيره:

«خديجة تسمى الطاهرة في الجاهلية والإسلام وفي سير التيمي أنها كانت تسمى سيدة نساء قريش وأن النبي لله حين أخبرها عن جبريل ولم



تكن سمعت باسمه قط ركبت إلى بحيرى الراهب واسمه سرجس فيما ذكر المسعودي فسألته عن جبريل فقال قدوس قدوس»<sup>(٧٣)</sup>.

ثم نذكر القارئ بالخبر الذي نقلناه منذ سطور والذي جاء في «فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي» وأورد المعلومة ذاتها، وبذا ثبت أن نقد د. حسين مؤنس للإمام العدل وتهكمه عليه لأنه أثبت في سيره الأثر ذاته ليس في محله وجانبه الصواب فيه.

إن مؤنساً مؤرخ له باع بيد أن بضاعته في «الإسلاميات» وشلة «قليلة» وقد سبق لنا أن لفتنا نظر الكتاب المحدثين خاصة الذي ركبوا الموجة الإسلامية «على كبر» أن يتضلعوا من العلوم الإسلامية قبل أن يقدموا على الكتابة فيها.

ثم نعود بعدها إلى سياقه فنقول: إن من المستحيل أن تكتب خديجة إلى بحيرى وهي أمية!!

٦ – وجدت في قريش نسون أجدن – لا عرفن فحسب القراءة والكتاب – منهن: «الشفاء بنت عبد الله القرشية... أسلمت قبل الفتح وبايعت رسول الله ﷺ عن صالح بن كيسان.. أن رجلاً من الأنصار خرجت به نملة فدلّ على الشفاء بنت عبد الله ترقى من النملة فجاءها فسألها أن ترقيه فقالت: والله ما رقيت منذ أسلمت فذهب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذي قالت الشفاء فدعا رسول الله ﷺ الشفاء فقال: اعرضى عليّ فعرضتها عليه فقال: أرقيه وعلّمها حفصة كما علمتها الكتاب. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»<sup>(٧٤)</sup>.

هذا الخبر يضم حديثاً لـ «أفصح العرب» محمد وحمله إلينا الحاكم النيسابوري في كتابه «المستدرک» وهو إن لا يعد من كتب الصحاح إلا أنه يتمتع بسمعة طيبة مثل عود الهند بين أهل السنة والجماعة – فإذن لا مطعن عليه ولا مغمز فيه.

ولنقارن بين سيدة قريش على بكرة أبيها وبين الشفاء الراقية. فسوف نلقى «نجد» ألا وجه للمقارنة إذ كيف تغدو الأخيرة قارئة كاتبة بل تعلم الأميين والأميات القراءة والكتابة إذ في طيات الخبر أن «مقدم عترة الله» أمرها أن تعلم إحدى زوجاته التسع: حفصة بنت العدي عمر بن الخطاب القراءة والكتابة والأولى «الطاهرة أم هند» أمية؟

أين مقام خديجة من موضع الشفاء بنت عبد الله؟

فسيدة نساء الدنيا أسدية «من بني أسد» أحد فروع قريش الرفيعة المقام والشفاء الراقية عدوية من بني عدي وهو فرع هزيل أزعر بين الزعارة<sup>(٧٥)</sup>.

وكيف تتفوق «= الشفاء» على سيدة نسون قريش «وهي منهن»؟ أي منطلق يجيز وقوع مثل هذا السخف؟ بأن يعلو المسود على السيد وأن يرتفع التابع على المتبوع وأن يتقدم المقود على قائده! وهناك نسوة أخريات في قريش كن يعرفن القراءة والكتابة منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد.

ولا توجد بين هاته النسوة من تصل قامتها إلى ركبة الطاهرة إذن كيف يجوز، أن المفضول يتفوق على الفاضل والراجح تشيل كفته على كفة المرجوح والمصلى<sup>(٧٦)</sup> يسبق المجلى<sup>(٧٧)</sup>.  
٧ — من جماع ما تقدم ثبت بيقين أن السيدة خديجة من ذروة الحامة<sup>(٧٨)</sup>.

ومن أعلى سنام النخبة في قريش وقريش لا تضارعها قبيلة في المكانة ولا تباريها عشيرة في المقام ولا تدانيها جماعة في الدرجة لا في الحجاز بل في شبه الجزيرة العربية بأسرها ومكة موطنها في ذلك الإبان تمتعت بازدهار تجارتها بخلاف موقعها الفريد وصلات سماعها<sup>(٧٩)</sup>. بكل حكام الحوار — الروم والفرس وبالتالي تابعوهم المناذرة والغساسنة وباليمن والحبوش ومصر ومن ثم وبطريق الحتم واللزوم أن تصير بيوتات قريش العالية على درجة متقدمة نسبياً من الحضارة، هذا بالإضافة إلى الاحتكاك بوفود الحجيج الذين يحجون ويقصدون الكعبة باعتبارها إرث إبراهيم مقدم البطارقة بخلاف من استوطن قرية القداسة «بكة» لأسباب مختلفة منها المتاجرة والتجسس والهروب من الاضطهاد الديني ومجاورة البيت الحرام وأقدس الكعبات «في تلك الأيام وجد في الجزيرة العربية بضع وعشرون كعبة أ. هـ».

فالتماس بكل هؤلاء لا شك أنه قد أثر في القرشيين وزادهم رقياً — «كان يقال لقريش أهل الله لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم والفضال والخصائص التي هي أكثر من أن تحصى.. ومنها كونهم قبلة العرب وموضع الحج يؤتون من كل أوب بعيد وفج عميق فنرد عليهم الأخلاق والعقول والآداب والألسنة واللغات والعادات والصور والشمائل عفواً بلا كلفة ولا غرم ولا عزم ولا حيلة فيشاهدون ما لم تشاهد قبيلة: وليس من شاهد الجميع كمن شاهد البعض ولا مجرب كالغمر ولا الأريب كالعتل. فكثرت الخواطر واتسع السماع وانفسحت الصدور بالغرائب التي تتخذ والأعاجيب التي تحفظ فثبتت في صدورهم وأضمرت وتراوجت فنتاجت وتوالدت وصادفت قريحة جيدة وطينة كريمة.. فلذلك صاروا أدهى العرب وأعقل البرية وأحسن الناس بياناً...»<sup>(٨٠)</sup>.

ولا أدل على سمو قبيلة قريش على غيرها من القبائل في الحجاز مثل ثقيف في الطائف وبنو قيلة في يثرب بل وعلى سائر القبائل في أنحاء شبه جزيرة العرب أن لغة قريش أو لهجتها إذا شئنا الدقة فاقت سائر اللهجات في الرقة والعذوبة والدمائة والبعد عن الحوشية والبداوة والخشونة حتى غدت بلا جدال سيدة اللهجات في جزيرة العرب كلها.

إن تلك القبيلة التي حازت كل تلك الخصائص الباهرة والمناقب العالية والصفات الحميدة كيف يتأتى للفهم السديد والإدراك السليم والفقہ الصحيح أن تقبل أن تغدو سيدتها وقمة هرمها الاجتماعي والاقتصادي أمية تجهل القراءة والكتابة.

إن هذا مما يمجج الذوق المرفه والحس الدقيق والفطرة الخالصة قبل أن يلفظه العقل ويستهججه الإدراك ويستقبحه الفهم ويستردله الوجدان.



تلك هي البراهين التي تقطع ببعد «سيدة نساء الدنيا» عن الأمية بعد السماء عن الأرض — ونحن ندرك أننا أطلنا في هذه الفقرة الخاصة بإثبات علم الطاهرة بالقراءة والكتابة لأن هذا أمر في نظرنا بالغ الأهمية شديد الخطر — إذ بدونه لا يقيض لـ «التجربة» النجاح وهذا ما نرجح أن القارئ اللبيب قد فطن إليه مما سطرناه حتى الآن وسوف يزداد له لقانة<sup>(٨١)</sup> كلما استمر في المطالعة التي نأمل أن تتم بوعي كامل وإدراك يقظ.

إن خديجة وقد حازت كل ما ذكرناه تعتبر من الخاصة أو النخبة أو الحامة لا في قريش وحدها بل في منطقة الحجاز بأسرها ومن ثم في شبه الجزيرة العربية، يضاف إلى ذلك اتصالها الحميم وعلاقتها المتينة بابن عمها القس ورقة ومن ثم فهي تنضم أو تأتي في مقدمة تلك الفئة الممتازة التي سمعت بـ «القادِم المنتظر» ثم آمنت بهذه الفكرة المبهرة وأدركت بما رزقت من صفات عقلية ممتازة أن الظروف تهيأت لمجيئه.

«وكانت عاقلة فاضلة سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة — وكانت تزور ابن عمها ورقة وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل وكانت تتكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة...»<sup>(٨٢)</sup>.

«وسبق لنا أن سطرنا ما ذكره من القدامى: ابن إسحق وتلميذه ابن هشام كل منهما في سيرته الأول في صفحة ٨٢ الأول والآخر — الأول ص ٢٢١ — تحقيق السرجاني».

وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي في هذه الخصوصية:

«فكانت السيدة خديجة وهي من صميم قريش وجيرة الحرم بحيث لا يفوتها شيء مما ماجت به بيتها قبل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه شعراء العرب وحكماؤهم وإرهاصات كهانهم وحنفائهم عن نبي جديد.. وتنبؤات برسالة سماوية جديدة تناقلها الرواة والسمار عن رهبان النصارى في الشام ونجران وأخبار اليهود في شمال الحجاز، ومكة على الخصوص كانت المركز الذي تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والتنبؤات وتتجمع روافد هامة هنا وهناك لتصب حول البيت العتيق وتحوم حول حي بعينه من أحياء قريش وهو حي بني هاشم وترنو إلى شخص بذاته هو محمد»<sup>(٨٣)</sup>.

والدكتورة عائشة عبد الرحمن أو بنت الشاطي أجادت وصف حالة مكة الدينية قبل بدء التجربة التي نذرت أم هند نفسها وجهودها وثروتها لها إلا أن التوفيق لم يحالفها في قولها حامت حول «شخص بذاته هو محمد» ذلك أن أم هند دون غيرها هي التي رشحت «الحبيب المصطفى» دون غيره في مكة جميعها ليغدو «القادم المنتظر».

وذكر العقاد: «واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة»<sup>(٨٤)</sup>.

بيد أن الأستاذ الكبير انزلق فوق في خطأ فادح فالظروف لا ترشح. الظروف تهيب وتوطئ وتمهد إنما الذي يرشح شخص أو نفر من الناس والنفر من ثلاثة إلى عشرة وقد يفعل ذلك فرد ثم يعاضده ويعاونه واحد أو أكثر.

و«سيدة نساء الدنيا» قد رشحت ووافق توسمها حدس آخر «يغدو من المفيد الرجوع إلى الخبر الذي سطرناه فيما قبل عن بحيرى رئيس أبرشية مكة أو الحجاز وناصح غلام خديجة وأتحفنا به ابن كثير في سيرته» وإذا لم تفعل ذلك الطاهرة التي تتلمذت على القس وسمعت منه وقرأت ما عربه من العبرانية، فمن يفعله؟



وهناك كُتاب قدماء أو قدامى ومحدثون فطنوا إلى ذلك..

«بعد ذكر واقعة اختبار خديجة لمن كان يأتي محمداً هل هو شيطان أم ملاك أورد صاحب السيرة الحلبية ما يلي: فإلى ذلك أشار صاحب الهمزية: وأتاه في بيتها جبرئيل، ولذى اللب في الأمور ارتياء. فأماطت عنها الخمار لتدري، أهو الوحي أم هو الإغماء. فاخنتى عند كشفها الرأس، جبريل فما عاد وأعيد الغطاء فاستبان خديجة الكنز الذي حاولته والكيمياء»<sup>(٨٥)</sup>.

إن الذي يلفت النظر هو البيت الأخير وهو أن سيدة نساء قريش وجدت في المصطفى الكنز الذي حاولته والكيمياء وهي عبارة لا تحتاج إلى تأويل.

والذي اكتشفناه أن عدداً من الذي ألفوا في السيرة المحمدية المعطار توصلوا إلى التجربة التي قامت بها خديجة مع محمد الذي فطنت إلى أنه الكنز ولو أنهم لم يصرحوا وقد سمى صاحب الهمزية جهودها في هذا السبيل بـ «الكيمياء».

ومن المحدثين الذين ألغزوا ولحنوا<sup>(٨٦)</sup> عميد الأدب العربي د. طه حسين إذ يقول: «لقد أحببت خديجة هذا الفتى منذ كان صبياً وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع ترقبه وتتبع نموه واكتماله»<sup>(٨٧)</sup>.

وكذلك أصحاب مؤلف «قصص الأنبياء»: «ويا للزوجين الكريمين — يعني الطاهرة أم هند وحبيب رب العالمين — زوجة تكلاً وترعى وتشجع وزوج يستهدي ويلتمس النور من رحاب الله رب الأرض والسماء.. ويمضي الزوج في التهيؤ للرسالة وتمضي الزوجة لتشجيعه ورعايته وعين القدر من فوقهما ساهرة والله من ورائهم محيط»<sup>(٨٨)</sup>.

وهنا من الضروري أن ينتصب سؤال: ما هي الدوافع والبواعث التي حملتها على مراقبة محمد ومتابعة أطواره منذ أن كان صبياً؟

وهل فعلت ذلك مع غيره من صبيان قريش وهم بالعشرات؟

إنها لم تفعل ذلك إلا لأنها لاحظت أن «العطوف» هو المنتخب الوحيد كيما يصير «المرتقب» والمأمول بحسب ما قرأت في الكتب وما سمعت من القس؟

وماذا تعني العبارات التي سطرها مصنفو كتاب «قصص الأنبياء» مثل: زوجة ترعى وتكلاً وتشجع.. وتمضي الزوجة لتشجيعه ورعايته، إذا لم تدل على أنها الزوجة أو سيدة نساء الأرض تنفذ التجربة وتمضي فيها مشجعة راعية مؤازرة.

إن جاد المولى وصحبه تحدثوا عن التجربة التي خاضتها الطاهرة إنما بعبارات ملتوية وجمل ملفوفة وكلمات حلزونية ونحن نلتمس لهم العذر لأن التبيين سوف يجر عليهم المتاعب ولعلمهم أسروا في نفوسهم لا ذنب علينا إذا لم ينقه القارئ!!



وترشيح الطاهرة لـ «قائد الخير» ليصبح هو المرتقب أو المأمول أو الآتي أكدته دواوين السنة المعتمدة وما انفك يشاركها في هذا الحدس ورقة وازداد اقتناعاً بما فتئت تنقله إليه الطاهرة من خطوات «... كان يتوسمها

إلى رسول الله ﷺ بما كانت خديجة تتعته له وتصفه له وما هو منظو من الصفات الطاهرة الجميلة وما ظهر عليه من الدلائل والآيات»<sup>(٨٩)</sup>.

ولقد عبر عنها ابن كثير في سيرته بـ «ما ظهر عليه من الدلائل والآيات» وأن «خديجة كانت تتعته له وتصفه له» أي دأبت على إحاطته علماً بالأحوال التي يترقى فيها «سعد الله» أثناء مروره بأطوار التجربة لكي يوجه القس بما يراه لما له من علم عميق بكتب اليهود والنصارى علماً لم يصل إليه واحد من المكيين في زمانه.

هذه الكتب التي أطبق أصحاب دواوين السيرة المحمدية التي هي أذكى رائحة من العنبر الأصهب أنها بشرت به ووصفته وصفاً دقيقاً حتى السمات الجسدية له ذكرتها بدقة متناهية.



وسطر أحد الكتاب المحدثين رأيه عن ضرورة استعانة الطاهرة بأستاذ يقوم بالإرشاد والتوجيه: «ولكن الأمر كان أعظم من هذا، وكان يحتاج إلى رجل له خبرة بالديانات وتاريخها والنبوات وسننها ومعرفة بأهل الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء فرأت أن تستعين بابن عمها العالم ورقة بن نوفل»<sup>(٩٠)</sup>.

ونجزم أنه لا توجد كلمات أقوى وأصرح من هذه الكلمات تحدد موقع ورقة كأستاذ ويعسوب وموجه للطاهرة وهي تتولى إنجاز التجربة الكبرى التي أظهرت القادم المنتظر بصورة مدهشة.



الفارق الزمني بين عمر هندوز التجربة وعمر موضوع التجربة هو ربع قرن، فـ «سيدة قریش» نكحت محمداً وهي بنت ست وأربعين سنة<sup>(٩١)</sup>.

في حين أنه لم يكد يبلغ الحادية والعشرين من عمره المبرور<sup>(٩٢)</sup>.

إنما بعض البحاث يستهول هذه الحقيقة فبعضهم يدعى أنها أسن منه ببضع سنوات والوهم الشائع بين غالبيتهم يرتفع بالمسافة العمرية بينهما إلى خمسة عشر عاماً، بيد أن بعض المتفهمين منهم يرفضه أيضاً بمقولة أن الطاهرة إن بلغت الأربعين من عمرها المبارك عندما نكحت «صاحب النسب الموصول» فكيف أنجبت أربع بنات «هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة» وهناك اختلاف على ترتيب رقية وأم كلثوم وصبيين هما القاسم والطاهر «أو الطيب» وهي في تلك السن؟

فسألت واحداً من أكبر أطباء النساء في مصر: هل تستطيع المرّة أن تنجب وهي في السادسة والأربعين؟ فأجاب متسائلاً: أخبرني عن خصوبتها؟

فرددت عليه لعلك تعني هل أنجبت قبل ذلك ثم أردفت إنها ولدت ثلاث مرات أو أربعاً.  
وجاءني رده عبر الهاتف: نعم تستطيع دون مشاكل.

• • •

وبدوري أضيف الآتي: طلاقة الجو ونقاؤه وعدم تلوثه كلها أمور تساعد على الإنجاب كما أن أم هند... من البديهي أنها تمتعت بصحة ممتازة فلديها الثروة والجواري اللاتي يكفينها خدمة المنزل التي تهدي حيل<sup>(٩٣)</sup> المرّة.

أي أنها عاشت في بلهنية ورفعية<sup>(٩٤)</sup>. ونذكر أن دواوين السيرة العطرة أطبقت على جمالها والجمال قرين الصحة والعافية كما ذكرت أن العديدين من المملأ «وجوه القوم» تنافسوا على خطبتها فما الذي يدعو هؤلاء لنكاح قبيحة منفرة أو حتى متوسطة الحُسن عادية القسامة منخفضة الوسامة.. إذن فما دامت الطاهرة بهيئة حسنة حلوة فلا مشاحة إذن أنها تمتعت بصحة جيدة تؤهلها للولادة عدة مرات رغم تلك السن.

فإذا فرضنا أن الطفل يستغرق ما بين حمل وولادة وانتظار المولود التالي عاما ونصف عام وهي أنجبت لـ «ذى العطايا» ستة أطفال فإن دلالاته أنها قضت في ولادتهم أقل من عشر سنوات من عمرها المبروك أي أنها استمرت حتى السادسة والخمسين ولا غرابة فيه فنحن الآن نرى في الأرياف زوجات يخلفن في مثل هذه السن.

أما من ناحية «المسيح» فهو في عز شبابه<sup>(٩٥)</sup>.

وتحدثنا كتب سيرته التي هي أشد شذى من الورد البلدي أنه عرف بمتانة البنيان وقوة الجسد وإحكام الخلق وشدة الأسر<sup>(٩٦)</sup> وأنه صرع ركانة أقوى رجل<sup>(٩٧)</sup> في قريش فعاد ركانة من مصارعتة مهزوماً ذليلاً يجر أذيال الصغار والخيبة.

ومن جماع ما تقدم يثبت أن الدفع بإنجاب سيدة قريش لهذا العدد من البنات والبنين يدل على أنها عند نكاحها «سيد ولد قصي» لا في السادسة والأربعين ولا حتى في الأربعين، نقول يثبت أنه دفع فسيد وحجة بائرة ودليل أعجف وقريينة مهزولة ضامرة.

• • •

وهنا يرتفع سؤال على قدر من الأهمية وهو: ما هي علة الإصرار من جانبنا على أن الطاهرة عندما نكحت «المنتصر» بلغت أو ناهزت السادس والأربعين وأن الفارق بينهما قارب الربع قرن؟

الإجابة على هذا السؤال تنضوي على شقين:

**الأول:** سبق أن أوضحناه في باب «الأم الرؤوم» وهو أن ذلك ساعد بالفعل على نجاح التجربة لأن «المجير» نظر إلى أم هند باعتبار أنها أمه مما عاضد على المطاوعة والملاينة والمسالمة والمهاودة وهي ركائز الفلج والظفر والفلاح ونزید: لو كانت خديجة في مثل سنه أي بالكاد تخطت العشرين هل يستجيب لها تلك الاستجابة المعجبة. ونذكر بما تم في اختبار الآتي هل هو ملك أو شيطان ففيها تجاوب معها تماماً دون اعتراض – وهذه الواقعة من الوقائع النادرة التي سطرها كتاب السيرة المحمدية الفائحة بالمسك – ولو أنهم أتحنفونا بمثيلاتها لوجدنا بين أيدينا مدداً طيباً ساعدنا في الإبانة عن أطوار التجربة المنقطة النظير.

ثم نعود للسياق: لو أن الطاهرة وقت ذاك في مثل سن «أعظم الكائنات» هل استجاب لها وطاوعها في طلباتها منه أن يجلس في فخذيها ثم في حجرها ثم داخل درعها «قميصها»؟  
الإجابة لا بد أن تجيء بالسلب حتى لو أضفنا عشر سنوات.

إن أم هند شد انتباهها هند شد انتباهها «الأثوار – المتجرد» منذ علقت به أمه من أبيه عبد الله ثم وضعته تحت الرقابة الشاملة منذ أشار عليها الراهب بحيرى «المرجعية الكبرى» بلزوم نكاحه وضرورة مباحثته وفرض الزواج منه إذ من غير المعقول أن تصرف نظرها عن الشخص الذي سوف تصير له بعلاً بل لا بد وبطريق الحتم واللزوم أن تحيط بكل صغيرة وكبيرة عنه ولا بد أنها لحظتها فيه «= المراجع فوهزتها وهزاً<sup>(٩٨)</sup> للإشارة عليها بحتمية القران به مع الوضع في الاعتبار أنه في ذيك الوقت صبي لما يحتلم وقريش فيها من الرجال العدد الوفير، والمراجع إياها في مثل هذه الأمور لا تعبت ولا تهزر ولا تعرف المجانة.. إذن لا بد أن في الأمر سراً وإذ إنها «= المراجع» لم تبح به لها وهي من ناحيتها ليس من حقها أن تسألها عنه وإلا عدت طورها وتخطت درجتها وتجاوزت مكانها إذن فلا سبيل أمامها لمعرفة «السر» إلا أن تضع المرشح الزوج أو الزوج المرشح تحت المجهر كيما تلم بالصغير والكبير من شئونه حتى تتوصل إلى السر.

الأمر الذي استغرق وقتاً ممدوداً وزمناً طويلاً وبالتالي تقدماً في العمر.  
هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن خديجة كما ذكرنا من الذؤابة العليا من قريش ومن رهط بني أسد ومن ثم فهي – وكما أسلفنا – تعد من النخبة التي اتصلت مثل غيرها من طبقتها بأحبار اليهود وبرهبان النصارى الذين ما فتئوا يتحدثون عن القادم المنتظر والمأمول وأن ذلك كله مسطور في كتبهم



المقدّسة حتى أوصافه الخلقية المذكورة فيها وأنهم لمسوا آيات وعلامات وإشارات تقطع بأن زمانه قد أطل أو أطل وبديهي أنها لم تقف عند ذلك فهي طلّعة.

لهذا أخذت تتدارس هذا الأمر مع جهابذة العلم الديني في منطقة الحجاز عامة وقرية التقديس «بكة» خاصة وسوف يأتي تفصيل هذا كله في باب التجربة وما نذكره هنا باختصار أن خديجة ربطتها علاقة حميمة بهؤلاء وعلى رأسهم:

بحيرى الراهب وعداس وهو راهب أيضاً ولو أن كتاب السيرة المجيدة المحدثين يخطر شون<sup>(٩٩)</sup> على هذه الحقيقة وبالتالي فهي بحثت معهم باستفاضة مسألة القادم المأمول وإرهاصات ظهوره والعلامات التي تومئ إليه دون تحديد أو تعيين، بيد أنها بما أوتيت من بصيرة ورزقت من فطنة ومنحت من زكّانة تعرفت على المرشح الفرد الذي يصلح أن يغدو هو دون غيره من ناشئة قريش وذلك بعد أن تفرست فيه جيداً وتمعنّت في قسماته المعنوية قبل المادية ومن ثم سعت سعياً حثيثاً إلى مباعلته وخاضت معركة شرسة حتى ظفرت به ونكحته كما أوضحنا فيما سلف، وبعد ذلك باشرت مهمتها باقتدار ونجحت في ذلك نجاحاً باهراً فصارت خير هندوز لتجربة من أعظم التجارب في تاريخ البشرية.



إلى هنا نصل إلى المحطة الأخيرة في الرحلة الطويلة التي قطعها الطاهرة لكي تغدو بعلاً لـ«الهاشمي – الهمام» ونعني بميناء الوصول مجلس عقد الزواج (فخرج معه «= مع محمد» حمزة وأبو طالب وهو الذي خطب خطبة النكاح لأنه أسن من حمزة.. فلما أتم الخطبة تكلم ورقة بن نوفل.. وجاء في ختام كلمته: قد رغبتنا في حبلكم وشرفكم فاشهدوا عليّ يا معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة من محمد. ثم سكت فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمها عمرو: واشهدوا عليّ يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمداً خديجة وشهد على ذلك صنديد قريش فأمرت خديجة عند ذلك جواريتها أن يرقصن ويضربن الدفوف وقالت لمحمد ينحر بكراً من بكرانك وأطعم الناس فقل من أهلك فأطعم الناس...)(١٠٠).

(فرغ أبو طالب من خطبته في خطوبة «صاحب الفرج» لخديجة.. فتكلم ورقة فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عدت فنحن سادة العرب وقادتها «رؤساؤها» وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر أحد فضلكم وشرفكم وقد رغبتنا في الاتصال بأسرتكم وشرفكم فاشهدوا عليّ يا كبار قريش أني قد زوجت خديجة.. من محمد.. بمهر كذا.

فقال أبو طالب: أحب أن يشترك عمها معك فقال عمها عمرو: اشهدوا علي يا كبار قريش أني قد زوجت محمداً خديجة.. وشهد على ذلك كبار قريش<sup>(١٠١)</sup>.

• • •

ويتضح من جماع هذه الآثار أن ورقة هو الذي تولى تزويج خديجة لـ «المستجيب»: فاشهدوا أني قد زوجت خديجة من محمد.. ويلاحظ أنه قدم خديجة باعتبار أنها هي التي توصلت لـ «الضحوك» لتتكمه أي أن النكاح تم بناءً على طلبها. أما ورقة فهو الذي رحب به وباركه بل شجع أم هند عليه وفتح مخطها ولفت نظرها وشد انتباهها لأهميته وبصرها بالنتائج الخطيرة التي تترتب عليه وأنها سوف تغدو «سعيدة السعيدات» أو «أسعد الناس» في حالة إنجازه وطلب منها أن تخطره بخطواته خطوة إثر خطوة.. هذا ما حكاه لنا الدكتور طه حسين في كتابه الممتع «على هامش السيرة».

• • •

إن وليّ الطاهرة في إبرام عقدة الزواج سواء هو الولد أو العم لم يدل بكلمة أهل العروس أو المخطوبة بل الذي تكلم هو ابن عمها ورقة على خلاف المعهود ومن ثم فقد ألح أبو طالب على ضرورة سماع كلمة الوليّ ولم يكتف بمقالة ابن نوفل — ذلك أن عم «المعروف» لا علم له بخبيئة الأمر وتقدم القس — لإلقاء كلمة بني أسد دليل قاطع وبرهان ساطع على أهمية دور ابن نوفل سواء في إتمام الزواج أو متابعة التجربة الكبرى وتأكيد بأنه يعسوبها والمشرف على خطواتها، ذلك أن ورقة رجل حصيف وأريب ومجرب يعرف قبل غيره أن إلقاء كلمة أهل العروس فيه تعد لمقام وليها سواء هو والدها أو عمها وتخط لقدره وتجاوز لمكانته ومثله لا يقبل على هذه الخطوة إلا إذا كمن وراءها سبب دافع وهو الحرص الشديد على إتمام عقدة الزواج لأنها خطوة بالغة الأهمية ولها ما بعدها وبدون إحكامها لا يكتب للتجربة المدهشة الفلج ولا يقيض لها الظفر ولا يتاح لها الفلاح — أم أن صفة ورقة كـ«قس» شكلت ضرورة طقوسية ليتولى هو مراسم العقد كيما يصير شرعياً ليباركه الرب!!، ولا ننسى أن الولي في تلك اللحظة الحرجة سكر سكرًا بينما إذ إنه عب من العاتق «الخرم» حتى فقد وعيه.

وخشى القس وعاضدته سيدة نسوان قريش أن الولي المخمور أو المخمور الولي يخربق في كلمته فينهار مشروع الزواج الذي كلفه الكثير من الجهد ودعك من المال والأهم أن تخفق التجربة التي ظلت تدبر لها

سنين عددا فتصير هياتها لدى المرجعية التي أشارت عليها بضرورة نكاحها «الهيبن» على غير ما تحب وبخلاف ما ترجو ونقبض ما تأمل كما أنها تغدو في نظر أستاذها ومعلمها نعني القس ورقة غير جديرة بأن تحظى بشرف توجيهه لها ورعايته إياها.

وبالنسبة لهما معاً فإن ما رسماه يصبح رماداً تذروه الرياح العواصف ونحن نرجح أن إقدام ابن نوفل على التعبير عن رأى رهط الأسيديين في إمضاء العقد تم باتفاق بين التلميذة النجبية والأستاذ القدير.

وهناك احتمال لا يجمل بنا تجاهله في هذه الواقعة وهو أن مبادرة ورقة بإلقاء كلمة أهل المخطوبة ربما ترجع إلى أن وليها والدأ أو عمأ في حالة من فقدان الوعي تحت تأثير السلسال «الخمير» حتى إنه لا طاقة له على الكلام وهذا يوثق ما سبق لنا إثباته أنه سواء الأب أو أخوه هو الذي حضر المجلس فالأمر سيان وذكرنا هذا الاحتمال هو من باب تكميل تحليلنا لهذه الواقعة ذات الأهمية الظاهرة وتناولنا لها من كافة أقطارها وبحثها من سائر جوانبها والتتقير في كل نواحيها كيما لا تشوب هذه الدراسة أقل شائبة.



ما هي ثقافة الهندوز وما مداها هل هي عميقة أم متوسطة أم وشلة «ضحلة»؟

في البداية: ما هو كنه ثقافتها وإذ نعمل نعاني كثيراً من ندرة ولا نقول من قلة المعلومات فالمصادر «الكتب التراثية» لم تتناول هذا الموضوع بشكل مباشر ومن ثم فنحن نستقصر منها الأخبار الشحيحة التي ألفت بهذا الشأن.. أما المراجع «المؤلفات الحديثة» فقد أحجمت عن الخوض فيه لأسباب لا تغيب عن ذكاء القارئ ذي اللب والفتانة.

أول ما ينتصب قرينة على أن ثقافة أم هند في ذلك كتابية هو لقب «الطاهرة» وسبق أن أفصنا في هذه النقطة ومن ثم فلا داعي لإعادة الحديث بشأنها بيد أننا نضيف ما سطره اثنان ممن كتبوا في السيرة المحمدية المعطير وهما من المحدثين:

أولهما: الشيخ عبد الحليم محمود الذي ارتقى سلم المؤسسة الدينية الرسمية حتى ذروتها: «ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة رضى اله عنها ولكن أحبته لشيء آخر هو سمو الروحي وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفاشية والاتجاه إلى الخالد من معالي الأمور»<sup>(١٠٢)</sup>.

فالسيدة التي تبذل ما يشبه المستحيل حتى تغدو بعلا لـ «صاحب الشملة» لسموه الروحي وعزوفه عن اللذائذ المادية لزهده — ونحن نعلم أن

أهم صفة امتاز بها عيسى ابن مريم هي الزهد – والاتجاه إلى معالي الأمور الخوالد، ليست زوجة عادية إنما بطريق اللزوم أن تتمتع بثقافة دينية خاصة ذات منزع لا يغيب عن العين البصيرة.

أما **المصنف الآخر**: فهو محمد علي الصابوني الذي سلط الضوء على جانب طالما أثار اللغظ خاصة من بعض المستشرقين الحاقدين على «المهذب» فيقول:

«كان زواج العقل للعقل.. لم يكن الغرض منه قضاء الوطر «الشهوة».. هذه المرأة النقية العاقلة الذكرة «يسرها الله تعالى له» لتعينه على المضي فهي تبليغ دعوته.. قضى الرسول مع خديجة زهرة شبابه فلم يتزوج عليها ولا أحب أحداً مثل حبه لها..»<sup>(١٠٣)</sup>.

هنا نجد الصابوني يتحدث عن تقوى ونقاء «سيدة نساء الدنيا».. والتقوى والنقاء يعادلان الطهر وينزهها عن قصد قضاء الوطر والشهوة عندما يمت شطر «الفتاح» وقدمت ما يفوق طاقة البشر لتتكحه – بل ولتعينه على المضي في تبليغ دعوته».

فلولا أن سيدة نساء قريش تملك ثقافة كتابية لما فعلت كل هذا!

ومن حقنا أن نسأل: كم سيدة على استعداد لتؤدي عشر ما قامت به أم هند مع «المتوسط» وبذلت الجهد والمال مثلها؟



فإذا انتقلنا إلى رهط خديجة وهم بنو أسد نجد أنه لم يوجد بطن آخر في قبيلة قريش بجناحيها: البطاح والظواهر، تفشت فيه النصرانية مثلهم ولقد بسطنا القول في هذه الخصوصية ومن ثم يغدو من التكرار الممل إعادة ما سطرناه فيها ويكفي أن نورد رأي باحث جاد هو الدكتور جواد علي في مصنفه القيم «المفصل»: «وقد ذكر ابن قتيبة الدينوري أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاة. وقال اليعقوبي: وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد وورقة بن نوفل»<sup>(١٠٤)</sup>.

ونحن نعلم أننا سبق أن ذكرنا هذه الفقرة بيد أن التكرير القليل يغدو لازماً في أحيان كثيرة خاصة عندما ندرس موضوعاً من نواح عديدة.

ونذكر أن ثلاثة من بني عم أم هند تضلعوا في النصرانية حتى وصلوا إلى مراتب سامية فيها:

البطريق: عثمان بن الحويرث.

القس: ورقة بن نوفل.

الكاينة: قتيلة أو أم قتال بنت نوفل.

وليس مصادفة أن خديجة التاجرة استعملت عبيداً نصارى علمنا منهما اثنين هما ناصح وميسرة أما الأول فلم نعثر له إلا على خبر واحد:

«قالت خديجة لمحمد قد أخبرني به ناصح غلامي وبحيرى الراهب أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»<sup>(١٠٥)</sup>.

وغلامي تعني عبيدي ومملوكي وأم هند أخبرت بذلك «أنفس العرب» بعد أن فلجت في أن تصير له بعلاً — والخبر على وجازته يكشف الستر عن أن العبد متمكن من النصرانية وعلى علم بالكتاب لأن سيدة قريش قرنته بالراهب بحيرى فكلاهما أشار عليها بضرورة مباحلة «الأمة».

أما المملوك الآخر فهو ميسرة وسبق أن طرحنا البراهين على نصرانيته ونضيف خبرين الأول: أوردته البلاذري عن «الأنساب».

«وأخبرها ميسرة بما كان يقال فيه = محمد» وكانت امرأة عاقلة حازمة برزة مرغوباً فيها لشرفها ويسارها»<sup>(١٠٦)</sup>.

وجملة «بما كان يقال فيه» تعني ما قاله الرهبان في حق «البارقليط» ولولا أن عبد الخير ميسرة على معرفة وطيدة بل علاقة حميمة بمن أسروا له بأحوال وصفات ومناقب «الصراط المستقيم» لما خصوه بها، ونرجح أنهم طلبوا منه أن ينقلها لسيدته. ونضيف أنه استمر رفيقا لها عدة عقود من السنين وأنها أولته ثقتها الكاملة، ودأبت على إرساله مع الذين تستأجرهم كيما يضاربوا لها بمالها عيناً ورفيقاً عليهم كذا ليحمل إليها آخر ما يستجد من أخبار وأحوال لدى أولئك الرهبان الذين يقطنون على حدود الجزيرة ومشارف الشام وتمر عليهم قافلة قريش التي تملك أم هند نصفها.

أما الخبر الآخر فقد نفحنا به جلال الدين السيوطي في «الخصائص الكبرى» «راهب رحلة الشام الثانية اسمه نسطورس كان يعرف ميسرة ويعرفه»<sup>(١٠٧)</sup>. هذا الخبر صريح في نصه واضح في دلالاته على أن ميسرة يعرف الراهب نسطورس وأن الأخير يعرفه وهذا برهان ساطع على نصرانيته وإلا فما الذي يربط عبداً براهب؟

كما أن السيدة خديجة عندما تسترق عبيداً نصارى وتتفحص ثقتها فإن هذا له علة خبيثة خاصة وأن ما حكته دواوين السيرة المحمدية التي هي أطيب رائحة من المسك الأصهب عن ميسرة يدل على أن الصلة بينه وبين سيدته ليست علاقة عبد بمالكته بل هي أعمق ونذكر هنا أنه سفر بينها وبين «المشيح» في مسالة نكاحها إياه.

• • •

العبدان النصارى في بيت أم هند هم أفراد الحلقة الكتابية الداخلية التي أحاطت بها.

وهناك أخرى مماثلة خارجية اتصلت بها: أول أفرادها ورقة بن نوفل ابن عمها وسبق أن تحدثنا عن العلاقة بينهما بما فيه الكفاية إنما لا بأس من إضافة هذين الخبرين «فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان ابن عم خديجة وكان شيخاً كبيراً عمى — وكان من الحنفاء — ثم تنصر فصار من علماء الكتاب»<sup>(١٠٨)</sup>.

«وكانت خديجة تسأله — أي ورقة — عن أمر النبي ﷺ»<sup>(١٠٩)</sup>.

والحق أننا لسنا في حاجة إلى ذكر ورقة كعضو في الحلقة بعد أن أفردنا له فصلاً مستقلاً إنما لاستكمال عدة أعضائها.



وثانيهما عداس مملوك عتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أغنياء الطائف لهما بساتين وأراض زراعية وكروم عنب وسبق أن ذكرنا أن ابن حزم أكد أن شيبة نفسه اعتنق النصرانية «وكان في الطائف نفر من الموالي كانوا على دين النصرانية لم يتعرض سادتهم كسائر رجال الأماكن الأخرى من الحجاز لدينهم فتركوهم على دينهم يقيمون شعائرهم الدينية على نحو ما يشاؤون من هؤلاء عداس وقع في الأسر فبيع في سوق الرقيق وحيء به إلى الطائف فصار مملوكاً لعتبة وشيبة ابني ربيعة»<sup>(١١٠)</sup>.

وعلى رأس هؤلاء الموالي النصارى عداس وتخبرنا الدواوين التراثية لسيرة «الأبى» أنه راهب إنما الكتب الحديثة تداريها لعله يدركها القارئ للماح.

«ثم رأيت أن عداساً المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبير السن قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له أنعم صباحاً يا عداس. فقال: هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش، قال: أدنى مني فقد تقل سمعي فدنت منه ثم قالت له: ما تقدم»<sup>(١١١)</sup>.

هذا الخبر يقطع بوجود علاقة وطيدة بينهما لأنه عرف صوتها ولنلاحظ أنه ناداهما بلقب «سيدة نساء قريش».

وفي خبر آخر أن بحيرى خاطبها بذات اللقب.

وثالثهما هو الراهب سرجيوس: «يقصد ثيوفانيس — طبعة كلاسن — وجورجيوس — طبعة بيكر — أنه بعد أن ارتجف محمد بعد ظهور جبريل أول مرة توجهت خديجة، وقد استولى عليها قلق شديد إلى سرجيوس وكان راهباً زنديقاً منفيّاً فطمأنها بأن أكد لها أن الملك «يعني جبريل كان يرسل إلى كافة الأنبياء»<sup>(١١٢)</sup>.

وواضح من الخبر أنه ممن وثقت فيهم خديجة وفي علمهم بالكتب المقدسة لهذا هرولت إليه لتستفسر منه عما حدث لـ «الفلاح» في غار

حراء إذ مما يرفضه اللب أن تهول إليه في مثل هذا الأمر دون سابق معرفة لخطورته من جانب ومن جانب آخر لضرورة كتمانها حتى لا يتسرب فيحدث رد فعل سيئ قد يؤدي لعدم اكتمال التجربة.

والرابع هو بحيرى الراهب وهو رأس الحلقة بلا مدافع ونرجح أنه شماس أو مقدم أبرشية الحجاز واختلفت المصادر في اسمه فبعضها سماه بحيرى والآخر أطلق عليه نسطورا بل ويؤكد أن هذا هو الاسم الصحيح وأنه الذي قابل «الصبيح» في سفرته الأولى إلى الشام.

«هذا الراهب ذكروا أن اسمه نسطورا وليس هو بحيرى المتقدم ذكره وهو الذي قابله في سفرته الأولى وهو غلام مع عمه أبي طالب»<sup>(١١٣)</sup>.

وليس ابن هشام هو الوحيد الذي لم يستطع أن يجزم الاسم الصحيح بل فعل ذلك صاحب السيرة الحلبية.

وسبق أن أخبرنا القارئ أن سيرة ابن هشام هي عمدة السير «بعد سيرة ابن اسحق» أما الحلبية فلها مقام لا يستهان به بين مؤلفات سيرة محمد التي هي أحسن من صوت «هزاز دستان» وهو طير له صوت كأنه مزامير داوود.

«بحيرى أو نسطورا أو نحوهما ممن صدق بأنه (= ﷺ) نبي هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام لأنهما لم يدركا البعثة»<sup>(١١٤)</sup>.

ولا يزال الخلاف مستمرا حتى يومنا هذا «إن المصادر العربية لا تذكر بحيرى، إلا أنه راهب اسمه سركييس ولقبه بحيرى لسعة اطلاعه في علوم عصره في نطاق اختصاصه اللاهوتي»<sup>(١١٥)</sup>. والمقال به أخطاء تاريخية ومعلوماتية وملئ بالعبارات الإنشائية بيد أننا استشهدنا به لمجرد إثبات استمرار الاختلاف على «بحيرى» وسواء اسم ذلك الراهب نسطورا أو بحيرى أو سركييس الذي يعنينا أنه رئيس أبرشية الحجاز الذي ربطته بسيدة قريش أصرة شديدة وأنها تثق في علمه الكتابي ثقة لا حد لها فبعدما أخبرها «السلطان» أنه التقى بالملاك جبريل تصادف أن سافر بحيرى من الحجاز إلى الشام فركبت إليه لتستوضح منه حقيقة ما حدث ولتبشره بنجاح التجربة إذ هو الذي أشار عليها من زمن لتغدو بعلا له.

«انطلقت خديجة لتسأل من عنده علم من الكتاب كعداس ونسطورا الراهب فقالا: قدوس قدوس... وفي رواية أنها ركبت لبحيرى بالشام فسألته عن جبريل عليه السلام فقال لها: يا سيدة قريش... الخ»<sup>(١١٦)</sup>.

وهذا الخبر يتعين أن يحظى بوافر الاحترام لأن الذي نقله إلينا إمامان الزبيدي والشرقاوي والمحقق هو الشيخ أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر ومن متنفذي المؤسسة الدينية في مصر. فسيدة نساء الدنيا لولا

ثقتها في الراهب بحيرى لما تجشمت عناء الركوب إليه من مكة إلى أطراف الشام مع ملاحظة أنها في ذيك الوقت ناهزت السادسة والخمسين من عمرها المبارك «على فرض أنها نكحت المليح الوجه وهي بنت أربعين عاماً» خاصة وأن بحيرى هو الذي أشار إليها منذ زمن بنكاحه.

ولم ينفرد «فتح المبدى» برواية هذا الخبر ذي النثقل والوزن بل سبقه الإمام العدل في سيره.

«من يسمى بالإمام العدل سليمان التيمي ذكر في سيره أن السيدة خديجة رضى الله عنها عندما قص عليها محمد ﷺ خبر الغار كتبت أو ركبت – إلى بحيرى الراهب في الشام»<sup>(١١٧)</sup>.

ولقد شكك في هذا الخبر الدكتور حسين مؤنس فليشكك كما يحلو له، ففيما سلف فندنا رأيه بأدلة دواغ هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فقد تعودنا من الكتاب المحدثين أن أي خبر يقرأونه في المؤلفات التراثية ولا يوافق هواهم «نعم هواهم» يهرولون لا إلى نقده بل إلى تسخيفه وترذيله دون أن يقدموا أي أدلة فسيده واهية متهافنة لا تصمد إلى تجريح.



الخلاصة أن الحلقة الكتابية الخارجية التي ربطت خديجة حبلها بها تشكلت من القس ورقة والراهب عداس والراهب سرجيوس ومقدمها الراهب بحيرى أو نسطور أو سركيس، قد وصلت إلى درجة رفيعة من العلم بالكتاب وليس من بينها رجل عادي يقال عنه إنه يعرف قشوراً من العلم الكتابي حتى عداس المملوك لابني رببعة ارتقى إلى رتبة «راهب» وهذا أمر له دلالاته وهو أن الظاهرة شدتها صلة وثيقة وعلاقة حميمة وأصرة متينة برؤوس أهل الكتاب في مكة والحجاز وإذ إنها برزة فالراجح بل المؤكد أنها جالستهم ونسبت بينها وبينهم محاورات قوامها العلم الكتابي مما يزيد ثقافتها الدينية عمقاً. بيد أن ثقافتها الكتابية تلك لم ترتفع إلى درجة علمهم – ولكن قدرها لا يستهان به على الإطلاق وإلا لما نجحت في إنجاز التجربة الفذة.



ومن أهم روافد تلك الثقافة قراءة ما تولى ابن عمها ترجمته من التوراة والإنجيل، فقد أجمعت كتب سيرة «المأحي» التي هي أجمل ريحاً من نشر القطر أن ورقة أتقن العبرانية كتابة ونطقاً وبعضها ذكر أنه اعتنق في البدء اليهودية ثم استقر على النصرانية، ولو أنه في الأوائل صُنّف من بين الأحناف



الذين تركوا الوثنية بحثاً عن دين إبراهيم أبي الأنبياء ومقدم البطارقة وبذلك نقل من الكتاب المقدس بقسميه «التوراة والإنجيل» ونحن نرجح أنه إنجيل العبرانيين الذي بين يدي النصارى الذين جاءوا من الشام فراراً من اضطهاد الفرق الأخرى»، نقل منه إصحاحات أو صفحات أو أبعاضاً، والمؤكد أنها وفيرة لأن القس اعتمد في معيشته على تشغيل ما لديه من مال في التجارة ومن المؤكد أنه استفاد من خبرة خديجة التاجرة الناجحة في هذا الشأن ونحن نقول به لأن المصادر التي بين أيدينا لم تطلعنا على مهنة له يمتنها أو تبين لنا مورد دخله وممن تكسب أو تعيش. فإذا صح ذلك وأغلب الظن أنه صحيح لأن من المعروف عن قريش أنهم قوم تجار فإنه قد تفرغ لقراءة الكتاب المقدس ولترجمته وبذل مجهوداً مضنياً حتى أثر على نظره فعمى في آخر عمره. هذه الترجمات بطريق الحتم استعارتها منه خديجة فقرأتها واستوعبتها وشكلت قسماً وسيعاً من ثقافتها الدينية.

وهي بدورها طفقت تقرأها لـ «الخاتم» بعد أن نكحته وغدت له بعلاً وهو بدوره قد اختزنها في حافظته الواعية وذاكرته القوية.



انعقدت جلسات مذاكرة ومدارسة ومحاورة بينها وبين يعسوب ثم انضم إليها «أحمد» بعد المباحلة وفي ليالي مكة الطويلة استمرت هذه الجلسات حتى ينفجر نور الصباح. فهي جزء عضوي في الإعداد والتأهيل والتهيئة.



إن هذا هو الرافد الآخر في تكوين الثقافة الكتابية لسيدة نساء الدنيا. بيد أنه من المفيد أن نذكر باستعدادها لتقبل هذا النوع من الثقافة لأنه اكما صنفها أحد كتاب السيرة من نفر القليل الذين نبذوا عبادة الأصنام واقتنعوا بأنها باطلة فضلاً عن عدم معقوليتها ولعلها أخذت تردد: ما صنم تطوف به ونذبح له الذبائح ونقدم له القرابين؟ ليس ما أسلفنا فحسب.

بل ولأن الثقافة النصرانية في ذيك الوقت سيطرت وهيمنت على أجواء مكة والحجاز عامة ودفعت بالثقافة اليهودية إلى الهامش، لعدة أسباب منها:

**أولها:** أن هناك من حاول نشر الثقافة النصرانية في قرية القداسة منهم عثمان بن الحويرث أحد بني أسد وابن عم خديجة وسبق أن سطرنا خبره فنرجو الرجوع إليه ومن البديهي أن يبشر بها عشيرته الأقربين وأدناهم إليه بنو عمومته اللزيقون به.

**وثانيها:** إن مكة ذات موقع خطير فهي ملتقى القوافل الذاهبة إلى كل اتجاه ومن ثم فإن أعين الروم والفرس لم تغفل عنها فوجد فيها جواسيس وتجار روم وهؤلاء حاولوا نشر ثقافتهم النصرانية.

**وثالثهما:** أن الخصام أو العداة استحکم بين فرق النصرارى وضيق الخناق على الأبيونيين واليهود المنتصرين والنصارى الموحدين فلم يجدوا مناصاً من النزوح وشطر منهم رحل إلى الحجاز، ومن طبائع الأمور أن هؤلاء لا يظنون ساكتين بل طفقوا ينشرون ثقافتهم النصرانية واتخذ ذلك صوراً عديدة فبعضهم انتهز فرصة الأسواق التي تقام بمناسبة الحج في أماكن قريبة من مكة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز وأخذ يخطب فيها داعياً لاعتناق عقيدته.

ومنهم من اتخذ مهنة الطب وسيلة لجذب أهل مكة وما حولها لثقافته خاصة وأن عرب ما قبل الإسلام (يسمون هذه الفترة بالجاهلية أ. ه) علمهم بالطب معدوم وكل ما لديهم معارف محدودة استقوها من التجارب وهذه لا يقال عنها علم.

أخبرتنا العديد من الأخبار التي حملتها المصادر ذات الرتب العوالي أن أصحاب الثقافة الكتابية النصرانية امتهنوا التطبيب والغرض منه معروف.

«ويشير أهل الأخبار إلى ورود بعض الرهبان والشمامسة إلى مكة وقد كان من بينهم من يقوم بالتطبيب وقد ذكر الإخباريون أن شماساً كان قد قصد مكة فأعجب الناس به...»<sup>(١١٨)</sup>.

وبعضهم عالج «السنا» في صغره مرتين الأولى وهو في حضانة جده عبد المطلب «قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في الوفا في سنة سبع من مولده أصابه رمد شديد فعولج بمكة فلم يغن فقيل لعبد المطلب إن في ناحية عكاظ راهباً «هكذا» يعالج الأعين فركب إليه»<sup>(١١٩)</sup>.

والأخرى وهو في كفالة عمه أبي طالب: «... فخرج به (بمحمد) عمه أبو طالب إلى رجل من أهل الكتاب يتطبيب بمكة.. وقال: يا عبد مناف هذا طيب طيب للخير فيه علامات إن ظفرت به يهود قتلتة...»<sup>(١٢٠)</sup>.

ولا زالت الإرساليات المسيحية وخاصة الكاثوليكية تعتبر الطبيب أنجح الوسائل لجذب الوثنيين في مجاهل إفريقية وآسيا لعقيدتهم وثقافتهم.

«كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متحفزاً بالعاص بن وائل وكان الله قد آتاه علماً كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طب ورفق وعلم»<sup>(١٢١)</sup>.

أما رابع الأسباب فهو التسريّ بالإماء الروميات واليونانيات

النصرانيات «ووجد منهم عدد وفير في مكة والطائف وأقبل على اقتنائهن أثرياء مكة والطائف منهم بنو مخزوم والعباس بن عبد المطلب»<sup>(١٢٢)</sup>.

«وعرفت أسماء جملة رجال ونساء من هذا الرقيق الذي جيء به إلى مكة وإلى مواضع أخرى من جزيرة العرب من هؤلاء نسطاس ويقصد بذلك انستاس وكان من موالي صفوان بن أمية»<sup>(١٢٣)</sup>.

وهؤلاء الجوارى أنجب بنين وبنات تأثروا بثقافة أمهاتهن النصرانيات.

**وخامس الأسباب:** هو وجود أعداد كبيرة من العُبدان النصارى في بيوت أثرياء مكة استخدمهم أسيادهم في شتى مجالات الخدمة من الإشراف على تجارتهم والعمل في حوانيتهم إلى التكسب من وراء من أجاد منهم حرفة مثل التجارة والحدادة وصقل السيوف والبناء... الخ، وإذ هم في معنتي النصرانية فلا شك أنه دارت حوارات بينهم وبين ساداتهم وبعضهم بلغ درجة لا بأس بها من الثقافة الدينية مع إجادته القراءة والكتابة وتملك أو حاز نفر منهم إصحاحات وأبعاضاً من الإنجيل.

وفيما تقدم أوضحنا أن مشركي مكة خصوم أو أعداء «صفوة البشر» اتهموه أنه يستقي معلوماته أو معارفه الدينية من أحدهم ورد عليهم القرآن العظيم بأن هؤلاء أعاجم و«قطب الأقطاب» ذو لسان عربي مبين<sup>(١٢٤)</sup>.

وقد ذكر اسم العبد الذي يمد «الفارق بين الحق والباطل» بالمعارف الكتابية فمنهم من سماه «جبرا» غلام الحضرمي وكان قينا «حداداً» ومنهم من قال بل هما اثنان «جبر ويسار» وكانا يعملان السيوف ومنهم من أكد أن اسمه «بلعام» وكان يعمل قينا وهو غلام لحويطب بن عبد العزى، بيد أن الذي اتفقوا عليه أنه كان أعجمي الأصل نصرانياً يقرأ الكتب كما «أنه كان بمكة نفر من الموالى على دين النصرانية يقرأون ويكتبون»<sup>(١٢٥)</sup>.

وقد رأينا من هؤلاء عداسا غلام عتبة وشيبة ابني ربيعة ولعل اعتناق الأخير للنصرانية بتأثير عبده ويمكن أن ينضم إليهم ناصح وميسرة مملوكاً سيدة قريش.

هذا هو الرقيق الأبيض من العبدان والعبادات.

«وبين الرقيق الأبيض نفر كانوا على درجة من الفهم والمعرفة يعرفون القراءة والكتابة ولهم اطلاع في شئون دينهم ومعارف ذلك العهد ولهذا أوكل إليهم القيام بالأعمال التي تحتاج إلى مهارة وخبرة، وقد كان حالهم لذلك أحسن من حال غيرهم من الأرقاء ومنهم من كان يشرح لساداتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ويقصون عليهم ما حفظوه ووعوه من أخبار الماضين وقصص الراحلين وأكثرهم ممن كانت ألسنتهم لم تتروض بعد على

النطق بالعربية وكانوا يرطنون بها أو يتلعثمون ومنهم من كان لا يعرف شيئاً منها أو لا يعرف منها إلا القليل من الكلمات»<sup>(١٢٦)</sup>.



أما الرقيق الأسمر أو الأسود اللون فبالمثل وجد بمكة بكثافة وفيرة وهؤلاء تخصصوا في الخدمة وهم أيضاً نصارى انتشروا في دور صناديد قريش ومن الراجح أنهم قد نشروا ثقافتهم النصرانية بين أهل تلك البيوت.

«وقد كانت في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من العبيد عرفوا بالأحابيش وبين هؤلاء عدد كبير من النصارى استوردوا للخدمة والقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة، وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً في لغة أهل مكة يظهر في وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها في مثل المصطلحات الدينية.. وقد أشاروا إلى ورود بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث»<sup>(١٢٧)</sup>.

**وسادس الأسباب:** هو ثخانة الجالية النصرانية في مكة بل في الحجاز عامة ومنهم من ربطته صلة حميمة بالسادة الغطاريف:

«أخرج أبو نعيم عن طريق الوادي عن شيوخه قالوا بينا عبد المطلب يوماً في الحجر وعنده أسقف نجران وكان صديقاً له وهو يحادثه...»<sup>(١٢٨)</sup>.

«أخرج أبو نعيم وابن شاکر.. كان بمر الظهران «واد بين مكة وعسفان» راهب من أهل الشام يدعى عيسى قد أتاه الله علماً كثيراً وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود.. وقال لعبد المطلب كن أباه»<sup>(١٢٩)</sup>.

ومنهم من أقام بوادي القرى وهو قريب من بكة.

«وكان في وادي القرى نفر من الرهبان كما ورد ذلك في شعر جعفر بن سراقه أحد بني قرة: فريقان رهبان بأسفل ذي القرى.. وبالشام عرافون ممن تنصر»<sup>(١٣٠)</sup>.

ويحدثنا الباحثون المحدثون وفيهم من يحظى بالثقة عن فرسخة وفرطحة النصارى في الحجاز.

أما في الحجاز فيحدثنا جورج فنواي معتمداً على مصادر إسلامية عن «مسيحيين» في إيلة «إيلات» ودومة الجندل وتيماء وتبوك ووادي القرى ويثرب، وإن هؤلاء كانوا عرباً بل كان بعضهم من العرب البداءة كما يحدثنا عن «أساقفة المضارب» أي الأساقفة البدو الذين ينتقلون بين مضارب «خيام» البدو والرحل وكان في مكة المكرمة بعض المسيحيين...»<sup>(١٣١)</sup>.

ونقل إلينا الأب الدكتور جورج فنواتي أن للعرب أسقفا مقره بصرى وهذا ما توصلنا إليه ورشحننا لهذا المنصب بحيرى الراهب ولو أننا قصرناه على أبرشية الحجاز وربما اختص بها مع وجود أسقف لعموم جزيرة العرب. أما أنه عربي فهو مما يتسق مع طبيعة الأمور «كان للعرب أسقف عربي في بصرى»<sup>(١٣٢)</sup>.

ومما يقوي هذا الخبر ويرفعه من درجة الاحتمال إلى مرتبة التيقن أنه في ليلة مولد «المصطفى» ترددت كلمة بصرى كثيراً مثل «أن أمانة عندما ولدته خرج منها نور أضواء قصور بصرى» وأنداك تساءلنا: لماذا بصرى بالذات؟

والآن جاعنا الخبر اليقين والرد المقنع والجواب المفهم.

لم يعد من المستغرب لدينا أن ما يمثل رمزي النصرانية: مريم وولدها عيسى ظل قائماً في الكعبة حتى خلافة عبد الله بن الزبير التي قضى عليها الحجاج بن يوسف الثقفي بأمر من سيده الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

وأن هذا الرمز وهو تمثال عيسى وأمه مريم قد عومل معاملة خاصة من «راكب البعير» فقد أمر بمحو صور كافة الأنبياء بمن فيهم إبراهيم أبو الأنبياء ومقدم البطارقة، ما عدا صورة عيسى ابن مريم وأمه بل إن تمثالها ظل قائماً طوال العهدين المحمدي والخلفي ثم شطرا من الخلافة الأموية حتى زمن عبد الملك بن مروان ولولا ضرب الكعبة المقدسة بالمنجنيق بواسطة السفاح ومبير تقيف فشب حريق في هذا المكان الأقدس لظل التماثل قائماً ربما حتى الآن.

وإن المرء يتساءل: لماذا؟

الإجابة على هذا السؤال لا تعنينا لأنها لا تدخل في نطاق بحثنا إنما الذي يهمنا هو دلالة ذلك وهي الوجود العريض الثقيل للنصرانية في الحجاز في ذيك الزمان الذي حفل بالمعجبات من الأمور وكعادتنا في التزام التوثيق الشديد لما نكتب خاصة في النقاط التي هي على قدر من الدقة والحساسية فإننا نورد فيما يلي الأدلة الشاهدة على ذلك:

(وفي الحديث عن أبي نجیح عن أبي حويطب بن عبد العزى وغيره فلما كان يوم الفتح دخل رسول الله ﷺ إلى البيت فأمر بثوب فبل ماء وأمر بطمس تلك الصور ووضع كفيه على صورة عيسى وأمه وقال: امحو الجميع إلا ما تحت يدي - رواه الأزرقى)<sup>(١٣٣)</sup>.

«عن ابن جريج قال: سأل سليمان بن موسى الشامي عطاء ابن أبي رباح وأنا أسمع أدركت في البيت تمثال مريم وعيسى قال: نعم أدركت فيها تمثال مريم مزوقا في حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً»<sup>(١٣٤)</sup>.

إن وضع أو جلوس عيسى في حجر أمه مريم يذكرنا بما فعلته أم هند عند اختبار ذلك الذي يأتي «خير البرية» هل هو ملاك أم شيطان فقد أمرته بأن يجلس في حجرها.

البعد الزمني بين الصورتين أكثر من ستة قرون والفارق بينهما هو أن «معدن الطهر مريم» هي أم عيسى على الحقيقة والواقع ودعنا مؤقتاً من أحداث الولادة العذراوية التي يذهب إليها بعض فرق المسيحية أما الطاهرة فهي أم «عين العز» على المجاز. ويفصل بينهما في السن ربع قرن في حين أن مريم عند ولادتها لابنها عيسى ناهزت الرابعة عشرة تقريباً أي نصف ما فصل بين عمر «الوسيلة» وعمر أم هند.

«قال وكان تمثال عيسى ابن مريم ومريم عليهما السلام في العمود الذي يلي الباب. قال ابن جريج: فقلت لعطاء: متى هلك؟ قال: في الحريق في عصر ابن الزبير. قلت: أعلى عهد النبي ﷺ كان؟ قال: لا أدري، وإنني لأظنه قد كان على عهد النبي ﷺ. قال له سليمان: أفرأيت تماثيل صورة كانت في البيت من طمسها؟ قال: لا أدري غير أنني أدركت من تلك الصور اثنتين.. وأراهما والطمس عليهما. قال ابن جريج: ثم عاودت عطاء بعد حين فخط لي ست سوارى ثم قال: تمثال عيسى وأمه في الوسطي»<sup>(١٣٥)</sup>.

«عن مسافع بن شيبة بن عثمان أن النبي ﷺ قال: «يا شيبة امح كل صورة فيه إلا ما تحت يدي» قال: فرفع يده عن عيسى وأمه.

حدثنا داوود بن عبد الرحمان عن عمرو بن دينار قال: أدركت في بطن الكعبة قبل أن تهدم تمثال عيسى ابن مريم وأمه وعن ابن شهاب أن النبي ﷺ دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة وغيرها.. ثم رأى صورة مريم فوضع يده عليها وقال امحوا ما فيها من الصور إلا صورة مريم، وعن حكيم بن عباد وغيره من أهل العلم أن قريشاً كانت قد جعلت في الكعبة صوراً فيها عيسى ابن مريم.

قال ابن شهاب: قالت أسماء بنت شقران امرأة من غسان حجت في حاج العرب فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت: «إنك لعربية فأمر رسول الله ﷺ أن يمحو كل تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم»<sup>(١٣٦)</sup>.

«قد استدل شيوخ من الخبر المروي عن الصور التي قيل إنها صور الرسل والأنبياء وبينها صورة المسيح ومريم والتي ذكر أنها كانت مرسومة على جدران الكعبة على أنها هي الدليل على أثر النصرانية بمكة واستدل على فكرته هذه بخبر خلاصته أن الرسول حينما أمر فطمست تلك الصور استثنى منها صورة عيسى وأمه مريم. وبخبر ثان ورد عن تمثال

لمريم مزوق بالحلى وفي حجرها عيسى باد في الحريق الذي شب في عصر ابن الزبير. وبخبر ثالث عن امرأة من غسان قبل إنها حجت في حاج العرب – فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت بأبي أنت وأمي إنك لعربية فأمر رسول الله ﷺ بمحو تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم»<sup>(١٢٧)</sup>.

ومن المعلوم أن غسان التي منها تلك المرأة التي قالت ما قالت فشت فيها النصرانية وعدها الإخباريون من بين القبائل التي انتشرت فيها النصرانية.

إن مصادر هذه الأخبار مؤلفات تنال الاحترام ويصعب غمزها أو التشكيك فيها. «السيرة النبوية» للذهبي و«أخبار مكة» للأزرقي – أما المرجع فهو لـ «د. جواد علي» وسبق أن حشرناه في زمرة الباحثين الجادين من المحدثين.



لهذه الأسباب جميعها وهي كما لا بد وأن لاحظ القارئ معقدة ومتشابكة، فضلاً عن نفور السيدة خديجة الفطري من الثقافة «إن صح هذا التعبير» الوثنية التي غرقت فيها قريش آنذاك إلى الأذقان غداً من الحتم اللازم أن تحاصر ثقافة النصارى أم هند وتدفعها إلى التفكير فيها والاطلاع عليها وتأملها ومعرفة ثوابتها ومتحركاتها وأفكارها ومبادئها وقصصها وأساطيرها ومن بينها فكرة نبي أطل أو أظل زمانه خاصة بعد أن شاركتها فيها الثقافة اليهودية وأقوال كهان الوثنية في هذه.

وقد وافق الفكرة ارتياح سيدة قريش النفسي ورضاءً تاماً لديها أن يصبح القادم المنتظر من العرب، وربما ورثت عن أبيها خويلد حبه لوطنه مكة ولقبيلته قريش ونستشهد بموقفه من تبع عندما هم بقلع الحجر الأسود، ونقله إلى اليمن وتصديه له بل وقف على رأس المقاومين له.

ونضيف وفادته على سيف بن ذي يزن ليهنئه بنصره المؤرز على الأحباش.

ورثت الطاهرة حب العرب ومكة وقريش من أبيها فرحبت واعتنقت فكرة أن يصير القادم من العرب وللعرب فكما أن لليهود نبيهم وللنصارى نبيهم فمن اللازم أن يغدو للعرب واحد مثلهما ويحمل بيده كتاباً كما قدم موسى لأتباعه كتاباً وطرح عيسى على حواريه ومن بعدهم كتاباً.

وجماعه يستلزم الإطلاع على كتابي هاتين الثقافتين وخاصة ثقافة النصارى لسببين:

**الأول:** أنها الأقرب عهداً والمنفتحة على الآخرين وليست منغلقة على ذاتها وتابعيها مثل الثقافة الأولى أو العتيقة.

الآخر: انها في متناول اليد خاصة بعد ترجمة مصدرها الأساسي إلى العربية، الأمر الذي يسر قراءتها لها وليس معناه الاقتصار عليها بل يجب الاطلاع على الأولى والأقدم لأنها أصل الأصول والأساس والجرثومة<sup>(١٣٨)</sup>.

ومن المستحيل اكمال قوام «القادم» وتكوينه دون الاطلاع عليها بل تمحيصها وما ورد بها بديا من الخلق والتكوين.. الخ خاصة وأن الثانية عولت عليها في هذه الأساسيات حتى إن معتقي الأخيرة لم يجدوا مناصاً من اعتبار كتابهم ملحقاً لكتاب الأولى فضمهما كتاب واحد أطلقوا عليه «الكتاب المقدس».

ومن المفارقات الصارخة – وكم في الثقافات الدينية من مفارقات يحار العقل السليم في فهمها – أن أصحاب الثقافة العتيقة لا يعترفون إلا بكتابهم هم وينكرون كتاب الثانية والذي طلع به على الناس في حين أن أتباع الأخيرة يعترفون بالكتابين معا وبالبطارقة الذين وردت أسماءهم في كليهما وبالحكايا المعجبات والخوارق والمدهشات والمخاريق التي حفلت بهما.

نحن نعي أن الفاصلة الخاصة بثقافة الهندوز قد طالت بعض الشيء ولكنه ضروري أشد ما تتجلى الضرورة إذ إنه بدون الثقافة الدينية ما نجحت التجربة المفردة إذ كيف يتصور أن منفذتها مليطة منها «الثقافة الدينية».

وإذ إنه لكل فرض برهان فإننا نضرب مثلين:

عندما أخبر «الأمي» بعله الهندوز بإتيان ملاك الرب جبرائيل إليه وهو السفير الإلهي لكل من سبقوه كما علمها سرجيوس غدا من الحتم اللازم تحقيق هذه المسألة الخطيرة والتأكيد من صدق حدوثها فإن صحت فهذا دليل على نجاح التجربة وبالتالي يصبح «النجم الثاقب» هو القادم المأمول من العرب.

فقامت أم هند بالاختبار الذي أجرته بأن أجلسته على فخذهما اليمني ثم اليسرى ثم في حجرها ثم أدخلته بين جسدها وقميصها. عندها انصرف جبريل لأن هذا منظر لا يتفق مع مكانته كمندوب الحضرة الإلهية إلى مختاريه من البشر وهنا صاحت فرحة مستبشرة أنه ملاك وليس شيطاناً.

حقيقة أن بعض المصادر ذكرت أن اليعسوب أو القس هو الذي أشار عليها بالاختبار «في جزئه المتقدم» بيد أن الذي حسم الأمر هو عجز الاختبار وهو إدخال «الولي» في درعها فهذا من إبداع أم هند ولولا ثقافتها الدينية لما استطاعت أن تتوصل إليه «إلى هذا الاختبار».



أما المثل الآخر فملخصه أن ملاك الرب حضر إلى «المضخ» في غار حراء ذات مرة فأنبأه بقدم خديجة إليه ومعها طعام له وطلب منه أن يسر إليها أن الله وجبريل معا يقرئانها السلام فلما حضرت سيدة نساء الدنيا بلغها فردت على الفور: على الله وعلى جبريل السلام وصار هو رد السلام التقليدي لدى تابعي «المعطي خزائن الأرض».

فمن أين أنت خديجة بهذا الرد الصحيح على الفور لولا مخزونها الثقافي الذي يحفل بالسلام. حدثنا أبو الوليد قال حدثني جدي أحمد بن محمد حدثنا عبد الجبار بن الورد المكي قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول:

جاءت خديجة إلى النبي ﷺ بحيس وهو بحراء فجاءه جبريل فقال: يا محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيسا معها والله يأمرك أن تقرئها السلام وتبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. فلما ان رقيت خديجة قال لها النبي ﷺ يا خديجة إن جبريل قد جاءني والله يقرئك السلام ويبشرك ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب فقالت خديجة: الله السلام ومن الله السلام وعلى الله السلام وعلى جبريل السلام»<sup>(١٣٩)</sup>.

وربما تغدو هاتان الواقعتان من الهامشيات إنما الذي يقطع بتمتع الهندوز بالثقافة الكتابية هو موقفها عندما أخبرها «أحمد» بما حدث له في غار حراء وبلقائه بملاك الرب جبرائيل أول مرة في المنام وتصديقها إياه فبدون الخلفية الدينية لما فعلت ولارتاعت وظنت به الظنون مثل مس من الشيطان أو أنه هاتف مثل الذي يدعى الكهان مجيئه لهم.

صحيح أنها أخذته «= راكب الجمل» إلى ورقة وغيره «= مقدم وأعضاء الحلقة الخارجية» لسؤالهم أو ذهابها بمفردها إليهم إنما ذلك تم للاستيثاق والتأكيد والتيقن لأن المسألة جد فارقة لا ينبغي لها أن تتفرد فيها برأيها.

تلك هي جوانب ثقافة أم هند وشواهدا وحججها وبراهينها.



سيدة نساء الدنيا خديجة عاشت مع «المجتهد» عشرة أعوام بعد واقعة غار حراء لأنه مكث في مكة بعدها ثلاثة عشر عاما وروحها الطاهرة انتقلت إلى بارئها راضية مرضية قيل نزوحه «هجرت» إلى يثرب «المدينة» بثلاثة أعوام ومع ذلك فهي لم ترو عنه حديثا واحدا. إن الصحاح والمسانيد والجوامع والسنن والموطآت «ج. موطأ» والمعاجم والأمالى والطبقات والمناقب والشمائل والفوائد.. الخ لا يوجد فيها حديث واحد

لخديجة ولا يوجد مسند باسم مسند خديجة مع وجود مسانيد لعدد كبير من الصحابة حتى صغارهم سواء في السن أو المقام.

وفي المقابل نجد أن عائشة بنت أبي بكر تزوجها «الذي سيفه على عاتقه» وهي بنت ست سنوات ودخل بها وهي بنت تسع سنوات وكان هو في الثانية والخمسين من عمره المبرور وظلت معه تسع سنوات إذ إنها بلغت الثامنة عشرة عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا – ومع ذلك روت عنه ألفين ومائتين وعشرة أحاديث وهذا أقل عدد ذكره جهايزة علم الحديث.

وهنا يثور في الذهن سؤال على قدر من الأهمية: لماذا؟ ما العلة؟ ما السبب؟

وقفت كثيراً عند هذا السؤال ودار في ذهني عدد من الردود أو الإجابات ولم أستطع أن أهتدي إلى الإجابة وافية بيد أن أقربها إلى الصحة أو إلى المعقولية أو إلى المنطق.. هو موقف كل من الزوجتين بالنسبة لـ «الموقن».

التيمية ابنة أبي بكر تلميذة وتابعة ومتلقية أما سيدة نساء الدنيا فهي الأم الرؤوم وهندوز التجربة التي خرج منها «صاحب المغنم» من الفتى الهاشمي القرشي إلى القادم المنتظر، ومن الأمين والصادق إلى المأمول المرتقب الذي طال التشوف إليه والذي رد الاعتبار إلى العرب وصار لهم حامل كتاب مثل موسى بالنسبة لليهود وعيسى عند النصارى.. ولعل هذا يفسر أمراً آخر أثار انتباهي وأنا أقرأ سيرته العظيمة الفائحة بالرائحة الطيبة كما المسك، عشرات المرات في المصادر والمراجع أن ابنة أبي بكر طفقت تناديه بصفة مستمرة: يا رسول الله، أما سيدة نسوان قريش فلما توجه إليه خطاباً تقول: يا أبا القاسم أو يا محمد، وكذا عندما تتحدث إليه.. إلا فيما ندر والاستثناء لا يقاس عليه.

وهي التي توجهه وتطلب إليه وتشير عليه.. بينما التيمية ابنة أبي بكر فعلى العكس هي التي تلبى وتطيع وتمتثل وتأتمر «بأمره» وتنفذ وتسمع.. الخ وهو الفرق الواضح الذي لا يحتاج إلى زكافة لمعرفة أو حتى لمسة باليد بين خطاب الهندوز واستجابة التلميذة.



وهنا يتصدى لنا لجوج فيصيح قائلاً أو يقول صائحاً: ليست خديجة هي الوحيدة من بين زوجات «أول من يفيق من الصعقة» من لم ترو عنه حديثاً واحداً بل هناك من بين التسع اللائي نكحهن بعد وفاتها ثبت من كافة المصادر المعتبرة أنها فعلت ذلك أيضاً وهي زينب بنت خزيمة<sup>(١٤٠)</sup>.

وهذا دفع فسيده فعلاوة على ما به من لاجاة فإنه يتسم بالجهالة. ذلك أن الهلالية المذكورة «زينب بنت خزيمة» وشهرتها أم المساكين «لم تلبث عنده ﷺ إلا شهرين أو ثلاثة»<sup>(١٤١)</sup>.

أما د. حمزة النشرتي فقد ارتفع بالمدة إلى ثمانية شهور «واختلف الرواة في المدة التي بقيت زينب في بيت النبي ﷺ فمن قائل إنها ثمانية أشهر إذ إنها تزوجت في رمضان وتوفيت في ربيع الآخر»<sup>(١٤٢)</sup>.

والأمانة العلمية تقتضينا أن نذكر أنه أورد أن هناك من قال إنها ظلت عند «الأمجد» عامين بيد أنه لم يبين مصدره في ذلك.

ولكن مؤرخا ثبتا تلقى موسوعته عن الصحابة خالص التقدير يؤكد أنها لم تلبث عنده إلا يسيراً وأن ذلك لا خلاف فيه «وتزوجها رسول الله ﷺ بعد حفصة، قال أبو عمر: ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً شهرين أو ثلاثة حتى توفيت وكانت وفاتها في حياته لا خلاف فيه»<sup>(١٤٣)</sup>.

وهكذا ثبت أن ما طرحه النشرتي في «حياة الصحابيات» عن مكوثها لدى «المرشد» سنتين لا يثبت مع ما أكدته المصادر والمراجع، وكلها كما يرى القارئ محترمة.

ونعود إلى سياقة البحث وهو أن ذلك الدفع واه ومتهافت لأن الهلالية أو أم المساكين إذا لم يثبت لها رواية عن «صاحب المحجة البيضاء» فلها عذرها وهو بقاؤها معه مدة قصيرة وترتينا على ذلك فقياسها بـ «سيدة نساء الدنيا» في هذه الخصوصية قياس من الفارق.

ويظل التعليل الذي قدمناه فيما سبق عن عدم رواية «الهندوز» ولا لحديث فرد لـ «الشستن» هو التعليل الأقرب إلى الصحة والأدنى إلى المعقولية والأكثر اتساقاً مع المنطق.

## الهوامش

- (١) من المعجم الوسيط: للغة العربية.
- (٢) المذكر والمؤنث: لأبي بكر الأنباري، ٥٣٢٨ — تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة ومراجعة د. رمضان عبد التواب، الجزء الثاني، ص ٢٨٩، الملزمة ١٩ ط ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م نشرته لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وزارة الأوقاف، مصر.
- (٣) كتاب نسب قريش: لأبي عبد الله بن المصعب الزبيرى ١٥٦ / ٥٢٣٦، نشره وصححه وعلق عليه ليفى بروفنسيال، ص ٢، الطبعة الثانية ١٩٧٦م، دار المعارف بمصر.
- (٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، الخامس، ص ٦٠٥.
- (٥) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧١، ص ١٣٧، دار المعارف بمصر.
- (٦) موسوعة أمهات المؤمنين: د. عبد الصبور شاهين، وإصلاح الرفاعي، ص ٧٥، ط أولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١، الزهراء للإعلام.
- (٧) سيرة النبي محمد: تأليف كارين ارمسترونج ترجمة د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، ص ١٢٨ الطبعة الأولى، الكتاب الأول من سلسلة كتب سطور الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار سطور للنشر، القاهرة.
- (٨) العامة في مصر تقول في مثل هذا العمل: ما فيش حد أحسن من حد.
- (٩) جمع صنديد وهو السيد الشريف الشجاع من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي.
- (١٠) العامة في مصر تقول: الأسعد. أ. هـ.
- (١١) الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، الأول، ص ١٢٢ — ١٢٥، ط ١٣٨٦هـ.
- (١٢) السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجاني، هامش الصفحة ١٩٢، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره.
- (١٣) القديسة مريم أم المخلص: لملاك لوقا، ص ٧٧ العدد ١١ من سلسلة سير القديسين، الطبعة الأولى ١٩٩١م، الناشر مكتبة المحبة، شبرا مصر.
- (١٤) الآية ٤٢ من سورة آل عمران.
- (١٥) الآية ٥٥ من سورة آل عمران.
- (١٦) قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية: لأحمد أمين، ص ١٨٨ فقرة «الختان» الطبعة الأولى ١٩٥٣م، الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة وص ٣٨٥ من الطبعة الثانية التي أصدرها المجلس الأعلى للثقافة لتقديم وتعليق محمد الجوهري ١٩٩٩، مصر.
- (١٧) المرجع السابق ص ١٨٧ من الطبعة الأولى وص ٢٥٨ من الطبعة الثانية.
- (١٨) المولد: دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر: من سلسلة «دراسات في المجتمع» لفاروق أحمد مصطفى، ص ٢٠٢ الطبعة الأولى ١٩٨٠، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية.
- (١٩) يسمون تلك الفترة بالجاهلية وهي تسمية أيديولوجية القصد منها التنفير والتقيح والتسوية.
- (٢٠) المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية.
- (٢١) أساس البلاغة: جار الله أبي القاسم الزمخشري.
- (٢٢) حياة سيد المرسلين: الأبراشي، ص ٣٣، ط أولى ١٩٨٠، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة.
- (٢٣) أوائل العرب عبر العصور والحقب: لطاهر جليل حبوش، الثاني، ص ١٠٦، طبعة الأولى ١٩٩١ دون ناشر، بغداد، العراق.
- (٢٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، السادس، ص ٥٩٠.
- (٢٥) تاريخ يعقوبي: الأول، ص ٢٥٧.
- (٢٦) هامش ص ٢٣٥ من كتاب «مكة والمدينة».
- (٢٧) اتساع يقال سراويل مفرسحة متسعة «المعجم الوسيط» وهي السعة ومنها اشتق الفرسخ «المصباح المنير».
- (٢٨) محمد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة: جلال مظهر، ص ٣٣، الطبعة الأولى ١٩٧١، مكتبة الخانجي بمصر.
- (٢٩) محمد رسول الله: جلال مظهر، ص ٦٠.
- (٣٠) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٢، سابق — السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ٣٥٦ وما بعده.
- (٣١) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجاني الأول ص ٢٥٥ — ومحمد رسول الله ﷺ: لمحمد رضا ص ٥٦، د. ت. ن — دار إحياء الكتب العربية بمصر.
- (٣٢) كتاب نسب قريش: للمصعب الزبيرى، ت. ليفى بروفنسيال، ص ٢٠٩ سابق.

- (٣٣) جمهرة أنساب العرب: لأبي محمد علي.. بن حزم الأندلسي ٣٨٤/ ٤٥٦هـ، تحقيق عبد السلام هارون، ص ٤٩١، الطبعة الخامسة ١٩٨٢م، دار المعارف بمصر.
- (٣٤) الروض الأنف: للسهيلى، الجزء الأول، ص ٢٥٥، ط شقرون.
- (٣٥) مكة والمدينة: لأحمد إبراهيم الشريف، ص ٢٥٥.
- (٣٦) دراسات في السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ص ٧٧ سابق.
- (٣٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، الجزء السادس ص ٤٧٧، الطبعة الثانية ١٩٧٨، الناشر دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- (٣٨) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٥، سابق.
- (٣٩) جمهرة أنساب العرب: لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي ٣٨٤/ ٤٥٦هـ، تحقيق عبد السلام هارون، ص ١١٨، الطبعة الخامسة ١٩٨٣م، دار المعارف بمصر.
- (٤٠) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ٧٩ سابق.
- (٤١) يفهم — فإن قوله نقهت الحديث يعني فهمته — «تصحيح الفصح وشرحه» لابن درستويه، تحقيق د. محمد بدوي المختون، مراجعة د. رمضان عبد التواب، ص ١١٣، الطبعة الأولى ١٩٤١هـ/ ١٩٩٨م من إصدارات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة.
- (٤٢) تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدي، الجزء الأول، ص ٤٦٣، تحقيق عبد الستار أحمد فراج الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥، العدد ١٦ من سلسلة التراث العربي وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
- (٤٣) خبط عشواء، يضرب مثلاً لمن يصيب مرة ويخطئ أخرى والعشواء الناقة التي لا تبصر ليلاً وهي تطأ كل شيء «شمار القلوب في المضاف والمنسوب» لأبي المنصور الثعالبي النيسابوري ٣٥٠/ ٤٢٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المتل ٥٤٢، ص ٣٥٤، الطبعة الأولى ١٣٨٥، العدد ٥٧ من سلسلة ذخائر العرب الناشر دار المعارف بمصر.
- (٤٤) «ذكت الشمس ومنه قيل لها ذكاء والصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها» أساس البلاغة: للزمخشري، الجزء الأول ص ٣٠٠، فصل الذال والكاف، ص ٣٠٠ الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، مركز تحقيق التراث الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٤٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ٤٠٧ وما بعدها.
- (٤٦) ويمكن أن يقال للجارية الغلامه وجاء في الشعر يهان لها الغلامه بالتاء المربوطة «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي.
- (٤٧) في المعجم الوجيز: المفرطح — المبسوط والعريض.
- (٤٨) على هامش السيرة: طه حسين، الثاني ص ١٥٨ وما بعدها، سابق.
- (٤٩) خريقة — شقه وقطعه والشيء أفسده من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي.
- (٥٠) الرسول في رمضان: للدكتور محمد حسني الخربوطلي، ص ٢٤/ ٢٨.
- (٥١) في المختار من صحاح اللغة: وليجة الرجل — خاصته.
- (٥٢) في المعجم الكبير: لمجمع اللغة العربية، الجزء الثاني حرف الباء — بطانة الرجل — صاحب سر المرء الذي يشاوره وينبسط إليه ومن يخصه بالاطلاع على باطن أمره.
- (٥٣) جزيرة على بعد مائتي فرسخ من عمان.
- (٥٤) ١ — على هامش السيرة: الجزء الثاني، ص ١٣٨ وما بعدها، الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٠م، دار المعارف بمصر.
- ٢ — مولد النبي: الإمام البرزنجي، ص ١٣ وما بعدها، د. ت. مكتبة القاهرة الصناديقية، الأزهر، مصر.
- ٣ — تاريخ الطبري: الجزء الثاني ص ٢٨١، الطبعة الرابعة ١٩٧٧، دار المعارف بمصر.
- ٤ — الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١١٣ وما بعدها.
- ٥ — السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٢٦٦.
- ٦ — السيرة النبوية: لابن إسحق، الأول، ص ١٥٣، ط أخبار اليوم.
- ٧ — أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول ص ٩٧.
- ٨ — السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٤..
- ٩ — دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين وآخر، ص ٨١ — ٨٢، سبق ذكره.
- (٥٥) تصحيح الفصح وشرحه: لابن دستوريه ص ١٣١، تحقيق د. محمد بدوي المختون، مراجعة د. رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى ١٩٤١هـ/ ١٩٩٨م، من إصدارات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، بمصر.
- (٥٦) هامش ص ١٣١ من المصدر السابق بقلم المحقق د. محمد بدوي المختون.

- (٥٧) غرائب القرآن و رغائب الفرقان: للقمي النيسابوري، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، المجلد الحادي عشر، ص ٤٢٨، صدر من القاهرة دون تاريخ ودون ناشر.
- (٥٨) صب الماء أو نحوه صبا أي سكب من «المعجم الوسيط».
- (٥٩) أخبار مكة وما جاء بها من الآثار: للأزرقي، تحقيق شكري ملحسن، الجزء الثاني، ص ٢٤٣، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار الأندلس، بيروت.
- (٦٠) في «المعجم الكبير» البرزة من النساء – البارزة المحاسن والموثوق برأيها وعفافها والجليلة التي تظهر للناس ويجلس إليها القوم ويتحدثون عندها أو امرأة برزة بارزة المحاسن أو متجاهرة كهلة جليلة تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون وهي عفيفة «القاموس المحيط للفيروزآبادي».
- (٦١) أنساب الأشراف: البلاذري، الأول، ص ٧٩ سابق.
- (٦٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٦٣.
- (٦٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول ص ١٧٦، وما بعدها.
- (٦٤) الوفا بأحوال المصطفى: لأبي الفرج عبد الرحمان بن الجوزي، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، الجزء الأول ص ٨٦ – ٨٧، ط أولى ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي، القاهرة.
- (٦٥) الأحذوتة – بضم الألف – بوزن الأعجوبة – ما يتحدث به من «مختار الصحاح» للرازي، ترتيب محمود خاطر، ط ١٩٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سمعت منه أحذوتة مليحة «بفتح الألف» من «أساس البلاغة» للزمخشري، الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أما ابن السكيت فقد رجح ضم الألف، وهي الأحذوتة بضم الألف مثل الأغلطة والأسبوية والأعجوبة كلها بضم الألف، فيقال، انتشر في الناس أحذوتة حسنة – من «إصلاح المنطق» لابن السكيت ١٨٦/ ٢٤٤، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، باب أفعولة، ص ١٧١، ذخائر العرب، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م، دار المعارف بمصر، وهل هناك ألمح وأحسن من أحذوتة الغار!!
- (٦٦) السيرة الحلبية: الأول ص ٤٩٣.
- (٦٧) فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي: للشرقاوي، تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، الجزء الثاني ص ٩١، ط ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م كتاب الشعب بمصر وأهمية هذا المصادر أنه يجمع بين البخاري وصاحب الجامع الصحيح والعلامة المحدث الزبيدي ٨١٢ – ٨٩٣، وشيخ الإسلام الشرفاوي ١١٥٠ – ١٢٢٦، ثلاثة أسماء شوامخ لا يجرؤ مسلم على أن يشك فيها ثم حقق المصدر وعلق عليه الشيخ أحمد عمر هاشم مدير جامعة الأزهر.
- (٦٨) دراسات في السيرة النبوية: لحسين مؤنس ص ٩٨ وما بعدها، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م الناشر الزهراء للأعلام العرب بمصر.
- (٦٩) وتبت من بلاد الترك اشتهرت بالمسك الطيب حتى ضرب به المثل أ. ه. «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» للثعالبي النيسابوري.
- (٧٠) الركركة: الضعف من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي.
- (٧١) الفهية: السقطة والجهلة من «مختار الصحاح» للرازي، ترتيب محمود خاطر ط ١٩٨٧م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٧٢) العضية: الإفك من «مختصر العين» لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي، تحقيق د. صلاح مهدي الفرطوسي، الجزء الأول ص ٩٣، الطبعة الأولى ١٩٩١م دار أفق عربية، بغداد العراق.
- (٧٣) الروض الأنف: للسهلي، طبعة شقرون.
- (٧٤) المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الجزء الرابع، الحديث رقم ٦٨٨٨/ ٢٤٨٦، ص ٦٣، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- (٧٥) مكان أزرع: قليل النبات وزرع الرجل زعارة قل خيره من «أساس البلاغة للزمخشري» الجزء الأول الطبعة الثالثة ١٩٨٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٧٦) المصلى: الفرس الذي يتلو السابق لأن رأسه عند صلاة أي مغرز ذنبه من «المختار من صحاح اللغة».
- (٧٧) جلى الفرس تجلية أي سبق في الحلبة من «المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية.
- (٧٨) فأما الحامة فهي الخاصة – يقال دعينا في الحامة لا العامة، ويقال كيف حامتك وعامتك من كتاب «تنقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكي الصقلي ت: ٥٠١/ ١١٠٧م، تحقيق د. عبد العزيز مصر، ص ١٠٦، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- (٧٩) السمداع جمع سميدع، وهو السيد الكريم الشريف السخي الموطأ الأكناف الشجاع «تنقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكي الصقلي ص ١٢٧، مصدر سابق و«شرح الفصيح في اللغة» لأبي منصور

- الجبان، تحقيق د. عبد الجبار جعفر القزاز، ص ١٩٨، الطبعة الأولى ١٩٩١م، أفق عربية و«القاموس المحيط» للفيروز آبادي، فصل السين باب العين، ولكنه «الفيروز آبادي» يرى أنه بالذال ولا بالذال «أي السميذع».
- (٨٠) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: لأبي منصور الثعالبي النيسابوري ٣٥٠ / ٤٢٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٠، ١١، ط ١٩٨٥، دار المعارف بمصر.
- (٨١) قال الأزهري وابن فارس لقن الشيء وتلقنه فهمه وهذا يصدق على الأخذ مشافهة وعلى الأخذ من المصحف «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي تحقيق د. عبد العظيم الشناوي، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار المعارف بمصر.
- (٨٢) السيرة النبوية: للسيد أبي الحسن علي الحسن الندوي، ص ٨٣ / ٨٥، الطبعة الأولى ربيع الثاني ١٣٩٧ – أبريل ١٩٧٧، دار الشرق، جدة.
- (٨٣) مع المصطفى في عصر المبعث: د. بنت الشاطي، العدد ٣٢٣ من سلسلة اقرأ، نوفمبر ١٩٦٩، دار المعارف بمصر.
- (٨٤) عبقرية محمد: لعباس محمود العقاد، نرجح أنها الطبعة الأولى، ص ١٩، د. ت. د مطبعة دار التأليف بمصر.
- (٨٥) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٥ سابق.
- (٨٦) لحننت له لحننا: قلت له ما يفهمه عني ويخفي على غيره وعرفت ذلك في لحن كلامه – في فحواه وفيما صرفه إليه من غير إفصاح «أساس البلاغة» للزمخشري، الثاني، سابق.
- (٨٧) على هامش السيرة: الثاني، طه حسين، ص ١٥١.
- (٨٨) قصص الأنبياء: لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص ٢٩٩ – ٣٠١، الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م الناشر مكتبة دار التراث، بمصر.
- (٨٩) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٠.
- (٩٠) السيرة النبوية: للندوي، ص ٨٣ – ٨٥، مرجع سابق.
- (٩١) أنساب الأشراف: الأول، للبلاذري، ص ٩٧، وما بعدها.
- (٩٢) السمط الثمين: للمحب الطبري، ص ١٤، ط المكتبات الأزهرية، و«عيون الأثر» الأول، ابن سيد الناس، ص ٤٧ وما بعدها، و«متاع الأسماع» الأول للمقريزي، ٣٧.
- (٩٣) الحول هو القوة ويقال لا حيل ولا قوة من «المختار من صحاح اللغة» لمحمد محيي الدين عبد الحميد وآخر، وفي «المصباح المنير» للمقرئ الفيومي ولا حيل ولا قوة إلا بالله.
- (٩٤) في القاموس المحيط: أي سعة العيش.
- (٩٥) في المعجم الوسيط: عز لحمه – اشتد وصلب وبالقياس عز شبابه قوى.
- (٩٦) في المعجم الوسيط: الأسر شدة الخلق.
- (٩٧) العامة تقول: فتوة كذا.
- (٩٨) في القاموس المحيط للفيروز آبادي: الوهز هو الحث والدفع.
- (٩٩) في المعجم الوجيز: غطرش – تعالى عن الحق.
- (١٠٠) الرسول في بيته: لعبد الوهاب حمودة، ص ٦ وما بعدها، العدد ٣٢ من سلسلة المكتبة الثقافية، مارس ١٩٩١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر.
- (١٠١) حياة سيد المرسلين محمد ﷺ: لمحمد عطية الإبراشي، ص ٣٣ وما بعدها، الطبعة الأولى ١٩٨٠، مكتبة مصر، الفجالة، القاهرة وأورد الخبر ذاته محمد رضا في كتابه «محمد رسول الله» ص ٣٩ وهو مرجع سبق لنا ذكره، وأضاف أن سيدة قریش أمرت جواربها أن يرقصن كما ذكره د. عبد الوهاب حمودة.
- (١٠٢) الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه: للشيخ عبد الحلیم محمود الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، الكتاب الأول، من سلسلة البحوث الإسلامية، التي يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ص ٧٠، ربيع الأول ١٣٨٩ – ١٩٦٦م، مصر.
- (١٠٣) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ: لمحمد علي الصابوني، ص ٣٤ – ٣٨، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، طبعة الشربتلي، دون تحديد مكان النشر.
- (١٠٤) المفصل: جواد علي، السادس ص ٥٩٠.
- (١٠٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ٤٠٧ وما بعدها.
- (١٠٦) أنساب الأشراف: البلاذري، الأول، ص ٩٨.
- (١٠٧) الخصائص الكبرى: الثاني، السيوطي، ص ٢١٢.

- (١٠٨) صفوة السير: إعداد محمد الحبش سابق.
- (١٠٩) كتاب نسب قريش: للمصعب الزبيدي، ص ٢٠٧، سابق.
- (١١٠) السيرة الحلبية: ص ٣٩٣، الأول، سابق.
- (١١٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: المجلد الأول ص ١٤١ - ١٤٢، سابق.
- (١١٣) السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجاني، هامش ص ١٩٣، الأول، سابق.
- (١١٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨.
- (١١٥) أمية النبي محمد ﷺ: بقلم محمد مصطفى الهلال ص ١٠ من العدد ٤ السنة ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٠ يوليو ١٩٩٩م من مجلة «منار الإسلام» تصدر في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- (١١٦) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي: للشرقاوي تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، ص ٩١، الجزء الثاني، طبعة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، كتاب الشعب، دار الشعب للنشر بمصر.
- (١١٧) دراسات في السيرة النبوية: حسين مؤنس.
- (١١٨) المفصل: جواد علي، السادس، ٦٠٦.
- (١١٩) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ١٨٢.
- (١٢٠) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٣١١ - ٣١٢.
- (١٢١) السيرة الحلبية - ٧٥ وابن كثير - ٢٧٢، مكة والمدينة: لأحمد إبراهيم الشريف، ص ٢٥٣.
- (١٢٢) المفصل: جواد علي، السادس ص ٦٠٥.
- (١٢٣) المفصل: جواد علي، السادس، ص ٦٠٥.
- (١٢٤) فضلا اقرأ الآية ١٠٣ من سورة النحل.
- (١٢٥) المفصل: جواد علي، السادس، ص ٦٠٤.
- (١٢٦) المفصل: جواد علي، السادس، ص ٦٠٣.
- (١٢٧) المفصل: جواد علي، السادس، ص ٦٠٦.
- (١٢٨) الخصائص الكبرى: السيوطي، الأول، ص ١٩٢.
- (١٢٩) الخصائص الكبرى: السيوطي، الأول، ص ١٢٥.
- (١٣٠) المفصل: جواد علي، السادس، ص ٦٠١، سابق.
- (١٣١) تاريخ الشعوب العربية: لهوراني ترجمة صلاح الدين، ص ١١، ط أولى، الألف كتاب الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب نقلا عن المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنوتي، ص ٨٠ - ٨٣، سابق.
- (١٣٢) المسيحية والحضارة العربية: د. جورج شحاتة قنوتي، ص ٩٥٩ الطبعة الأولى ١٩٩٢، دار الثقافة مصر، نقلا عن تاريخ الشعوب العربية لألبرت هوراني، ترجمة نبيل صلاح الدين، ص ١١ الطبعة الأولى ١٩٩٧ - العدد ٢٦٧، الألف كتاب الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (١٣٣) السيرة النبوية: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، ص ٣٦، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م دار الكتب العربية، لبنان.
- (١٣٤) أخبار مكة: للأزرقي، الأول، ص ١٦٧.
- (١٣٥) أخبار مكة: للأزرقي، ص ١٦٧.
- (١٣٦) أخبار مكة: للأزرقي، ص ١٦٨، وما بعدها مصدر سابق، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، ص ١٧٢.
- (١٣٧) المفصل: جواد علي، السادس ص ٦٠٧.
- (١٣٨) أساس البلاغة: للزمخشري، هو من جرثومة العرب.
- (١٣٩) أخبار مكة: للأزرقي، الثاني، ص ٢٠٤، و«دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ» على الغلاف الخارجي تحقيق الإمام عبد الحلیم محمود والدكتور محمود ابن الشريف، أما على الغلاف الداخلي فلم تذكر كلمة تحقيق واقتصر على الإمام عبد الحلیم محمود الذي وصل إلى منصب شيخ الأزهر، والحديث نقلا عن أبي زرعة ورواه البخاري في الصحيح عن قتبية ورواه مسلم عن أبي شيبة.
- (١٤٠) دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى: لأمال قرادش بنت الحسين، هامش ص ٤٥، كتاب الأمة، العدد ٧٠، ربيع الأول ١٤٢٠هـ السنة التاسعة عشر، وزارة الأوقاف، دول قطر.
- (١٤١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د. فاطمة محجوب، ص ١٣٠ من العدد ٢٦، ط أولى، د. ت، الناشر دار الغد العربي، بمصر.
- (١٤٢) حياة الصحابييات: ل.أ. د. حمزة النشرتي وآخرين، ص ٥٢، ط أولى ١٩٩٩، والناشر هو المؤلف، القاهرة.
- (١٤٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير الجزري، ٥٥٥/ ٦٣٠هـ، ص ١٢٩ من المجلد السابع، كتاب النساء، مصدر سابق.



## الفصل الرابع

### التّفرس في اليعسوب

[Blank Page]

من معاني اليعسوب – الرئيس الكبير<sup>(١)</sup>.

وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى – وهو من رهط بني أسد الذين تكلمنا عنهم بتوسع في فصل «الهندوز».

وهو ابن عم الطاهرة خديجة.

«أما أن ورقة كان ابن عمها فهذه هي الحقيقة»<sup>(٢)</sup>.

«... ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل»<sup>(٣)</sup>.

ومما له دلالة عميقة وصلة حميمة ببحثنا أن ورقة أوشك أن يتزوج ابنة عمه الطاهرة ولكن لم يوفق في ذلك لأسباب لم تفصح عنها كتب سيرة محمد التي هي أجمل صوتاً من هوار دستان<sup>(٤)</sup>.

«عندما بلغت خديجة سن الزواج ذكرت لابن عمها ورقة فلم يقدر على زواجها...»<sup>(٥)</sup>.

علاوة على صلة القربى بين الطاهرة والقس وإذ إن سن زواج الجارية «الفتاة» آنذاك لا يتعدى الخامسة عشرة وإذ إنها نكحت «الكافي» وهي في السادسة والأربعين من عمرها المبروك فإن ذلك يعني أنها استمرت على علاقة حميمة بابن العم ورقة لمدة أنافت على ثلاثين عاماً فلا مشاحة والحال كذلك أن يغدو «ورقة» هو أستاذها وهي تخوض التجربة المعجبة التي طرحت أروع ثمرة شهدتها جزيرة العرب.

والمرجع الذي ذكر الخطبة غير الموقفة، حديث بيد أننا لا نكتفي بالمراجع الحديثة مع تقديرنا لها رغم وجود أخطاء أو هنات أو تجاوزات فيها نرجو أن نتمكن من الكشف عنها في حينه ومن ثم فنحن لا نعول عليها بل حتم لازم أن نقصد المصادر أي الكتب التراثية خاصة تلك التي تحظى بالتقدير.

«قال ابن إسحق وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس»<sup>(٦)</sup>.

هذا الخبر نفحنا به ابن سيد الناس في مؤلفه «عيون الأثر» وهو من دواوين السيرة الرفيعة الدرجة وسنده فيه ابن إسحق صاحب السيرة التي قام ابن هشام باختصارها أو تهذيبها ومن حسن الحظ أنها «= سيرة ابن إسحق» حفظت لنا بخلاف سيرة الزهري التي اندثرت.

كذلك أورده ابن الجوزي في «الوفا»: «وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل فلم يقض بينهما نكاح»<sup>(٧)</sup>.

وأورده ابن هشام في سيرته: «قال ابن إسحق: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس»<sup>(٨)</sup>.



إنما الذي يهمننا في خط سير اليعسوب هو تنصره وتبحره في علوم النصرانية.

ذلك أنه اجتمع نفر من قريش رفضوا عبادة الأوثان منهم: زيد بن عمرو بن نفيل العدوي «عم عمر بن الخطاب» وعثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل وقد اختار الأخيران ديانة عيسى ابن مريم فاعتنقها، ولأهمية هذه الخطوة التي خطاها ورقة فإننا سوف نقف عندها ملياً ومن حق القارئ علينا أن نقدم له أدلة الثبوت عليها كيما لا ندع ذرة من شك في تنصر اليعسوب وتضلعه في النصرانية وحيازته لرتبة دينية عالية وقيامه بتعريب قدر مفرطح من التوراة والإنجيل ونقله من اللسان العبراني إلى لغة العرب ذلك أن هذا العمل من الخطورة بمكان وله أثر غائر ونافذ في إنجاز التجربة المعجبة كما ذكرنا، وسوف نذكر ونحن نستميح القارئ عذراً إن حدث تكرار بيد أن ما توخينا والذي في اعتقادنا أنه مهم للغاية هو المصادر العالية المقام التي تضافرت وتعاضدت على تأكيد نصرانية ورقة وأنه شرب من علومها نهلاً بعد علل وأنه نقل من النصرانية إلى العربية العدد الوفير من الإصحاحات والصفحات من الكتابات المقدس بقسميه «ورقة.. ابن عم خديجة وكان امرءاً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب»<sup>(٩)</sup>.

هذا الخبر حمله إلينا صحيح البخاري مقدم الصحاح الستة وأصح كتاب بعد القرآن العظيم.

«تنصر أي صار نصرانياً.. فأما ورقة فأعجبه دين عيسى ولم يبدل ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبطش به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل...»<sup>(١٠)</sup>.

ويشرح ابن حجر العسقلاني الأثر الذي أخرجه البخاري في صحيحه ويزيده إيضاحاً فيقول:

«وفي رواية يونس ومعمر: ويكتب «يعني ورقة» من الإنجيل بالعربية ولمسلم فكان يكتب الكتاب العربي والجميع صحيح لأن ورقة تعلم اللسان العبراني والكتاب العبراني فكان يكتب الكتاب العبراني كما كان يكتب الكتاب العربي لتمكنه من الكتابين واللسانين لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن ميسراً ككتيسير حفظ القرآن الذي خصت به هذه الأمة فلماذا جاء في صفتها: أناجيلها في صدورها..»<sup>(١١)</sup>.

وقد ركز الخبر على تمكن القس من اللغة العبرية مثل تمكنه من اللغة العربية وأن التعريب شمل التوراة والإنجيل وهو خبر بالغ النفاسة.

وفتح الباري للإمام العسقلاني أحسن مؤلف في شرح صحيح البخاري ونأمل أن يخترن القارئ ما ذكره من لقاء القس للرهبان الذين ظلوا على دين عيسى قبل تبديله إذ سنتناوله بعد قليل بتفصيل ونوضح بصماته التي سوف ندركها من خلال التجربة الفذة.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان أمراً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب<sup>(١٢)</sup>. في «اللؤلؤ والمرجان» جمع صاحبه الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم «الشيخان» وكلاهما يقفان على رأس الصحاح الستة ومقدمها «البخاري» هو الأول أو السابق وآخرها «مسلم» هو التالي له أو المصلى وقد اتفقا على نصرانية ورقة ونقل إصحاحات العبرانية إلى العربية.

ثم ذكر الكلاعي في الاكتفاء:

«ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل»<sup>(١٣)</sup>.

وامتاز هذا الأثر بأنه ذكر أن القس سمع من أهل التوراة أيضاً لا من أهل الإنجيل فقط وهو عين ما نص عليه العسقلاني، ثم نأتي إلى الإمام أحمد بن حنبل شيخ المذهب المعروف ومسنده أحد دواوين السنة المحترمة وقد ذكر ورايتين للحديث.

**الرواية الأولى:**

«حتى أتت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة.. وكان أمراً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي فكتب من العربية ما شاء الله أن يكتب. رواه الزهري عن عروة عن عائشة»<sup>(١٤)</sup>.

هذه الرواية رفعها إلينا الزهري عن عروة عن عائشة وبذلك تصير مؤكدة وموثقة.

**الرواية الأخرى:**

«وبرواية محمد بن مسلم حدثنا عروة بن الزبير.. فانطلقت بي خديجة

إلى ورقة.. وكان رجلاً قد تنصر شيخاً أسمى يقرأ الإنجيل بالعربية»<sup>(١٥)</sup>.

وذكر د. حمزة النشرتي أن الشيخين أجمعا على ما يأتي:

— ورقة هو ابن عم خديجة.

— تنصر أي دخل دين ابن مريم.

— يكتب من الإنجيل المكتوب بالعبرانية أي ينقل منه إلى اللسان العربي «حتى أنت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة رضى الله عنها وكان أمراً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. أخرجه الشيخان»<sup>(١٦)</sup>.

وأوردها المحب في «السمط» فقال: «... ورقة وكان ابن عمها «الطاهرة» وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس...»<sup>(١٧)</sup>.

ثم نختم بما جاء في تاج مؤلفات السيرة المحمدية التي هي أطيب رائحة من ورد جور<sup>(١٨)</sup>.

«ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل..»<sup>(١٩)</sup>.

لعلنا بعد كل هذه الأدلة لسنا في حاجة إلى القول بصحة هذا الخبر ووثاقته بعد أن قدمته إلينا مصادر هي في الدرجة الأولى.

**من التراث الإسلامي:**

— صحيح البخاري

— صحيح مسلم

— فتح الباري

— مسند ابن حنبل

— سيرة ابن هشام

— عيون الأثر

— الوفا بأحوال المصطفى

— السمط الثمين للطبري

— الاكتفاء للكلاعي

إنما لماذا حرصنا على هذا التوثيق المبالغ فيه؟

الإجابة لا تحتاج إلى ذكاء: ذلك أن نصرانية القس وتضلعه في علومها ونسخه إصحاحات من التوراة والإنجيل إلى العربية بالإضافة إلى علم الطاهرة بالقراءة والكتابة مع عوامل أخرى كلها تشكل مفاتيح اللغز الذي حير الناس طوال مدة أربعة عشر قرناً.

ولكن هناك باحثاً حديثاً عرف بالرصانة واشتهر بالرزانة وحاز كتابه عن «حياة محمد» التي أطيب من ريح الخزامى بتقدير وفير حتى إنه طبع

مرا عديدة خربق<sup>(٢٠)</sup> في هذه الخصوصية خريقة دلت على عدم فطانتها للفرقة النصرانية التي انتهى إليها ورقة وإلى الإنجيل الذي كان يعرب منه والذي ترك بصماته على «منتج التجربة» بصورة واضحة لا تخفى على اللبيب ولا تستبهم على الذكي ولا تلتبس على اللوذعي<sup>(٢١)</sup>.

أما ورقة بن نوفل فدخل النصرانية وقيل إنه نقل إلى العربية ما في الأناجيل...<sup>(٢٢)</sup>.

ونحن نرى أن هيكلاً أخطأ في قوله «ما في الأناجيل» لأن ابن نوفل لم يعرف سوى إنجيل العبرانيين أو إنجيل متى قبل إضافة الإصحاحين الأولين إليه، ويؤيده ما جاء في «الفتح» للعسقلاني أن القس كان يؤوب إلى ما بقى من الرهبان على دين عيسى الذي لم يبدل وهم الشيعة أو الفرقة النصرانية التي لم تزعم أن ابن مريم إله يعبد مع الله وهم النصارى الموحدون أو النصارى المتهودون أو الأبيونيون «وقد كانت جماعة اليهود المنتصرين في فلسطين هي الأقرب إلى تعاليم المسيح من حيث كان منها تلاميذه الحقيقيون وعلى رأسهم بطرس مقدم تلاميذه هؤلاء»<sup>(٢٣)</sup>. وفي مقابلها تقف الفرقة الأخرى على رأسها شاول الذي تحول من مضطهد للنصارى إلى زعيم من بدل دين المسيح واعتقد ألوهيته.

«وأظهر ما تتميز به عقيدة هؤلاء الأبيونيين تمسكهم بالتوحيد المجرد وإنكارهم دعوى تأليه المسيح واعتباره مجرد إنسان نبي والتزامهم بكتب موسى والأنبياء وما تقضي من شعائر وفروض»<sup>(٢٤)</sup>.

وقد تعرضوا من فرقة بولس المغيرين لدين المسيح للاضطهاد ومن ثم فروا بدينهم خارج فلسطين بعد أن وسمهم شاول أو بولس وزمرته بالهرطقة ومنهم الجماعة التي وصلت إلى جزيرة العرب وتلك التي استوطنت حدود الشام التي على مشارفها وهذا ما توصل إليه الشيخ محمد الغزالي.

«وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد بن عمرو بن نفيل بعاقبة يخالفون المذهب الرسمي لكنيسة الرومان»<sup>(٢٥)</sup>.

«وقد استكملوا فقط ما يدعى «إنجيل العبرانيين» ولم يبالوا كثيراً بالأسفار الأخرى»<sup>(٢٦)</sup>.

وقيل إنهم طفقوا يقرأون إنجيل متى قبل إضافة الإصحاحين الأولين له اللذين كتبوا لإرضاء جماعة بولس من حيث تأليه المسيح وهو أي إنجيل متى في أصل مكتوب بالعبرانية ومن ثم يقال إنه إنجيل العبرانيين ذاته «من المحتمل أن يكون إنجيل الناصريين هذا هو الأصل العبراني لإنجيل متى ثم طرأت عليه توسعة وتعديل...»<sup>(٢٧)</sup>.

وهذا ما تؤيده المصادر المسيحية ذاتها:

«ومن بين اليهود الذين قبلوا المسيح وكان هناك من دخلوا في شركة كاملة مع إخوانهم الأميين ولم يدعوا أي امتياز لأنفسهم عنهم استناداً إلى الناموس.. وذلك بإصرارهم على ضرورة حفظ الناموس.. وعلى هذا فقد انتقلوا من كونهم حزبا في إطار الكنيسة إلى وضع شيعة خارقة عنها ونجدهم في نحو منتصف القرن الثاني وقد أصبحوا زمرة من الهراطقة.. وبعد ذلك بوقت قصير صنفهم الكاتبون تحت اسم «الأبيونيين».. ولقد أنكروا أن يكون بولس رسولا ولم يستخدموا سوى إنجيل متى بل وفي صورة مشوهة وكان... رأيهم أن المسيح رجل عادي حبل به بالشكل العادي ولم يتميز سوى بیره وعطية الروح القدس السامية.. ومن ناحية أخرى يتحدث العلامة أوريغانوس عن طائفتين من الأبيونيين ويوضح أن إحدى الطائفتين تتكر الحمل العذراوي بالمسيح بينما تؤيد ذلك الرأي الطائفة الأخرى.. واتخذوا لهم لقب الناصريين «يعني نسبة التي الناصرة التي ولد بها عيسى ابن مريم أ. ه»... وهم يتحدثون بالآرامية وكان لهم إنجيلهم الخاص ويذكر شاف أنهم استخدموا إنجيل متى في العربية»<sup>(٢٨)</sup>.

### أما دائرة المعارف الكتابية فترى:

«أن التاريخ القديم المنفق عليه لهذا الإنجيل أي إنجيل العبرانيين وأغلب الاقتباسات القليلة منه والاحترام الذي يذكره به الكتاب الأوائل والتقدير الذي يلقاه من العلماء عموما في العصر الحاضر كل هذا تجعل له اعتباراً خاصاً.. وكان جيروم ٤٠٠م يعلم بوجود هذا الإنجيل ويقول إنه ترجمه إلى اليونانية واللاتينية وتوجد اقتباسات منه في مؤلفات أكلميونندس السكندري وعلاقته بإنجيل متى الذي يكاد الإجماع ينعقد على أنه كتب أصلا بالعبرية «الآرامية» أثارت جدلاً كبيراً.

ثم تتحدث عن الأبيونيين فنقول إنه:

يمكننا وصف الأبيونيين عموماً بأنهم المسيحيون من اليهود الذين عملوا على الاحتفاظ بقدر الإمكان بتعاليم العهد القديم.. ويقول جيروم من القرن الرابع: إنه وجد في فلسطين مسيحيين «هكذا وصحتها مسيحيون أ. ه» يعرفون باسم ناصريين وأبيونيين ولا نستطيع الجزم هل كانا مذهبين أو أنهما كانا جناحين «هكذا وصحتها جناحان أ. ه» لمذهب واحد.. وإنجيل الأبيونيين أو الإنجيل الأثني عشر رسولا كما كان يسمى أيضاً يمثل مع إنجيل العبرانيين المذكور سابقا الروح المسيحية اليهودية.. ويقول أبيفانيوس ٣٧٦م: إن الناصريين لديهم إنجيل متى في صورة أكمل في العبرية الآرامية»<sup>(٢٩)</sup>.

بيد أن أحد الباحثين ينبهنا إلى أن إنجيل متى الحالي ليس هو إنجيل متى الأصلي الذي اعتمده النصارى الموحدون أو اليهود المنتصرون أو



الناصريون أو الأبيونيون «وأما عن نسبة إنجيل متى إلى الحواري متى فقد جاء في كتاب «حياة المسيح» للأب ديدون أن بعض الثقافات قال إن الإنجيل الحالي المنسوب إلى متى ليس من كتابته بل هو مقتطف من أصل مفقود كان ينسب إلى الحواري متى.

وفي الهامش أضاف ما يلي:

«ويزيد هذه الشبهة أن الكتابة في هذا الإنجيل ليست بضمير المتكلم كما في لوقا مثلاً، وفي دائرة المعارف البريطانية استبعد موريس فرن أن يكون الإنجيل المعزو إلى متى ليس في كتابته بل هو مقتطف من أصل مفقود كان ينسب إلى متى الحواري بل لقد نادى «فاستس» في القرن الرابع من علماء «مانى كيز» أن الإنجيل المنسوب إلى متى ليس من تصنيفه وأضاف بالهامش ما يلي:

اجتمع لكتابة دائرة المعارف البريطانية ما يزيد على خمسمائة عالم من أكبر علماء فرنسا والبلاد الأخرى في القرن التاسع عشر<sup>(٣٠)</sup>.

ويقول الباحث الشيخ رحمت الله بن خليل الهندي (١٢٣٣ / ١٣٠٨ هـ): «إن الفرقة اليونانية تقول إن بولس مرتد وكانت تسلم بإنجيل متى لكن كان هذا الإنجيل عندما مخالفاً لهذا الإنجيل المنسوب إلى متى الموجود عند معتقدي بولس الآن في كثير من المواضع محرقة عند هذه الفرقة ومعتقدو بولس يرمونها بالتحريف»<sup>(٣١)</sup>.

وكان كيرنثوس الذي عاصر الحواريين يؤكد أن الإصحاحين الأولين في إنجيل متى «الحالي» والمشمولين على قصة ميلاد عيسى لم يكونا أصلاً في النسخة العبرانية بل هما من إضافة شيعة شاولول «بولس» دعاة تأليه ابن مريم<sup>(٣٢)</sup>.



بعد هذه الاستطرادة التي نرى أنها قد استطالت: نقول لعننا بذلك طرحنا الحجج الدامغات على خطأ هيكل عندما ذكر أن القس نقل إلى العربية ما في الأناجيل إنما هو إنجيل واحد هو إنجيل العبرانيين الذي حملته معها طائفة اليهود المنتصرين أو النصارى الموحدين أو الأبيونيين أو الناصريين التي فرت من اضطهاد بولس وشيعته واستوطنت جنوب الشام على تخوم الجزيرة العربية ومنطقة الحجاز وربما هي خليط من كل أولئك وعنهم أخذ القس ورقة نصرانيته ويدخل في هذه الزمرة كل الأسماء التي وردت في سيرة محمد التي هي أطيب من رائحة الورد. أمثال: بحيرى وسيرجيوس ونسطورس وانسطاس وعداس وميسرة وناصح والأخيران هما غلاما «يدة نسون الدنيا أم هندا». والفرقة بأسرها تعتبر في نظر بولس وتبعه: هرطقة ومارقون وعلى باطل لأنهم يتمسكون بالتوحيد

المجرد وينكرون دعوى تأليه المسيح واعتباره مجرد إنساني نبي ويلتزمون بكتب موسى والأنبياء وما تقضي به من شعائر وفروض<sup>(٣٣)</sup>.

ومن أميز عقائدهم الإيمان بالولادة العذراوية لعيسى أي أنه ولد من عذراء وروح القدس<sup>(٣٤)</sup>. وهذه العقائد ذاتها بنصها هي التي وردت في القرآن العظيم بخصوص المسيح وأمه مريم العذراء البتول:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾<sup>(٣٥)</sup>.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾<sup>(٣٦)</sup>.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾<sup>(٣٧)</sup>.

أما عن الولادة العذراوية فقد خصص لها القرآن الكريم عدة آيات في سورة مريم تبدأ من الآية الرابعة عشرة.

وعن عبودية المسيح لله ونفى الألوهية عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾<sup>(٣٨)</sup>.

وعن نفي أبوة الله لعيسى أو بنوة الأخير لله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾<sup>(٣٩)</sup>.



هذه الفرقة الهرطقية في نظر بولس هي التي أخذ القس ورقة منها علمه بالنصرانية سواء في الشام أو في الحجاز، فلم تلتفت أو تعترف إلا بإنجيل متى قبل تحريفه بإضافة البابين أو الإصحاحين الأولين وتجاهلت الأنجيل الثلاثة القانونية الأخرى دعك من باقي الأنجيل<sup>(٤٠)</sup>.

ونأمل ألا يظن القارئ أن هذه مبالغة قذف بها باحث مسلم دفعه إليها التعصب الديني ولكن هذا ما يؤكد علماء الفرنجة المدققون في تواريخ الأديان وخاصة المسيحية وكذا في علم الأديان المقارن «وقد تم اعتماد الأنجيل الأربعة من بين العدد الهائل من الأنجيل..»<sup>(٤١)</sup>.

كما أن علماء تلك الفرقة رأوا أنه «من الضروري رفض كل رسائل بولس الذي قالوا عنه إنه مرتد عن الناموس»<sup>(٤٢)</sup>.

وكذلك سائر رسائل الرسل الباقين.

والقرآن المجيد لم يذكر إلا إنجيلاً واحداً بالمفرد وليس به كلمة واحدة عن بولس ولا رسائله ولا رسائل الآخرين رغم أن شاول أو بولس هذا قام بدور رهيب إذ هو الذي دهول<sup>(٤٣)</sup> المسيحية وقلب حالها رأساً على عقب بأن آله المسيح عيسى في حين أنه هو نفسه صرح أنه مجرد رسول خلت من قبله الرسل وأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً وقد مضت ستمائة عام على مخاريق بولس وشعبذاته قبل القرآن.

ثم نؤوب إلى سلسل «بسكون اللام الأولى» الحديث نقول: إن هيكلًا بعد ست صفحات عاد إلى صوابه فأقلع عن خطئه وبرئ من غلظه ورجع عن تخليطه فقال:

«لذلك انطلقت «= خديجة» إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكما قدمنا قد تتصر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية فلما أخبرته بما رأى محمد وسمع قصت عليه كل ما حدثها به فذكرت له إشفاقها وأملها، أطرق مليا، ثم قال قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولى له فليثبت.. وسارعت «= خديجة» فقصت عليه (= على محمد) نبأ ورقة وما حدثها»<sup>(٤٤)</sup>.

ففي هذه الفقرة يذكر أن ورقة عرف إنجيلاً واحداً لا أناجيل بالجملة أي عدة أناجيل والفرق لا يتمثل في الألف ولكنه أعمق من ذلك فمن قال إن ورقة قرأ إنجيلاً واحداً أدرك كنه ما وقع بالفعل وعرف الحقيقة التاريخية ونقه السر الخبيء وراء اقتصار نتج «نتائج» التجربة على ذكر إنجيل فذ وعلى أفكار فرق معينة أو فرق مخصوصة من فرق أتباع عيسى، هي التي استوطنت تخوم الشام أو رحلت إلى الحجاز فماسها ورقة وأقرانه. أما الذي يسطر في كتابه أو بحثه أن القس أطلع على أناجيل «بالجمع» وعربها أي نسخ ما فيها إلى العربية فعلاوة على بعده عن الصواب فإنه يقطع بأنه لم يفتن إلى مجريات الأحداث في ذياك الزمان المدهش ولا أحاط معرفة بالعلم الديني الذي حصله ابن نوفل وأنداده ولا بمن لقنه إياه ودرسه له.

وغاية الأمر في هذه الخصوصية البالغة الدقة رغم صغر حجمها أن هيكلًا صحح خرفه..<sup>(٤٥)</sup> واستدرك غلظه واستنقال من عذره إنما لكل سيف نبوة ولكل عالم هفوة ولو أنها ليست كذلك بل هي سقطة وجيعة كنا نأمل ألا يتردى هيكل فيها.



بعد هذا التفريع الذي أجانأ إليه هيكل نعود إلى سرد الحديث وهو إيضاح أو إثبات علم اليسوب المكين وصلاحيته ليغدو المستشار وكفايته كيما يصبح الموجه ومكنته لكي يتولى رتبة المتابع «للتجربة» التي خاضتها الطاهرة بجسارة شديدة ونفذتها باقتدار يعز أن نجد له نديداً فنورد آراء الكتاب المحدثين فيما يتعلق بعلم القس بالنصوص المقدسة ومكانته العلمية الدينية بين من اعتنق النصرانية وذلك بعد أن طرحنا ما صنفه المؤلفون التراثيون في هذه الخصوصية والحق أنهم جهاذة الكتاب القدامى وسادتهم ممن حظيت مؤلفاتهم بوافر

الاحترام بل بعضها وصل إلى درجة التقديس مثل صحيح البخاري ومسلم.

• • •

إن الكتاب الذي عربه الشيخ عبد الحلیم محمود الذي تربع على كرسي رئاسة مؤسسة شئون التقديس في مصر نعني مشيخة الأزهر يؤكد مصنفاه أن ورقة هو أعلم أهل مكة بالنصوص المقدسة:

«كان ورقة من هؤلاء الذين اعتنقوا النصرانية وكان بعد من أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة ولقد عاش مثل ما عاش رهبان الشام في انتظار الرسول العربي»<sup>(٤٦)</sup>.

والعميد الدكتور طه حسين يخبرنا عن تبخر ورقة في النصرانية وإمعانه فيها وحفظه منها ما حفظ ويؤكد ما سطره ناصر الدين آتین دينيه وزميله أنه أعلم من بيكة بالكتاب المقدس:

«كان ورقة بن نوفل حازماً عازماً رجل صدق وشارك في مفاخر مكة ومآثرها ولكن ورقة وإن أحب النصرانية وأمعن فيها فقد كان لقومه محباً ولوطنه مؤثراً... ولم يذهب إلى قسطنطينية وإنما حفظ من النصرانية ما حفظ ورعى من علم الأبحار والرهبان ما شاء الله أن يعي ثم عاد بهذا كله إلى مكة فأقام فيها.. فلا غرابة أن تفكر ابنة عمه خديجة أن تسأله عما رأت وسمعت من هذه الأحداث العظام والآيات الكبار وهو الذي انتهى إليه علم الكتاب في مكة». العميد هنا يتحدث عن هرولة الطاهرة إلى القس بعدما سمعت من غلامها ميسرة ما رآه في رحلته مع «المشفق» إلى الشام»<sup>(٤٧)</sup>.

• • •

ولا نعد مغالين إذا انتهينا إلى حقيقة ثابتة أطبق عليها الكتاب المحدثون للسيرة المحمدية الزكية وهي أن القس هو أعلم من في منطقة الحجاز من أهلها بالنصوص المقدسة فقد ذكرنا منهم ناصر الدين آتین دينيه والعميد طه حسين.

وهذا هو رأى ثالثهم وهو الخربوطلي الذي يذهب إليه أيضاً.

«فغادرت خديجة دارها قاصدة إلى ابن عمها ورقة وكان قد اعتنق المسيحية وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة...»<sup>(٤٨)</sup>.

ولكننا نأخذ عليه أن ارتكب غلطة لا يصح لمثله أن يتردى فيها وهي قوله إن القس اعتنق المسيحية في حين أنه لا شأن له بها هو اعتنق النصرانية وقد سبق أن أوضحنا تفصيلاً فيما تقدم الفارق بين الثنتين، ومما يؤسف له أن عدداً ملحوظاً من المحدثين الذين يتناولون السيرة

المحمدية العطرة يخوضون فيها بقدر من الخفة وعدم التعمق وسنرى فيما يلي: أن الخربوطلي قد أخطأ خطأً بينا فيما يتعلق بغار حراء وخلط بينه وبين أحد أجبل مكة ولو أنه دقق قليلاً لتحاشى الغلط الفادح.

**وهذا رابعهم يقول:**

«وكان ورقة عربياً أصيلاً من ذروة بيوتات قريش وهو كما يروي صاحب الأغاني أحد من اعتزل الأوثان في الجاهلية وطلب الدين وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان. طلب ورقة الدين ولم يكتف في طلبه باللغة العربية بل لعل اللغة العربية إذ ذاك لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فيتعلم العبرانية ويقول الإمام البخاري عنه: وكان أمراً تنصر في الجاهلية وكان يكتب العبرانية فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب.

وقد كان ورقة معروفاً بالعقل الناصح والمعرفة الواسعة والإخلاص المخلص وقد كان في فترة البدء هذه شيخاً كبيراً قد عمى أي أنه مر بالتجارب الكثيرة في الدين من أجل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ﷺ إليه وقالت له: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك»<sup>(٤٩)</sup>.

المدون بعاليه هو رأى الشيخ عبد الحلیم كمؤلف لا كمعرب أو مترجم وقد أخرج هذا الكتاب وهو أمين عام مجمع البحوث الإسلامية ثم غدا فيما بعد شيخاً للأزهر وهو يتناول جانباً آخر لم يتطرق إليه من سبقوه وهو اتسام القس بصفات عالية مثل الزهد والعقل الناضج والمعرفة الواسعة والإخلاص والتجارب العميقة في الدين.

• • •

إذن علم القس المتين وتضلعه من النصوص المقدسة وعلو كعبه بين الغارقين بها محل إجماع، وترتيباً عليه فهو أجدر الناس بأن يظفر بمركز المستشار والموجه والمراجع والمتابع. بقيت نقطة مهمة تكمل علم القس وهي وثاقة صلته بهندوز التجربة والعلاقة الحميمة التي ربطتهما ودفعتها لذلك التعاون الناجح.

• • •

## ورقة بن نوفل

قرشي جليل القدر، نافذ البصيرة، كان قريباً للسيدة خديجة زوج النبي ﷺ ترك الوثنية إلى النصرانية، وكان يقول للنبي ﷺ: ستكون نبياً وإن أدركني يومك نصرتك نصراً عظيماً ولكنه توفى قبل أن يظهر للناس إسلامه<sup>(٥٠)</sup>.

إن مشيخة الأزهر أكبر مؤسسة لشئون التقديس في مصر بل في العالم الإسلامي على بكرة أبيه ومن على صفحات مجلتها الرسمية تؤكد صلة القس بالطاهرة «كان قريباً» وهو الذي عضد «الفائق» وبشره بأنه

المأمول والمنظر والقادم.. الخ ووعدته بالمؤازرة القوية والنصر المبين ولا توجد عبارات تقطع بما ذهبنا إليه أوضح منها وإذ إن هذا الرأي صدر من مشيخة الأزهر فينطبق عليه المثل: «وعند جهينة الخبر اليقين».

«وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل...»<sup>(٥١)</sup>.

هنا نجد الندوى وهو من البحاث المحدثين الأعاجم يؤكد زيارة أم هند لابن عمها ورقة ومثله لا يزار لمجرد المؤانسة بل للمدارسة والاستشارة في ما يهم من الأمور وما يعظم من الشؤون — فضلاً عن أن الزيارة تشي بوجود عروة وثقى وصلة وطيدة بين الهندوز واليعسوب هي التي رشحت الأخير للموقع الذي ذكرناه.

• • •

وبالبحث والتنقيب والتنقيب وجدنا أن القس لم يترك المسألة للحدس والتخمين ولقراءة المعنى الخبيء وراء الأخبار والدلالة المستترة خلف الآثار «جمع أثر» بل ثمة كلام صريح لليعسوب وقد صاغه شعرا «إذ إنه كما ذكرنا من شعراء قريش أ. ه» يحكى لنا فيه عن الصلة الوشيحة التي ربطته بأمر هند وأنها دأبت على إطلاعه أولاً بأول على أحوال «راكب الناقاة» وما فتئت تلتمس منه أن يكشف لها عن دالة هذه الأحوال:

«أخرج الحاكم من طريق ابن إسحق: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي وكان واعية قال: قال ورقة بن نوفل في ما كانت خديجة رضى الله عنها ذكرت له من أمر رسول الله ﷺ:

حتى خديجة تدعوني لأخبرها وما لها بخفى الغيب من خبر

جاءت لتسألني عنه لأخبرها أمرا أراه سيأتي الناس من آخر.

وخبرتني بأمر قد سمعت به في ما مضى من قديم الدهر والعصر<sup>(٥٢)</sup>.

أليس هذا الخبر صريح النص والدلالة معا على حقيقة ما جمع بين الطرفين وتعاونهما سويا على إنجاز التجربة.

• • •

وللقس ورقة شعر كثير حملته إلينا دواوين سيرة «الهادي» التي هي أجمل من رائحة الألوّة مع الكافور والزعفران وقد أورد ابن إسحق في سيرته قصدين — منهما واحدة تضم الأبيات السابقة<sup>(٥٣)</sup>.

تكلم فيهما بوضوح عن صلته الوثيقة بسيدة قريش وكيف أنها ما انفكت توافيه بقدر ملحوظ من الموالاتة بمواقف «الذي سيفه على عاتقه» وما يمر به من مقامات وتستفسر منه عن تأويلها الأمر الذي لا يدع مجالاً لذرة من شك أنهما تعاضدا على إنجاز التجربة التي موضوعها «النجيد — النجيب».

• • •

هناك عبارة كثيرة ما تقرؤها في سيرة «صاحب زمزم» التي هي أذ طعاماً من تفاح الشام وهي أنه ما إن سمعت سيدة نسون قريش من «البارع» خبر لقائه بملاك الرب في غار حراء، وعودته إليها مذعوراً ترجف بواده ويزحف على يديه ورجليه من شدة الفزع والخوف فما إن هدنته<sup>(٥٤)</sup> ونومته حتى هرعت إلى اليعسوب تقص عليه الخبر وفي رواية أخرى أنها اصطحبت «الغدغم» معها عندما هرولت إلى القس، وسواء ذهبت منفردة أو بمعيته فإن الذي يهمنا هو أن أم هند فور سماعها الحكاية المعجبة أسرع إلى ابن عمها أعلم المكيين بالكتابين التوراة والإنجيل، وهذا ثابت بكل مصادر ومراجع السيرة المعطار تقريباً بيد أننا نكتفي ببعض منها<sup>(٥٥)</sup>.

نجتزئ بهذا القدر من المصادر والمراجع وهي من ذوات الرتب العوالي في سيرة «الأبطحي» التي هي أطيّب من ريح الخزامى وذلك منعاً من الإطالة ونقدمها كمجرد مثال ولا نبغى الاستقصاء وهي جميعها سواء ما ذكرناه أو تركناه تقطع أن الطاهرة ما إن أحاطها «أبو إبراهيم» بلقائه بالملاك في غار حرى حتى أرقلت<sup>(٥٦)</sup> بأقصى ما تملك من طاقة لابن عمها وأخبرته بفلج التجربة فما حدث في الغار هو إعلام بنجاح «التجربة الكبرى» التي ظلت ترعاها لمدة سنوات طويلة.

وهذا اللجوء إلى القس يشي بمتانة الوشيجة وقوة الأصرة ووثاقة العلاقة بين أم هند وورقة.

• • •

وبذلك اكتمل في حق القس أمران:

أ — علمه الغزير بالنصوص المقدسة.

ب — صلته الحميمة بهندوز التجربة التي غيرت وجه التاريخ في منطقة الحجاز وما حولها ونرجح أن تأثيرها سوف يستمر زمناً ما لم يحدث تنوير في ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومن ثم يترقى الوعي في مجتمعاتها فيعتقدون من أغلال الإسطار الذي خيم على عقول أفرادها منذ قرون طويلة.

• • •

وإذا أننا نعالج في هذا الفصل اليعسوب نتملى في صورته وندقق في قسماته ونتمعن في ملامحه فلا بد لنا أن نلم ولو إمامة سريعة بجانب على قدر من الأهمية وهو معرفته باللغة «اللسان» العبرية. ولقد قلنا إمامة لأن هذا الجانب سوف يعرض بتوسع مناسب في باب التجربة لما له من أهمية فيها.

ذكرنا في مفتح هذا الفصل أنه ورد بصحيح البخاري وصحيح مسلم

ومسند أحمد بن حنبل أن القس ورقة يكتب الكتاب العبراني وأنه ينقل من الإنجيل بالعبرانية إلى اللسان العربي، ولقد شرح ابن حجر العسقلاني ذلك الأمر وفصله بأن ورقة تعلم العبرانية كتابةً ونطقاً «تعلم اللسان العبراني والكتاب العبراني وأنه تمكن من الكتابين واللسانين».

ذلك أنه حفظ التوراة والإنجيل غير ميسر كما هو الحال مع القرآن.

إذن نسخ أو نقل أو ترجمة ورقة لإصحاحات أو أبعاض التوراة والإنجيل حقيقة تواترت على حدوثها ثلاثة من العوالي من كتب التراث اثنان من الصحاح الست بالإضافة إلى مسند أحمد بن حنبل وغيرها من المصادر والمراجع الأخرى.

• • •

ويتكامل هذا مع ما أثبتناه أن سيدة نسون أهل الدنيا أتقنت القراءة والكتابة فإن القس لإنجاح التجربة دأب على مدها بما قام بتعريبه وهي تقرأ على «المطيع» ويتولى هو بدوره تخزينه في ذاكرته ونذكر بأميته ومن ثم فهو يعتمد اعتماداً كلياً عليها.

• • •

واليعسوب لأصرته القوية بابنة عمه أخذ يعقد جلسات طوالاً يحضرها «الخاضع» وفيها ينجز ما يأتي:

أ — قراءة الإصحاحات والأبعاض التي نسخها ورقة من لغتها الأصلية «العبرية» إلى اللسان العربي ثم تفسيرها وتأويلها وإيضاح ما غمض منها.

ب — أما ما لم يقم بتعريبه فإنه يترجمه مباشرة دون كتابته ويتولى شرحه وإيضاحه.

ج — مدارس المسائل التيولوجية التي تعتبر من القواعد الأساسية في كافة العقائد كالتى تتعلق بالألوهية والخلق وصلة المتعالي بالأراضي والكائنات غير المنظورة مثل الملائكة والجن.. والخلق والتكوين والكائنات... الخ.

د — التحدث في شأن النبوة والأنبياء والوحي ووسائطه.

هـ — العقاب والثواب والجنة والنار والموت والبعث والنشور والصراف والميزان.. الخ.

و — المقارنة بين كافة الملل والنحل والديانات التي ماجت آن ذاك بها قرية القداسة منها: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة، واستعراض عقائدها وشعائرها.

هذه بعض المواضيع التي لا شك أنها أثيرت في تلك القعدات<sup>(٥٧)</sup>. والتي من جانبها شكلت جزءاً من منهج الإعداد والتهيئة الذي هو كينونة التجربة.

• • •



ولقد فطن عدد من الباحث إلى التجربة وأنها استلزمت تمهيداً طويلاً ومعاناه ثقيلة وإعداداً ممدوداً<sup>(٥٨)</sup>.

ولو أنهم لمحووا ولم يفصحوا وجمجموا ولم يصرحوا وألغزوا ولم يبينوا:

«إن هذا الحادث «حادث حراء» لم يكن حادثاً عارضاً من خوارق القدر بل كان نتيجة لتمهيد طويل خلال سنوات.. على هذا الجبل حراء كان خاتمة التمهيد والتهديب والإعداد...»<sup>(٥٩)</sup>.

والنكتة<sup>(٦٠)</sup> هنا أن هيكلنا نقله إلى التجربة التي هي العمود الفقري لهذا الكتاب فقال إنها ليست حادثاً عارضاً من خوارق القدر أي أنها ليست من الماورائيات، فحادثه حراء استغرقت من التهديب والتمهيد والإعداد سنوات وسنوات أي منذ أن نكحت سيدة نساء الدنيا «المخبت» إلى لحظة ما حكاها عن لقائه لملاك الرب في غار حراء وهو ذات الملك الذي بشر الصديقة مريم بولادتها لعيسى.

ويستطرد هيكل أن ما وقع في الغار كان خاتمة لكل ذلك من التمهيد والتهديب والإعداد.

أما من الذي قام بها فهم بشر من البشر وناس من الناس إنما من هم؟ فقد ترك الباحث معرفتهم لذكاء القارئ وفطانتهم.



ثم جاء بعده ما يقرب من عشرين عاماً باحث ركب الموجة الإسلامية أو بلفظ أدق كثف من النكحة الإسلامية في كتاباته وهو حسين مؤنس وذكر كلمة «التجربة» تصريحاً ووصفها بأنها طويلة فقال:

«إن التجربة التي مر بها محمد بن عبد الله وتحول من بشر إلى نبي تجربة طويلة»<sup>(٦١)</sup>.

وأكد أن «الشكار» كيما ينتقل من فتى هاشمي قرشي إلى المنتظر والمأمول والمرتقب استدعى الأمر دخوله تجربة طويلة.

وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فإن «محموداً» قبل أن يحظى بأن تتكحه خديجة لم يعرف عنه أي اهتمامات تيولوجية ولا توجهات دينية ولا قصود<sup>(٦٢)</sup> عقائدية، أما ما نسب إليه من ميل إلى العزلة فذاك يؤوب إلى شعوره الدفين باليتم إذ مات أبوه وهو جنين، وفي رواية ابن أعوام ثلاثة ثم أمه وهو في السادسة ثم جده حين بلغ الثامنة، وهكذا ذاق مرارة فقد الحاني والكافل ثلاث مرات في وقت قصير فكيف لا يشمله الإحساس بالعزلة ويميل إلى البعد عن الناس والاعتراب عن الجماعة.

إن الدافع أو الباعث عائلي أو اجتماعي لا علاقة له بالدين ولا دخل

له بالعقيدة ولا شأن له بالتيولوجى. فإن كل هذا عديم الصلة به ولم يبدأ انعطافه نحو الغيبات والماورائيات إلا بعد أن نكحته الطاهرة وطجنته «أنضجته» في التجربة بحنكة انقطع ضروبها.

بيد أن كتب سيرة «الأشنب» الأهل من سكر الأهواز نفحتنا بمعطى ذى رتبة عالية يتعين علينا ألا نمر عليه مروراً عابراً لأنه ذو دالة عميقة ومعني بعيد فهو «المعطى» أشبه بالشفرة أو الرمز والأمانة أو الإشارة للدور الخطير الذي سيقوم به اليعسوب ثم الهندوز تجاه «الحى» في المستقبل.

«وكان ورقة هو الذي وجد الطفل الرضيع محمداً عندما تاه من مرضعته»<sup>(٦٣)</sup>.

والموسوعة الإسلامية الميسرة أجملت أو أوجزت هذه الأحداث أما دواوين سيرة «صاحب الخلق العظيم» التي ربحها أجمل من ربح المقطر «المجرة» فقد أوردتها بقدر من التفصيل.

«فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرد «حفيده» عليه وأنشد:

يا رب رد ولدي محمداً أرد ده ربي واصطنع عندي يداً

فسمع هاتفاً من السماء يقول: أيها الناس لا تضجوا إن لمحمد رباً لن يخذله ولن يضيعه، فقال عبد المطلب من لنا به فقال: إنه بوادي تهامة عند الشجرة اليمنى، فركب عبد المطلب نحوه وتبعه ورقة بن نوفل فوجداه ﷺ تحت شجرة يجذب غصنا من أغصانها.. الخ»<sup>(٦٤)</sup>.

أما محمد حسين هيكل فيروى الخبر بصيغة أخرى: وعاد «محمد» بعد هذه السنوات الخمس.. ويقال إن حليلة التمسته وهي مقبلة به على أهله فلم تجده فأنت عبد المطلب فأخبرته أنه ضل منها بأعلى مكة فبعث من يبحث عنه حتى رده عليه ورقة بن نوفل فيما يروون<sup>(٦٥)</sup>.

ورواية هيكل هذه أعمق تكتيفاً لرمزية الدور الذي سوف يضطلع به اليعسوب في التجربة المبرورة، ولعل بعض الكلمات التي وردت في ثنايا الخبر مثل: «ضل منها» بـ «أعلى مكة» إشارة إلى غار حراء. «من يبحث عنه» دلالة على التنقيب عنه من بين فتیان مكة وشبابها حتى رده عليه ورقة كناية عن الدور الخطير الذي قام به اليعسوب، ونكتفي بهذا العدد من المصادر والمراجع التي روت لنا تلك الواقعة.

ونحن لسنا بصدد تنفيذ ما يقوله علم النفس الاجتماعي من أن الشعوب أو الجماعات تنسب إلى أبطالها الدينيين حكايا معجبة وقصصاً خارقة في طفولتهم المبكرة مثل ما يقوله اليهود عن موسى من أن أمه وضعت في التابوت ثم ألقته به في اليم حتى رسا على ميناء قصر فرعون

فالتقطوه دون أن يغرق ويرسو في مكان آخر ولم يجدوا له ظئراً سوى أمه وهكذا عاد إليها واطمأن فؤاده الفزع الفارغ.

والشعوب والجماعات عندما تضيف هذه الخوارق لأبطالها الدينيين تعلى من شأنهم وترفع مقامهم وتسمو بقدرهم.

ونحن لا نفند هذا الرأي لسبيين:

أولاً: لا يدخل في صلب بحثنا وجوه دراستنا.

وآخرأ: فإن «الأطيب» ليس في حاجة إلى مثل هذه المخاريق إذ أسمى مكانة وأعظم درجة وأجل موضعاً.

• • •

وهناك ملمح هام في ذات الخبر هو أن عبد المطلب وجد حفيده تحت شجرة يجذب غصنا والشجرة لعبت دوراً متميزاً في الديانات السامية سواء القديمة أو الكتابية وسوف نوضح ذلك تفصيلاً في موضعه إنما المثل السريع الذي يرد على الذهن أن مريم ولدت عيسى ابنها في ظل نخلة أمدتها بالرطب الجنى الغذاء الأمثل للنفساء.

في هذا الخبر نجد أن القس ورقة عثر على أو ساهم في العثور على «البهاء» بعد أن تاه من ظئره «مرضعته» حليلة السعدية فهل هذه الواقعة تحتوي على إشارة ضمنية إلى ما سينجزه «أي ورقة» في السنوات المقبلة مع «المأمون» خاصة وأن بعض المفسرين وهم يفسرون ما جاء بسورة الضحى ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ ألمعوا إلى هذه الواقعة<sup>(٦٦)</sup>.

• • •

وسواء صح هذا التفسير أم اعتوره قدر من الشطط فإنه مما لا مشاحة فيه أن هذه الأقصوصة وخاصة في شطرها الخاص بعثور اليعسوب على «الطهور» انضوت على إichاء مكثف بالعمل الذي سوف يقوم به في الوقت المناسب.

• • •

ولعل مما لا يخفى على العين الفاحصة ما ورد في الخبر الأول من اشتراك آخر مع ورقة في هداية «العدة» إلى الطريق إلى قرية القداسة أو أم القرى وتعنى به الجد عبد المطلب فهو هنا يمثل دور الهندوز أي سيدة نسون قریش لأنه بدون جدال سيد قریش على بكرة أبيها وقد جاء في باقي الخبر الأول أن الجد وضع الحفيد أمامه على الدابة وأخذ يهدده بكلمات تفيض حنواً وعطفاً مما يذكرنا بـ«الأم الرؤوم» فهو «الجد الحنون» أو هو «المعادل الموضوعي لها».

فما هو تفسير أن يعثر شخصان على «الأدعج» مع أن عبد المطلب

بمفرده. كان كفيئاً أن يسرع إلى حفيده ويعيده إلى مستقره وبصيغة أخرى يهديه الطريق خاصة بعد أن أرشدهم الهاتف السماوي إلى مكانه.

ونورد عجز الخبر عساه أن يعاضد على إلقاء شعاع من الضوء يساعد على إبراز الجوانب الموحية فيه:

«فقال له جده: من أنت يا غلام فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب: قال: وأنا جدك فدتك نفسي وأحتمله وعانقه وهو يبكي ثم رجع به إلى مكة وهو قدماه على قربوس فرسه ونحر الشياه والبقر وأطعم أهل مكة»<sup>(٦٧)</sup>.

هنا نجد المعادل الموضوعي للطاهرة ونعني به الجد عبد المطلب ينادي «الحبيب» يا غلام.. فدتك نفسي.. وعانقه وهذا يذكرنا بالأم الرؤوم التي أغرقت ابنها الزوج أو زوجها الابن بفيوض من الحب وطوفانات من الحنان.. ثم عاد إلى مكة وهذا ما أشار إليه المفسرون بأنه ما جاء في الآية السابعة من سورة الضحى، ونمضي مع الأثر فنراه يقول: أحتمله وعانقه واحتمل عبد المطلب لـ «صفوة البشر» ومعانفته تأكيد للحب والحنان الذي ما فتئ يقدقه عليه وهو ذات ما دأبت سيدة قريش على عمله مع «الملى»، ثم وضع الجد عبد المطلب حفيده الأثير إلى قلبه على قربوس<sup>(٦٨)</sup> فرسه أي أمامه أو قدماه كما في الخبر، دلالة على تقديمه إياه على نفسه وهو سيد قريش تماماً مثل ما أن الطاهرة قدمت على عمر «الممنوح» في التجربة كيما يتطور من الفتى الهاشمي القرشي إلى القادم المنتظر، هو بدون أدنى جدال رفع لهامته لا على هامتها هي فقط وهي سيدة قريش بل على هامات الناس جميعهم عرباً وأعاجم.

• • •

وفي ختام الخبر أو الأثر أن عبد المطلب نحر الشياه والبقر وأطعم أهل مكة وهذا يذكرنا بصنيع أم هند عندنا تكرم عليها «حرز الأميين» بإشارة الوفاق لها أن تباعله فاجتازت للوليمة<sup>(٦٩)</sup> بقرة من فورة فرحها وشدة غببتها وغاية بشرها كما أن عبد المطلب عمه السرور عند لقيانه به فذبح الشاه والبقر.

وقد أطلعنا صاحب السيرة الشامية على ما نحره عبد المطلب «نحر عبد المطلب عشرين جزوراً وذبح الشياه والبقر»<sup>(٧٠)</sup>.

• • •

وهذا القدر الوافر من الذبائح يشي بأن الجد شمله انبساط بالغ لعثوره على الحفيد محمد.

• • •

فهو «= الجد» قد وجده وجوداً مادياً – وهي «= خديجة» قد اهدت إليه اهتداءً معنوياً بنكاحها إياه وكلاهما انتابه شعور عارم فمرق عن طوره وبعد عن إلفه وفارق عادته.

فالالتقاء بطفل ضائع لا يقابل بمثل ما فعله عبد المطلب والوليمة<sup>(٧١)</sup> يكتفي فيها بجذر سخلة أو معزة إذ درجوا على أن يقولوا «أولم بشاة» كما سلف على المحنى وفي الحاليين شاركهم الناس سرورهم وطعموا ما وزّهم إحساسهم الطاعي على نحره وتقديمه لهم.

• • •

بيد أنه ما دور اليعسوب في هذه الأحداث الموحية؟

ورقة قام بدور الصاحب والمعين والمعاضد للجد عبد المطلب في ذهابه وإيابه ونلاحظ أنه لم يقدر على ذلك أحد من القرشيين لا من طرائفهم<sup>(٧٢)</sup> ولا من إمهارهم<sup>(٧٣)</sup>.

أما في التجربة فهو قد أعان وساد أم هند بالإضافة إلى التوجيه والإرشاد والأستاذية. وتباين الدوران اللذان قام بهما اليعسوب وهذا أمر بديهي لاختلاف طبيعة الأمرين ومرور زمن بينهما – فبالنظر إلى ورقة فهو قد تطور من قرشي يتمتع بقدر من الامتياز إلى قس هو أعلم أهل مكة بالتوراة والإنجيل.

«ورقة كان على دين موسى وصار إلى دين عيسى أي كان يهودياً ثم صار نصرانياً»<sup>(٧٤)</sup>.

«ورقة بن نوفل أسد بن عبد العزي.. أحد المتحنفين في الجاهلية الذين هجروا عبادة الأوثان ونظر ورقة في كتب النصارى وعلم ما فيها واستحكم في النصرانية وظل عليها وتوفى قبل مبعث النبي ﷺ بقليل»<sup>(٧٥)</sup>.

أما بالنسبة إلى «الصابر» فقد تخطى مرحلة الطفولة على الصبا في الشباب وغدا محل تجربة من أخطر التجارب التي شهدتها القرون الوسيطة.

وخلاصة القول إن عمالة «وظيفة» ابن وقل ظلت في جوهرها كما هي إنما الذي لا مشاحة فيه أن الخبر الذي حللناه مليء من إخمص قدميه حتى شعر رأسه بالدلالات.

• • •

ومن المثير أن نلقي ولو حزمة من الضوء على المنزع الديني لليعسوب فهو في البدى انضم إلى الأحناف الذين هجروا عبادة الأصنام وما تبعها من طقوس مثل الذبح للأصنام واتجهوا بفطرتهم إلى التوحيد وإلى

البحث عن ديانة إبراهيم الجد الأعلى للعرب الملقب بـ«أكبر البطارقة» ومنهم من ظل عليها مثل زيد بن عمرو بن نفيل «عم عمر بن الخطاب» ومنهم من اعتنق النصرانية مثل أمية الذي ضمن شعره كثيراً من الألفاظ والمعاني التي جاءت في الكتاب المقدس ولو أن عدداً من البحاث ينكر حنيفيته استناداً على أن «المصادر القديمة التي لها وردت أسماء الأحناف مثل ورقة وزيد العدوي وقس بن ساعدة لم تذكر أمية بينهم ومن هؤلاء الأحناف من اعتقد أنه سوف يغدو نبياً وأبرزهم القس ورقة وأميه وكلاهما شاعر»<sup>(٧٦)</sup>.

ونضيف أن ابن أبي الصلت هذا أمه قرشية من بيت عبد شمس من الذؤابة العليا في قريش وأول أولاده اسمه القاسم ومن ثم كنى بأبي القاسم.

وأخته الفارعة بنت أبي الصلت هي التي روت لـ «المزكى» بعد أن صدع بالديانة الإسلامية حياة وأخبار أمية وشعره، ويقال إنها في إحدى المرات أنشدته مائتي بيت وطفق يستزيدها ثم في الختام قال «آمن شعر أمية وكفر قلبه» لأنه «أمية» رفض أن يسير تبعا لـ «الأكرم» حسداً منه وحقداً عليه وسمى بكره «أول أولاده الذكور» القاسم وبه كنى تماماً مثل ما فعل «النقى». «الفارعة بنت أبي الصلت وصفها ابن الأثير بأنها ذات لب وعقل وجمال، لما وفدت على النبي ﷺ استنشدها أشعار أخيها وسألها عن أخباره وقال لها تحفظين من أشعار أخيك شيئاً فأنشدته فقال لها رسول الله ﷺ ما أطيب شعره سألتك بالله أعيديه، فأعادته»<sup>(٧٧)</sup>.

وأمية كالقس والطاهرة يمثل الأنتلجنسيا الحجازية بيد أنه ليس له دور في حياة «الكامل» لنفوره من الدخول في ديانته ويغدو من أتباعه لأنه في نظر نفسه أعلم منه بالكتاب المقدس وأنه متضطلع في علوم الأولين. وأميه من تقيف وعاش في الطائف ومن ثم فلم يلزق بـ «أحمد» رغم صلة القرى الحميمة التي ربطتهما من ناحية الأم، فأمية أمه قرشية من بني عبد شمس أولاد عمومة بني هاشم ومنافسيهم، بيد أن الذي لا مشاحة فيه أن كلا من القس ورقة وأميه لم يتمتع بالشخصية الكارزمية «الأسرة» التي تهيمن من النظرة الأولى على المحيطين بها وتحولهم إلى تابعين أمناء لصاحب تلك الشخصية مثل «سعيد» الذي تحدثنا سيرته التي هي أطيب ريحاً من العود الصنفي كيف أن الرجل من أولئك وهو صنيدي وسيد مطاع في عشيرته ما إن يقابله حتى يستحيل إلى تابع مطيع ومسود سلس القيادة.

• • •

طالعنا في دواوين السيرة المحمدية التي هي أطيب من ريح الخزامى عن شخصية «الصبور» القوية الأسرة وكيف أن أشخاصاً ملا قلوبهم الحقد عليه والعداوة له ما إن قابلوه حتى غدوا من أخلص تابعيه ولمعرفة قيس من قوة شخصيته لنرجع إلى وصف أم معبد صاحبة الخيمة التي دخلها في رحلة النزوح «الهجرة» إلى يثرب ومعه صاحبه التيمي ابن أبي قحافة وجاء فيه:

«إذ صمت فعليه الوقار وإذا تكلم علاه البهاء.. له رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره.. أحسنهم قدراً لا عابش ولا مفند»<sup>(٧٨)</sup>.

ويبدو أن كلا من ورقة وأمّية بن أبي الصلت لم يتمتع بتلك الخصائص الأسرة وتلك المناقب الجاذبة وتلك المواهب الأمرة – فأمية قد ركب رأسه وملاه الغرور وسيطر عليه الحقد وشحن وجدانه الحسد فأبى واستكبر وربما يزداد على ذلك فارق السن بينه وبين «النسيب».

والخلاصة أنه عاند وأبى أن يدخل تحت رايته.

أما القس فقد رضى بالأمر الواقع وازداد اقتناعاً به خاصة بعد أن نكحته خديجة فلمس فيه مميزات وصفات وخصائص كلها سام وشامخ مثل قوة فطرته وذكاء خاطره وثبات جنانه وفصاحة لسانه وحلمه وكرمه وصدقه ومروءته فانبهر بشخصيته وشارك في خطوات صقله وإعداده وتهيبته وتصنيعه وتسويته حتى غدا ذلك الذي طال انتظاره.

كما أن «المحرّض» امتاز بالفصاحة وطلاقة اللسان ونصاعة البيان وقد قيل في هذا الجانب الكثير وفيما بعد حدث تبعه عن نفسه:

«أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر فأنى يأتيني اللحن؟».

وأمية وورقة رغم أنهما شاعران فلم يعرف عنهما شيء من ذلك إذ هما أمران مختلفان والشعر موهبة ذاتية أما الخطابة فهي موهبة برانية أي موجهة للمخاطبين.

وأدوات كل منهما مغايرة للأخرى. إذن كل من ورقة وأمّية افترقا لصفيتين مهمتين ولازميتين للقادم المنتظر: الشخصية الأسرة وموهبة الخطابة والتأثير في المخاطبين ومن هنا لم يقبض لأي منهما النجاح في مسعاه لكي يغدو الآتي المأمول والقادم المنتظر.



تأثر شعر القس ورقة بثقافته الكتابية فظهرت في قصائده أو مقطوعاته أو أبياته التي رويت عنه بصورة لا تخفى حتى على القارئ

العادي فما إن يطالعها حتى يفتن للوهلة الأولى إلى ذلك ونكتفي بضرب مثل سريع: بيضعة أبيات أوردها المصعب الزبيري في «نسب قریش»:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم  
لا تعبدون إلهاً غير خالقكم  
سبحان ذي العرش لا شيء يعادله  
سبحانه ثم سبحانا يعود له  
لم تغن عن هرmez يوماً خزائنه  
ولا سليمان إذ أدنى الشعوب له  
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته  
أنا النذير فلا يغرركم أحد  
فإن أبيتم فقولوا بيننا حدد  
رب البرية فرب واحد صمد  
لا ينبغي أن يساوي ملكه أحد  
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا  
الجن والإنس تجري بينهما البرد  
يبقى الإله ويردى المال والولد<sup>(٧٩)</sup>

فألفاظ مثل «النذير» و«إله» و«خالق» و«سبحانه» و«رب البرية» و«ذي العرش» و«واحد صمد» و«الخلد» و«عاد» و«سليمان» و«الجن» و«الإنس» و«لا شيء تبقى بشاشته» و«يبقى الإله»... ذات نكهة دينية لا يخطئها البصر أو البصيرة وتقطع بمجرد إلقاء نظرة عليها أن قائلها صاحب ثقافة دينية عالية هو ما أكدته المصادر التراثية جميعها:

فشيخ كتاب السيرة المحمدية التي هي أحلى من غسل الموصل – والذي يعتبر عمدة مؤلفات هذه السيرة ونعني به ابن إسحق – يصف علم اليعسوب بأنه كثير لأنه استحكم في النصرانية:

«فأما ورقة فتتصر فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب»<sup>(٨٠)</sup>.

• • •

«وقال المرزباني: كان ورقة من علماء قریش وشعرائهم وكان يدعى بالقس»<sup>(٨١)</sup>.

وسبق لنا أن أوردنا ما قاله في حق اليعسوب كل من البخاري في «الصحیح» والبخاري ومسلم في «اللؤلؤ والمرجان» وابن حجر العسقلاني في «الفتح» والكلاعي في «الاكتفاء» وأحمد ابن حنبل في «المسند» وابن هشام في «السيرة».

• • •

ولأمية بن أبي الصلت شعر ينضح بالمذاق الديني، بل إن العبق الكتابي فيه يفوق ما في شعر اليعسوب إنما أمر أمية لا يدخل في سياق بحثنا إلا فيما يتعلق بمسألة توقع ظهور القادم المنتظر وأن زمانه أطل أو أظل.

قال أبو جعفر: «وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة قومها بذلك...»<sup>(٨٢)</sup>.



كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبياً يبعث من العرب<sup>(٨٣)</sup>.

إن هناك من توسم في نفسه أن يغدو هو القادم المنتظر مثل أمية والقس ورقة وأن الأخير عندما تيقن أنه لا يصلح لافتقاره إلى الصفات الجوهرية اللازمة اقتنع بحسن اختيار الطاهرة وساهم معها في التجربة الفاذة وهي صناعة القادم المبارك وأشرف على الخطوات أو المراحل التي تنقل فيها «الطبيب» حتى صار هو «القادم المنتظر» بكفاية يعز نظيرها إنما لتقدمه في السن خشى أن يموت قبل أن يرى المعجزة تتحقق فطفق يستعجل أم هند ولكنها لحكمتها وسعة أفقها ورجاحة عقلها لم توافق على التسرع وتمسكت بحبال الصبر لأنها أدركت أن التجربة تحتاج زمناً حتى يقيض لها النجاح وهذا ما حدث بالفعل بصورة مذهلة.

وظل القس ورقة يؤدي دوره في التجربة حتى توفي وهنا حزن عليه «الأسوة الحسنة محمد» حزناً بليغاً وأسى عميقاً وأسفاً شديداً حتى إنه هم مراراً بأن يتردى من رؤوس شواهد أجبل مكة وهو أمر بالغ الدلالة شف المعنى<sup>(٨٤)</sup>. غنى بالإحياءات خاصة وأن دواوين السيرة المحمدية التي هي أطيب ريحا من الزعفران قد وضعت بين أيدينا معطى في منتهى الخطورة هو أن وفاة القس تزامنت مع انقطاع الوحي أو فتوره، ونظراً لارتفاع أهمية هذا الأمر وعلو قيمته وثقل ثمانته فإننا كالعادة سوف نحاول على قدر مكنتنا توثيقه:

«ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال»<sup>(٨٥)</sup>.

«ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي حتى حزم رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال»<sup>(٨٦)</sup>.

«... قال ورقة: لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي «سكن وانقطع» حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا فغداً من أهله مراراً لكي يتردى من شواهد «عوالي» جبال الحرم»<sup>(٨٧)</sup>.

«فلم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي حتى حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً حتى كان يذهب إلى رؤوس شواهد الجبال يريد أن يلقي بنفسه منها»<sup>(٨٨)</sup>.

ومحمد بن عبد الوهاب هذا هو شيخ الوهابيين والذي تعاون هو والأمير محمد بن مسعود على توحيد الجزيرة العربية تحت قيادة الأخير والتي تحولت فيما بعد إلى «المملكة العربية السعودية» وكتب هذه السطور يكن للشيخ محمد بن عبد الوهاب قدراً كبيراً من التقدير لمحاربته

الأساطير والبدع والخرافات وكتابه هذا «مختصر سيرة الرسول ﷺ» فيه أمانة علمية وموضوعية تفنن إليها غالبية إن لم نقل جميع مؤلفات الكتاب المحدثين الذين كتبوا في سيرة «المتبتل» التي هي أطيب رائحة من ورد جور<sup>(٨٩)</sup>، ودليلنا أن الشيخ محمد عبد الوهاب أورد في كتابه هذا خبر الغرانيق العلى أو «الآيات الشيطانية»<sup>(٩٠)</sup>.

ولم ينكرها أو يضرب عليها كدأب الجهابذة المحدثين وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فإن ابن تيمية يقول بحدوث قصة الغرانيق ولا ينفىها وله بحث رائع في أخطاء الأنبياء أو البطارقة وتوبتهم وعصمتهم وابن تيمية شيخ محمد بن عبد الوهاب فكراً وسار الأخير على خطاه وكلاهما ظلم وألصق به ما هو براء منه، ولو أن نصيب الشيخ محمد عبد الوهاب أوفى وأوفر لأن حربه ضد البدع والخرافات والتصوف الزائف أفسى وأوعر، وننوه أن أكثر من يكتب في الإسلاميات يعتمد للأسف على الشائعات ولا يقرأ ولا يدرس ولا يمحس بل إن أهم مصادره السماع ومن ثم فإن ما يسطره عن ابن تيمية ومحمد عبد الوهاب مصدره الأذن أي بالسماع، دون أن يكلف الواحد منهم نفسه قراءة سطر واحد مما كتبه هذان الشيخان وهو لعمر الحق أثر عميق. بعد هذه التفريفة نؤوب إلى سياقها البحث.



حتى لا يمل القارئ تكرار الخبر في المصادر والمراجع نسرد فيما يلي ثبناً ببعضها<sup>(٩١)</sup>:

إن اقتران فتور الوحي بموت القس أمر مؤكد ولا يستطيع أن يماري أو يجادل فيه أحد بعد أن حملته إلينا هذه المؤلفات التي تلقنتها أمة لا إله إلا الله بالتجلة والاحترام، وكالعادة يحاول المؤلفون المحدثون أن يفصلوا بينهما أو أن يقدموا تعلات واهية لقرن القدامى بينهما، ولعلها ليست مصادفة أن المصادر جميعها تورد «ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتور الوحي» أي أن فتور الوحي لاحق لموت اليعسوب.

في كلام صاحب الخميس في الصحيحين أن الوحي تتابع في حياة ورقة<sup>(٩٢)</sup>.

والسؤال الذي يرد على الذهن مباشرة: لماذا حزم «المكافى» هذا الحزن حتى إنه «غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال» وهو حزم لم يحزنه على أحد بعده ولا حتى على خديجة؟ صحيح أنه سمي عام وفاتها بعام الحزن خاصة وأنه اقترن بوفاة عمه وحاميه أبي طالب بيد أن دواوين سيرته التي هي أطيب من المسك لم نخبرنا أنه عقب وفاتها شرع في إلقاء نفسه من رؤوس شواهد الأجيل ولو مرة واحدة.

لعل الإجابة على هذا لسؤال تتلخص في أن ذلك يدلنا على المكانة

الرفيعة التي احتلها يعسوب في عقل وقلب «صاحب النعلين» إذ إن من صفاته العظيمة شدة الوفاء لمن عرفهم كيف لا وقد جاء ليتمم مكارم الأخلاق ومن نعوته «صاحب الخلق العظيم».

والدور الذي لعبه القس في حياته لو قام به في حياة شخص آخر لكان له كل عرفان فكيف بالمثل الأعلى في الوفاء.

«وهو ورقة بن نوفل بن أسد القرشي وابن عم خديجة الذي شجع محمداً ولعله أثر فيه في السنوات الأولى من مبعثه»<sup>(٩٣)</sup>.

هذه المعلومة التي أوردتها الموسوعة ملمح يشف عن فطانة بالغة الخطر من أن ورقة شجع «المنصور بالعرب شهراً أو قريباً من شهر» وأثر فيه خلال السنوات الأولى، ما هي إلا ما أكدناه أنه يعسوب التجربة التي قادتها أم هند.



إنما بأي صورة عبر «سيد ولد عبد مناف» عن وفائه وامتنانه للقس ورقة؟

تم ذلك في أروع هيئة يتمناها أي تابع من تبعه لنفسه: الجنة «عن الزهري عن عروة عن عائشة. سئل رسول الله عن ورقة فقالت خديجة: إنه كان صدقك أنه مات قبل أن تظهر، فقال رسول الله ﷺ: أريته في المنام وعليه ثياب بيض ولو كان من أهل النار ولكن عليه لبس غير ذلك»<sup>(٩٤)</sup>.

«عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ساب أخ لورقة رجلاً فتناول الرجل ورقة فسبه فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لأخيه: هل علمت أني رأيت لورقة جنة أو جنتين فنهى رسول الله ﷺ عن سبه»<sup>(٩٥)</sup>.

وفي رواية أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس.

وفي رواية أخرى قد رأيت فرايت عليه ثياباً بيضاً وأحسبه أي أظنه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض.

«وفي رواية: لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين لأنه آمن بي وصدقني وقد جزم ابن منير بإسلام ورقة»<sup>(٩٦)</sup>.

وليس ثمة تعبير بالوفاء والعرفان والامتنان أروع من الذي صدر من «اصحاب لواء الحمد».

## الهوامش

- (١) القاموس المحيط: للفيروزآبادي.
- (٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: أشرف على تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية ه. أ. رب. وج ه. كا. ترجمة د. راشد البراوي، الجزء الأول، ص ٣١٣ — ٣١٤، طبعة ١٩٨٥م الأنجلو المصرية.
- (٣) عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٨٥ سابق.
- (٤) طائر له صوت جميل ويغني أحياناً بديعة.
- (٥) موسوعة أمهات المؤمنين: عبد الصبور شاهين وأخرى ص ٧٥.
- (٦) عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩ وما بعدها.
- (٧) الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزي، الأول ص ١٤٤.
- (٨) السيرة النبوية: لان هشام تحقيق السرجاني، ص ١٩٣، الأول.
- (٩) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي.
- (١٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، الجزء الأول، الحديث الثالث، كتاب بدء الوحي، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، الناشر المطبعة السلفية بمصر.
- (١١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، الأول، ص ٣٤ سابق.
- (١٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: الحديثان ٩٩، ١٠٠، ص ص ٣٢ — ٣٤، الطبعة الصينية.
- (١٣) الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: للكلاعي، الجزء الأول، ص ٢٦٦ سابق.
- (١٤) مسند أحمد بن حنبل، الحديث ٤٤٣، ص ١٣١ — ١٣٢.
- (١٥) مسند أحمد بن حنبل: الحديث ص ١٣٢ — ١٣٣.
- (١٦) تاريخ الصحابة والتابعين: حمزة النشرتي وأخر، ص ٢٠ — ٢١، المجلد الأول، د. ت. ن. مصر.
- (١٧) السمط الثمين: للمحب الطبري، تحقيق حمزة النشرتي.
- (١٨) كورة من كور فارس مخصوصة بالورد الذي لا أطيب منه.
- (١٩) سيرة ابن هشام: تحقيق السرجاني، الأول ص ٢٤٦ — ٢٤٧.
- (٢٠) في القاموس المحيط: خربق العمل أفسده.
- (٢١) اللوذعي: الذكي كانه يلذع بلسانه من كتاب «مختصر العين» لأبي بكر الزبيدي الأشبيلي، تحقيق وتقديم صلاح مهدي الفرطوسي، الجزء الأول، ص ٣٢٧، الطبعة الأولى ١٩٩١م، سلسلة خزائن التراث أفاق عربية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
- (٢٢) حياة محمد: هيكل، ص ١٤٥.
- (٢٣) عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية: لحسن يوسف الأطير، ص ٤٧، الطبعة الأولى ١٩٨٥، الناشر دار الأنصار بمصر.
- (٢٤) المصدر السابق، ص ٤٨.
- (٢٥) فقه السيرة: لمحمد الغزالي، ص ٨٨، الطبعة الثامنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر، القاهرة.
- (٢٦) الأطير، ص ٤٨.
- (٢٧) السابق ص ١٤٣.
- (٢٨) موسوعة آباء الكنيسة، المجلد الأول، ص ص ٢٣٧ — ٢٣٨، الهرطقات النابعة من اليهودية أولاً الأبيونيون والناصريون، المحرر المسئول عادل فرج عبد المسيح، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، عن دار الثقافة بالقاهرة.
- (٢٩) دائرة المعارف الكتابية، الجزء الأول، ص ٥٥، المحرر، وليم وهبة، الطبعة الأولى ١٩٨٨، دار الثقافة بالقاهرة.
- (٣٠) المسيح — س — بين الحقائق والأوهام: تأليف د. محمد وصفي، مراجعة وتقديم على الجوهري، ص ٤١، د. ت. ن. صدر عن دار الفضيلة بمصر.
- (٣١) إظهار الحق، للشيخ رحمت الله بن خليل الهندي، ص ١٨٣، ١٣٠٩هـ المطبعة الخيرية، نقلاً عن «عقائد النصارى الموحدين» الأطير ص ٣ السابق.
- (٣٢) عقائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٢٩.
- (٣٣) عقائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٤٨ سابق.
- (٣٤) المصدر السابق ص ٥١.
- (٣٥) سورة النساء الآية: ١٧١.
- (٣٦) سورة المائدة: الآية ١٧ والآية: ٧٢.
- (٣٧) سورة المائدة: ٧٥.
- (٣٨) سورة مريم الآية: ٣٠.
- (٣٩) سورة مريم من الآية: ٣٤، ٣٥.
- (٤٠) في رأي الدكتور محمد وصفي صاحب كتاب «المسيح — س — بين الحقائق والأوهام» السابق ذكره أن عدة الأناجيل ٣٧ إنجيلاً تتساوى عند المذاهب المسيحية في التقدير، ص ٤٣، أ. ه.
- (٤١) المسيحية: أحمد شلبي، ص ١٥٣ من الطبعة الثانية، نقلاً عن «تاريخ القرآن» لعبد الصبور شاهين، ص

- ٢٤٢، من الطبعة الثانية، مصدر سابق.
- (٤٢) عقائد النصارى الموحدين: الأطير، ص ٥١، سابق.
- (٤٣) في القاموس المحيط: للفيروز آبادي، الداهل: المتحير وكذا في «المعجم الوجيز».
- (٤٤) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، ص ص ١٥١ - ١٥٢، سابق.
- (٤٥) خرف الرجل «بالحاء لا بالقاف»: فسد عقله لكبره «المصباح المنير» للفيومي و«مختار الصحاح» للرازي و«المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية و«المختار من صحاح اللغة» أما العامة في مصر فتطلق «التخريف» على الكلام الفسيد ولا تربطه بالكبر وهذا ما نقصده أ. هـ.
- (٤٦) محمد رسول الله: لناصر الدين آتئين رينيه وسليمان بن إبراهيم ترجمة الشيخ عبد الحلیم محمود وابنه الشيخ محمد، ص ١١٠، ط أولى ١٩٧٩، دار المعارف بمصر.
- (٤٧) على هامش السيرة: لطفه حسين، الثاني، ص ١٧٢، وما بعدها.
- (٤٨) الرسول في رمضان: لمحمد حسني الخربوطلي، ص ٣٠.
- (٤٩) الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من حياته: للشيخ عبد الحلیم محمود، ص ص ٧١ - ٧٨، الكتاب الأول من سلسلة البحوث الإسلامية الطبعة الأولى ربيع أول ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، مصر.
- (٥٠) مجلة الأزهر: الجزء الثاني، السنة الحادية والسبعون، صفر ١٤١٩هـ، يونيو ١٩٩٨م، ص ٢٦٩.
- (٥١) السيرة النبوية: للندوى ص ٨٣ سابق.
- (٥٢) حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للنبهاني، ت ١٣٥٠، المجلد الأول، ص ٣٨، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، د. ت. ن. د. ن. القاهرة، وبالمثل «السيرة النبوية» لابن إسحق الأول ص ١٩٣، طبعة أخبار اليوم.
- (٥٣) المصدر السابق ذات الصفحة.
- (٥٤) هدى الصبي: أسكنه وأرضاه من «القاموس المحيط» للفيروز آبادي و«أساس البلاغة» الثاني، للزمخشري، سابق.
- (٥٥) **أولا المصادر:**

- ١ - صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي.
- ٢ - السيرة النبوية: لابن إسحق الأول، ص ١٩٢ طبعة أخبار اليوم.
- ٣ - فتح الباري: لابن حجر العسقلاني، الجزء الأول، ص ٣٤ سابق.
- ٤ - السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٣٩٥ سابق.
- ٥ - الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٧٩، سابق.
- ٦ - تاريخ الإسلام: للذهبي الأول، ص ٥٩ سابق.
- ٧ - الاكتفاء: للكلاعي، الأول، ص ١٥٢ سابق.
- ٨ - الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول ص ٢١٤.
- ٩ - السمط الثمين: المحب الطبري، ط النشرتي، ص ٤١.
- ثانياً: المراجع:**
- ١ - الرحيق المختوم: للمبارك فوري، ص ٥٩ سابق.
- ٢ - حياة محمد: لهيكل، ص ١٥٢ سابق.
- ٣ - موسوعة أمهات المسلمين: عبد الصبور شاهين وإصلاح عبد السلام الرفاعي، ص ٨١، سابق.
- (٥٦) الإرقال: ضرب من العدو السهل. من الباب الرابع والستين في أسماء السير، ص ١٩١ من كتاب «نظام الغريب في اللغة» تأليف عيسى الربيعي الوحاظي الحميري، تحقيق محمد الأكوخ الحوالي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت.
- (٥٧) في المصباح المنير: القعدة بالفتح، المرّة وبالكسر، الهيئة، وفي المعجم الوسيط: القعدة، الجلسة، والقعيد المجالس.
- (٥٨) أساس البلاغة: للزمخشري ظل ممدود وممتد.
- (٥٩) في منزل الوحي: لمحمد حسين هيكل، ص ٢٤٣، الطبعة الرابعة ١٩٦٧م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- (٦٠) في المعجم الوجيز: النكتة - المسألة العلمية الدقيقة يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر.
- (٦١) دراسات في السيرة النبوية: د. حسين مؤنس، ط ثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، الزهراء للإعلام العربي، مصر.
- (٦٢) قصود جمع قصد وفي «المعجم الوسيط» قصد له وإليه - توجه إليه عامداً، وفي «أساس البلاغة» وإليك قصدي ومقصدي.
- (٦٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة: ترجمة وتحرير راشد البراوي، ص ١٢٣٧، مرجع سابق.
- (٦٤) ١ - سيرة ابن هشام: الأول، ص ١٩٣ مصدر سابق.
- ٢ - السيرة الحلبية: الأول، ص ١٥٤، مصدر سابق.
- ٣ - السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧٥، مصدر سابق.

- ٤ — حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للنبهاني، الجزء الأول، ص ٤٧٩، سابق.
- (٦٥) حياة محمد: لمحمد حسين هيكل، ص ١٢٩، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧١م، دار المعارف بمصر.
- (٦٦) حجة الله على العالمين: للنبهاني ذات المصدر وذات الصفحة.
- (٦٧) المصدر السابق ذات الصفحة.
- (٦٨) القربوس: هو الجزء المرتفع المقوس من السرج من «المعجم الوجيز».
- (٦٩) الوليمة طعام العرس.
- (٧٠) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧٦.
- (٧١) طعام العرس.
- (٧٢) تقول العرب هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم للرجال الأشراف من «المذكر والمؤنث» لأبي بكر الأنباري، سابق.
- (٧٣) الإمراء هو الرجل الضعيف الذي لا عقل له والأحمق «تهذيب اللغة» لأبي منصور الأزهرى ٢٨٢ — ٣٧٠هـ، الجزء الخامس عشر تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى ١٣٨٧/١٩٦٧م، الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة مصر.
- (٧٤) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٣٨.
- (٧٥) سيرة ابن هشام: ص ٢٢٤، ط الأنوار المحمدية هامش ٣٣، من «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» مصدر سابق.
- (٧٦) بتصرف من كتاب «أمية بن أبي الصلت حياته وشعره» دراسة وتحقيق بهجة عبد الغفور الحديثي، ص ٥٦ — ٦٢، الطبعة الثانية ١٩٩١م، سلسلة خزانة التراث، دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
- (٧٧) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: ص ٣٥٧، نقلا عن كتاب «حياة الصحابيات» حمزة النشترتي وآخرين ص ٢٧٣، طبعة ١٩٩٩، الناشر: حمزة النشترتي، القاهرة.
- (٧٨) انظر الخبر مطولا في جميع دواوين السيرة المشرفة.
- (٧٩) كتاب نسب قریش: للمصعب الزبيري، ص ٢٠٨، مصدر سابق.
- (٨٠) السيرة النبوية: لابن إسحق، الأول، ص ١٨٧.
- (٨١) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي: الثاني، ص ٨٥ سابق.
- (٨٢) تاريخ الطبري: الثاني: ص ٢٩٥، و«امتناع الأسماح»: للمقرئزي، الأول، ص ٣٨.
- (٨٣) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٥١٠.
- (٨٤) الشف: ستر رقيق يستشف ما وراءه ويقال ثوب شف — من المعجم الوجيز.
- (٨٥) مسند أحمد: الحديث ٤٤٣، ص ١٣١، الجزء الأول، دون تاريخ، إدارة المصنفين طبعة مطبعة النصر، سرية باكستان.
- (٨٦) الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي، ص ١٦٣.
- (٨٧) أخرجاه أي البخاري ومسلم ص ١٧ «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» محب الدين أحمد الطبري، طبعة ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م، مكتبة الكليات الأزهرية.
- (٨٨) مختصر سيرة الرسول ﷺ: لمحمد بن عبد الوهاب بمقدمة بقلم محمد حامد الفقى ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م، ص ٥٧ طبع على نفقة عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن عبد اللطيف د. ت، الطبعة اليوسفية بمصر.
- (٨٩) جور كورة من كور فارس مخصوصة بالورد الذي لا أطيب منه.
- (٩٠) المصدر السابق، ص ٦٣.
- (٩١) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢١٤.
- الجامع لأحكام القرآن: ص ٧٢٠٨، ج ١٠.
- الدر النظيم: الأول، ص ٢١٥، النشترتي وآخرون.
- فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي: الثاني، ص ٧٧ — ٨٦.
- محمد رسول الله ﷺ: لمحمد رضا، ص ٦١.
- فقه السيرة: لمحمد الغزالي، ص ٩٢ وما بعدها.
- السيرة الشامية: الثاني، ص ٣١٦ — ٣٣٠.
- دراسات في السيرة النبوية: لحسين مؤنس، ص ٧٦.
- (٩٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٦، ٤٠٧.
- (٩٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة: بإشراف ه. أ. ر. ج. ب. ه. كالموز ترجمة د. راشد البراوى، المجلد الثاني، ص ١٢٣٧، طبعة ١٩٨٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- (٩٤) ص ٤٤٧.
- (٩٥) أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير الجزري، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا وآخر، المجلد الخامس ص ٤٤٧ — ٤٤٨، طبعة الشعب د. ت.
- (٩٦) السيرة الحلبية: الأول، ص ٤٠٢.

## الفصل الخامس

### موجبات الاختيار

[Blank Page]



أثبتنا أن الطاهرة خديجة من الصفوة في قريش وأنها حازت ثقافة دينية لم تتح لغيرها من النسوان في القبيلة بل من الرجال، وتمكنت صلتها بنفر من الذين وصلوا إلى درجة رفيعة ورتبة عالية ومكانة مرموقة في سلم تلك الثقافة وملاً سمعها «قالة» قرب ظهور القادم المأمول في العرب ومن ثم تعين أن يغدو من أهل الحرم وجيرة البيت العتيق الذي بناه إبراهيم أبو البطارقة – تلك القالة التي أجمع عليها رؤساء شئون التقديس في سائر الملل والنحل والعقائد والأديان.



وبما لها من فطانة وزكاة وسعة أفق وسلامة فطرة وقوة بصيرة وبعد نظر فقهت أن هذا الآتي لا بد أن يتميز عن أقرانه ويختلف عن لداته ويغاير أنداده.

وهذا الاختلاف أو التباين أو التمايز لا يأتي فجأة ولا يظهر بغتة ولا يرتفع على غرة بل يتدرج ويتأني ويتمرحل والعين البصيرة والعقل المنفتح والذكاء اللماح هو الذي يلحظه ويلتقطه ويهتم به.

سيدة نسوان قريش نديدة لأمنة بنت وهب «أم محمد» وأخبرتنا بنت الشاطئ أنها على صلة حميمة بها ولا غرابة فكلتاها تؤوب إلى بطن سامق وإذا صح ذلك وهو صحيح فإن عمر الطاهرة على أبعاد الفروض بلغ الخامسة عشرة عاماً لأن الجارية في ذياك الزمان المعجب تتزوج في ما بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة وحملت أمنة به فور التقائها بزوجها عبد الله بن عبد المطلب – كما أن كتاب السيرة المحمدية التي هي أحلى من تفاح الشام يجمعون على أن الفارق في العمر بين الطاهرة و«سيد البلغاء» خمسة عشر عاماً ولو أننا ارتفعنا به إلى خمسة وعشرين.

ومع التسليم الجدلي أن الفرق هو خمسة عشر عاماً فمن يبلغه يدرك ويع جميع ما يدور حوله فضلاً عن أن مكة قرية محدودة المساحة ضامرة

الكثافة السكانية والمستوطنون فيها شبكتهم قرابة متينة وهم أميون ليس لديهم ما يشغلهم سوى لوك الكلام بين النسوان أما بين الفحول ففي دار الندوة أو في المجالس بالمنازل – وليس أكثر مدعاة للكلام من حوادث الميلاد والوفاة.

أما بالنسبة لـ «صاحب التاج» فقد بدأت دوافع الحديث عنه قبل مولده بأعوام طوال. ومشهورة واقعة نذر عبد المطلب ذبح أحد أبنائه لو بلغوا عشرة بعد أن تعرض هو وابنه الوحيد آنذاك الحارث لردالة سفهاء قريش وهو يقوم بحفر المذنونة أو برة أو زمزم كما أمره الهاتف في الرؤيا وهو ينام في حجر إسماعيل في حضان الكعبة وعلم الاجتماع الديني يخبرنا أن النوم بجوار أماكن القداسة يفرز أحلاماً ورؤى تتسم بمسحة قدسانية وتتضمخ بعبق ديني ثم وقع الذبح على سهم عبد الله «أبي محمد» فتم فداؤه بمائة من الإبل، هذه الأحداث ولو أن بعض المستشرقين ذهب إلى أنها ابتدعت بأخرة ليضاهوا بها شروع إبراهيم في ذبح ابنه إسحق ثم افتداؤه بكبش أملح أقرن أتى به ملاك الرب جبرائيل من الجنة.



وهناك أقصوصة أخرى أو أفصوصتان أخريان وهما تعرض مرتين هما قتيلة بنت نوفل وفاطمة بنت مر الخثعمية لعبد الله «أبي محمد» ليركبهما كيما ينتقل النور الذي في جبينه «نور النبوة» إليهما وتعطيناه مائة من الإبل «مثل النذر» ولكنه امتنع.

إن همّ عبد المطلب بنحر عبد الله وفاءً لنذره وافتدائه بالإبل لا شك أنها قصة صكت مسامح خديجة لأن بني مخزوم أخوال أبي «المدثر» عارضوا جده عبد المطلب وثاروا لهذا الشأن مشاحنات حتى رضى عبد المطلب بتحكيم كاهنة يثرب. وكذا إغراء هاتين المرأتين لوالد «الصابر» لا ممارسة في أن الطاهرة علمت به خاصة فاطمة الخثعمية لأنها حسناء حلوة ملاحه يتحلق حولها شباب قريش يتحدثون معها ليطمئنا جمالها وليستمتعوا ببهائها فعندما يعودون لدورهم يحكون أمورها ومن بينه محاولتها الخائبة مع عبد الله وتنتقل الحكايات من بيت لآخر حتى تصل دار خويلد بن أسد فتسمعها ابنته الذكية الفطنة خديجة.

ولشهرة هذه الأقاصيص فلا لزوم للخوض فيها خاصة وأنا فيما سبق تناولنا ما بدر من قتيلة الأسيدي وفاطمة الخثعمية من زوايا أخرى.



يبقى سرد الوقائع السابقة على الميلاد الشريف والتي بالضرورة لفتت الأنظار وشدت الانتباه وليس معنى ذلك أن سيده نساء الدنيا عندما أحاطت

بها خيراً أدركت أن صاحبها هو القادم المأمول ولا حتى في حينه علمت بمسألة «المنتظر» وضاهت بينه وبين بطل تلك الأمور المعجزات.

هذا شطط في التفكير وهرولة في الاستنتاج بل يمكن أن يدعى أنه تركيب للأمر القوادم على الشئون السوابق للوصول إلى الهدف المبتغى والقصد المرسوم والغاية المرجوة، ونحن أبعد من ذلك كله إنما الذي نقره أن هذه المعجبات التي سوف نسردها قد مرت على أم هند ووعتها وخزنتها في ذاكرتها ودستها في ملكتها الحافظة وتغلغت في أعماق لا شعورها وحين طفقت تنتبه إلى فكرة القادم أو المأمول أو المنتظر طفت إلى السطح ومرقت من الأعماق وخرجت من الأغوار، فساعدتها على التثبيت وعاضدتها على التأكد وعونتها على الاستيثاق أن سيد المعجزات اللواحق هو نفسه بطل الخوارق إذ إن اجتماع النوعين في شخص واحد قرينة مؤكدة ودليل دامغ وحجة ماضية على دقة الحدس وصدق الفراسة وجودة التخمين.



وعسى الوقت قد حان لنطرح أمام باصرة القارئ بعضاً من شواهد.

### خوارق قبل الولد المبروك:

«أخرج أبو نعيم من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم عن أبيه عن جده قال: سمعت يا أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال: بينما أنا نائم في الحجر رأيت رؤيا هالتي ففزعت فزعاً شديداً فأتيت كاهنة قريش فقلت لها إني رأيت الليلة كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضرب بأغصانه المشرق والمغرب وما رأيت نوراً ظهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ورأيت العرب والعجم ساجدين فهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ساعة تخفى وساعة تظهر ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أر أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً فلم أنل فقلت لمن النصيب؟ فقالوا: النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها فانتهبت مذعوراً فزعاً، فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ثم قالت: إن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس ثم قال لأبي طالب: لعلك أن تكون هذا المولود.

فكان أبو طالب يحدث والنبي ﷺ قد خرج يقول: كانت الشجرة والله أبا القاسم الأمين، فيقال له: ألا تؤمن به؟ فيقول: السبة والعار»<sup>(١)</sup>.

١ — عبد المطلب رأى هذه الرؤيا وهو نائم في الحجر بجوار الكعبة وعلماء الأنثروبولوجيا الدينية يذهبون إلى أن الأماكن المقدسة تبعث في نفوس من ينامون بحرمتها رؤى مهولة تؤول دائماً على أنها تنبؤات أو أمور مستقبلية

تتعلق بمعتقدات النائم أو الحالم فالذي لا شك فيه أن عبد المطلب ممن كانوا يؤمنون بقرب ظهور نبي أو مبعوث أو نذير... الخ.

نذكر هنا أن الرؤيا الخاصة بحفر بئر زمزم أوهى الرؤى لأنها تكررت عدة مرات رآها عبد المطلب وهو نائم في الحجر بجوار الكعبة وكلاهما «الحجر أو حجر إسماعيل» والكعبة، مكانان مقدسان بل أشد الأماكن قداسة قبل الإسلام وفي الإسلام.

٢ — ذكر عبد المطلب في رؤياه أن النور الذي انبثق من الشجرة أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً مما يقطع بقداسة الرقم سبعة قبل الإسلام، وهذا ميراث من الديانات السامية القديمة السابقة على الديانات السامية الكتابية.

٣ — كان عبد المطلب أحد الحنفاء وكان يتحنث في غار حراء في شهر رمضان ويطعم المساكين وكان على صلة بأهل الكتاب «اليهود والنصارى» ومن ثم كان يأمل أن يأتي النبي أو المبعوث أو النذير المنتظر من صلبه.. ولا شك أن الكاهنة قد عرفت عنه ذلك ومن ثم فإنها بشرته به.

٤ — الذي لا مشاحة فيه أن هذه الرؤيا المهمة قد فشا أمرها بين أبناء قبيلة قريش بسائر أفاذاها وعلمها جميعهم.

• • •

فهل: والذي دعا عبد المطلب لاختيار أمنة من بني زهرة لولده عبد الله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهي عمه وهب والد أمنة أمه ﷺ «وقد كانت كاهنة قريش قالت يوماً لبني زهرة: فيكم نذيرة أو تلد نذيراً فاعرضوا علي بناتكم فعرضن عليها فقالت في كل واحدة منهن قولاً ظهر بعد حين وحين عرضت عليها أمنة بنت وهب فقالت: هذه النذيرة أو تلد نذيراً له شأن وبرهان منير»<sup>(١)</sup>.

كاهنة أو إحدى كاهنات قريش طلبت عرض جوارى «الجارية الفتاة الصغيرة التي على وشك النكاح أ. هـ» بطن زهرة عليها ففعلوا فلما استعرضت أمنة «أم محمد» أكدت أنها النذيرة أو تلد نذيراً له شأن وبرهان، وصلة رهط بني أسد بفرع بني زهرة وثيقة لأنهما من الذؤابة العليا من بين «أم صاحب النعلين» وبين سيدة قريش، فالأخيرة والحال هكذا نمت إلى علمها هذا الخبر إما عن طريق صلة الرهطين المتينة أو أن أم محمد أسرت به إلى صديقتها خديجة باعتبار أنه أطروفة<sup>(٢)</sup>.

وعلى كلا الفرضين فإنها علمت به.

• • •

«روى البيهقي وأبو نعيم عن ابن شهاب — رحم — قال: كان عبد الله «أبو محمد» أحسن رجل رأي قط، خرج يوماً على نساء قريش فقالت امرأة منهم أين تكن تتزوج بهذا الفتى فتصطب «تسكب وتدخل» النور الذي بين عينيه فأني أرى نوراً بين عينيه — فتزوجته أمانة بنت وهب»<sup>(٤)</sup>.

اشتهر عبد الله بن عبد المطلب بجماله الفائق وحسنه البارِع وبهائه الباهر وأحرق قلوب عذارى وأيامى قريش وكل واحدة منهم تمنّت أن تتكحه ولما خطب أمانة بنت وهب من بني زهرة حزن حزناً فاجعاً.

ورث عنه «ذو الميسم» طلاقة وجهه وحلاوته ووسامته وقسامته وألمح عدد من كتاب سيرته التي هي أطيب ريحاً من الورد البلدي إلى أن هذا هو السبب في استماتة الطاهرة لتتكحه وتغدو له بعلا وهذه طفاصة في الرأي<sup>(٥)</sup> وعوج في التفكير وركس في الاستنباط<sup>(٦)</sup>.

وما صرحت به تلك المرة من أنها رأت بين باصرتي «عبد الله أبي محمد» نوراً سمعه جمع من نسون قريش وبدهى أن من شهدته منهن حكته لمن لم تحضره لأن النساء في كل زمان ومكان خاصة في البيئات شبه المتبدية لا شغل لهن إلا الحكى... وكذا حثها أو وهزها<sup>(٧)</sup>. للعدراوات أو الأيامى لمباغلة عبد الله «أبي البهي» أمر غير معهود مما يزيد الخبر انتشاراً فيستحيل أن بخنس عن أذى أم هند<sup>(٨)</sup>.



«في طبقات ابن سعد — رحم — عن ابن عباس: أن نساء من أهل مكة اختلفوا في عيد كان لهم في رجب لم يتركوا شيئاً في إكبار ذلك العيد إلا أتينه. فبينما هن عكوف عند وثن لهن مثل كرجل أو في هيئة رجل حتى صار منهن قريباً ثم نادى بأعلى صوته: يا نساء تيماء إنه سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد يبعث برسالة الله تعالى فأبما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فتقبل — فحصبته النساء وقبحنه وأغلظن له وأغضت خديجة — رضي الله عنها — على قوله ولم تتعرض له فيم عرض فيه النساء»<sup>(٩)</sup>.

لم نستطع أن نتأكد من سياق الخبر: هل ما وقع في ذلك العيد قبل المولد المحمدي المبارك أم بعده إذ ربما حدث و«فاتح الكنوز» قد ولد بيد أننا ألحقناه بالوقائع السابقة على ميلاده الشريف لمشاكلته لما تقدمه من حيث حضه نسوة مكة على مناكحته. وأهمية الخبر الشديدة تكمن في نصه على شهود خديجة وسماعها بنفسها ما قاله الوثن المتمثل بهيئة الرجال.

ولا شك أن مشاركتها في ذلك العيد الذي تعظم فيه الأوثان سببه الخضوع للموجبات الاجتماعية لا عن اعتقاد أو إيمان وسيأتي أن «المؤمل» حضر «عيد بوانة» وهو عيد وثنى أو أوثانى تحت ضغط وإلحاح من عمه

وكافله وعماته لا بدافع عبادة أو تعظيم لأوثان «بوانة» فحاشاه — عليه السلام — أن يفعل إذ ليس في سيرت التي هي أطيب ريحاً من زعفران قم سطر واحد يشير ولو من مسافة ألف ميل إلى أنه أقدم على ذلك ولو مرة واحدة — وبالمثل فإنه من المحال على سيدة نساء الدنيا أن تكبر أو تتحني لوثن بل العكس هو صحيح تماماً فقد ورد في سيرتها الشريفة أنها نفرت من عبادة أهل مكة للأصنام والذي يؤكد ثقافتها الدينية — إذ كيف تتعبد للأحجار وقد قرأت واستوعبت الإصحاحات والأبعاض التي عربها ابن عمها القس ورقة الذي هو بإجماع كل من كتبوا في السيرة المنيفة أعلم أهل مكة بالكتاب المقدس.

وكيف تفعل وهي على وشيجة حميمة بجهاذة ديانة ابن مريم في قرية القداسة بكة بل في الحجاز وبصرى: بحيرى وسرجيوش وعداس وورقة بن نوفل وناصح؟

جاءت البشارة بـ «لابس الصوف» في الخبر المتقدم من الوثن الرجل وهو كائن غامض ولكن هناك بشارات أتت من أشخاص حقيقيين أغلبهم من أهل الكتاب أو من المتدينين مثل ابن ذى يزن أو حتى من العرافين والمتكهنين.

وإذ المبشر في الأثر السابق في هيئة رجل هو في حقيقته وثن فابن إسحق جعله يهودياً.

«ذكر ابن إسحق أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فاجتمعن يوماً فيه جاءهن يهودي وقال لهن: إنه يوشك فيكن نبي فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل.

فحصبته بالحجارة وقبحنه وأغلظن له وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء وقر ذلك في نفسها فلما أخبرها ميسرة بما رأت من الآيات مع ما رآته هي قالت إن كان ما قاله اليهودي حقاً ما ذاك إلا هذا»<sup>(١٠)</sup>.

هذا الخبر يقدم لنا لفظة مهمة وهي أن الطاهرة شهدت الواقعة ولكنها لم تفعل ما فعلته القرشيات الأخريات من تقبيح اليهودي وتغليظ القول له ولكن لم؟

لأن لديها مخزوناً من العجائب والمدهشات تمحورت حول «سابق العرب»، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى — وهذه صرح بها الخبر — أنها ربطت مقولة اليهودي وما أسره لها عبدها النصراني ميسرة وما عاينته هي وشاهدته عند عودة «اليتيم» مع تجارتها من الشام وهي المعجزة التي قطعت كل شك في أنه هو «القادم المنتظر» ولا أحد عداه ومن ثم استماتت لتغدو له بعلاً.



حكاية التاجر اليهودي بمكة الذي تعود على مجالسة المرازبة الججاجح

من قريش وفي إحدى الليالي أنبأهم بمولود بصير هو «المأمول» هذه الحكاية مبنوثة في دواوين السيرة المحمدية العظيمة وتكاد تصل إلى درجة التواتر: عن ابن سعد والحاكم وأبو نعيم بسند حسن وابن حجر في الفتح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة يتجر فيها فلما كانت تلك الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس قريش:

يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه. قال: احفظوا ما أقول لكم: ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخير بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس ولا يرضع ليلتين. فتصدع القوم من مجلسهم وهم يعجبون من قوله، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا: ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً. فالتقى القوم حتى جاءوا اليهودي فأخبروه الخبر، قال: اذهبوا معي حتى أنظر إليه فخرجوا حتى أدخلوه على أمنة فقالوا: أخرجي إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا له عن ظهره فرأى تلك الشامة فوق مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك مالك؟ قال: والله ذهبت النبوة من بني إسرائيل، أفرحتم يا معشر قريش والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من الشرق إلى الغرب»<sup>(١١)</sup>.

والخبر روته عائشة بنت أبي بكر وهي معدودة من العلماء الصحابة ونقله ابن سعد والحاكم وأبو نعيم بسند حسن وابن حجر في الفتح هذا ما أورده صاحب السيرة الشامية ثم ألفيناه في أربعة كتب من دواوين السيرة العالية والتي تحظى بكامل الثقة وهكذا أصبح خبراً مؤكداً.



عندما انتصر سيف بن يزن على أعدائه سافر إليه وفد من قريش على رأسه عبد المطلب وضم بين أفراد خويلد بن أسد، وسيف خالطته مسحة دينية وانفرد بالجد عبد المطلب سيد قريش ورأس وفدها وسارره وبشره بالقادم المأمول وأدلى له بنعته وتأكد عبد المطلب من صدق السيف وأدرك أن هذه الصفات متوافرة في حفيده محمد بن عبد الله وأنه بالتالي هو ذات من عناه ابن ذى يزن فخر ساجداً:

«وكان عبد المطلب قد وفى على سيف بن ذى يزن مع جلة قومه لما غلب على اليمن فقدمه سيف عليهم جميعاً وآثره ثم خلا به فبشره برسول الله ووصف له صفته فكبر عبد المطلب وعرف صدق ما قاله سيف ثم خر ساجداً فقال له سيف: هل أحسست لما قلت نبأ؟ فقال: نعم ولد لابني غلام على مثال ما وصفت أيها الملك. قال: احذر عليه اليهود وقومك أشد من اليهود والله متم أمره ومعل دعوته..»

فقد قال: أما والله لقد نفستني قريش الماء يعني ما سقاه الله من زمزم

وذي الهدم لتنفسني غدا الشرف العظيم والبناء الكريم والعز الباقي والسناء العالي إلى آخر الدهر ويوم الحشر»<sup>(١٢)</sup>.

وإذ إن ثلاثة من كتب التراث «المصادر» المحترمة وكتاب حديث «مرجع» صنفه شيخ الجامع الأزهر الأسبق ومعه آخر أكدت لنا هذا الخبر فإنه بذلك غدا مكيناً ثابتاً راسخ القواعد.

وهذا أسقف نجران عندما رأى «الأواه» لما أقبل قاصداً جده بشره أنه هو «القادم المنتظر»:

«أخرج أبو نعيم عن طريق الواقدي عن شيوخه قالوا: بينا عبد المطلب يوماً في الحجر وعنده أسقف نجران وكان صديقاً له وهو يحادثه ويقول: إنا نجد صفة نبي بقي من ولد إسماعيل هذا البلد مولده من صفته كذا. وأتى رسول الله ﷺ فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى قدميه فقال: هو هذا. ما هذا منك؟ قال: ابني. قال الأسقف: لا ما نجد أباه حياً. قال: هو ابن ابني وقد مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدق، قال عبد المطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم ألا تسمعون ما يقال فيه»<sup>(١٣)</sup>.

وتستمر البشارات من أهل الكتاب للجد عبد المطلب بخروج القادم المأمول من صلبه:

«أخرج الواقدي وأبو نعيم عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: حدثني شيوخ من قومي أنهم خرجوا عماراً وعبد المطلب يومئذ حي بمكة ومعهم رجل من يهود تيماء صاحبهم للتجارة يريد مكة أو اليمن فنظر إلى عبد المطلب فقال: إنا نجد في كتابنا الذي لم يبدل أنه يخرج من ضئضي هذا نبي يقتلنا وقومه قتل عاد»<sup>(١٤)</sup>.

راهب طبيب في ناحية عكاظ يبطئ في الاستجابة لنداء عبد المطلب ومعه «المسدد» فيتزلزل ديره ويوشك على الانهيار عليه فأرقل إليه<sup>(١٥)</sup>. وما إن وقعت عيناه على «الجواد» حتى بشره أنه هو الذي ينتظره العرب ويأملون قدومه:

«قال الحافظ أبو الفرخ ابن الجوزي في الوفاء في سنة سبع من مولده ﷺ أصابه رمد شديد فعولج بمكة فلم يغن فليل لعبد المطلب إن في ناحية عكاظ راهباً يعالج الأعين فركب إليه فناداه وديره مغلق فلم يجبه فتزلزل ديره حتى كاد أن يسقط عليه فخرج مبادراً فقال: يا عبد المطلب إن هذا الغلام نبي هذه الأمة ولو لم أخرج لخرّ على ديري فارجع به واحفظه لكي لا يقتله بعض أهل الكتاب. ثم عالجه وأعطاه ما يعالج به وألقى له المحبة في قلوب قومه وكل من يراه»<sup>(١٦)</sup>.

• • •



وأخيراً نصل إلى مسك الختام وهو خبر الراهب عيسى الذي أدلى ببشارة دقيقة حدد فيها يوم ميلاد «قثم» ويوم إبلاغه الناس دعوته ويوم وفاته وسنى عمره:

«أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان بمر الظهران «واد بين مكة وعسفان» راهب من أهل الشام يدعى عيسى وكان قد أتاه الله علماً كثيراً وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته وتالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن وحللت أرض البؤس والجوع والخوف إلا في طلبه، وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول: ما جاء بعد. فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله خرج عبد المطلب حتى أتى عيسى فوقف في أصل صومعته فناداه فقال من هذا؟ قال: أنا عبد المطلب فأشرف عليه. فقال: كن أباه فقد ولد المولود الذي أحدثكم عنه يوم الاثنين وهو يبعث يوم الاثنين ويموت يوم الاثنين وإن نجمة طالع البارحة.

وآية ذلك أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثاً ثم يعافى فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد حسده أحد ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه.

قال: فما عمره؟ قال: إن طال عمره أو قصر لم يبلغ السبعين يموت في وتر دونها في الستين. في إحدى وستين أو ثلاث وستين أعمار أمته»<sup>(١٧)</sup>.

وبعد يجيء دور نوع مختلف من حاملي البشارة لا صلة لهم بأهل الكتاب إنما هم من الكهان سدنة الأوثان والأصنام والأنصاب:

«عن أبي عباس: أني في نفر من قريش عند امرأة كاهنة فقالوا أخبرينا أينما شبعنا بصاحب هذا المقام «إبراهيم» قالت: إن جررتم على السهلة عباءة مشيتم عليها أنبأتكم بأقربكم منه شبعنا فجروا عليها عباءة فرأت أثر قدم محمد ﷺ فقالت: هذا والله أقربكم شبعنا. قال ابن عباس رضى الله عنه: فمكتوا بعد ذلك عشرين سنة ثم بعث محمد»<sup>(١٨)</sup>.



تلك باقة من الأخبار بالتنبؤ أو التبشير بأن «أبا القاسم» هو «القادم المنتظر» وإذ إن وحدة موضوعية نحزمها «نشدها لبعضها البعض» فقد آثرنا أن نؤخر التعليق عليها لما بعد الفراغ من سردها:

— خبر اليهودي الذي حصبته القرشيات وقبحنه وأغلظن له يدل على أن قرية الفداسة بكة ضمت نفراً من اليهود بيد أن كثافتهم قليلة ولا تقاس بوفرة النصارى فيها.

**والأمر الآخر:** ان سيدة نسون قريش شهدت الواقعة وأنها ربطت قولة اليهودي بما اختزنه ذاكرتها من معجزات سوابق لـ «راكب الأتان» وبما رأته بعدها عند عودته من سفر الشام وما قصه عليها بعدها الأمين النصراني «ميسرة» وانتهت إلى نتيجة مفادها أنه هو الذي رشحته للقيام معه بالتجربة ومن ثم عملت المستحيل حتى نكحته.

وهذه هي علة عدم مشاركتها سائر نسوة قريش في اتخاذ الموقف العدائي من اليهود المبشر أو المبشر اليهودي.

أما خبر اليهودي التاجر فينطبق عليه ما قلناه في الخبر السابق عن الجالية اليهودية في مكة بيده أنه وصل إلى مكانة عالية إذ تمكن من مجالسة سادة قريش، كما أن مخالطة هؤلاء اليهود والنصارى يؤكد دراية ولا نقول علمهم بمقالات أهل الكتاب، ومن بينها أن هناك قادماً أطل زمانه، ومن جانب آخر إلى ما بدر من اليهودي من أقوال وأفعال عندما رأى محمداً بعد أن قدمته لهم أمه أمانة بنت وهب وخاصة وقوعه مغشياً عليه من البديهي أن يصل إلى أذني الطاهرة لأن أباه خويلدا يحضر تلك المجالس والواقعة فاذة تستحق أن يتناقلها المكيون ويقصونها في بيوتهم على أزواجهم وبناتهم... إلخ.

— قبائل جزيرة العرب اعتبرت انتصار سيف بن ذي يزن نصراً مؤزرًا لسائر العرب فأرسلت وفودها للتهنئة ووفد قريش ترأسه عبد المطلب بن هاشم وضم خويلد بن أسد وبعد خروج الأول من الجلسة الانفردية طفق يفتخر بالنبوءة أو البشرى التي أبلغه إياها سيف.

رجال الوفد أول من علم بها وعند إيابهم لموطنهم نقلوها للأهل فلا ريب أن سيدة نسون الأرض سمعتها من أبيها وأضافتها لرصيداها من الأخبار المعجبة.

— وجود أسقف لنجران قرينة على وجود أسقف لمكة أو الحجاز ولو أنها قرينة قابلة لإثبات العكس وحتى يظهر هذا العكس فهي صحيحة وهو صديق لعبد المطلب، وربما حضر لمكة للقيام بعمل يتعلق بمهام منصبه مثل التشاور مع أسقف مكة أو الحجاز سواء هو بحيرى أم غيره ودليل على حضور قوى للنصارى في القرية المقدسة.

وتحقق من الصفات العينية أو الجسدية في «الفرد. الفخم» عندما نظر إليه وقد جاء لجده.

وعبد المطلب إثر سماعه قولة الأسقف نصح بنيه بالمحافظة عليه وهذا الخبر قابل للإذاعة والإشاعة لأن عبد المطلب له عشرة من البنين بخلاف العديد من البنات وكل واحد من هؤلاء من المتعذر أن يعتقل لسانه في فمه

ولا يتحدث به لأهله وأصدقائه ولداته ولصحبه فلا يخلو الحال كذلك بيت من بيوت مكة من لوكه.

— يهودي تيماء شأنه كالأخرين جزم بقرب القادم الذي أطل زمانه وأنه من سلالة عبد المطلب وربما يغدو وهذا خبراً عادياً إنما الذي نفحه نكهة ذات حرافة «لاذعة» عزم «الفتقول. القتال» قتل اليهود وقريش معاً ومن ثم ضمنت له الفرسخة والفسو.

— خبر الراهب صاحب الدير الذي أوشك أن ينهدم على أم رأسه أثر «غنى» بالدلالات فهو يؤكد انسياج النصارى لا في مكة وحدها بل حولها فهو يقيم في عكاظ «الذي يقام فيها سوق سنوي شهير» ويدعم ما ذهبنا إليه عن احترافهم الطب لجذب أهل مكة لنصرانيتهم. أما الزلزلة التي ضربت الدير حتى أوشك أن يسقط فهي الفقرة اللافتة للانتباه والتي تضمن للخبر الانتشار.

— عيسى الراهب العالم الطبيب الشامي الذي ترك بلاده الخصبة الغنية المليئة بالخير إلى وادٍ غير ذي زرع خصيصاً ليغدو من ضمن الذين كتب لهم السعد والمستقبلين للقادم الذي تشوفت كافة الطوائف للقائه وهو «عيسى» — بالإضافة إلى علمه الغزير وطبيب والطب هو الأحبول الذي يصطاد به الرهبان النصارى سكان مكة ونواحيها إلى ديانة ابن مريم.

— ومقر عيسى في مرّ الظهران شاهد على انتشار النصارى في كل مكان في الحجاز غير مبالين بأنه قفر جديد مليط من الخير.

هذا الراهب ذو الصومعة دأب على إعلام أهل مكة بقرب ولادة مولود تدين له العرب ويملك العجم ويؤكد لهم أنه ما جاء إلى أرضهم البائسة الفقيرة إلا في طلبه، وعندما وضعت أمانة مولودها ذهب إليه الجد عبد المطلب وأحاطه علماً به فبشره بأنه هو الذي يؤمه «يقصده» هذا الراهب الذي طفق يجوب دروب مكة وشعابها وفجاجها مبشراً بقرب ولادة القادم المأمول وعندما ولد أخبر عبد المطلب أنه هو يستحق درجة الامتياز في مادة الإعلام.

كيف يخفى على أم هند ولا تصلها أخباره ونبوءاته ونشاطه الإعلامي.

• • •

وهكذا ساهم أهل الكتاب وخاصة رهبان النصارى الذين استوطنوا الحجاز في ذلك الزمان العجيب في شد بصر وجلاء بصيرة خديجة إلى تحديد معالم «المنتظر» وملامحه وقسماته ولعبوا دوراً خطيراً في وقوع اختيارها على «لابس الشملة» لتباعله وتجعله موضوعاً للتجربة الفذة الذي لم تتكرر منذ إنجازها حتى الآن.

• • •

الأهل أو الأقارب اللصقاء لبعض البطارقة الأكاير مثل موسى ويحيى «يوحنا» المعمدان ومريم بنت عمران وعيسى ابنها أحاطوا ولاداتهم بمخاريق<sup>(١٩)</sup>. وأمور معجبات غير مألوفة بيد أن «الحكم» الحكيم» في غنية عنها لأن عظمته وعبقريته وفذائته لا تحتاج إليها.

رغم ذلك فإن دواوين سيرته العطرة ذات الرتبة العالية والدرجة الرفيعة والمقام المحمود وضعت في حجرنا العشرات من الأعاجيب رواها أصحاب وتابعون يتقاصر الشك ويخنس الريب ويحزال<sup>(٢٠)</sup> التوهين أن يحوم حولهم أو يطرق بابهم أو يقترب منهم.. ومع ذلك فإن غالبية من كتبوا حديثاً في سيرة «الراضي» امتنعت عن ذكرها وتجاوزتها وتخطتها أي أعرضت ونأت بجانبها عنها. والحق أنني وقفت طويلاً إزاء هذا الموقف فهم:

إما أنهم لا يؤمنون بتلك الخوارق في ذاتها في الوقت الذي رأيناهم سجدوا للتي وردت في القرآن المجيد مع أنها لا تقل عنها خرقاً للنواميس الطبيعية مثل شق القمر فلقنتين إحدهما علت جبل «أبي قبيس» والأخرى استقرت على «قيعقان» وكالإسراء والمعراج والحيوان المدهش «البراق» الذي يضع حوافر قدميه عند منتهى بصره وما أدراك ما منتهى بصره.



أو أنهم لا يصدقون وقوعها لـ «الحامد» وهذا طعن صريح في رواة المدهشات الخوارق أو الخوارق المدهشات وفيهم صحابة أكابر وتابعون أثبات، وتجريح لكتب الأحاديث التي وضعتها وما زالت تضعها على رأسها أمة لا إله إلا الله منها: صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسنند أحمد ومستدرك الحاكم النيسابوري، وتكذيب لدواوين السيرة المحمدية العظيمة التي تقدرها الأمة الإسلامية تقديراً يوشك أن يصل على حد القداسة على رأسها سيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام والروض الأنف والسيرة الحلبية والسيرة الشامية والدرر وسيرة ابن كثير... إلخ وسوف نتناول هذا الأمر بقدر من التوسع عندما يحين الوقت.

ولينكر الكتاب المحدثون ما يحلو لهم الإنكار فهم وشأنهم، وتغاضيههم عن المعجزات التي سنورد غيضاً من فيض منها لا ينال منها ولا يغض من قدرها ولا يحط من شأنها.

ونبدأ بما حدث عندما حملت أمنة الزهرية «أم محمد» به وما رأته هي ليلة مولده المباركة وما وقع فيها وما رواه غيرها ممن حضرها وشهدها، والذي يضاعف من حروجة موقف أولئك المتحذلقين أن محمداً ذاته شارك في الإخبار عن بعض تلك الأعاجيب بعدة أحاديث ومعلوم أن من ينكر

أحاديثه الشريفة يتحول من تابع مطيع له إلى خصم مبين نعوذ بالله تعالى ونسأله الثبات واليقين.

«عن ابن إسحق قال: حدثني ثور عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له بصرى من أرض الشام.

قال الحاكم: خالد بن معدان من خيار التابعين صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح ولو لم يخرجاه»<sup>(٢١)</sup>.

الحديث أخرجه الحاكم النيسابوري في «المستدرک» وجزم بصحته ورواه عن واحد من خيار التابعين هو خالد بن معدان واحد تلاميذ معاذ بن جبل من جلة الصحابة – وفيه أخبر «كنديدة وهو اسم محمد في الزبور» أن أمنة حين حملت به خرج منها نور أضاء له بصرى وهي التي التقى فيها بالراهب بحيرى أسقف الحجاز ومكة ومقدم الحلقة الخارجية التي أحاطت بالطاهرة وهو أيضاً الذي ركبت إليه من مكة لتستشيره في الرؤيا التي رآها «برقليطس وهو اسم محمد بالرومية» وهو نائم في غار حرى وهو «بحيرى» الذي أمر سيدة قريش بضرورة نكاح محمد قبل صيرورتها له بعلاً بعشرين حولاً، ولعل هذا يجيب على السؤال الذي ينتصب في الذهن لماذا توقف النور الذي خرج من أمنة عند بصرى ولم يتعداها إلى دمشق العاصمة التي من البديهي أن حظها من القصور أوفر، وأحدثة وصول النور إلى بصرى تحديداً سوف نطالعها في عدة أخبار مما يقطع بأن المسألة ليست صدفة ولا خبط عشواء بل لها دلالة لا تستبهم على الفطن الذكي!!



«روى ابن سعد عن يزيد عن عبد الله والبيهقي عن ابن إسحق (رحم): قال كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به أمنة كانت تقول: ما شعرت أني حملت ولا وجدت ثقله كما تجد النساء إلا أنني أنكرت رفع حيضتي وربما ترفعني وتعود وأتاني أت بين النائم واليقظان، فقال لي: هل شعرت أنك حملت؟ فأقول: ما أدري. فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذلك يوم الاثنين وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وضع فسميه محمداً.

قالت: فكان ذلك مما يقن عندي الحمل.

ثم أمهلني حتى إذا دننت ولادتي أتاني ذلك فقال قول: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد.

قالت: فكنت أقول ذلك فذكرته لنسائي فقلن: تعلق عليك جديداً في عضديك وفي عنقك ففعلت فلم يكن يترك علي إلا أياماً فكنت لا أتعلقه»<sup>(٢٢)</sup>.

هذا الخبر اشترك في روايته ابن سعد في «الطبقات الكبرى» والبيهقي إما في «السنن» أو في «دلائل النبوة» وابن إسحق في «السيرة» وجاء في «السيرة الشامية» و«الوفا بأحوال المصطفى» و«السيرة» لابن كثير — فأنى يحلقه الوضع والضعف وبذا فلا يدعيهما إلا المعاند الشكس. وقد أطلعنا الخبر على شعيرة من شعائر الميلاد وهو أن تعلق الحامل في عنقها وعضديها حديداً طبعاً لحمايتها وجنيته من الأرواح الشريرة وهذا حجة على تدنى الدرجة الحضارية لذيالك المجتمع.

• • •

«لما حملت أمنة بنت وهب رسول الله ﷺ حدثت أنها أتيت فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع على الأرض فقولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً ورأت حين حملت به أنه أن خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام»<sup>(٢٣)</sup>.

أربعة مصادر من أمهات كتب السيرة تضافرت على تأكيد الخبر وأن أمنة فور حملها بـ«الصفوح» أتاهآ آت بشرها بحملها بسيد هذه الأمة وخروج النور منها وأن محطة وصوله قصور بصرى.

• • •

«روى بعضهم عن أمنة أنها قالت: سطع منى النور حتى رأيت قصور الشام ولما وقع إلى الأرض قبض من تراب ثم رفع رأسه إلى السماء»<sup>(٢٤)</sup>.

انضم اليعقوبي إلى طابور المصنفين الذين وثقوا معجزة خروج النور من أمنة فور حملها بـ«الأبر».

• • •

«كانت أمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد. قال آية ذلك أن يخرج معه النور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وقع فسميه محمداً — وعن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرة من أرض الشام. الحديث في سيرة ابن هشام ومستدرك الحاكم»<sup>(٢٥)</sup>.

إن الذي نفحنا هذا الخبر مصدر ذو وزن تقيل هو الدلائل للبيهقي، ومعه مرجع عربيه من الفرنسية إلى اللسان العربي الشيخ عبد الحلیم محمود الذي

ترجع على كرسي رئاسة شئون التقديس ومعه ابنه وهو أيضاً شيخ أزهرى فهل يعقل أن الضمير الديني والأمانة العلمية لدى كليهما تسمحان لهما بتسطير حديث معلول.

وأثبت صاحب «الدلائل» أن الحديث في سيرة ابن هشام ومستدرك الحاكم النيسابوري فما الذي يريده أي باحث أكثر من هذا كيما يتثبت من صحة أي حديث؟

• • •

نقل إلينا إنجيل لوقا أن العذراء البتول مريم بنت عمران عندما علقت بعيسى أتاها ملاك الرب وبشرها بالحمل والولادة وأمرها أن تسميه يسوع وأنه سيغدو عظيماً وسيرث كرسي داوود ويملك بيت يعقوب.

«فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت تحبلين وتلدن ابناً وتسمينه يسوع هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية»<sup>(٢٦)</sup>.

تماماً حذوك القذة بالفذة فبعد ما يزيد قليلاً على ستة قرون: أتى آت لآمنة بنت وهب من بني زهرة: وبشرها بحملها بسيد هذه الأمة وأمرها أن تسميه محمداً وأعطاه آية أو علامة وهي خروج نور معه يسري حتى يملأ قصور بصرى — ونصحها أن تعوده بالواحد من شر كل حاسد.

«نفس السيناريو» الذي حدث في بلدة الناصرة بفلسطين تكرر في مكة من أرض الحجاز — فهل هي مصادفة؟

ألا يتصدق علينا هذا التماثل بدلالة عميقة يفقهها اللوذعي ويدركها الفطن وينقها الفارس<sup>(٢٧)</sup>.

• • •

«عن عثمان بن أبي العاص رضى الله عنه قال: حدثتني أمي أنها شهدت ولادة رسول الله ﷺ ليلة ولادته قالت: فما شيء انظر إليه من البيت إلا نوراً أضاء له البيت والدار حتى جعلت إلا نوراً»<sup>(٢٨)</sup>.

هذه شهادة أم عثمان بن أبي العاص بالأمور المعجبة التي رأتها بعينها ليلة مولد «الخالص».

• • •

«قالت أم عثمان بن العاص شهدت ولادة أمانة برسول الله ﷺ وكان ليلاً فما شيء انظر إليه من البيت إلا نور وإنني أنظر إلى النجوم تدنو وإني أقول لتنعن عليّ، ولما وضعت تركت عليه في ليلة ولادته جفنة فانقلبته عنه فكان من آياته أن لم تحوه»<sup>(٢٩)</sup>.

هذه شهادة أخرى لأم عثمان بن العاص مشابهة للشهادة السابقة بيد أن بها إضافتين الأولى نجوم السماء دنت من البيت الذي ولدت فيه أمنة «الأدعج» حتى إن أم عثمان خشيت أن تقع عليها.

الأخرى أنه بعد ولادته وضعوه تحت برمة أو جفنة فانقلبت عنه، وفي رواية انفلقت شطرين. «روى نعيم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان في عهد الجاهلية إذا ولد مولود طرحوه تحت برمة فلما ولد رسول الله ﷺ طرحوه تحت برمة فلما أصبحوا أتوا البرمة فإذا هي قد انفلقت اثنتين وعيناه ﷺ إلى السماء فعجبوا من ذلك. رواه بألفاظ متقاربة ابن سعد وسند رجاله ثقات أثبات، والبيهقي عن أبي الحسن التتوخي - رحم - وابن الجوزي عن أبي الحسين بن البراء مرسلًا»<sup>(٣٠)</sup>.

لقد جئنا بهذا الخبر نظراً لتوثيقه الشديد فقد روى عن ابن عباس وتعاضد على تحمله: أبو نعيم وعكرمة وابن سعد والسيوطي وصاحب السيرة الشامية.

ولعلنا أخرى هو أنه أكد وضع المولود المبارك تحت البرمة ثم وجدوها مكسورة والذي نود أن نلفت الانتباه إليه أن هذه شعيرة من شعائر الميلاد أيضاً الهدف منها حماية الوليد من مس الشيطان ويمكن ربطها بالمستوى الحضاري وإن شئت الدقة اللاحضاري لمجتمع القرية المقدسة مكة آنذاك.

• • •

ونختم معجزات الحمل وليلة الميلاد الشريف بهذا الخبر:

«قال الإمام أبو شامة - رحم - وقد كان النور الذي ظهر وقت ولادته قد اشتهر في قريش وكثر ذكره فيهم وقال فيه عمه العباس شعراً»<sup>(٣١)</sup>.

وهو أثر بالغ الثمالة عالي القيمة إذ يخبرنا أن المعجزات المذكورة علمها الداني والقاصي في قريش والبادي والحاضر من أهل مكة إذ إن أمرها اشتهر فيهم وبديهي أن خديجة من بينهم وبلغت ساعتها الخامسة عشرة على الأقل «وفي رأينا أنها تجاوزت الخامسة والعشرين» أي أنها أدركتها ووعتها وفهمت مغزاها وأضافت إلى الأخبار التي تقدمت المولد المبرور وسنة سنة تتراكم في ذاكرتها البواعث الدوافع لترشيحه ليصبح «القادم المنتظر».

• • •

ولكن المعجزات التالية للولادة المعجبة لم تنته بعد بل إنها ما زالت تتدفق فعلى غير العادة التي جرت مع الصبيان أو الذكور خرج من بطن أمه مختوناً مسروراً «أي مقطوع السرة» والختان نوع من شعائر «طقوس» المرور الضرورية لدى البعض<sup>(٣٢)</sup>.

ويؤكد أحمد أمين أن قدماء المصريين كانوا يختنون<sup>(٣٣)</sup>.



ونضيف من جانبنا أن شعيرة أو طقس أو عادة الختان انتقلت من قدماء المصريين إلى الشعوب السامية بحكم الجوار والاختلاط وفي مقدمة هؤلاء الشعب اليهودي حتى إن الختان تحول لديهم إلى شعيرة مقدسة ومنهم من انتقل إلى جزيرة العرب:

«عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً ولم ير أحد سواتي»<sup>(٣٤)</sup>.

«وقد جزم بأنه ﷺ ولد مختوناً جماعة من العلماء منهم هشام بن السائب في كتاب الجامع وابن حبيب في المجد وابن دريد في الوشاح وابن الجوزي في العلل والتقيح، وقال الحاكم في المستدرک: تواترت الأخبار بأنه ﷺ ولد مختوناً»<sup>(٣٥)</sup>.

يقدم لنا هذا الخبر كوكبة من العلماء المقدمين منهم الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر والضياء المقدسي وابن الجوزي وارتفع الحاكم النيسابوري صاحب المستدرک بالحديث إلى درجة التواتر.

وقد عده «النور» مكرمة تكرم بها عليه ربه حتى لا يرى أحد سواته في عملية الختان، وهناك خبر أكيد مفاده أن أياً من زوجاته وجواريه لم ترها أثناء جماعه لها ولو حاولت لأصيبت بالعمى فوراً.



ونظراً لأهمية هذه الواقعة المعجبة فقد تتبعها السيوطي في المصادر التي أوردتها حتى يتقن من صحتها فقد أثبت أن الحديث سالف الإلمام «رواه عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن المطلب الذي شهد أن والده عبد المطلب شمله الإعجاب والفرح لما رأى حفيده ولد مختوناً أي أنه حديث عائلي، وهناك طريق آخر للرواية عن عطاء عن ابن عباس وخرج هذه الرواية كل من ابن عدي وابن عساكر.

وطريق ثالث عن أبي هريرة ورابع عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وقد أخرجهما ابن عساكر، وطريق خامس عن أنس بن مالك «خادم محمد».

وقد أخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب وابن عساكر في تاريخيهما وضياء الدين المقدسي في مختاراته<sup>(٣٦)</sup>.

إن عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبا هريرة وأنس بن مالك من أعيان الأصحاب ومات «صاحب الشملة» وهو عنهم راض ولا يخلو واحد من كتب الأحاديث من مسند خاص لكل منهم وبعضهم من المكثرين في الحديث مثل أبي هريرة وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك.

أما الطبراني والحاكم وأبو نعيم والضياء المقدسي وابن الجوزي والخطيب فهم أصحاب مصنفات في السيرة المحمدية الزكية أو في أحاديثه

التي هي أشرف الأحاديث طراً بلغت هذه «المصنفات» الغاية القصوى في القبول والتقدير والاحترام لدى أهل السنة والجماعة.

فهل يتجاسر مسلم على أن يشكك في أن «المكرم» قد كرمه ربه بتكرمة حضوره إلى الدنيا وهو مختون مسرور.



ولكن هل هذه المكرمة تقاس بالإسراء والمعراج وركوب الدابة المدهشة «البراق» والمثول بين يدي الحضرة الربانية القدسانية عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. بأي منطق يقبل الكتبة المحدثون هذه الخوارق المدهشة الفاذا فذوذاً لم يتكرر لا من قبل ولا من بعد وينكرون ختانه وهي عملية يقوم بها «حلاق» ريفي وقطع حبله السري وهو ما تنجزه أي داية<sup>(٣٧)</sup>.

كيف يصدقون أن القمر انشق إلى فلقتين حظي بهما جبلان من أجبل بكة وهي المعجزة التي شهدتها العشرات من المكيين ثم يرفضون أن «الميسر» جاء إلى الدنيا وقد تم ختانه كيما لا ينظر أحد إلى سواته.

وأيهما أقرب إلى المعقولية شق القمر إلى شطرين أم إجراء الختان وقطع الحبل السري..

لقد تريتنا قليلاً عند هذه النقطة لنسلط الضوء على تناقض الراضين للمعجزات «ما عدا شق القمر والإسراء والمعراج» وقولهم بأن المعجزة القيمة لـ «الأبيض» هي القرآن العظيم، ولو أنهم طالعوا سيرة محمد التي هي أحلى من سكر الأهواز وتفتح الشام لأيقنوا أنه أغزر معجزات وخوارق ومدهشات ومعجبات من صاحب اليهود: موسى وصاحب النصارى المسيح عيسى ابن مريم، بل إن قياسه بهما فيه إجحاف شديد له. إنهم يفعلون ذلك تحت لافتة العقلانية مع أن منهجهم هذا مقطوع الوشيجة بالعقلانية الحقة التي تحتم أنه عند إصدار حكم يتعين الإحاطة بالموضوع من سائر أقطاره وكل نواحيه وجميع جوانبه، وفي موضوعنا هذا يجب وبطريق الحتم واللزوم عدم فصم المعجزة عن المجتمع الذي انبثقت فيه وولدت في أحشائه وتخلقت في بطنه وعلى رأسها:

المستوى الحضاري والمعرفي والثقافي والتعليمي ووعي أفرادهم ومدى إدراكهم ودرجة فهمهم وسعة أو ضيق أفقهم ووزن موروثاتهم وقياس ذكائهم.. إلخ.

عند سبر المجتمع بدقة يجوز لنا أن نصدر حكماً على ظهور المعجزة فيه وتصديق أفرادها لها. وإن فعل يسائر منهجنا العقلانية وساعتها يغدو الحكم صحيحاً أما عند مجانبته ذلك والحكم على مجتمع عتيق، وفي منطقة خاصتها الحضارة

بذات المقاييس والآليات السائدة في مجتمعنا المعاصر فنحن نخاصم العقلانية ويعد منهجنا بعيداً تماماً عن العلمية والموضوعية.

بعد هذه التفريفة نعود إلى سياقة الحديث:

إن ولادة «السنا» مختوناً مسروراً أمر غير عادي وهي المرة الأولى التي يرى فيها المكيون مولوداً بهذه الهيئة إذن من اللازم أن يشيع خبرها ويسري من بيت لبيت وتنتشر من دار لدار فتسمع بها الطاهرة أم هند وتدهش لها ثم تدسها في طيات ذاكرتها لتستحضرها عند اللزوم.

• • •

لازمت المعجزات «الناهي» طوال أطوار حياته المبرورة حتى نكحته الطاهرة ولا يعني ذلك أنها توقفت بعد المبالغة إنما المقصود استمرارها حتى تفتنت أم هند أنه هو «المأمول المنتظر» فالتقطته وشكلت رافداً مهماً في عملية اختياره زوجاً وبالتالي الدخول معه التجربة المذهلة – فبعد ولادته مختوناً مسروراً بدرت منه خوارق أخرى وهي الكلام في المهد وهو رضيع:

«قال الحافظ أبو الفضل بن حجر في كتابه «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»: في سير الواقدي أن النبي ﷺ تكلم أوائل ما ولد وذكر ابن سبع في الخصائص أن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة له وأن أول كلام له أن قال: الله أكبر والحمد لله كثيراً»<sup>(٣٨)</sup>.

• • •

هذا الأثر المدهش ساهم في إهدائه لنا ابن حجر العسقلاني والواقدي وابن سبع والسيوطي وأخبرونا أن أول جملة نطق بها «المعزر» هي: الله أكبر والله الحمد.. وقد غدت بعد ثلاثة عشر قرناً ونصف شعاراً لجماعة إسلامية نشأت في مصر ومن كم معطفها خرجت جماعات العنف التي فعلت الأفاعيل في المحروسة وغيرها.

وكما نقل لنا السيوطي في «الخصائص» الخبر السابق أقره صاحب السيرة الشامية وهو الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٥٩٤٢هـ:

«قال الحافظ في الفتح وفي سير الواقدي: النبي ﷺ تكلم في المهد أوائل ما ولد وذكر ابن سبع – رحم – في الخصائص أن مهده ﷺ كان يتحرك بتحريك الملائكة له وأن أول كلام تكلم به أن قال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً»<sup>(٣٩)</sup>.

وفي الخبرين كليهما أو هو إن شئنا الدقة خبر واحد لأن سنده واحد في الروايتين أن الملائكة طفقت تحرك مهد «الأمعي».

وحكت دواوين السيرة المحمدية التي هي أطيب ريحاً مع الزعفران والكافور أن عمه العباس أخبره أنه وهو طفل رضيع في المهد دأب على

مناغاة القمر الذي أخذ يستجيب لها «= المناغاة المحمدية» فيتحرك في الاتجاه الذي يحدده له «أكل الشعير» ويقف عندما يشير له بذلك وهكذا...

وأضاف العباس أن ذلك شكل سبباً من أسباب إسلامه وأتباعه فيما دعاه إليه.



هذه الخوارق لا مشاحة في أن كل ما تردد على البيت الذي ولد فيه «الصنديد» لا بد أن شاهدها وعجب لمرآها وعندما يغادر المنزل يقصها على أهله وجيرانه وأصدقائه فتنتقل من دار إلى أخرى حتى تسمعها سيدة نساء الأرض.



على عادتهم في ذلك الزمان الرائع فإن العائلات الكريمة لا تقوم فيها الأمهات بإرضاع أطفالهن بل تتولى ذلك الأعرابيات يأخذن أطفال وجوه قريش إلى مضاربهن في البادية لعدة أسباب منها أن جوها المنفتح المنطلق أفيد لهم كما يتعلم فيها فصاحة البدو الخالية من اللكنة والحبسة والعجمة فينشأ الطفل فصيحاً ذا لسان ذرب ومن ناحية ثالثة تحافظ أم الوليد على جمال جسمها وسلامة قوامها ونضارة قدها... الخ، وجرياً على هذا العرف جاءت إلى مكة نسوة من بادية بني سعد التماساً للوضع ومن حسن حظ حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية وجمال بختها<sup>(٤٠)</sup> أن ظفرت بـ «الناسك» كيما تتولى إرضاعه وتتثنته ونظراً لأن هذا المقطع من أمتع مقاطع السيرة المحمدية التي هي أحلى من تفاح الشام وفيه لمحات إنسانية تأخذ بمجامع القلوب فإننا نستطيع القارئ ونستأذنه في سرد الخبر كما حكاها السيوطي في خصائصه وإن انضوى على قدر من التطويل:

«أخرج ابن إسحق وابن راهويه وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر عن طريق عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: حديث حليلة بنت الحارث أم رسول الله ﷺ التي أرضعته قالت: قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء في سنة شهباء فقدمت على أتان ومعى صبي وشارف لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذلك لا يجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم فوالله ما بقى من صواحيبي إلا أخذت رضيعاً غيري فلما لم أجد غيره قلت لزوجي والله إنى لأكره أنى أرجع من بين صواحيبي ليس معى رضيع لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه، فذهبت فأخذته فما هو إلا أن أخذته فجئت به على رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روى

وشرب أخوه حتى روى وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا بها لحافل فحلب وشرب ما شرب وشربت حتى رويانا وبتنا بخير ليلة، فقال لي صاحبي: يا حليلة والله إنني لأراك قد أخذت نسمة مباركة ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه فلم يزل الله يزيدنا خيراً. ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعنا أتانتي بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى إن صواحيبي يقلن ويحك أهدى أتانك التي خرجت عليها معنا فأقول نعم، والله إنها لهي فيقلن والله إن لها لشأناً حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضاً أجذب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحن وماشيتنا «في خصب و غنى»، وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن وإن أغنامهم لتروح جياً وما فيها قطرة لبن حتى إنهم ليقولون لرعايتهم ويحكم انظروا حيث تسرح غنم حليلة فاسرحوا معها فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فيروحون أغنامهم جياً ما فيها قطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم يزل الله يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شباباً لا يشبه الغلماء، فوالله ما بلغ السننتين حتى كان غلاماً جفراً فقدمنا به إلى أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة فلما رأته أمه قلنا لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإننا نخشى عليه وباء مكة فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فيبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم جاءنا أخوه يشتد فقال: ذلك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعا فشقا بطنه فخرجنا أنا وأبوه نشدت نحوه فنجدته قائماً منتقياً لونه فاعتقه أبوه وقال: أي بني ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان.

فرجعنا به معنا فقال أبوه: يا حليلة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقني بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر ما نتخوف.. قالت حليلة: فاحتملناه حتى قدمنا به إلى أمه، فقالت: ما ردكما به فقد كنتما عليه حربيين، قلنا: نخشى الإتلاف والأحداث. فقالت: ماذا بكما فاصدقاني شأنكما، فلما تدعنا حتى أخبرناها خبره قالت: أخشيتما عليه من الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإنه لكائن لابني هذا شأن إلا أخبر كما خبره؟ قلنا: بلى. قالت: حملت به فما حملت قط أخف منه فأريت في النوم حين حملت به أنه خرج مني نور أضاعت له قصور الشام ثم وقع حين ولد وقعاً ما يقعه مولود على يديه رافعاً رأسه إلى السماء فدعاه عنكما»<sup>(٤١)</sup>.



ولسنا في حاجة أن نقرر أن هذه القصة الرائعة لا يخلو منها كتاب من

كتب السيرة الزكية سواء من المصادر «التراثية» أو المراجع «الحديثة» بيد أن جوانب طريفة لهذا المقطع حملته دواوين أخرى:

«قالت حليلة ولما دخلت به منزلي لم يبق منزل من منازل بني سعد إلا شمنا منه ريح المسك وألقيت محبته ﷺ في قلوب الناس حتى إن أحدهم كان إذا نزل به أدى في جسده أخذ كفه ﷺ فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعاً وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو شاة فعلوا ذلك.

«وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه كان أول كلام تكلم به ﷺ حين فطمته: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً»<sup>(٤٢)</sup>.

• • •

ونختم بخبر أخرجه ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر عن طريق عطاء ابن أبي رباح وهو من كبار التابعين عن ابن عباس:

«أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر وابن الطراح عن طريق عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس قال: كانت حليلة لا تدعه «أي محمداً» يذهب مكاناً بعيداً فغفلت عنه فخرج مع أخته الشيماء في الظهيرة فخرجت حليلة تطلبه حتى تجده مع أخته فقالت: في هذا الحر؟ فقالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حراً رأيت غمامة تظلل عليه إذا وقف وفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع، قالت: أحقاً يا بنية؟ قالت: إي والله»<sup>(٤٣)</sup>.

إن حمله إلينا أربعة من دواوين السيرة المعتمدة ولا يوجد توثيق أكثر من ذلك.

• • •

إن مقطع التحاق «أبي القاسم» ببادية بني سعد ليرضع من ثدي حليلة والذي منحنا إياه هذا الجمع من المصادر عالية الرتبة انضوى على رتل من المعجزات<sup>(٤٤)</sup> ومن أبرزها واقعة شق الصدر – القلب التي سوف نورد لها فقرة مستقلة بخلاف عدد آخر من الحكايا المعجبات ولكننا نكتفي بما أسلفنا.

قرأنا في الخير الأول أن مرضعات أخريات كن مع حليلة وأخذن أطفالاً من بيوت صناديد بكة رافقنها في الذهاب والإياب حتى وصلن مقارهن ورأين وعاین وسمعن هاتيك الأمور الخارقة للسنن الطبيعية وللأمور المألوفة ولا ريب أنهن عند إعادة الأطفال اللائي أرضعنهن إلى أهلهم حكين لأمهاتهن طرفاً منها كما أن واقعة إرجاع «المشاور» إلى أمه قبل الموعد المحدد لا بد أنها ذاعت وشاعت هي وعلتها.

ومكة قرية ضائقة وضاهلة «قليلة الماء» وقاطنوها أقارب وأصهار تربطهم وشائج متينة ومن ثم فمثل هذه الأخبار المعجبة يتناقلها الذكور والإناث من

مختلف الأعمار وترتيباً على ذلك يحق لنا أن ندعى أن وصولها إلى مسامع خديجة أمر محتوم لا قريب الاحتمال فحسب.



وعلى هذه الوتير تتواصل وتندارك أخبار «الحاشر» التي لا شبيه لها، خبر وراء خبر وحدث إثر حدث وأطروفة بعد أطروفة والطاهرة تسمعها كلها وتحفظ بها في حافظتها الواعية وأيضاً في وعيها الباطن لتقب في الوقت المناسب<sup>(٤٥)</sup>.

واقعة شق صدر «أكمل البشر» اختلف بشأنها قدامى كتاب سيرته إن في زمانها أو في مكانها، ففريق ويبدو أنه الأغلب اتفق على وقوعها في بادية بني سعد إبان رضاعه هناك ومجموعة أخرى جزمت بحدوثها في مكة أما الفرقة الثالثة فقد وافقت على المكان ولكنها باينت في الزمان بعضها قال في وقت الصبا والآخر انتهى إلى أن الشق تم ليلة الإسراء والمعراج وحصراً في وقت الصبا في بيت عمه أبي طالب، وقد قضى تلك الليلة هناك.

وأول من أخبره بالقصة عند عودته هي بنت عمه أم هانئ «عن أبي صالح مولى أم هانئ عن أم هانئ قالت: دخل على رسول الله ﷺ بغلس وأنا على فراشي فقال شعرت أني نمت الليلة في المسجد الحرام... الخ»<sup>(٤٦)</sup>.

في حين «أن البخاري روى بسنده عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن النبي حدثهم قال: بينما أنا نائم في الحطيم وربما قال في الحجر بينما أنا نائم إذ أتاني أتٍ وسمعتة يقول فشق ما بين هذه... الخ»<sup>(٤٧)</sup>.

وسبق أن ذكرنا أن علماء الأنثروبولوجي يذهبون إلى أن النوم قرب الأماكن المقدسة ينفخ النائم رؤى تحفل بالأمور القدسانية وأنها تعبر عن أشواق وأمانى النائم التي لم يتمكن من تحقيقها على أرض الواقع مع تماهيتها بمعان علوية.

«ورد في الخبر أن «الفخر» أخبر أن ذلك حدث وهو نائم ومضطجع في الحطيم أو حجر إسماعيل وهما ملحقان بجوار الكعبة قدس الأقداس في الإسلام أ. ه.»

ومعلوم أن الإسراء والمعراج من الحوادث التي وقعت بعد وفاة الطاهرة وقد درج عدد من قدامى الباحثين أو الكاتبيين للسيرة وغيرهم من المفسرين والمؤرخين والفقهاء على حل مثل هذا التضارب بالجمع بين الروايات المتناقضة بأن يذهب إلى أن شق الصدر تكرر مع أن المشهور أن السبب الخبيء الكامن خلفه هو إخراج العلقة السوداء من القلب بحسبان أنها حظ الشيطان إذن فما هو الداعي لتكرارها؟

بيد أن الذي يغنيننا هنا هو توثيق شق صدره وهو صغير في بادية السعديين لأننا ما زلنا معه وهو في هذه المرحلة لم نتجاوزها بعد.

خبر واقعة شق الصدر أو القلب في بادية بني سعد عند مرضعته «رواه الإمام مسلم وله رواية أخرى عن أبي هريرة عند الإمام أحمد والحاكم وابن عساكر عن أبي ابن كعب»<sup>(٤٨)</sup>.

فهنا نجد الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق والذي يخلو للبعض أن ينفحه لقب الإمام يخبرنا أن حديث الشق في بادية بني سعد أخرجه مسلم في صحيحه وهو التالي لصحيح البخاري، وله رواية أخرى عن أبي هريرة.

أما أحمد بن حنبل في مسنده والحاكم في مستدركه وابن عساكر في تاريخه فقد نقلوه عن أبي بن كعب أحد علماء الصحابة ومن القلة الذين جمعوا «القرآن» أي حفظوه في حياة محمد — مما يقطع بصحة الحديث.



ولا نكتفي بذلك مع أنه كافٍ وزيادة بل نورد الخبر الآتي:

«وحصل له وهو ببني سعد بن بكر رهط مرضعته حليلة حادثة مهمة وهي شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليلة خوفاً فردته إلى أمه وحدثتها قائلة: بينما هو وإخوته في بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو وقال لي ولأبيه ذلك أخي القرشي أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا وشقا بطنه فهما يسوطانه «يحركانه» فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعا لونه «شبهاً بالنقع وهو التراب» فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بني؟ قال: جاعني رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدها لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم فأقبلا يبتدراني فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا شيئاً فأخذاه وطرحاه لا أدري ما هو؟»<sup>(٤٩)</sup>.

هذا الخبر جاءت به تسعة من كتب التراث صاحبة المقام الرفيع على رأسها سيرة ابن هشام عمدة كتب السيرة بإجماع واثنان من المراجع الهامة أولهما كتاب نور اليقين لمحمد الخضري — أستاذ الشريعة في كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول — والذي استقبله القراء بترحاب مبالغ فيه حتى إنه طبع أربعاً وعشرين مرة وهو رقم قياسي.

والآخر من تأليف دينيه وتعريب عبد الحليم محمود الذي تحدثنا عنه أكثر من مرة وهكذا تكاملت براهين صحة هذا الخبر.



ونظراً لغرابته فمن البديهي أن يشيع ويذيع وينتشر من البادية إلى قرية القداصة خاصة بعد أن أرجعت «الظئر» أي المرضعة «البارع» إلى أمه قبل



انتهاء المدة المتفق عليها بعد أن ألحت عليها قبل ذلك بقليل بضرورة إبقائه طرفها لما لمستته من بركاته الأمر الذي دفع أمانة لتضييق الخناق على حليمة لمعرفة السبب فاضطرت لإعلامها به، وهنا نتوقع أن أم محمد أخبرت به نساءها وصديقاتها وصواحبها ولداتها وخديجة إحداهن وحتى لو لم تخبرها مباشرة فإن الطاهرة من المؤكد التقطت الخبر الخارق للعادة بصورة مذهلة من قريبة أو جارة أو معاشرة «بكسر الشين أي مخالطة لها أ. هـ» ثم قامت بإضافته إلى رصيد المعجزات التي أحاطت بـ «الحفي» منذ ليلة ميلاده بل قبلها بسنوات عديدة.

وهنا ملحظ شديد الأهمية وهو أن توالي الخوارق يضاعف من لفت النظر وشد الانتباه وهذا يصح سواء لدى الطاهرة أو سواها لأن المولود الذي تحدث له خارقة واحدة سرعان ما تنسى إذ يقال عنها إنها فلتة بعكس الذي تتعدد لديه وتتنوع فلا واحد له أن يدعى أنها محض مصادفة أو ضربة حظ ويتأكد أن صاحبها أو بطلها شخص له شأن وخطر. فإن كان صغيراً جزموا بأن له مستقبلاً معجباً مثل مدهشاته.



رأينا فيما سبق أن عدداً من أهل الكتاب أكثرهم نصارى وأقلهم يهود وأغلبهم من الرهبان بشرى بـ «الشارع» وأن ظهوره قاب قوسين أو أدنى في حين أن الكهان «سدنة الأصنام» والعرافين اتخذوا منه موقفاً عدائياً إذ ملأ الحقد قلوبهم عليه وما إن يعاينه أحدهم حتى يفقد صوابه ويصيح اقتلوا هذا الغلام فإن هلاككم سوف يتم على يديه.

«روى ابن سعد عن موسى عن عبيد الله عنه عن أبيه رحمهما الله لما ولد رسول الله ﷺ فوقع على الأرض وقع على يديه رافعاً رأسه إلى السماء وقبضة من تراب فبلغ ذلك رجلاً من لهب فقال لصاحبه: اتجه لئن صدق الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض»<sup>(٥٠)</sup>.

وبطن بنى لهب اشتهر نسونه ورجاله باحتراف الكهانة والعيافة والعرافة والفراسة ولئن لم يوضح الخبر تصريح اللهي بضرورة قتل «المحلل – المحروم» ولو أنه يفهم من سياق الخبر إذ اتضح من معاينة المولود أنه سوف يغلبن أهل الأرض فما هو الداعي للإبقاء عليه – ومع كل فإن الدعوة إلى قتله صراحة سترد في الأخبار التالية.

«قال زيد بن أسلم لما قامت سوق عكاظ انطلقت به حليمة إلى عراف من هذيل يريه الناس صبيانهم فلما نظر إليه صاح: يا معشر هذيل يا معشر العرب واجتمع إليه الناس من أهل الموسم فقال: اقتلوا هذا الصبي وانسلت به حليمة... الخ»<sup>(٥١)</sup>.

الداعي لقتله هو عراف من هذيل وهي إحدى القبائل المعروفة وعند اعتناق أبنائها ديانة الإسلام قاموا بدور ملحوظ منهم عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين، ورأس مدرسة الفقه العراقي التي انسل منها المذهب الحنفي.



«وأخرج البيهقي عن الزهري أن النبي ﷺ كان في حجر جده عبد المطلب فاسترضعته امرأة من بني سعد فنزلت به سوق عكاظ فرآه كاهن من الكهان فقال: يا أهل عكاظ اقتلوا هذا الغلام فزأغت به أمه التي ترضعه فأنجاه الله ثم شب عندها حتى إذا سعى وأخته من الرضاعة تحضنه جاءت أخته فقالت: يا أماه إني رأيت رهطاً اجترؤا أخي القرشي أنفاً فشقوا بطنه. فقامت أمه فزعة حتى أتته فإذا هو جالس منتفع لونه لا ترى عنده أحداً فارتحلت به حتى أقدمت على أمه فقالت لها: اقبضي عني ابنك قد خشيت. فقالت أمه: والله ما ببني مما تخافي عليه لقد رأيتته وهو في بطني أنه خرج معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء»<sup>(٥٢)</sup>.

جمع هذا الخبر بين حادثين:

**الأول:** مناشدة كاهن سوق عكاظ لأهلها أن يقتلوا «الماحي» وحليمة تحمله إثر مرآة مباشرة.  
**الأخر:** شق بطنه أي صدره وهو في بادية بني سعد وإعادته لأمه أمانة تخوفاً عليه من حدوث مكروه.



«فمكث ﷺ سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين فقدموا به على أمه زائرين لها وهم أحرص شيء على رد مكانه لما رأوا من عظم بركته فلما كانوا بوادي السرر لقيت نفراً من الحبيشة فرافقتهم فسألوها فنظروا إلى رسول الله ﷺ نظراً شديداً ثم نظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه وإلى حمرة في عينيه فقالوا: هل يشنكي عينيه؟ قالت: لا ولكن هذه الحمرة لا تفارقهما، قالوا: هذا والله نبي فأتت به أمه ثم رجعت به معها فمرت يوماً بذي المجاز وبه عراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله ﷺ وإلى الحمرة في عينيه وإلى خاتم النبوة صاح: يا معشر العرب اقتلوا هذا الصبي فليقتلن أهل دينكم» أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن طريق الواحدي.

عراف في ذي المجاز وهو سوق مثل عكاظ ومجنة عرضته حليمة عليه فلما رآه ملاً الذعر حنيا صدره فصاح مطالباً بقتله ولعل هذا الخبر يبرز لنا الفرق بين أهل الكتاب والعرافين، فالنفر الأحباش نصارى فلما نظروا إليه وعابنوا العلامات الجسدية أو الحسية أو العينية تيقنوا أنه «المأمول»

الذي طال انتظاره وأخبروا ظئره بذلك في حين أن العراف حرص على قتله وفيما بعد سجل القرآن المجيد للنصارى أنهم أقرب مودة للذين آمنوا.

«في حديث الزهري أن حليلة نزلت به ﷺ سوق عكاظ فرآه كاهن من الكهان فقال: يا أهل السوق اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكاً فزاعجت به حليلة فأجابه الله منهم»<sup>(٥٣)</sup>.

تشابه هذا الخبر مع الخبر الثاني الذي أورده السيوطي في «الخصائص الكبرى» فكلاهما عن الزهري وهو من سادة التابعين وأن الحديث وقع في عكاظ ولم ينسب الكاهن مما يرجح أنهما خبر واحد ولكن خبر السيرة الشامية لم يصف إلى واقعة التحريض على القتل شيئاً.



«عن أبي نعيم أن حليلة مرت بذى المجاز وهي راجعة برسول الله ﷺ وبه عراف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله ﷺ والحمرة بين عينيه وإلى خاتم النبوة صاح: يا معشر العرب اقتلوا هذا الصبي فليقتلن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم فانسلت به حليلة»<sup>(٥٤)</sup>.

نحن نرجح أن هذا الخبر هو ذات الخبر الأول الذي أخرجه أبو نعيم في الحلبة عن طريق الواحدي، وقد أوردناه هنا بعد أن حمله مصدران من المصادر المعتبرة ومن ثم فقد أصبح موثقاً.



ونختم هذه المجموعة بالخبر الآتي:

«أخرج ابن سعد عن أبي حازم قال: قدم كاهن بمكة ورسول الله ﷺ ابن خمس سنين فنظر الكاهن إليه وهو مع عبد المطلب فقال: يا معشر قريش اقتلوا هذا الصبي فإنه يقتلكم ويفرقكم فلم تزل قريش تخشى من أمره ما كان الكاهن حذرهم»<sup>(٥٥)</sup>.

يمتاز هذا الخبر الخاتم بأمرين على قدر لا بأس به من الثمينة:

الأول: أن «رحمة العالمين» عاينه الكاهن وهو في معية جده عبد المطلب بخلاف الأخبار السوابق عليه فحليلة هي المرافقة له.

الأخر: أن التحريض على القتل من قبل الكاهن تم في قلب قرية القداسة ذاتها.



سؤال لا بد أن يثور في ذهن القارئ اللودعي: ما هي الصلة بين هذه التحريضات التي أصدرها الكهان والعرافون وبين التجربة العظمى التي نفذتها الهندوز بقدرة وحنكة؟

الذين دعوا الناس لإزهاق روح «سيد الأولين والآخرين» هم كهان

وعرافون أي يحترفون عمالة دينية حتى ولو أنها ارتبطت بالأوثان فعبادتها ديانة ولو أنها باطلة وفسيدة وهم يزعمون أن لهم صلة ما بالسماء ومن ثم فإن أقوالهم وأفعالهم ليست عادية وتلفت النظر وتشد الانتباه.

ثم إن ما طالبوه به أمر غير عادي وهو القتل: قتل طفل مرة وهو رضيع وأخرى وهو صغير لم يرتكب أي جريمة تستوجبه ولم يتعود الناس منهم أن يدعوهم إلى إزهاق روح أحد وأن يتم الطلب بصورة عصبية كلها تشنج وتوتر.

وتكررت النوازل مع شخص واحد لا مع عدة أشخاص — وإذا لم تسمع الطاهرة بوحدة أو اثنتين منها فمن غير المعقول أنها لم تسمع عن باقيها خاصة وأن الأخيرة حدثت في قلب مكة وفي مواجهة عبد المطلب كبيرها وزعيم قريش.

فكيف تنقطع صلة هذه الأخبار بالتجربة وبطلها وهو ذات الشخص الذي طفقت تركز عليه ومن ثم بدأت الحدوس «جمع حدس» تترسب في وجدانها قبل عقلها مؤكدة أنه هو المأمول والمنتظر؟



وفي نهاية هذه الفاصلة: إن تردد حليلة بـ «الصادق والمصدق» على العرافين والمتكهنين وعرضه عليهم من قبلها لمعرفة طالعه وكثرتهم يتركزون في الأسواق والمواسم والتجمعات دليل قوى على أن ذياك المجمع يؤمن بالخرافات وغير المعقولات واللاموراثيات والعوالم غير المنظورة والكائنات غير المرئية، وهذه سمات المجتمعات البدائية والمتخلفة مما يحسب لـ «صاحب الخاتم» أنه في دعوته التي بشر بها أنه حاول القضاء على تلك العادات الذميمة.



جامعت الخوارق والمدهشات والأعاجيب «الأسوة الحسنة» بعد أن تخطى مرحلة الطفولة إلى الصبا:

«كان قوم من يهود يثرب ينظرون إليه «عندما أخذته أمه آمنة لزيارة أخواله في يثرب» قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول هو نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته — فوعيت ذلك كله من كلامهم ثم رجعت به إلى مكة فلما كانت بالأبواء توفيت أمه آمنة...»<sup>(٥٦)</sup>.

توفيت آمنة «أم محمد» وهو في مدارج الصبا المبكر — والواقعة التي يحملها الخبر حدثت في قرية يثرب قبلها مباشرة حيث حملته لزيارة بني النجار أخواله ولزيارة مثنى أبيه عبد الله وهناك رآه نفر من يهود حيث يقطنونها وحضورهم فيها غليظ بخلاف مكة فعرفوا أنه القادم الذي أطل

صبر العرب في النشوف إليه وصرحوا بذلك وسمعتهم أم أيمن التي طالما قال عنها إنها أمه بعد أمه وطفق يبرها ويكرمها وفاءً منه إذ إنه أعظم الأوفياء وأوفى العظماء ومن بعد فعله خليفته التيمي أبو بكر والعدوى عمر وأضاف النفر اليهود أن يثرب هي مهجره<sup>(٥٧)</sup>.

وقد وعته «= الخبر» أم أيمن ومن البديهي أنها عندما وصلت به مكة حكمت هذا الخبر لكل من قابلها وخصوصاً الإمام من أمثالها وأبلغته إلى سيداتهن في بيوت عظماء مكة ولا شك أن أم هند سمعت به وقد تجاوز عمرها العشرين أما في رأينا فإنها تخطت الخامسة والعشرين.

واقعة أخرى ترويه أم أيمن عن خارقة حدثت لـ «الذي سيفه على عاتقه» وهو في دور الصبا ولو أنه وصل إلى عمر متقدم عن عمره وهو في يثرب عندما بشر به اليهود: «عن أم أيمن رضى الله عنها أنها قالت: كان بوانة عيداً تحضره قريش وتعظمه وتتسك أي تذبح له وتحلق عنده وتعكف عليه «على الصنم بوانة» يوماً إلى الليل في كل سنة فكان أبو طالب يحضره فكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد فيأبى ذلك حتى قالت: رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يوم إذن أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عبداً ولا تكثر لهم جمعاً — فلم يزلوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوباً فزعاً فقلن ما دهاك؟ قال إني أخشى أن يكون بي لم «مس من الشيطان» فقلن ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير فما الذي رأيت؟

قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل «وذلك من الملائكة» يصيح بي وراءك يا محمد لا تمسه. قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ ﷺ<sup>(٥٨)</sup>.



إن الخبر متضلع بالمعطيات النفيسة ففي فاتحته أن بوانة عبد تعظمه قريش وتتسك «تتحرق الأضاحي» وتحلق عنده وتعكف وكل هذه الشعائر انتقلت إلى الديانة الإسلامية فالتعظيم والذبح والحلق من الطقوس الجوهريّة التي تعد ضفائر مهمة في نسيج الحج الركن الخامس فيها أما الاعتكاف فهو من السنن والتي يقوم بها تبع محمد وترتفع رتبته في شهر الصيام الركن الرابع وجمعيتها تؤكد ما سطرناه في كتابنا «الجدور» أن الإسلام انتقش كثيراً من الطقوس والشعائر التي هيمنت قبل ظهوره في مكة خاصة والحجاز عامة ونسبها إلى نفسه<sup>(٥٩)</sup>.

وفي الخبر أن عمات «صاحب النسب الموصول» غضبن عليه أشد الغضب

وهاتيك العمات وكن كثيرات هن اللاتي عملت لهن سيدة نساء الأرض ألف حساب وهن تسعى لتتكحه وتغدو بعله إذ في حساباتها أن يقلن له ما الذي يدعوك للزواج من أيم في عمر أمك وتأثيرهن عليه واضح في أنهن ضغطن عليه حتى رضى بحضور عيد بوانة «فلم يزالوا به حتى ذهب» كما أن منظر عودته لهن مرعوباً فزعاً عندما طُفق «رجل أبيض» يصيح به: وراءك يا محمد لا تمسه — هذا المنظر يذكرنا بمنظره عندما رأى في المنام ملاك الرب في غار حرى وهو يأمره بالقراءة: اقرأ.. فاستيقظ وهول إلى خديجة ترجف بواده، وفي رواية سبق لنا تسطيرها يزحف على يديه ورجليه.



وهذان المنظران: منظره في بوانة عائداً لعماته ومنظره بعد يقظته من رؤيا غار حراء العجبية يوثق ما سبق لنا أن قررناه أن «قمة ذؤابة قريش» لم يعرف عنه أي اتجاه ديني قبل أن تدخله الطاهرة التجربة الفاذة لأنه ببساطة شديدة لو امتلك رصيذاً في هذا المجال لما أفزعه «الرجل الأبيض» بطل واقعة «عيد بوانة» ولما أخافه ملاك الرب الذي أتاه وهو مستغرق في النوم في قمة جبل حراء ولأدرك على الفور لا على التراخي أن لهما صلة بعوالم خبيثة مستترة ولعل ما نرقمه يزداد وضوحاً إذا قارناه بموقف سيدة نسوة قريش إذ فور ما أخبرها عن منام حرى حتى طفقت تهدئه وتطمئنه لأن لديها خلفية راسخة وهي ثقافتها الدينية العميقة التي تلقنتها من ابن عمها النصراني ورقة ومن الحلقة الخارجية «بحيرى نسطور، عداس».

ورد العمات على «أول من يفيق من الصعقة» عندما صاح: إني أخشى أن يكون بي لمم فعقبن.. ما كان الله ليبتليكم بالشيطان وفيك من خصال الخير، يعيد إلى ذاكرتنا رد الطاهرة.. والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين الكل... الخ «وهي خصال الخير» مما يتصدق علينا بدالة عميقة وهي اعتقادهم بالربط بين سلوك الشخص وما يناله من جزاء.

ورد في الخبر أن الذي صاح في «المزمل» وراءك لا تمس الصنم أو الوثن هو رجل أبيض وهو ما استقر في الوعي الجمعي أن الكائنات الطيبة والخيرة بيضاء أو تلبس ملابس بيضاء<sup>(٦٠)</sup>.

وأخيراً فإن حضور «الأمين المأمون» لم يأت عن رضى واختيار وطواعية بل بضغط عمه وكافله أبي طالب وعماته الأمر الذي يؤكد أنه عاش بعيداً عن الدنس الذي تمرغ به أصحاب فترة ما قبل الإسلام<sup>(٦١)</sup> حتى تلقفته سيدة قريش بأسرها وخاضت معه أروع التجارب التي عرفها العرب.



وعيد بوانة وقد أفصح عن أهميته سياق الخبر يشي بأن القرشيين على

بكرة أبيهم اعتادوا حضوره وشهود مراسمه وعندما تقع تلك الحادثة الغريبة لـ «محمود» فمن المرجح أن تغدو موضوع حديث الذين شهدوا العيد الوثني المهم وعند عودتهم لمنازلهم بعد انقضاء ليلته يتبادلون ما رأوه وسمعوه من طرائف وقعت وعلى رأسها ظهور «الرجل الأبيض» الذي حذر «سيد ولد قصي» من لمس الوثن — وهل ثمة أغرب من هذه الأحداث وبذا يحق لنا أن نسطر أن سماع خديجة إياها مسألة كبيرة الاحتمال.

• • •

«قال ابن سعد عن عمرو بن سعيد إن أبا طالب قال: كنت بذى المجاز مع ابن أخي يعني النبي ﷺ فأدركني العطش فشكوت إليه فقلت يا ابن أخي قد عطشت وما قلت له ذلك، وأنا أرى شيئاً إلا الجزع قال: ركبته ثم قال: يا عم عطشت؟ قلت: نعم فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا أناب الماء فقال: اشرب فشربت»<sup>(٦٢)</sup>.

هذا الخبر أورده صاحب السيرة الشامية وابن سعد في طبقاته الكبرى والكتابان يحظيان بتقدير وفير في دنيا الثقافة الإسلامية بعامة وفي نطاق السيرة المحمدية المجيدة بخاصة وهو (= الخبر) يحكى لنا عن معجزة وقعت لـ «سيد خير البرية» إذ فجر الأرض بعبه فانجست عين أو بئر شرب منه عمه وكافله أبو طالب حتى روى بعد أن كاد يهلك عطشاً وبعد أن ركبته الجزع.

• • •

«قال ابن الجوزي في الوفا: لما أتت لرسول الله ﷺ بضع عشرة سنة في سفر مع عمه الزبير فمروا بواد فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز فلما رآه البعير برك وحك الأرض بكلكله فنزل عن بعيره وركبه فساروا حتى جاوزوا الوادي ثم خلى عنه فلما رجعوا من سفرهم مروا بوادٍ مملوء ماء يتدفق فوقوا.

قال رسول الله ﷺ: اتبعوني ثم اقتحمه فاتبعوه فأبىس الله الماء فلما وصلوا إلى مكة تحدثوا بذلك فقال الناس إن لهذا الغلام شأنًا»<sup>(٦٣)</sup>.

هذه واقعة معجبة أو هما واقعتان مدهشتان جرتا على يد «صاحب الخلق العظيم» وعنده بضع عشرة سنة وهو في سفرة مع عمه الزبير وجمع من قريش ذلك أن فحلاً هائجاً يقطع الطريق ويمنع من المرور فما إن رآه البعير حتى استنوق بل برك وحك الأرض بكلكله فنزل من دابته وامتطاه وبذا استطاع الركب المصاحبون له أن يواصلوا سيرهم.

• • •

وهم في طريقهم مروا بوادٍ يفيض ماءً فتعذر عليهم المسير فتوقفوا خشية

الغرق فتقدمهم «ديان العرب» بكل جسارة واقتحم الماء فحدثت معجزة إذ جف الماء وتحول الوادي الغزير الماء إلى أرض يابسة فواصلوا سيرهم في أمان.

الذين شهدوا وعابروا بأبصارهم ولمسوا بأنفسهم عندما عادوا إلى قرية التقديس مكة تحدثوا به إلى كل من قابلهم وهذا ما ورد بالخبر وليس تخميناً أو حدساً، والذين سمعوا هذه الأخبار الخارقة لكل ما ألفوه صاحو معجبين «إن لهذا الغلام شأنًا».



وما دامت بكة كلها تناقلت هذه المعجزات فلا مشاحة أن أم هند علمت بها شأنها شأن أي فرد في القرية المباركة وفي ذيك الوقت تجاوزت الثلاثين في مذهب من يرى أن الفارق العمري هو خمسة عشر عاماً ونحن نرى أنها ناهزت الأربعين وعلى كلا الفرضين فهي في قمة نضجها العقلي والوجداني والنفساني.

فقدرت هذه الأخبار حق قدرها ووضعتها بجوار مثيلاتها وسائرهما عاضدها على اختيارها لـ«المعطي مفاتيح خزائن الأرض» كما تخوض معه التجربة.



في مسيرة حياة «المزمل» وقائع صغيرة بيد أنها تشي بأن الخوارق لازمتها ولم تفارقه ليؤكد أنه هو «القادم المأمول» الذي تقطعت الأعناق في انتظار ظهوره والذين فعلوا هم فئة المتقنين أو الأنتلجنسيا العرب بعد أن اتصلوا بأهل الكتاب وعلّموا منهم بأنه قد أطل زمانه وعلماء أهل الكتاب رهبان وأخبار وقساوسة بل والكهان سدنة الأصنام حسب ما ذكره الإخباريون.

ومن هذه الخوارق الصغيرة ما حدث له وهو صبي يافع يلعب مع لداته لعبة نقل الأحجار التي تستلزم أن يخلع الواحد منهم إزاره ويضعه على عاتقه ليقبى به قسوة مس الحجارة وما تسببه من خدوش وتسلخات وجروح... الخ.

وهنا تتكشف عورته ويراها أقرانه وغيرهم من المارة وعابري سبيل والقارئ الذي لا معرفة له بأحوال المجتمع المبتدى يدهش ويسأل كيف: ألا يرتدي الواحد منهم لباساً يستر عورته؟

وتأتي الإجابة هنا بالنفي ففي المجتمع المبتدى لا يعرف رجاله ونسوانه السرورات لا في داخل الخيام والأخبية والمنازل والدور ولا في خارجها إلا استثناء، والاستثناء لا يقاس عليه ولولا مخافة الإطالة والخروج البين على السياق لأوردنا وقائع مشهورة مؤيدة ولعل تعود أبناء مجتمعهم إناثاً وذكوراً على البقاء بدون سراويل وهو أحد الأسباب المهمة «ولا نقول السبب الوحيد» في التهاب الغريزة الجنسية لديهم وتماس النوعين بمنتهى السهولة<sup>(٤٦)</sup>.





## ونعود إلى السياق:

وإذ لا يليق بـ «القادم المنتظر» أن يرى الناس عورته — فما إن فعل «أول من يفيق من الصعقة» حتى لكمة لاكم غير منظور بقسوة وأمره بأن يشد إزاره عليه فامنتل وطفق من دون زملائه يحمل الأحجار على عنقه رغم ما فيه من عنت ومشقة عليه.

«قال ابن إسحق: وكان رسول الله يحدث عما كان يحفظه في صغره من أمر الجاهلية أنه قال: لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الصبيان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبتة يحمل عليه الحجارة فإني لأقبل معهم وأدبر إذ لکمني لاکم لکمة شديدة ثم قال شد عليك إزارك، قال فأخذته فشدته عليّ ثم جعلت أنقل الحجارة على رقبتني وإزاري عليّ من بين أصحابي...»<sup>(٦٥)</sup>.

إن لعبة الأطفال الصغار بنقل الحجارة لعبة قاسية ولكنها تتفق مع مستوى البيئة الصحراوية المتجهمة الخشنة ومع الدرجة الحضارية العجفاء للمجتمع المتخلف.

كما أن اعتياد الصبيان على كشف عوراتهم بحضور لداتهم والسابلة يؤكد مألوفيته عندهم وعدم عده عيباً أو إخلالاً بالحياء أو خروجاً على الأدب ويقدم لنا مقطعاً من أخلاقيات تلك النوعية من البشر. ويؤكد لكل من له عينان مدى النقلة الحضارية التي نقلهم إليها «سيد الخلق» بإعلانه الديانة الإسلامية التي دعا إليها.



ثم تكررت ذات الحادثة وهو مع عمه وكافله وحاميه أبي طالب إبان مساعدته في معالجة البير المقدسة زمزم ونحن نعرف أن الذي حفرها عبد المطلب والد عبد مناف «أبي طالب» وجد «الحبيب المصطفى» ومن ثم فإن رعايتها والعناية بها فرض واجب عليهما وعلى كل هاشمي:

«أورد الحلبي في سيرته أن هذه الواقعة حدثت لـ «صاحب القبلتين» وهو غلام في كفالة عمه أبي طالب الذي طفق يعالج زمزم وأخذ هو يساعده بنقل الحجارة فأخذ إزاره ليتقي به الحجارة فوق له ما فصله الخبر السابق»<sup>(٦٦)</sup>.

ولم يشفع لـ «أحمد» أنه اشتغل لصالح أكثر البيار قداسة سواء قبل الإسلام أو بعده فإنه في نظر الكائنات العلوية التي تكلاه بحفظها ليس مبرراً لإظهار عورته لأن ذاته مصونة على أي حال وأثناء أي عمل حتى لو اتصل برمز مقدس.



وفي مرة ثالثة رفع «أول من تنشق عنه الأرض» إزاره فانكشف فوقعت عليه القوى اللامرئية جزاءً من نوع آخر بخلاف المرتين السابقتين أشد وأنكى «السقوط مغشياً عليه» وهذا راجع طبقاً لما نرجحه أن الجزئين الأول والثاني لم يكفاه عن تكرار العمل الذي نبهه الهاتف المخبوء إلى خطئه.

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة في حياة الرسول ﷺ مبينة لهذه القاعدة فيقول: «وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره»<sup>(٦٧)</sup>.

خلف العباس والده عبد المطلب في رعاية أمور الكعبة ويبدو أنها في ذيك الوقت احتاجت لبعض الترميم لا بنائها بناءً كلياً لأن بناء الكعبة حدث لمرات معروفة ليس من بينها واحد تم على يد العباس ولا بمعرفة عبد المطلب أبيه.

واستدعى الأمر أن يساهم أي يقدم «المحمود في الأرض والسماء» يداً بل ربما هو الذي تطوع لما عرف عنه من أخلاق رفيعة.

فما إن رفع إزاره ووضع على عاتقه ليتقى به من مس الأحجار حتى انكشف فسقط مغشياً عليه حتى أرخى عليه إزاره واستتر به.



إن الكعبة قدس الأقداس إن في الإسلام أو قبله وترميمها عمل طيب يثاب عليه من ينجزه لا أن يعاقب إنما «المنصور بالرعب قرابة شهر» أشد حرمة منها ومن ثم لا يجوز له كشف عورته ولو في سبيل إصلاحها ولذا فإن سقوطه مغشياً عليه هو الجزاء الوفاق كيما لا يعود إلى مثلها أبداً وهو ما تم بالفعل.

وختاماً لهذه الفقرة فهذه الحوادث وهي غريبة من اللازم شيوعها بين أهل بكة وترتيباً عليه لا بد أن الطاهرة قد أحاطت بها خيراً.

هذه محطة مهمة في صبا «الحاشر» وعمره آنذاك جاوز الثانية عشرة بقليل ولو أن البعض ذهب إلى أنه لم يتخط العاشرة بيد أنه قول ضعيف.

وهي تتمثل في رحلته أو سفرته مع عمه أبي طالب وعدد وفير من أشياخ قريش مع القافلة المتجهة إلى الشام وهي «رحلة الصيف» حسبما أسماها القرآن الكريم في سورة قريش.

وترجع أهميتها لما وقع فيها من أحداث وأقوال وأهمها مقابلة بحيرى الراهب ولو أنه من الصعب أن نجزم هل هو مقدم الحلقة الخارجية التي أحاطت بسيدة نساء الأرض والذي أمرها بمباغلة «البشير» والذي كتبت إليه أو ركبت إليه حتى الشام لتأخذ رأيه في الرؤيا المنامية التي قصها عليها بأن الملاك جبريل ظهر له وهو نائم في غار حراء وحفظه الشطر الأول من سورة

﴿اقرأ﴾ أول سور القرآن العظيم التي تلاها أولاً على خديجة ثم صحابته من بعده — وهل هو أسقف عموم الحجاز أم أن الأسقفية اقتصرت على مكة أم هو راهب غيره.  
والسبب في عدم الجزم هو أن مصنفات سيرة محمد التي هي أطيب ريحاً من المسك الأذفر عجزت عن أن تضبط أسماء كثير ممن ظهوروا فيها حتى أبناءه.

• • •

وعلى أي حال فإن هذا الراهب هو الذي سعى بذاته لـ «القادم المنتظر» وأعلن أنه كذلك على رؤوس الأشهاد وعلى مسمع ومرأى من أشياخ قريش وعشرات غيرهم من أفراد القافلة الأمر الذي أدهشهم وحيرهم في أن واحد.

• • •

وفي إحدى فواتح الكتاب رفعنا الستار عن خطل رأى بعض المستشرقين الفطير الذي ذهب إلى أن الراهب في هذا اللقاء انفرد بـ «صاحب الشملة» ولقنه الموضوعات والمبادئ والقواعد والأصول والأسس... الخ التي اعتمد عليها القرآن المجيد، ولقد فندناه وكشفنا عواره وبينا فسولته وأوضحنا ركنه.

• • •

والآن حان الوقت لرقم خبر هذه الرحلة<sup>(٦٨)</sup>، وذلك كي يطالع القارئ بنفسه ويدرك ثراء الخبر بمعطيات بعيدة الغور هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليقنتع بأن ذلك النفر من المستشرقين جانبه الصواب وزايله التوفيق وفارقه الصدق عندما فاه بالرأي الطفس، وخبر هذه الرحلة لا يخلو منه مصنف تراثي أو حديث ولكننا أثرنا الرواية التي حملتها سيرة ابن هشام طليعة السير وأحظاهم بالتقدير:

فضلاً عن اختصاره وتركيزه بالقياس إلى نده الذي انصوت عليه السيرة الحلبية:

«قال ابن إسحق: ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجر إلى الشام فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صب به رسول الله ﷺ فيما يزعمون فرق له وقال والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً أو كما قال — فخرج به...»

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له وكان أعلم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها، فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببخيري وكانوا كثيراً ما يمرون به من قبل ذلك

فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في الصومعة، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم، قال: ثم أقبلوا فنزلوا في شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها فلما رأى ذلك بحيرى نزل من الصومعة وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لساناً اليوم ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرى: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم، فاجتمعوا وخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحدائثة سنة في رحال القوم تحت الشجرة. فلما نظر بحيرى في القوم الصفة التي يعرف ويجد عنده فقال: يا معشر قريش ألا يتخلفن أحد منكم عن الطعام، قالوا له: يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سناً فتخلف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش يا قوم واللوات والعزى إن كان لؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم»<sup>(٦٩)</sup>.

إن كتاب «الروض الأنف» للسهيلي هو أميز الكتب المعلقة أو الشارحة لسيرة ابن هشام ومن ثم فإننا نرتدف ما جاء به بخصوص هذه الرحلة المعجبة كنتمة له:

«روى الترمذي في مصنفه قال: حدثنا الفضل بن سهل أبو العباس الأعرج البغدادي.. عن أبي إسحق عن أبي بكر أبي موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحطوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، فجعل يتخللهم الراهب وهم يطلّون رحالهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له: أشياخ من قريش، ما علمك؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروف كتفة غضروف مثل التفاحة. ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل قال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم

وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس ومال فيء الشجرة عليه، فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه.. قال: أنشدكم أيكم وليه؟ قالوا أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب.. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب»<sup>(٧٠)</sup>.

وهكذا يبين أن الخبرين يكمل أحدهما الآخر ومعا يوضحان قسما ما أطلق عليه مصنفو السيرة العطرة «رحلة الشام الأولى» تمييزاً لها عن «رحلة الشام الأخرى – الثانية» التي صحب «المعصوم عن الناس» فيها ميسرة غلام «عبد» خديجة النصراني.



وأول ما نبدأ به في تحليل الخبرين الخاصين بهذه السفارة أو الرحلة هو التساؤل: هل بحيرى هذا هو رأس الحلقة الخارجية التي تحوطت خديجة وشكلت مرجعيتها في الشئون الثقافية وهل هو الذي أصدر إليها أمره صريحاً بأن تتكح «راكب الحمار» وتغدو هي له بعلاً وشاركه في هذه النصيحة غلامها النصراني ناصح عضو الحلقة الداخلية. والذي يؤكد الإجابة بنعم هو أن أم هند صرحت لمبعولها «النذير» بعد أن نكحته أن الأمر أو المشورة مضت عليها عشرون حولاً. فإذا لم يتجاوز وقتها الثالثة عشرة فمعناه أنه عندما أخبرته بالمشورة بلغ الثالثة والثلاثين أي مضى على نكاحها إياه ما يقرب من عشر سنوات، أي سلخ في التجربة ما يزيد على سبعة أعوام إذ من العسير مصارحته قبلها.

ونستمر في السياق فنسأل هل بحيرى هذا هو ذاته أسقف الحجاز أو مكة؟ الإجابة على هذه الأسئلة بردود قواطع أمر وعر غاية ما تجيء الوعورة ومرجعه كما قلنا: افتقار أصحاب السير للدقة ولأنهم عرب وعهدهم بالعلوم وتدوينها قريب.



ورد في القصة أن «الساجد» أنه ما إن قرب من الشجرة الكائنة في حرم صومعة الراهب وجلس تحتها حتى أظلمته وتهصرت أغصانها ومال فيئها عليه وليس هذا فحسب بل إن الراهب اتخذ دليلاً على أن «سبيل الله» هو الذي طال انتظار الناس لقدمه وفي روايات أخرى بأنه ما جلس تحت الشجرة إلا نبي أي أنها مقدسة.

والشجرة المقدسة حالياً ترتبط بأضرحة أولياء الله الصالحين فهناك العديد منها يضم حرمة شجرة من هذا النوع يتبرك بها الناس وقد ينسبون إليها بعض الكرامات، وهذا لا شك ميراث من العقائد السوابق «الأشجار»

المقدسة التي ترتبط بصريح أحد الأولياء ارتباطاً وثيقاً به حيث إن الولي وروحه لا تكون لها أي فاعلية أو تأثير إلا من خلال الشجرة وفي هذه الحالة تظل الرابطة بين الولي والشجرة شديدة القوة بحيث تصبحان شيئاً واحداً تقريباً ولا يكون للولي وجود إلا بسبب من الشجرة والعكس بالعكس»<sup>(٧١)</sup>.

والدور الذي لعبته الشجرة هنا هو أنها شكلت دليل ثبوت على أن «المانع» هو «المأمول» وتقديس الأشجار إرث من الديانات السامية القديمة، وقد درج عرب ما قبل الإسلام على تقديس الأشجار بل تعيدهم إياها وأبرز مثل تقدمه «ذات أنواط» فهي شجرة كانت بالقرب من مكة وكانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها»<sup>(٧٢)</sup>.



والشجر الذي حول الكعبة فيه قدر من القداسة فلا يقطع ولا يعضد وقد انتقل تقديسه إلى الإسلام من الحقة التي تقدمته «ولهذا كانت أشجار حمي الكعبة أشجاراً مقدسة لا يجوز قطعها ولا احتطابها...»<sup>(٧٣)</sup>.

وفي حي المطرية بالقاهرة توجد شجرة ينظر إليها أهلها بعين القداسة بمقولة أن العائلة المقدسة «مريم ويوسف النجار وابنها عيسى» قد استظلت بأغصانها من الرحلة المباركة من الناصرة من أعمال فلسطين إلى صعيد مصر هرباً من بطش الطاغية الروماني حاكم فلسطين.

وهكذا فإن جلوس «الموقن» تحت شجرة حمي صومعة الراهب بحيرى أصبح مؤشراً على أنه القادم الذي طال انتظاره، وثبت اليقين لديه بالإضافة إلى علامات آخر مثل: إظلال الغمام عليه فأخذه وأعلن صائحاً أو صاح معلناً وبأعلى صوته أن هذا سيد العالمين ورحمة الله لهم وأنه الذي انتظره هو وسلفه الذين سبقوه في سكنى الصومعة وكذا عاين بين كتفيه خاتم النبوة فلم يعد لديه شك.



وإذ أطبق مصنفو السيرة المحمدية التي هي أطيب رائحة من زعفران قم على أن تظليل الغمامة عليه ثم الخاتم الكائن أسفل غضروف كتفه الشريف هما الآيتان اللتان دفعنا الراهب النصراني على التصريح بأنه هو الذي تشوف الناس إليه من أماد بعيدة، ولكننا نخالفهم فيه لأن الغمامة قد يقال إنها قطعة غيم مثل غيرها من مئات قطع السحاب التي تملأ السماء، أما الخاتم فما هو إلا قطعة لحم وكثير غيره لديهم قطع لحم زائد في العديد من المواضع في أجسادهم، إنما الذي لا مرية فيه هو جلوسه تحت ظل الشجرة «المقدسة» التي لم يستظل بها أحد بعد المسيح ابن مريم سواه وتهصر أغصانها وميل فيئها عليه. فالكائن «المقدس» ما فعله إلا بأمر من

السماء وإشارة من كائن علوي وبالتالي فهو ذاته شخص غير عادي له كينونة خاصة، ونحن نستند في هذا ما تقوله الأنثروبولوجيا عن مقام الشجرة لدى غالبية الشعوب في عقائدها وخاصة لدى الساميين ودياناتهم القديمة السابقة على الديانات السامية الإبراهيمية.

• • •

إنما الذي يعيننا في هذا الخبر وتكلمته في المقام الأول هو أن ما صرح به الراهب علانية ثم على مرأى ومسمع من جميع أفراد القافلة وعلى رأسهم «أشياخ قريش» بل إن بعضهم حاج بحيرى وطلب منه البرهان على ما قاله إن «حبيب الله» هو سيد العالمين والمنتظر والرحمة المهداة من رب العالمين، «فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟» فرد عليه.

إن هؤلاء جميعهم عندما قفلوا راجعين إلى وطنهم مكة لا بد أنهم أخبروا أهلهم وخالانهم وأصدقاءهم بما فعله الراهب معهم وما قاله في حق «أبي القاسم» لأنه كلام غريب على أسماعهم، فهم قد مروا عليه عشرات المرات فلم يعبأ بأي واحد ولم يقدم لهم في أي مرة شربة ماء قراح فما الذي دفعه هذه المرة على قراهم وعلى التفوه بما تفوه به؟ والذي أدلى بهذا الكلام ليس شخصاً عادياً بل هو زاهب له باع طويل وقدم راسخ في ديانة ابن مريم، وهؤلاء الأعراب يكون احتراماً يفوق الوصف لهؤلاء «النصارى» خاصة لرهبانهم الذين «عندهم علم الكتاب» فحازوا رتبة منيفة، وهناك احتمال أن أشياخ قريش أولئك رأوا بحيرى في مكة وغيرها من قرى الحجاز وعلموا أنه أسقفها المبجل.

فما الذي دفعه إلى قول ما قال في حق «راكب الأتان» إلا إذا قرأه في كتبهم المقدسة أي أنه حقيقة وهذا لا شك آثار دهشتهم.

وهذا الإكبار وهذه الدهشة هما اللذان دفعاهم إلى رواية هذا الحديث لكل من قابلهم وفي خيامهم وأخبيتهم وبيوتهم ودورهم ومنندياتهم ومجالس سمرهم التي لعبت دوراً بارزاً في نشاطهم الاجتماعي.

فسيدة نسوة قريش بطريق الحتم واللزوم سمعته من أبيها خويلد أو عمها عمرو أو أخيها واسمه عمرو أيضاً أو غيرهم من رجال بني أسد. وأمر متوقع أن أحدهم ضمته القافلة وسمع إعلان بحيرى بأذنيه وعابن صنيعه بعينيه لا سيما وأن له في نفسها مكانة لا يساميه فيها أحد وما يصرح به لديها يعتبر حجة مسلمة وكله غدا حافراً لسعيها الحثيث لنكاح محمد تنفيذاً لقراره الذي أصدره من سنوات.

• • •

في روايات أخرى: انتحى بحيرى بـ «المثبت» جانباً وسأله عن بعض أحواله

واستحلفه بالللات والعزى فرفض أن يقسم بهما وأكد أنه يبغضهما بغضاً لا مزيد عليه والأمور التي سأله عنها قصد منها مزيداً من التثبيت والتأكد أنه هو دون غيره الذي نصت عليه الكتب المقدسة وليرشحه لسيدة نساء قريش كيما تتكحه وتصير بعله دون غلط لأنه شأن ذو خطر جسيم يتعين التثبيت منه إنما بعض المستشرقين الحاقدين على «المستعنى» والذين وقعوا في حاص باص بشأن القرآن المجيد<sup>(٧٤)</sup> وخابوا واختلّفوا في معرفة كنهه وكيفية ظهوره وكيف أعلنه للناس «الراضع» فادعوا أن الراهب بحيرى «أسقف الحجاز ومكة» هو الذي غذاه بموضوعاته وأنه هو الذي عبر عنها بلغته العربية الفصحى..

وهو زعم فسيد يبعث على الضحك حتى الاستلقاء على القفا..

إذ كيف في هذا اللقاء القصير يتمكن الراهب الأسقف أو الأسقف الراهب من تزويده بكل هذه الموضوعات المختلفة والمتباينة والمتعددة التي احتواها القرآن الحكيم؟ وأنى لمحمد أن يستوعبها وهو في سنه الصغيرة «نسبياً» والمشار إليه أنفاً وأن يحتفظ بها في ذاكرته لمدة تزيد على ربع قرن، لأن الإجماع انعقد على أنه تلا أول سورة ﴿اقرأ﴾ وهو في الأربعين من عمره؟؟

إن هذا الادعاء يثير الإشفاق المقرون بالسخرية ويقطع بإفلاس أولئك المستشرقين فكراً، ونحن ننصح من بقى منهم على قيد الحياة وتلاميذهم ومشايخهم ومقتفى آثارهم والسائرين على دربهم أن يقرأوا كتابنا هذا بدقة وإمعان وتأن لتفتح بصائرهم ويعرفوا كم بلغت بهم العباطة عندما طرحوا رأيهم الفطير<sup>(٧٥)</sup>.

• • •

أسلفنا بعض الخوارق التي رافقت «الراضى» في صغره ويفاعته وصباه وكلها تؤكد مذهبنا أن الأعاجيب والمدهشات ظلت تحدثه منذ قبل التقاء أبيه بأمه ثم بعده وفي مراحل المتعاقبة مرحلة إثر مرحلة وجميعها تقطع أنه «المنتظر» والأهم أن خديجة طفقت ترقبها وتلاحظها.

بيد أن التي رفعت كل شك هي المعجزة التي سوف نببحثها بقدر واضح من الإسهاب تستحقه لأنها غدت الباب الملكي الذي دخلت منه التجربة التي فاقت كل تجارب القرون الوسيطة في سموها وعظمتها.

• • •

من جماع ما تقدم من خوارق ومدهشات ومعجبات لفتت نظر خديجة وقد أوردنا أنها وضعت «المنقذ» تحت رقابتها وقدمنا سندنا ودليلنا أخذ اليقين يتسرب إلى داخلها أنه هو المأمول والمنتظر فأخذت تقترب منه كيما تختبره عن



قرب لأن المعجزات وقد انتهت إليها ممن تثق فيه واستفاضت وانتشرت فغدت أخباراً متواترة إلا أنه كما يقول المثل ليس الخبر كالعيان وليس راء كمن سمع، وحتى تنتقل من اليقين إلى عين اليقين كما يحكى السادة الصوفية بدأت باستجاره ليخرج بشطر من تجارتها إلى سوق حباشة وعند فقوله تنتظره وقد خبأت له تحفة أو طرفة من طعام وقد أثنى عليها خيراً لهذا الصنيع ووصفها بأنها أحسن صاحب عمل وسبق طرح الأسانيد المؤيدة.

وفي أثناء تناول التحفة الأطروفة وتبادل الحديث تتفرس فيه وتلاحظه عن قرب، وهنا توثق لديها اليقين وبقي الارتقاء إلى موقف عين اليقين، فأرسلته أجيراً لها ليضارب في أموالها في القافلة المسافرة إلى الشام وقد بلغ نصيبها فيها شطر «نصف» عروضا وهو مال جسيم، وبعثت معه غلامها وموضع سرها ميسرة عبدها النصراني الذي يعمل لسنين عديدة لا ليغدو عيناً عليه، حاشا وكلا فهو «الصادق الأمين» الذي اشتهر بالصدق في القول والأمانة في العمل، إنما ليرقب أحواله الأخرى التي تهمها في المقام الأول وما يحكيه عنه رهبان الشام النصراني والعبد المذكور ربطته بهم علاقة متينة لاتحادهم في العقيدة.

• • •

ولقد تحدثنا عن هذه الرحلة في الفصل الحامل العنوان «هذا الشاب لا بد أن أباعله» من الزاوية الخاصة بموضوعه «= الفصل» بيد أن هناك زوايا أخرى يتطلب جوهر هذا الفصل «الحالي» تمحيصها والتنقيح فيها ولا نريد أن نكرر أن هذه السفرة هي الفرقان الذي فرز بين التردد والحسم والحيرة والاطمئنان والتخبط والاستقرار.

• • •

وخير ما نبدأ به هو رواية مقدم المصنفين في السيرة المحمدية التي هي أطيب ريحاً من بخور الهند نعني سيرة ابن إسحق: البحر الذي اصطف على ساحله من جاء بعده ليغترفوا منه.

حدثنا أحمد: حدثنا يونس عن ابن إسحاق قال: وكانت خديجة ابنة خويلد امرأة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم وكانت قريش قوماً تجاراً. فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة فقبله منها رسول الله ﷺ، وخرج في مالها ذلك ومعه غلامها حتى قدم الشام فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة من الرهبان فاطلع الراهب على ميسرة فقال: من هذا

الرجل الذي نزل هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم رجع قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة فكان ميسرة فيما يزعمون يقول إذا كانت الهاجرة في الحر يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً وحدثها ميسرة عن الراهب وعما كان يرى من إضلال الملكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة مع أراد الله عز وجل به من كرامته، فلما أخبرها ميسرة عما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم اني قد رغبت فيك لقرابتك مني، وشرفك في قومك وسطنتك فيهم، وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً كل قومها قد كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر على ذلك<sup>(٧٦)</sup>.

إن هذا الخبر كنز نفيس مليء بالمعطيات التي من الصعب استقصاؤها لذا سنكتفي ببعضها:

— الطاهرة هي التي سعت لاستئجار «صاحب الشملة» لصدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فهذه هي صفات «القادمين والمأمول فيهم... الخ» كما قرأتها في الصحائف المقدسة التي عربها ابن عمها ابن نوفل والتي درسها إياها أعضاء الحلقة البرانية، بيد أنه لا بد من تكميلها بعبارات إيجابية هي التي سوف بخيرها بها عنه علماء نصارى الشام والتي سوف يحكيها لها عبدها المخلص ميسرة، أنه نزل في ظل الشجرة قريباً من صومعة الراهب ومنذ قليل رفعنا الستار عن أهمية الشجرة التي تقع في حرم الصوامع والأديرة والكنائس وحالياً في حرم أضرحة الأولياء.

— إن الراهب أصيب بما يشبه الصدمة لأنه «ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي» وهذه أول الدلائل للوصول إلى درجة عين اليقين إذ صرح «الراهب» ولم يجمع أن «راكب الحمار» وقد فعلها فهو لا بد أنه الذي طال انتظاره ونفذ الصبر في ظهوره هلاكه.

— في الهاجرة منذ بدء الرحلة ما انفك ميسرة يرى ملكين إذا اشتد الحر وتفاقت حمّاره «شدة القيظ» يظلاله من الشمس وهو يسير على بعيره.

— ورد في الخبر أن سيدة نساء الأرض ما إن أخبرها الرقيق النصراني بالذي رأى وسمع حتى هرولت تخطب «صاحب النعلين» وتنتقل إليه رغبتها في نكاحه وأن تصير له بعلاً.

• • •

عدد من المصنفات أكد أن عقدة النكاح انعقدت بعد حوالي شهرين فحسب وهنا يرتفع سؤال على مستوى رفيع من الوجاهة: لم هذه العجلة؟

لأنها سعدت من درجة اليقين إلى التالية لها وهي عين اليقين فلم التريث والتأني والتباطؤ. هذا بالإضافة إلى الأسباب التي وضعناها في حجر القارئ في فصل «هذا الفتى» التي دعت الطاهرة إلى سرعة نكاحه ومباعلته.

يطلق على تفسير الطبري «عمدة التفاسير» ونحن قلنا عن سيرة ابن إسحق «عمدة السير» ورائدتها بيد أننا لا نكتفي بها بل نأتي ببعض ما جاء في عدد من المصنفات عن هذه الرحلة الفارقة.

لماذا؟ لأنها ألفت الضوء على جوانب تجاوزها ابن إسحاق ونجد فيها أقباساً منه تنير الطريق ونحن نمضي في التحليل.

— «في سفرته الثانية للشام لحساب خديجة قالت لغلماها ميسرة لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً... فخرج هو وميسرة وعليه غمامة تظله وجعل عمومته يوصون به أهل العير فخرج حتى قدم الشام فنزلاً في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له نسطورا فاطلع الراهب إلى ميسرة فسأله عنه فقال: رجل من قريش، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه، قال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء ويا ليت أنى أدركه حيث يؤمر بالخروج»<sup>(٧٧)</sup>.



حمل إلينا هذا الخبر عدد من المصادر ذات قدر رفيع يجيء على رأسها سيرة ابن هشام والسيرة الشامية وتاريخ الطبري وعيون الأثر، ومرجعان يتعذر علينا أن ندعى أنهما من المراجع العالية المكانة بيد أنهما نقلنا من مصادر محترمة.

وقد أهدوا لنا وقائع تخبئ مدلولات عميقة:

— أم هند أصدرت أوامر مشددة لرقيقها النصراني ميسرة أن يطيع «الحبيب المصطفى» ولا يعصى له أمراً ولا يخالف له رأياً وهذا يدل على أنها لم ترسل عيناً عليه بل ليتعرف على أحواله الأخرى.

— اسم الراهب نسطور وسبق رصد الاختلاف البين في اسم الراهب الذي التقاه في سفرته الأولى.

— جاء ذكر الحمرة التي لم تفارق عينيه والتي عدها نفر من علماء أهل الكتاب علامة مادية أو جسدية لا بد من وجودها في «المنتظر» ويبدو أنه منصوص عليها في كتبهم.

— نزوله تحت الشجرة التي يضمها حمى صومعة الراهب وأن ذلك دليل لا يقبل الممارسة على أنه القادم المنتظر وأنه آخر المنتظرين «بفتح الظاء».

— تأكيد نسطورا أنه «هو» وأن يطول عمره حتى يدركه عندما يؤمر بالخروج، وأن من نافلة القول أن نسطر أن الرقيق النصراني أخبر سيدة نساء قريش بها جمعاء إذ إنها ما أرسلته معه إلا من أجلها «= الأخبار».

— ربط نسطور بين شجرة صومعته والنازل تحتها وصيرورته الآتى الذي أمضهم انتظاره.

— لم يذكر أن ميسرة رأى ملكين أظلاه من حر الشمس بل هي غمامة ولا معجزة فيها لأن وجودها أمر شبه مألوف ويمكن أن يُدعى أن القول بأنها خصت «المدني» بظلمها فيه قدر من التوهم أو التخيل.

أما أن ملكين هما اللذان أظله فمن الصعب تليفقه خاصة وأن سيدة قريش رأتهما وأرتهما نفيسة بنت منية «سفيرة الزواج» وسائر نسوانها وهي جلوس في علية الدار وهو أحد أسباب وصولها إلى حالة عين اليقين أنه «هو».

— «فلما كانوا بمرّ الظهران قال ميسرة للنبي ﷺ: هل لك أن تسبقني إلى خديجة فتخبرها بالذي جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك، فركب النبي ﷺ قعوداً أحمر فتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهر وهي في علية «غرفة» لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية، فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها فعجبين «تعجبين» لذلك.. فركب رسول الله وصعدت خديجة تنتظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه... هو»<sup>(٧٨)</sup>.

ونعود إلى سياقة الخبر الثاني:

إذا صح ما جاء به أن غمامة هي التي قامت بدور الإضلال فكيف نوفق بين الخبرين؟ كل المقصود أن قوة عليا سعت لحمايته فسخرت ما يمنع عنه حر الشمس الحارق فسيان تمثل في صورة ملكين يحملان مظلة أم فلا أهمية له. بيد أن وجود الملكين المظلين هو الغالب لدى أمهات كتب السيرة التي هي أفيح من المسك الخالص.



«ثم انصرف أهل العير جميعاً وكان ميسرة يرى رسول الله إذا كانت الهاجرة واشتد الحريري ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره وكان الله تعالى قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة كأنه عبد لرسول الله ﷺ»<sup>(٧٩)</sup>.

فهنا ثلاثة كتب من أهم دواوين السيرة:

«سيرة ابن هشام» و«السيرة الشامية» و«طبقات ابن سعد الكبرى» أوردت أن المملوك النصراني أحب «صاحب الهراوة» حتى تحول إلى رقيق له أو كاد. إنما لم يؤثر على المهمة التي كلفته بها سيده: فقد لازمه كظله لا يفارقه ومن ثم يعرف كل صغيرة وكبيرة عنه هو ذاته ما هدفت إليه الطاهرة وندبته إليه.

• • •

وهو ما حدث بالفعل ورأينا العبد النصراني يقص على مالكته وقائع بعضها ليس كبير الأهمية: «ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعته فقال الرجل: احلف بالللات والعزى. فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخالبه: يا ميسرة هذا نبي هذه الأمة والذي نفسي بيده إنه هو تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم فوعى ميسرة ذلك»<sup>(٨٠)</sup>.  
الرجل هنا يستحلف «المزمل» بالللات والعزى فيرفض ولا غرابة فيه فقد عاش حتى الثامنة من عمره وهي سن الإدراك لا البلوغ مع جده عبد المطلب أحد الأحناف الذين نبذوا عبادة اللات والعزى وغيرهما، وبالتالي فإن الحلف بهما في نظره كبيرة من الكبائر وركس من الشيطان.

• • •

أما عجز الخبر فهو الذي يستحق وقفة عنده:  
كيف عرف الرجل أن «رحمة الله للعالمين» هو الذي طال انتظاره، إنه ليس راهباً ولا حبراً بدليل قوله: «إنه هو تجده أحبارنا... الخ» فلو أنه منهم لقال: «الذي نجده منعوتاً في كتبنا». وما الذي دعاه للخلو بميسرة لكي يخبره؟ هل هو سر؟ أم يتعين ألا يسمعه «هو»؟ ولماذا؟  
لا توجد إجابة مقنعة لهذه الأسئلة إنما الأمر المؤكد أن الرجل له معرفة سابقة بالرقيق إذ ناداه باسمه ثم خلا أو انفرد به شأن من يعرفون بعضهم بعضاً.

• • •

### وآخر قليل الأهمية:

«وقبل أن يصلوا إلى بصرى أعيا بعيران لخديجة وتخلف معهما ميسرة وكان رسول الله في أول الركب فخاف ميسرة على نفسه وخاف على البعيرين فانطلق يسعى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأقبل رسول الله ﷺ إلى البعيرين ووضع يده على أخفافهما وعودهما فانطلقا في أول الركب ولهما رغاء»<sup>(٨١)</sup>.

وترجع ضالة هذا الخبر إلى أنه لا يرتبط بمجريات السفارة ارتباطاً عضوياً إذ يمكن أن يحدث في أي زمان وأي مكان ولكن ذكره للطاهرة قد يزيدنا اقتباساً بأن «المطهر» هو المأمول وأن الحادث المعجب يضاف إلى رصيد الخوارق التي دأبت سيدة نساء قريش على اختزانها في ذاكرتها الحافظة.

بيد أن عبارة وردت فيه شددت الانتباه وهي «وعوذهما» ولم يصف «بالله» وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه بعد استقراء سيرته التي هي أحلى من سكر الأهوار أنه قبل أن تتكحه خديجة لم يعرف له اهتمام عقائدي.

قال ابن إسحق: «فلما رأت خديجة أن تجارتها قد ربحت أضعفت ما سمت له وكانت قد ذكرت لورقة وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلاله. فقال ورقة: يا خديجة إن محمداً نبي هذه الأمة وإنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر هذا زمانه وقال في ذلك شعراً»<sup>(٨٢)</sup>.

هذا الخبر الذي نختم به أفصوصة السفارة الثانية «الأخيرة» للشام يشكل بداية تعاون الهندوز واليعسوب في معالجة التجربة المدهشة.

### إذ سبقت الزواج الميمون.

قبل قراءتي لهذا الخبر اعتقدت أن بدءها الفعلي وقع عند إتمام عقدة النكاح في دار خديجة وقد رقمنا «كتبنا» التفصيلات في حينه إنما بعد أن وقع بصري عليه أدركت أن التعاون العملي انطلق من لحظة ذهاب أم هند إلى القس لتحيطه علماً بدقائق السفارة ففيها صرح لها بأنه «هو» وأنه المنتظر وأنه خص بهذه الأمة.

وقد جاء فيه أن ما كان يظله هما الملكان لا غمامة؛ مما يقطع بأن الخبر الذي ضم بين طياته مسألة الغمامة جانبته الصحة أو ربما هو سبق قلم وكما ذكرنا لا يغير من مغزى الخبر.

إن هذه هي رحلة الشام الثانية أو الأخيرة وكما استبان تستأهل الوقفة المستأنية والتفصيل المطول والتحليل المستقصي لأنها شكلت مفترق الطرق إذ بما حدث فيها أرسلت لدى الطاهرة عين اليقين أنه «هو»، الأمر الذي وزّها وعلى عجل أن تتكحه وتصبح بعله ولتبدأ معه تجربة رائعة من أروع تجارب التاريخ الوسيط.



### سؤال هام:

لماذا تجاهل كتاب السيرة المحدثون المعجزات والخوارق، التي سبقت وواكبت وأعقت ولادة محمد واستمرت معه في طفولته وصباه بل وشبابه والتي أثبتتها كتب التراث بكم هائل.

ولم أعرضوا عن التنبؤات التي أطلقها الكهان الوثنيون ورجال الديانتين اليهودية المسيحية عن قرب ظهور قادم جديد والعلامات التي يتميز بها؟

دعك من أخبار الجن وأشعارهم... الخ مع أنها كلها جاءت في كتب تراثية على قدر وفير من الاعتبار والاحترام مثل مؤلفات ابن إسحق وابن هشام والواقدي وأحمد بن حنبل وابن سعد وأبي نعيم والبيهقي والطبراني والحاكم والدارمي وابن عساكر والسيوطي والقاضي عياض ومن بين رواتها رجال يحظون بدرجة عالية من التوقير مثل علي وابن عباس وابن عمر وعائشة وعمار ثم الزهري ومجاهد ونافع بن جبير وعطاء، بل إن بعضاً إذا شئنا الدقة لا بأس به من هذه المعجزات والخوارق والتنبؤات حملها عدد من الصحاح الستة على رأسها البخاري ومسلم؟

**بماذا نعلل هذا المسلك من قبل هؤلاء الكتاب؟**

**هناك عدة افتراضات:**

**أولها:** العقلانية وهي أن هذه المعجزات والخوارق والتنبؤات لا تتفق مع العقل وتند عن المنطق وتتبو عن التفكير السليم.. الخ وهذا في رأينا منهج فطير لأنه يقيس عقلانية القرن السابع الميلادي بعقلانية القرن الحادي والعشرين هو قياس مع الفارق بل الصادع العميق لاختلاف الأحوال الثقافية والإدراكية والمعرفية والدرجة الحضارية بين كل منهما..

فالمنهج العلمي السديد يتطلب وضع هذه الفروق في الحسبان.. وكما أن إنسان القرن السابع الميلادي — خاصة في منطقة الحجاز — له تقاليده وأعرافه وعاداته وأنساقه الاجتماعية والاقتصادية الخ، وله طرائقه في المأكل والملبس والمركب.. الخ إذن بطريق الحتم واللزوم لا بد أن يكون له نظامه الخاص في التفكير والإدراك والفهم والاستنباط.. الخ وبإيجاز له عقلانيته الخاصة به.. وعلى هذا فقياس طرائق الإدراك والمنطق والمعقولية الخاصة بالقرن العشرين على مثيلاتها منذ أربعة عشر قرناً هو عقلانية متوهمة.

**ثانيهما:** في رأيهم أن هذه المعجزات والخوارق والتنبؤات تغض من قدر محمد وتنال من مكانته وهذا افتراض ينافي المسلك الذي سار عليه محمد ذاته ذلك. إننا عندما نقرأ سيرته ولو حتى قراءة عجل نجد أنها انطوت على شطر وسيع من المعجزات والخوارق بدأت بمعجزة شق القمر في مكة والتي أشار إليها القرآن في إحدى سورته.. ثم استؤنفت تارة أخرى في منتصف المدة التي مكثها في يثرب واستمرت إلى ما يقرب حتى ساعة انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً<sup>(٨٣)</sup>.

**ثالثهما:** إن جل الكتاب المحدثين ينظرون إلى هذا الجانب من المؤلفات

التراثية نظرة تعالٍ تصل إلى حد الامتهان والازدراء وهذا تصرف يتسم باللاموضوعية ربما ينتصب دافعه من قبل التظاهر بالحدائثة أو غيرها، وأياً كان الباعث الحثيث عليها فإن اللاموضوعية تدمغها..

ليس معنى ذلك أننا ندعو إلى الأخذ بكل ما في تلك المؤلفات وتبنيه والدعوة إليه.. فهذا ما لا يقول به من لديه أدنى مسكة من إدراك أو ذرة من عقل... ولكن ما نتطلبه من المحدثين أنهم عندما يتناولون بالدرس والتفكير والتمحيص مسألة تاريخية خاصة التي تتميز بالتوهج والطزاجة والبيكاره والدهش.. الخ الا يغضوا الطرف عن النوازل والأخبار والوقائع التي سبقتها وحادثتها وأعقبها والتي نفحتها فرادتها وخصوصيتها وتوحدتها ذلك أنها تجربة معجبة ليس لها نديد أو نظير أو مثيل في التاريخ الإسلامي كله على طوله وعرضه.

إن فصم هذه المعجزات والتنبؤات والخوارق من سياقها التاريخي فضلاً عن أنه مسلك يتسم بمجافاة الموضوعية ومنافاة المنهج العلمي فإنه سوف يفقد التجربة حرارتها ونبضها ويحولها إلى جسد هامد فقد الحياة، ونحن لا نطلب منهم التسليم ولا التصديق بها بموازينهم هم، إنما إذا فعلنا ذلك نطلب منهم شططاً ونكفهم فوق ما يطيقون.

بيد أن الذي ندعوهم إليه هو أن يتمنوا في تلك الخوارق والمعجزات والتنبؤات في وقت حدوثها وفي مجتمعها وبيئتها.. الخ ثم يعللونها.. لا أن يرفضونها وينبذوها..

إن نأيهم والالتفات والإشاحة جانباً عنها لا يقضي عليها ولا يرفعها من كتب التراث التي وثقتها ولا من الصحاح التي روتها ولا المؤلفات التي ظلت تتناقلها قروناً عديدة.. لأنه من اليسير على أي شخص أن يسألهم: لماذا اعتمدتم على كتب التراث في نقل عشرات من الأخبار والوقائع والنوازل ثم تركتم روايات هذه الكتب ذاتها التي تحدثت عن الخوارق والمعجزات والتنبؤات؟

**ما هو المقياس الذي سمح لكم بتبني الأولى وشلح الأخرى؟**

• • •

وسواء صح هذا الافتراض أو ذلك من هذه الافتراضات أو صحت جميعها فإن تجاهل الكتاب المحدثين لتلك التنبؤات والخوارق والمعجزات يعيب مؤلفاتهم ويسمها بنسبة كبيرة من اللاموضوعية والبعده عن المنهج العلمي الرصين.

ولعل هذا يجرنا إلى تناول مسألة نرى أنها على جانب من الخطر والأهمية وهي إقدام الكثيرين على تناول موضوعات هي في حد ذاتها تنوء



بحمل كم وفير من جينات الخروج عن المألوف والدهش والعجب بل والإعجاز.. الخ دون الالتفات لذلك فهي خارقة للعادات المتعارف عليها وخارجة عن النواميس التي استقرت لدى الناس وناذة عن الأمور المألوفة في المجتمع.. هي فاذا ونادرة ولا تتكرر ولا يشهدها الأفراد إلا كل بضع مئات من السنين... الخ فكيف يصح في منطق العقل نفسه التغاضي عن ذلك كله؟ لذا فإن هؤلاء «الذين يخوضون في هذه الأمور المدهشة» يتعين عليهم أن يضعوا هذه الحقيقة في بؤبؤ عين اهتمامهم ومن بؤرة مركز عنايتهم، فهم لا يدرسون حدثاً عادياً مثل انقلاب عسكري أو احتلال دولة لأراضي أخرى أو ثورة... الخ، فمن الطبيعي والحال كذلك أن تحايث النازلة الفاذة خوارق ومعجزات، فإذا تأوا بجانبهم عنها ودرسوها كما يدرسون الوقائع العادية «الانقلاب الاحتلال للثورة.. الخ» فإنهم بذلك يكونون قد طابقوا بين شأئين غير متساويين، وهذا محض الخطأ وأس الخطأ وجرثومة الانحراف ومعدن البطلان وركيزة الفساد في محررات المحدثين الذين أفرغوها من الخوارق والمعجزات والنبوءات وهم يتناولون تلك اللحظة المبهرة التي تمركزت في واقعة غار حراء.

هذا السؤال ثار في ذهني وأنا أقرأ المراجع الحديثة التي تناولت السيرة المحمدية التي أركى رائحة من الألوة، وهي مرموقة بالثبوت المسطور في عجز هذا الكتاب، فقد لفت نظري أن غالبيتها تجاهل المعجزات مع أن أصحابها من طوائف شتى ومشارب متنوعة واتجاهات مختلفة، في حين أنهم اعترفوا بالمعجزتين اللتين وردتا بالقرآن المجيد وهما شق القمر فلقنتين والإسراء والمعراج يندرج ضمنها ركوب الدابة المدهشة «البراق» مع أنهما أشد خرقاً للنواميس الطبيعية وأوعر شأناً من الأعاجيب الأخرى التي سطرناها فيما سبق.



إذن ما علة هذا الموقف المتناقض؟ كيف يصدقون ويؤمنون بما يصعب وقوعه وإذا شئنا الدقة قلنا يعز تكرار حدوثه ويكفرون بالذي يحتمل تشبيهاً على أرض الواقع؟  
وسبق أن خضنا في هذه الخصوصية ومن ثم فلا مزيد.

**إن الإجابة بسيرة المثال وهي:**

إن المعجزتين اللتين اعترفوا بحدوثهما جاءتا في القرآن الكريم والذي ينكر حرفاً واحداً منه فقد مرق من الملة وخرج من الإسلام وغادر حظيرة الإيمان — نعوذ بالله من ذلك ونبراً منه — فيغدو حلال الدم بخلاف العقوبات التبعية التي ترتدفة. إذن الشأن في جانبهم لا شأن له بالمعقولية أو المنطقية

أو احتمال الوقوع أو القابلية للتصديق ولكنه الرعب من القتل والخوف من الإعدام والهلع من التصفية الجسدية والجزاءات المصلية<sup>(٨٤)</sup>.

### ونزيد الأمر إيضاحاً:

لنفرض فرضاً جدلياً – لو أن من أنكر حديثاً ورد في الصحاح الستة أو على الأقل في أحد الصحيحين «البخاري ومسلم» أو فيهما معاً، اعتبر مرتداً وتحول من الإيمان إلى الكفر الصراح – نسأل الله أن يثبتنا على الإيمان ويرزقنا حسن الخاتمة – وعومل معاملة المرتد لأرقلوا<sup>(٨٥)</sup> إلى الإقرار والتصديق والإيمان بها ولبادروا إلى تسويغها وتبريرها حتى ولو من باب التمحل والمماحكة والتحايل والالتفاف.. الخ وهذا هو النفاق الفكري والانتهازية الثقافية والالتواء البحثي.

إن المفكر أو المثقف أو الباحث المستقيم الخلق لا يكيل بكيلين ولا يزن بميزانين ولا يقيس بمقياس فعندما يقف أمام معجزة فإما أن يرفضها ويصرح بلا معقوليتها أو يسلم بها.

أما أن يقبل معجزة واضحة الإعجاز ثم يأتي لأخرى أقرب منها قبولاً وأدنى تصديقاً ثم يرفضها أو يتجاهلها ويطوشها<sup>(٨٦)</sup>. فهذا هو التذبذب المقيت الذي تمجه الأخلاق وتآباه قواعد البحث وألف باء الموضوعية، ونحمد الله أن عصمنا منه كله. فقد رضينا بكلا النوعين: ما حمله القرآن العظيم وما ورد بكتب السنة المشرفة والسيرة المحمدية، وولجنا بوابة التصديق لا من بوابة المعقولية ومدخل المنطقية، ولكن من طريق اتفاق المعجزات مع المستوى الحضاري والثقافي والمعرفي والعلمي والإدراكي ومطابقتها لخصائص مجتمعهم وبيئتهم ووسطهم وتفكيرهم.

من هذه المناظير تصبح صحيحة بل ونصدقهم ونفهم علة تصديقهم إياها أو قبولها ممن يتفوه بها.

### لماذا؟

لأننا قسناها بمقاييسهم ووزناهم بموازينهم وكنناهم بمكاييلهم ونظرنا إليها بعيونهم وعاييرناها بمعاييرهم.

وكما أننا نصدق – دون دهشة واستغراب واستتكار أو سخرية.. الخ أن ذكرانهم وإناتهم يخرجون من خيامهم وأخبيتهم وفساطيطهم بغير سراويل وأنهم يتداوون بالسنا والسنوات وشرطة محجم وشربة عسل والحبة السوداء<sup>(٨٧)</sup>. وأن الكسوف والخسوف عندهم من علامات غضب السماء ويتعین الدعاء لرفعهما وأنهم يعتقدون أن الأمطار من الممكن أن تهطل بمجرد ترديد بعض الأدعية وتحويل الرداء من جانب لآخر والدعاء للسماء وهو بهذه الهيئة وأن الرقى تشفى من عدد من الأمراض وأن النوازل التي

صبت على فرد أو عشيرة هي نتيجة لعين حسودة شريرة وأنه يمكن إبطال فعلها وأن المرة والدار والفرس قد تجيء منحوسة أو محظوظة.

نقول كما نصدقها جميعها عنهم فبنفس القدر نتقبل منهم إيمانهم بالمعجزات وتأكيدهم هم بوقوعها فعلاً، وأن الذي رأى منها شيئاً فقد عاينه حقيقة وعلى الطبيعة وهو عندنا غير متهم بكذب أو تلفيق أو اختراع<sup>(٨٨)</sup>. فهم أبعد الناس عنها ومن ثم فإن حكوهم عنها مليء بالدفء والحماس.. الناشئين عن التلقائية والعفوية والبساطة.

وترتيباً على ذلك فيحق لنا أن نضيف أنهم لو لم يقصّوا علينا لبدا الأمر شديد الغرابة ظاهر الدهش بادي العجب، إذ كيف لا يفرز ذياك المجتمع صاحب كل هذه الملامح والقسمات ذاك الجمع من الخوارق والمعجبات والأعاجيب، لأنها من ألزم لوازمه وأبسط موجباته ولو لم يطرحها لناقض طبائع الأمور؟

إذن نحن نؤمن بمخاريق ذياك المجتمع ومعجبات البيئـة وبأمانة أفرادها الذين نقلوها إلينا وهذا هو الفارق الصادع بيننا وبين الكتبة المحدثين إياهم الذين تجاوزوها وقفزوا عليها بحجة الاستنارة والعقلانية في حين أنه ليس لهم فيها خلاق<sup>(٨٩)</sup>.



### هناك زمانان للمعجزة يتعين التفرقة بينهما:

**الأول:** هو زمن حدوثها وتلقيها من قبل من عاينها أو شهدها أو حضرها ونسميه الزمن «المعاصر» لها.

**الأخر:** هو زمن من سمع بها أو قرأ عنها ونسميه الزمن «اللاحق» لها.

ولكل منهما أحكامه على الحدث — وهما بالضرورة مختلفان — وكلما تباعدت المسافة بينهما تباين النظر إليه «الحدث» وبالتالي تقديره.

فإذا جاء الزمن اللاحق بعد الزمن المعاصر «= لحدث المعجزة» بمائة سنة فإنه مقارب له إذ لا زالت أصدائه تتردد وربما يودج من الأشخاص من قابل فرداً أو أكثر من الذين شاهدوه أو عاينوه ومن ثم يتلقاه منهم وهو لا زال فيه نبض وأثارة من حياة وبقايا من الانفعال به — هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فالظروف الاجتماعية والثقافية والمعرفية والفكرية.. الخ تحمل بعض قسمات وملامح الزمن المعاصر «لحدث المعجزة».

أما إذا تباعدت المسافة بين الزمنين — ألف سنة مثلاً — فالأمر يختلف تماماً.. الحدث أصبح ذكرى بعيدة فإن تسيدت في الزمن اللاحق الثقافة الشفاهية ولم يعرف التدوين وجانب الكتابة، فإن صورة الحدث تغدو شاحبة وباهتة، لا نقول إنها منبئة الصلة بينها وبين الصورة الأصلية للحدث إنما تشبهها من بعيد، وعندما تتغلب في الزمن اللاحق للثقافة الكتابية وسبقه

تدوين الحدث، فإن تم عقبه بفترة معقولة فإن هيئة الحدث تحتفظ إلى حد كبير بملامحها وقسماتها مما يتيح الفرصة لتقييمها تقييماً قد لا يجيء دقيقاً تماماً بل قريب من الدقة.

ونوع الثقافة هنا هو الذي حدد الفارق بين الصورتين.

كذلك تباعد المسافة بين الزمنين – بغض النظر عن الثقافة المهيمنة، يخلق هوة من الصعب وربما من المستحيل تجاوزها أو تخطيها بين أحوال مجتمع كل زمن من كافة الأقطار والنواحي والجوانب، وهذا يساعد كثيراً على تسرب دواعي التوهين وبواعث التهزيل ودوافع الإضعاف للحدث بالنسبة للمعجزات التي لها خصوصية اعتقادية وهو ما يفسر لنا قول بعض الباحثين: هذا أمر تعجز عقولنا عن إدراكه كيف تستطيع أفهامنا القاصرة استيعابه فنكل أمره إلى الله..

وهذا ما قرأناه لبعضهم وهو يفسر آية انشقاق القمر.

أما إذا تعلق بحدث ليس له مسحة اعتقادية بحث مثل اقتحام الجيوش العربية في غزوها الاستيطاني لأنهار البلاد المفتوحة أو تناول أبي سليمان خالد بن الوليد<sup>(٩٠)</sup> السم دون أن يصاب بأي أذى. فهنا لا بأس أن ينتقل، أولئك الباحثون إلى مرحلة الشك والريبة فالإنكار.

**إن التفرقة بين الزمنين في غاية الأهمية.**

**لماذا؟**

لأن الخلط بينهما هو الذي يفرز البلبلة والتخليط اللذين وقعت فيهما الغالبية العظمى من الباحثين بتجاهلها تماماً والإعراض عنها أو رفضها دون سند واضح إلا العقلانية الزائفة، ونعيد لفت النظر إلى أن ذلك تم بخصوص المعجزات التي حملتها الأحاديث الشريفة والسيرة المطهرة التي هي غذاء الروح والوجدان.

أما المعجزات التي جاءت بها الآيات البيّنات من الذكر الحكيم فهي معصومة من أدنى ذرة تشكيك أو ارتياب جزاء عقوبة الردة وظلت هذه الحماية سارية المفعول منذ قرأها «الميسر» على أتباعه حتى الآن أي ما يقرب من أربعة عشر قرناً وربع القرن.

• • •

ثم نصل إلى المحطة الأخيرة في هذا البحث الذي ربما طال قليلاً في الفاصلة الخاصة بالمعجزات وموقف الكتبة المحدثين منها فكما فرقنا بين حدوث المعجزة في ذاته وبين حدوثها في مقالة أصحابها ومنتقياها.

فإن تشيؤ الواقعة على الأرض أمر يختلف تماماً عما يقصه عنها أصحاب أو معاصروها عنها.

وهذا ما يقول به أو قريباً منه جهاذة الحديث وصيارفته بخصوص الأحاديث الشريفة فهم يفرقون بين أمرين: صحة الحديث لذاته، وصحته في نظر راويه أو رواته.

بحسب ما ظهر للمحدث من تحقق شروط الصحة أو الحسن أو عدم تحقيقها أي ليس المراد أنه صحيح في الواقع<sup>(٩١)</sup>.

ونضيف تأييداً لوجهة النظر السابقة أن الحاكم النيسابوري في كتابه المتميز «المستدرك» يصف بعض الأحاديث أنه «صحيح على شرط الشيخين وهما البخاري ومسلم ولم يخرجاه» ولا يقول أنه صحيح صحة مطلقة.

بيد أن الكتبة المعاصرين عجزوا عجزاً كلياً عن التفرقة بين زمني الحدث أو المعجزة «المعاصر» و«اللاحق» وأخضعوا المعجزة لموجبات زمنهم «اللاحق» ومن ثم جاءت أحكامهم مجافية للموضوعية، منافية للطريقة العلمية في البحث ومخالفة للمنهج الصحيح، وبتطبيق هذه القاعدة بالغة الخطورة نجد أن سيدة نساء قريش خديجة نظرت إلى المعجزات التي لازمت «الظفور» من قبل التقاء والديه ببعضهما حتى نكحته بباصرة «عين» الزمن المعاصر لحدوثها وهذا أمر بديهي لا طبيعي فحسب إذ هي عاشت فيه ومن ثم هيمنت عليها أدواته وآلاته التي يزن بها الأحداث أي أنها اعتبرت معجزات ومخاريق<sup>(٩٢)</sup>. ورسخت لديها اليقين بعينه على أن «الفاضل. الفائق» هو «القادم المأمول والآتي المنتظر».

## الهوامش

- (١) دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ: تحقيق عبد الحلیم محمود ومحمود بن الشریف عن «الخصائص الكبرى» للسيوطي، الأول، ص ١٠٣، وعيون الأثر: لابن سيد الناس، المجلد الأول، ص ٢٦ — ٣١ مصدر سابق.
- (٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ٧٤.
- (٣) في المعجم الوجيز: الأطروفة: الملحمة والتحفة.
- (٤) السيرة الشامية: الأول، ص ٣٨٩.
- (٥) في القاموس المحيط: الفيروزآبادي، الطفاصة القدر والنجاسة.
- (٦) وفي المصباح المنير: للفيومي: الركب هو الرجب وزنا ومعنى.
- (٧) في أساس البلاغة: للزمخشري: وهزة، دفعه.
- (٨) في المعجم الوسيط: خنس، تأخر.
- (٩) السط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين: للمحب الطبري، ص ٣٠، تحقيق حمزة النشري وآخرين. هـ. ع/د. مصدر سابق، و«الخصائص الكبرى: للسيوطي، المجلد الأول، ص ١١٢، ط النشري مصدر سابق.
- (١٠) حجة الله على العالمين: للنبهاني الأول، مصدر سابق.
- (١١) السيرة الشامية: الأول، ص ١١٢ — ١١٣.
- (١٢) تاريخ اليعقوبي: المجلد الثاني، ص ٧ — ١٢، د. ت. ن، دار صادر، بيروت — أخبار مكة: للأزرقي، الأول، ص ١٥١ — ١٥٤، سابق — الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٩٣ — دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ، تحقيق الإمام عبد الحلیم محمود والدكتور محمود بن الشریف وبالداخل الإمام عبد الحلیم محمود منفرداً ص ٢٦٢، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م، كتاب الشعب، بمصر.
- (١٣) الخصائص الكبرى، للسيوطي، الأول، ص ١٩٢.
- (١٤) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٩٤.
- (١٥) في المصباح المنير: للمقرئ الفيومي، الإرقال: ضرب سريع من المشي.
- (١٦) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ١٨٢ — إمتاع الأسماع: للمقرئ، الأول ص ٣٥، سابق.
- (١٧) الخصائص الكبرى للسيوطي: الأول، ص ١٢٥، طبعة حمزة النشري.
- (١٨) الدرر في اختصار المغازي والسير: لابن عبد البر، ص ٢٩.
- (١٩) في حديث علي رضي الله عنه، البرق مخارق الملائكة، من «مختار الصحاح» للرازي، وفي أساس البلاغة: للزمخشري أصابه برق وخرق أي دهش.
- (٢٠) في القاموس المحيط: للفيروزآبادي: إجزأل: اجتمع فواده خوفاً.
- (٢١) المستدر على الصحيحين: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد — الحاكم النيسابوري: تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الجزء الثاني، الحديث ٤١٧٤/٦٥٦٥١٨٤، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- (٢٢) السيرة الشامية: الأول، ص ٢٩٣، ٢٩٤، سابق، و«الوفا بأحوال المصطفى» ابن كثير، الأول، ص ٢٠٧ — ٢١٠، مصدر سابق.
- (٢٣) اعلام النبوة: أبو الحسن علي الماوردي (ت ٤٥٠هـ) ص ١٩٥ — ١٩٦، ط أولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، و«السيرة الحلبية»: الأول، ص ٧٦، سابق و«أنساب الأشراف» للبلاذري، الجزء الأول، ص ٨٠ — ٨١، مصدر سابق، و«الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول ص ١١٦، طبعة النشري، سابق.
- (٢٤) السيرة النبوية: ابن كثير الأول، ص ٢٠٨ سابق — تاريخ اليعقوبي: المجلد الثاني، ص ٧ — ١٢، د. ت. ن، دار صادر بيروت — السيرة الحلبية: الجزء الأول، ص ١٥٥.
- (٢٥) الحديث في سيرة ابن هشام ومستدرك الحاكم — دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ٣٨٤ — ٤٥٨هـ بتحقيق السيد أحمد صقر، الجزء الأول، ص ١٩ — ٢٠، ط أولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م، نشرته لجنة إحياء أمهات كتب السنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية — وزارة الأوقاف بمصر — محمد رسول الله: آتئين دينيه وآخر، ص ٧٤ — ٧٧، مرجع سابق.
- (٢٦) إنجيل لوقا: الإصحاحان ٣١ — ٣٣.
- (٢٧) في أساس البلاغة: للزمخشري، نقه الشيء: فهمه والفارس هو صائبة الفراسة، وفي «مختار الصحاح» للرازي: يتقرس: يتثبت وينظر ومنه رجل فارس النظر وفي الحديث «لتقوا فراسة المؤمن».
- (٢٨) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١١ — الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، ٩٤ الأول، سابق ولكنه نسب قولاً مشابهاً للشفاء أم عبد الرحمن بن عوف.
- (٢٩) أعلام النبوة: أبو الحسن علي الماوردي، ت ٤٥٠هـ، ص ١٠٩٥ — ١٠٩٦، ط أولى ١٢٩٣/ ١٩٧٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان — والخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١١٦، طبعة النشري — وعيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ٢٦ — ٣٠، المجلد الأول، سابق.
- (٣٠) السيرة الشامية: الأول، ص ١٤٨ — والخصائص الكبرى: للسيوطي، المجلد الأول، ص ١٢٥ — ١٢٦

- طبعة النشرتي، الأولى عن ابن عباس «أوردها أبو نعيم في الحلية» والأخرى عن عكرمة أوردها ابن سعد في طبقاته الكبرى — الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ٨٣ — ٨٥ مصدر سابق.
- (٣١) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١٣.
- (٣٢) الموالد — دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر: د. فاروق أحمد مصطفى، ص ٢٠١، الطبعة الأولى ١٩٨٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية.
- (٣٣) قاموس العادات والتقاليد المصرية: لأحمد أمين، ص ١٨٨، الطبعة الأولى ١٩٥٣، مطبعة التأليف.
- (٣٤) رواه الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر من طرق وقال في الزهر سنده جيد أ. هـ، وصحح الحافظ ضياء الدين المقدسي.
- (٣٥) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٣١، ط النشرتي.
- (٣٦) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٣١، ط النشرتي، سابق.
- (٣٧) في المعجم الوجيز: الداية هي القابلة.
- (٣٨) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٣١.
- (٣٩) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد — المعروف بالسيرة الشامية: لمحمد بن يوسف الصالحى الشامي، الأول، ص ٤٢٣ مصدر سابق.
- (٤٠) في المصباح المنير: للمقرئ الفيومي: البخت هو الحظ وزناً ومعنى.
- (٤١) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، صفحات ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥.
- (٤٢) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧١ — والسيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨ سابق.
- (٤٣) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٤٣ — والوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، الأول، ص ١١٤ سابق — والطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٣٣ — ١٣٤ سابق — والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٢٢٥ سابق.
- (٤٤) الرتل: الكثرة مع التنسيق.
- (٤٥) في المعجم الوسيط: المقيب: ما كان كالقبة.
- (٤٦) السيرة النبوية: للذهبي ت ٧٤٨هـ، تحقيق حسام الدين القدسي ص ١٥٦ط، أولى ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، دار الكتي، بيروت، لبنان.
- (٤٧) خاتم النبيين: لمحمد أبو زهرة، الأول، ص ٤٧٤، سابق.
- (٤٨) دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ: عبد الحلیم محمود، ص ٤٣ سابق.
- (٤٩) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين: للشيخ محمد الحضري بك، ص ٧، الطبعة الرابعة والعشرين ١٩٧٨م، المكتبة التجارية الكبرى بمصر — السيرة النبوية: لمحمد بن أحمد عثمان الذهبي: تحقيق حسام القدسي، ص ٢٠ — ٢١، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان — السيرة الحلبية، الجزء الأول، ص ١٥٧ — السيرة النبوية: ابن هشام، الأول ١٩٧.
- (٥٠) السيرة الشامية: الأول، ص ٤١٤.
- (٥١) الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزي، الأول، ص ١١٤، مصدر سابق — والطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٣٣ — ١٣٤.
- (٥٢) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٣٨.
- (٥٣) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧١.
- (٥٤) السيرة الشامية: الأول، ص ٤٧٣ — والوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، الأول، ص ١١٧، مصدر سابق.
- (٥٥) الخصائص الكبرى: للسيوطي، ص ١٩٤.
- (٥٦) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ١٨٧ — الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، الأول، ص ١١٧، سابق.
- (٥٧) الوهم الشائع لدى خاصة الباحث وعامتهم أن يثرب هي المدينة في حين أن المدينة جزء من يثرب فحسب.
- (٥٨) السيرة الحلبية: الأول، ص ٢٠١ — الوفا بأحوال المصطفى: ابن الجوزي، الأول، ص ١٣٨، سابق — «عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ٤٤ — ٤٥، المجلد الأول، مصدر سابق.
- (٥٩) انظر تفصيلات ذلك في كتابنا «الجزور الإسلامية للشريعة الإسلامية» سبقت الإشارة إليه، وفي «مختار الصحاح» للرازي: انتقش: استخرج — والعامه في مصر تقول نقشها أ. هـ.
- (٦٠) كثيراً ما نسمع في الحكم الشعبي عبارة «لا بس أبيض في أبيض» أ. هـ.
- (٦١) يسمونها جاهلية هي تسمية يشيع في حناياها العبق الذرائعي بقصد تشويه صورتها والتفجير منها واستهجانها أ. هـ.
- (٦٢) السيرة الشامية: الثاني، ص ١٨٥ — ١٨٦ — الطبقات الكبرى: لابن سعد، المجلد الأول، ص ١٤٣ — ١٤٤ سابق.
- (٦٣) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ١٧٨ — والوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، الأول، ص ١٠٠، مصدر سابق — والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٢٢٥ — ٢٣٣ سابق.

- (٦٤) لمزيد من التفصيلات انظر كتابنا «مجتمع يثرب — العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخلفي» من إصدارات دار سيناء بمصر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، علما بأنه طبع مرتين.
- (٦٥) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ١٩٩ — ٢٠١ — السيرة النبوية: للذهبي، ص ٣٠ — عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ٤٤، ٤٥، الأول، مصادر سابق — محمد رسول الله: لناصر الدين آئين دينيه وآخر، هامش صفحة ٩٢ وهو من تصنيف الشيخ عبد الحليم محمود وابنه اللذين عربا الكتاب، مرجع سابق ذكره.
- (٦٦) السيرة الحلبية: الأول — والسيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٢٥٠، سابق.
- (٦٧) دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ: عبد الحليم محمود وآخرها ص ٤٦، سابق.
- (٦٨) في المصباح المنير: للفيومي، رقمت الكتاب أي كتبتّه.
- (٦٩) السيرة النبوية: لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٠٥، ط شقرون.
- (٧٠) الروض الأنف: للسهلي، الأول ص ٣٠٧ — ٣٠٨ ط شقرون.
- (٧١) علم فولكلور: الجزء الثاني، دراسة المعتقدات الشعبية، ص ٧٣، تأليف د. محمد الجوهري، الطبعة الأولى ١٩٨٠، دار المعارف بمصر.
- (٧٢) معجم البلدان: لياقوت الحموي مادة أنواط نقلا عن بحث بعنوان «يا طالع الشجرة» ل.د. صابر العادلي «مجلة الفنون الشعبية» عدد ٥٦ — ٥٧ يولييه، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٤١، من إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٧٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، السادس، ٤٤ مرجع.
- (٧٤) القاموس المحيط: للفيروز آبادي: وقع في حاص باص في ضيق ورج وشدة حتى لا يدري كيف يتصرف.
- (٧٥) في المعجم الوسيط: العباطة: البله وعدم النضج — وفي مختار الصحاح: للرازي: الفطير — ضد الخمير وهو كل شيء أعجلته عن إدراكه.
- (٧٦) السيرة النبوية: لابن إسحق، المجلد الأول، ص ١٥٣ — ١٥٤، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق.
- (٧٧) السيرة الشامية: الثاني، ص ٢١٤ — الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ٢١١، طبعة النشرتي — السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجاني، الأول، ص ١٩٣، طبعة ١٩٨٧، المكتبة التوفيقية، مصر — تاريخ الطبري: الثاني، ص ٢٨١ — ٢٨٢، مصدر سابق — عيون الأثر: لابن سيد الناس، الأول، ص ٤٩ — ٥٠ سابق، — حياة سيد المرسلين: للأبراشي، ص ٣٠ سابق — أوائل العرب عبر العصور والحقب — الخلافة الراشدة: حبوش، الثاني ص ١٠٩، سابق.
- (٧٨) السيرة الشامية: الثاني، ص ٢١٦ — والخصائص الكبرى: الثاني، السيوطي، ص ٢٠٢.
- (٧٩) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٦ — السيرة النبوية: لابن هشام تحقيق السرجاني، ص ١٩٣ — والطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١١١ — ١١٣، سابق.
- (٨٠) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٥.
- (٨١) حجة الله على العالمين من معجزات سيد المرسلين: للنبهاني، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، الأول، ص ٤٩٧، ط أولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الناشر حمزة النشرتي بمصر.
- (٨٢) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٢١٧.
- (٨٣) انظر في هذه الخصوصية كتابنا «بصائر في عام الوفود وفي أخباره» الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سيناء للنشر بمصر، ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان.
- (٨٤) في مختار الصحاح: للرازي: المصلى هو التالي للسابق.
- (٨٥) سبق شرح الفعل: أرقل.
- (٨٦) في القاموس المحيط: طوش غريمه — مظهه والعامه في مصر تقول: «طنشه» أ. هـ.
- (٨٧) العامه في مصر تسميها حبة البركة أ. هـ.
- (٨٨) العامه في مصر تقول: فيركة.
- (٨٩) في المصباح المنير: للفيومي: الخلاق: النصيب والعامه في مصر تقول «ما لهوش حظ» أ. هـ.
- (٩٠) ذلك الذي فعل الأفاعيل في حروب الردة وغيرها من الحروب الاستعمارية الاستيطانية.
- (٩١) هذا الموضوع مطروق في كتب علوم الحديث وانظر على سبيل المثال «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين» ل.د. محمد محمد أبو شهبة، ص ٥٤، السنة الثلاثون، الكتاب الثاني ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، من سلسلة البحوث الإسلامية التي يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الثانية وهو رد على كتاب «أضواء على السنة المحمدية» لأبي ربة ومن الطريف أنني اشتريت الطبعة الأولى التي ظهرت في أول الستينات بخمسة قروش أما الطبعة الثانية فيبيعه الأزره بستة جنيهات. أ. هـ.
- (٩٢) سبق ذكر المعنى الصحيح لهذه الكلمة ولسنا ملزمين بالأخذ بالمعنى الشائع المغلوط. أ. هـ.



## الفصل السادس

### أطوار التجربة الكبرى

[Blank Page]

كيف تحول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من فتى هاشمي قرشي/ ماجد إلى (المنتظر) أو (المأمول) أو (القادم) الذي تشوفت جزيرة العرب عامة ومنطقة الحجاز خاصة وتحديداً وحصر النخبة أو الإيليت أو الأنتلجنسيا إلى ظهور هلاله؟

لا يكفي أن نقول إنها أروع تجربة ظهرت في القرون الوسيطة أو أن أثارها وتوابعها وأصداءها ما زالت وبعد مضي أكثر من أربعة عشر قرناً تشغل التاريخ وتملأ الدنيا أو أنها أنتجت ديانة نافست الديانتين الإبراهيميتين اللتين سبقتاها بجدارة واستحقاق أو أن تبعها بلغ البلايين في كل بقاع المعمورة أو أن ذلك كله وغيره لم يخطر على بال الثلاثي المعظم أطرافها.

فهذه عبارات إنشائية قد تصلح مادة طيبة لخطبة منبرية ولكنها أبداً لا يجوز أن يضمها بحث علمي موضوعي يتحرى الدقة ويحرص أشد الحرص على التوثيق، وقد وصف البعض كتاباتنا بالإفراط في المبالغة في التوثيق<sup>(١)</sup>.

رغم مرور هذا الزمن الطويل عليها وصدور مئات الألوف بل ربما آلافها من المصنفات أو البحوث والدراسات الحديثة وبكل اللغات الحية فإنها لم توف السيرة العاطرة حقها من التمهيص والتدقيق والتنقيح والحفر فهي في نظرنا عذراء بكر وطازجة من الممكن أن تمنح الكثير.

بيد أن العقبة الكؤود بالنسبة للتجربة ندرة الأخبار والوقائع ثم تناثرها في مختلف الكتب التراثية: حديث — سيرة — تاريخ — تفسير — أسباب نزول — طبقات — فقه.. الخ.

وسبق أن ذكرنا منذ عدة سنوات أن الفترة من نكاح سيدة النساء زمانها خديجة (المعصوم من الناس) وتبعها إياه حتى حدوث واقعة غار حراء هي أشد فترات السيرة المحمدية — التي هي أطيب ريحا من المسك الأذفر — تعتيماً، وأشحها معطيات.

ففي حين نجد الفترة السابقة التي تبدأ منذ مولده المجيد بل قبله حتى اتصاله بالطاهرة تعج بالأخبار والنوازل والوقائع.

ثم الحقبة المصلية (التالية لها) وهي من زمن حدوث واقعة الرؤيا في مغارة حرى إلى وقت انتقاله إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا – تنفح بانوراما عريضة فيها تطالع الأخبار من كل لون ووزن.

إنما هذا التوصيف لا ينطبق على المقطع المكي من أحداث الغار المعجبة لغاية نزوحه إلى يثرب إذ هي أيضاً تتميز بالقلّة والنزوة إنما أبدا لا تصل إلى حد إبان التجربة ولا نصيفه.

نقول إنه في الوقت الذي نرى فيه هاتين الحقيقتين على الشكول التي طرحناها، نلقى سنوات التجربة الرائعة على النقيض ناضبة من الأخبار وشلة من النوازل، مليطة من الوقائع، معرأة من الحوادث.

والسؤال الذي يدب بقوة في الذهن.

لماذا غدا وقت التجربة بهذه الصورة المفردة من دون مراحل السيرة المحمدية المعظمة من جهة الندوة في الكشوف والهزال في المعطيات والشحوب في الإبانة والضمور في التوضيح؟

وسؤال آخر يرتدّف سابقه:

ولم هو دون غيره من فصول السيرة الحميدة تلقيناه بهذه الآية (الهيئة وزنا ومعنى) المعتمدة؟

• • •

في رأينا أن التجربة حرص أطرافها الثلاثة الأمانل على تكتّمها وسريتها وإخفائها عن الأعين وإبعادها عن الأذان والقيام بها وراء الحجب وخلف الستائر.

حتى الذين قدموا أيادي لفلجها أثبتوا أنهم لا يقلون حنكة ودربة وخبرة ودراية عن أبطالها الثلاثة المفخمين في حفظ السر ودفنه في أعماق حنايا الصدور.

ذلك أنهم جميعا سواء الأطراف أو المساعدون يعلمون علم اليقين أن هناك أعداء بلغوا الذروة في الشراسة والنهابة في الغشم والقمة في الجبروت إن من داخل قرية القداسة أو خارجها، خاصة أصحاب الديانتين الساميتين السابقتين وعلى وجه التحديد الأولى والأقدم والأعرق منها الذين عقدوا الخناصر وأبرموا العزم على أن يصبح كل (القادمين) منهم أي من بني إسرائيل ولو خرجت إلى غيرهم فلن تعود إليهم ما بلّ بحر صوفة.

ومن ثم فلو أقدم نفر وحتى واحد على تغيير هذا المسار فالجزاء الوفاق الذي من الحتم أن يلاقيه هو الموت الزؤام.

قرأنا فيما سبق أن الراهب بحيرى عندما عاين (الشنن) مع عمه عبد مناف أو أبي طالب في سفرته الأولى للشام نصحه بأن يعود به فورا إلى مكة لأن يهودا لو تحققوا مما فيه من علامات (القادم المنتظر) لقتلوه على الفور.. أ. ه.

• • •

من أجل هذا كله تمت التجربة الفاذة وهي مغلفة بالضباب ومكسوة بالعتمة ومدثرة بالظلول ونتيجة لذلك فلم يعلم بها إلا أفراد لا يعدون على أصابع اليد الواحدة أو اليدين.

بخلاف المعجزات والخوارق التي بدأت قبل ولادة (الروؤوف) وحايته وواكبته حتى النقطة أم هند ثم نكحته فتلك (المعجزات) شاهدها العشرات بل المئات من الجنسين منهم الأحرار والعبدان والإماء والموالي ومن ملل شتى وعقائد متباينة.

وكذا نزوحه إلى يثرب فقد شاهده المئات من بني قيلة<sup>(٢)</sup> وغيرهم وأيضاً غزاة بدر ومعركة أحد وصلح الحديبية.. الخ شهدها المنون بل إن حجة الوداع شهدها عشرات الألوف.

تلك النوازل وقد انضوى حضورها على كثافة عديدة من الطبيعي بل البديهي أو البدهي أن تصير مبخوتة من ناحية القص، محظوظة من زاوية الحكي ومجدودة من جانب النقل حتى رست على ميناء عصر التدوين فجاء نصيبها منه وفيراً وحصولها غزيراً ونواتجها كثيفاً ومن ثم تضلعت منها كتب السيرة المحمدية التي هي أطعم من تفاح الأشم ودواوين السنة المشرفة ومؤلفات التاريخ.

• • •

إن اثنين من أطراف التجربة المجيدة هما الهندوز واليعسوب انتقلا إلى رحمة الله قبل أن تتاح لهما الفرصة للحديث عنها بعد نجاحها وإعلانها للملأ والقبيل.

أما الثالث وهو (الرحيم) فقد التزم الصمت وكل ما ذكره عنها أحاديث شريفة عن واقعة الغار وبعده قليل للغاية.

ربما يؤوب ذلك إلى انشغاله في مسئوليات جسام بعد أن غدا سيد الجزيرة كلها دون مدافع وديان العرب جميعهم بلا مزاحم.

أو لأنه لم ير أدنى فائدة من الكلام عنها لأنها في رأيه لن تتكرر إذ هو آخر (القادمين) وخاتم (المنتظرين) وعليه أيضاً نص القرآن المجيد والذكر الحكيم والنبأ العظيم.

• • •

وهناك سبب آخر لا يقل عن سابقه إقناعاً ولا يتخاذه عنه منطقاً ولا يقصر عنه عقلاً وهو اختلاف طبيعة التجربة عن غيرها من الوقائع (الميلاد – النزوح – القتال – الصلح – الهدنة – الوفود – وأحداث الأحوال الشخصية مثل الزواج خاصة إذا تعدد)<sup>(٣)</sup>.

وهذا أيضاً ما رده باحثان آخران:

(ولما بنى بأولى زوجاته خديجة لم تكن لذات الحسن هي التي سيطرت

على هذا الزواج لأنه بنى بها وهي في نحو الأربعين وهو فتى في ريعان صباه وحنفوان شبابه لم يتجاوز الخامسة والعشرين وهو رجل جميل الخلقة طليق المحيا تتطلع إليه الأبيكار وتتمناه العذارى لكنه كان ملهما بأمر ربه فنظر إلى مكانتها من قومها وموقفها من عشيرتها وطهرها وعفتها وكانت هي التي عرضت نفسها عليه ففضى معها الشباب والفتوة وزمن الرجولة والقوة قضى زهرة عمره معها خمسة وعشرين عاما زمن الحيوية والشهوة الجنسية ليس له من زوجة غيرها ولم يفكر قط أن يشرك معها غيرها في فراشه<sup>(٤)</sup>.

وهذا ما ذكره أيضاً شيخ الجامع الأزهر وفي ثنايا كلامه تلميح ولو من بعيد إلى دور الهندوز في إنجاز أروع التجارب التي حظى بحدوثها في تضاعفيه القرن السابع الميلادي:

(وعاش معها زهاء خمس وعشرين سنة دون أن يجمع معها زوجة أخرى وكانت أحب الناس إليه وأقربهم إلى نفسه — ص — لإيمانهم العميق ووفائها النادر وحرصها التام على ما يرضى الله تعالى ويرضى الله تعالى ويرضى رسوله ﷺ)<sup>(٥)</sup>.



من الأسباب القوية التي حالت دون زواج محمد بزوجة أخرى على الطاهرة هو أن «الثقافة الدينية» التي هيمنت على بني أسد، رهط أم هند تحرم الجمع بين بعلتين، كما أنها تحرم الطلاق لأن ما ربطه الرب لا يفكه العبد (المربوب/ المخلوق).

هذا الملحظ البالغ الأهمية والثر بالدلالات غاب عن فطنة كل من زبر (نسخ) سطوراً في السيرة المحمدية المعطار من القدامى والمحدثين من العرب والأعاجم والفرنجة!!!

فالتجربة لها كنه مستقل وقوام فذ وكينونة مفردة فهي والكتمان صنوان والسر توأمان والخفاء شقيقان، يصلح لها الظلام وتتفعمها العنمة ويقويها الثواري — عن الأعين — ويعينها الصمم وإن شئت الدقة وتحريبت الصح وابتغيت الصواب قلت: التصامم.

في حين أن الوقائع الأخرى التي أوضحناها آنفاً من طبيعتها أن تعيش في النور وتظهر إلى الملاء، وتوكي الأبصار<sup>(٦)</sup>. وتصك الأذان، وتحشو الأفواه ثم تنتقل من فم إلى أذن وهكذا، فالعلانية قوامها والظهور رداؤها والوضوح دثارها والانتشار لحمتها والذئوع سداها، يعرفها الداني ويسمع بها القاصي ويحيط بها القادر ويلتقطها البادي ويظل ينشرها في كل مكان يصل إليه، ومن هنا دونت وقرأناها بصيغ متباينة وبطرائق شتى وبكيفيات مختلفة، وهذه هي العلة فيما نلمسه بأيدينا قبل أن نراه بأعيننا من تناقض رواياتها وتضارب أقوالها وتنافر صورها.



وبالمقابل تحققت ندرة أخبار التجربة لأن هذا ما يتسق مع طبيعتها ولذا أصبانا الجهد والإعياء ونحن نلهث وراءها (أخبار التجربة المجيدة) في ما استطعنا قراءته من مصادر كلها من الدرجة الأولى ومع ذلك فقد اضطررنا اضطراراً للجوء لبعض الفروض التي تتناغم مع السياق كيما تكتمل الصورة وتسد الثغرات وتملاً الفجوات مع ملاحظة أن ذلك جاء في حالات قليلة لا تخل بالسرود والتحليل المعتمدين على أوثق المصادر وأعلاها رتبة.

• • •

عاش طفولة قاسية إذ فقد أباه وهو حمل مستكن في بطن أمه وقيل وهو في السنة الثالثة ثم أمه وهو في السادسة فانتقل إلى جده عبد المطلب سيد البطحاء وبعد عامين توفي، وهكذا ذاق مرارة اليتيم ثلاث مرات إن صح هذا التعبير<sup>(٧)</sup>.

ثم كفله عمه عبد مناف أبو طالب وهو تاجر مستور الحال، ولكن تغير الظروف بمكة وغلبة النزعة المادية هبطت به إلى طبقة الفقراء والمعوزين، بيد أن ذلك لم ينل من مكانته الأدبية فقد ظل من سادة قرية التقديس وغطريفها وقد قيل عنه إنه من القليلين الذين تبوأوا مقام الصدارة رغم خلو يده من المال.

ولعبد مناف أبو طالب ولد كثير عانى الأمرين في إعاشتهم فلما انضم إليهم (اليتيم) ازداد عبؤه، ومن ثم عاش طفولته وصباه وشبابه الباكر وهو يعاني شظف العيش وضيق ذات اليد...

ومن هنا دفعته أوقاته الخشنة الجافية إلى امتهان عمالات لا تليق به شخصياً ولا بالفرع السامق الذي ينتمي إليه فقد صرح فيما بعد أنه اشتغل برعى الغنم في أجباد وهو حى في مكة ثم عاملاً تجارياً بيد أنه في جميع الأحوال ظل كريم النفس معتدا بذاته يضرب به المثل بعيداً عن نزوات الشباب وانحرافات الفتیان مع أن المجال مفتوح على مصراعيه لذلك خاصة أنه امتاز بالقسامة والوسامة والبهاء.. الخ.

• • •

إن أحداث الطفولة الحزينة (اليتيم المتكرر وفقد العائل الأول وحوجة الكافل الآخر) تركت ظلالها الكئيبة على نفسيته فأحب العزلة وأثر قلة الكلام ونكرر ما قلناه: إنها عزلة اجتماعية لا خلوة عقائدية تعبدية.

(اعتاد بعض الحنفاء والمؤمنين بالله تعالى أن يتحنثوا ويخلوا لأنفسهم وكانت عبادة هؤلاء تشمل إطعام المساكين ممن يلجأون إلى الغار لأنه كان في نسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين في هذا المكان.

وكان لمحمد — ص — شغف بالوحدة منذ الصغر ولكن وحدته طفلاً وفتى

ويافعا وصيبا كانت وحدة الحزن والألم إذ ولد ونشأ يتيما، ولكن وحدته في غار حراء بجبل أبي قبيس كانت من نوع آخر، فقد كان ينشد المعرفة بطريق الاستشراق ويستلهم ما في الكون من أسبابها ثم أورد المصنف ما سطره الطبري في تاريخه عن ذلك<sup>(٨)</sup>.

أخطأ المصنف د. الخربوطلي إذ ذكر أن غار حراء بجبل أبي قبيس في حين أن هذا الأخير هو الذي (يشرف على الصفا إلى السويداء إلى الخندقة وكان يسمى في الجاهلية الأمين لأن الركن «الأسود» كان مستودعا فيه زمن الطوفان أما غار حراء فهو أعلى جبل حراء وبينه وبين مكة ميل ونصف الميل وهو جبل منفرد على طريق حنين/ مكة وهو منيف صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا في موضع واحد في صفاء ملساء والموضع الذي نزل فيه جبريل عليه السلام في أعلاه من مؤخره<sup>(٩)</sup>.

ف(صفوة البادي والقار) لم تعرف عنه اهتمامات تيولوجية قبل تماس خديجة به ونكاحها إياه ولا يفهم من ذلك بأي صورة من الصور انشراح صدره أو حتى إقباله بصورة عادية على عقائد وعبادة وطقوس قومه بل على العكس نفوره منها ومرد ذلك رجاحة عقله وفطانتة وسعة أفقه ونقاء فطرته إذ أدرك فسادها وعطنها ولا معقوليتها.

لقد طالعنا في سيرته التي هي أطيب من ريح الخزامى أنه في سفرته الأولى للشام عندما استحفله الراهب بحيرى - مختبرا إياه - باللات والعزى - جاء رده الفورى = ما كرهت شيئا قدر كرهى لهما - علاوة على معيشتة في صباه الباكر مع جده شيبية الحمد عبد المطلب مقدم المتحفين وأول من سن الاعتكاف في غار حراء وسننا أخرى نقشها<sup>(١٠)</sup> حفيده وأدخلها في الديانة التي نشرها بين أهل مكة.



إن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الذي ترعرع فيه بما عمها من فساد وتهرؤ واختلال وانحلال واستئثار المأجورين والثروات والجاه والذائد والشهوات والمتع في حين أن «القبيل» الذي يضم الأحرار (المليطين من النشب) والعبدان والموالي والصعاليك واللصقاء والزعانف.. يكابدون الأهوال للحصول على الفتات الذي يلقيه لهم الطواغيت المستكبرون: يأكلون الطعام الجشب ويلبسون الخلق والأسمال ويسكنون الجحور والشعاب ويكدحون طوال النهار وطرفا من الليل تلهب ظهورهم السياط وتعمل نساؤهم في الخدمة والعيهرة لحساب سادتهن.. الخ.

تلك الأحوال ألفت بذور الثورة في نفس (الأسوة الحسنة) وهذا ظهر جليا وبدا واضحا في السور المكية الأوائل من القرآن العظيم - حصيلة التجربة المذهلة - فهي تدعو بالويل والثبور وتصب النعمة وتدلّق اللعنة على أولئك



الصناديد المترفين الذين تمتعوا بكل شيء وحرموا القاعدة الشعبية العريضة من كل حق.  
في صورة اقرأ وهي أول سورة قرأها (سيد الخلق) على من تابعه في ديانته ﴿كلا إن الإنسان  
ليطغى أن رآه استغنى﴾<sup>(١١)</sup>.

﴿الهاكم التكاثر﴾<sup>(١٢)</sup>.

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين﴾<sup>(١٣)</sup>.

﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه﴾<sup>(١٤)</sup>.

﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه مال وما كسب﴾<sup>(١٥)</sup>.

وهكذا تتضح مشاعر النقمة وأحاسيس الغضب على جبابرة مكة. ثم يصك مقدم ججاج قریش  
وأعتاهم مالا وأغلظهم رقبة وأشمخهم أنفا وأمعنهم في التكبر والتعاضم وأشدهم عداوة ولددا في  
الخصومة واسترسالا في المعارضة = الوليد بن المغيرة فيقول القرآن المجيد في حقه ﴿ذرني ومن  
خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا﴾<sup>(١٦)</sup>.

ومن بين أولئك البنين الشهود خالد بن الوليد أبو سليمان ذلك الذي فعل الأفاعيل في حروب  
الردة وفي الغزو الاستيطاني لبلاد الجوار.

ولقد أدرك بعض الكتب المحدثين كمون الثورة لدى محمد إنما حاول (= ذلك البعض) التمويه  
والمراوغة.

(من أخلاق النبي عطفه الشديد على الفقراء وحنوه على المحرومين والأرامل واليتامى وأبناء  
السيبل شهد بذلك الأصدقاء والأعداء على حد سواء)<sup>(١٧)</sup>.

ولا يغير من الأمر شيئا أن يطلق على ذلك مولاهم محمد على (المؤلف) أخلاقاً أو شمائل أو  
فضائل فهي علامات الغضب وشارات الحنق وآيات الاحتجاج على مجتمع مكة وخاصة أن المؤلف بعد  
سطور أورد آيات من سورة الماعون.

• • •

ونكتفي بهذه الأمثلة التي تقطع بفساد مجتمع مكة وضرورة إصلاحه لاستحالة دوام تلك الأحوال  
من ناحية، ولكشف الغطاء عن جانب شديد الأهمية في تكوين البنية النفسية لـ (أبي إبراهيم) وانغراس  
بذرة الثورة من ناحية أخرى في وجدانه.

وفي تقديرنا أن سائر البطارقة الأعظم الذين سبقوه: إبراهيم — موسى — يوحنا — عيسى هم  
ثوار على مجتمعاتهم الفسيدة المتفسخة إن من ناحية العقيدة أو غيرها من المناحي.

هذا يتضامن مع هيمنة النظرة الحزينة على ذاته لنشوته يتيما فقيراً

محروما من نوال الوضع الاجتماعي الذي يتوافق مع نسبه الرفيع ورهطه الشامخ وأرومته العريفة وشخصيته الفريدة التي لم تتكرر.

• • •

هذان العاملان اللذان لم يلتفت إليهما أغلب الباحث هما اللذان شكلا أمرين لهما قدر من الخطر:  
أ – ترجيح ترشيحه من طرف سيدة نسون قریش كما يغدو (القادم المنتظر).  
ب – صلاحيته وجدارته ليصبح موضوع التجربة المعجبة عن كفاية واستحقاق.  
بداية بالإضافة إلى العنصر الجوهري الذي بسطنا القول فيه وهو حادثة السن – مجاوزته العشرين بأشهر قليلة.  
كلها تجمعت وتماهت بعد أن تشابكت فتداخلت لكي تطرح الثمرة الناضجة لتجربة من أكمل التجارب في العصور الوسطى الأولى.

• • •

من المؤكد أن خديجة الطاهرة سمعت عن فصاحة (أبي القاسم) وأبلغنا الإخباريون أنها دأبت على استقباله عند عودته من سفريته من سوق حباشة إما منفردا أو بصحبة زميل له في العمل وأنها تخبئ لهما تحفة من طعام، الأمر الذي دفعه إلى الثناء عليها وأن هذا الصنيع منها لم يفعله غيرها ممن استأجروه وهو مما حبه فيها.  
وفي أثناء تناول تلك الأطروفة تجلس معه ومع زميله فليس من أدب الضيافة تركه أو تركهما منفردين إذ فيه قدر من الاستخفاف أو الاستهانة إذ لا يعامل كذلك إلا الرقيق.  
وفي تلك الجلسات توثقت أم هند من طلاقة لسان (جد الحسنين) وحسن بيانه وبلاغته في التعبير وقدرته على التوضيح ومكنته على الإبانة.  
وإزداد عندها ذلك ثبوتا إثر عودته من رحلة الشام التي صاحبه فيها عبدها الأمين ميسرة وما حكاها لها عنه إذ لا شك أنه تطرق إلى رهاقة مذرب<sup>(١٨)</sup> (محمد) وعضوبة حديثه وكيف أنه سحره وسائر من في القافلة وكل من تعامل معهم من المشتريين والبائعين وغيرهم بجمال منطقته وحسن كلامه، وتيقنت سيدة قریش على بكرة أبيها بنفسها فقد التقت هي به قبل وصول المملوك (إذ الأخير هو الذي أشار عليه في مر الظهران أن يسبقه إليها) واستمعت إليه يشرح لها ما وقع في الرحلة ويقدم لها كشف حساب الأرباح التي حققها لها وقامت فصاحته بدور فعال في اكتسابها.

• • •

إن طلاقة لسان (الظفور) أمر مجمع عليه ومعترف به حتى من خصومه

الأداء وهي من الأمور البدائه فهو من قریش ولهجة قبيلته خلاصة لهجات الجزيرة وزبدتها وسبق أن أوضحنا الأسانيد فيما أورده الثعالبي في (المضاف والمنسوب) بشأن قریش.

كما أنه استرضع في بني سعد ومن ثم سلم من اللكنة والحبسة والعجمة ثم مشى في الأسواق والتقى بالأعاريب والعرب الذين يحضرون موسم الحج والأسواق (مجنة) و(ذا المجاز) واستمع إلى الخطباء الفصحاء والشعراء المفلقين والمنافرين ذربي الألسنة في (عكاظ) وجماعهم أصحاب ذلاقة وإبانة وبلاغة فازداد بل تضاعف محصوله المعجمي ومخزونه اللغوي ورصيده البياني.

دعك مما ذهب إليه أبو عثمان بحر الجاحظ (مع تقديرنا البالغ له) في (البيان والتبيين) من أن مرجع ذلك إلى عصمة وتأيد وتوفيق من قوى غيبية وتابعه من المحدثين مصطفى صادق الرافعي في مصنفه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).

فنحن نميل إلى الأسباب الموضوعية التي تلمس باليد قبل أن ترى بالبصر أو تدرك بالصيرة.

فالوسط الاجتماعي والموقع الجغرافي (قرية القداسة وما حف بها من أسواق) والاختلاط بحملة اللغات المتباينة والنشأة الأولى في البادية حيث النقاء من السوقية والهجنة والحوشية مجموعها ينأى به (الكريم) عن العي والغتمة<sup>(١٩)</sup> والفهفة<sup>(٢٠)</sup> والرتم<sup>(٢١)</sup>.. الخ.

إن هذه الأسباب الموضوعية أقرب مثلاً وأدنى قبولاً وأحكم منطقاً ولماذا نترك الجنب ونلتمس المفارق وندع اللزيق ونبحث عن القاصي ونذر القار ونطلب البادي وننصرف عن المقيم وننقب عن الطاعن.

ليس هذا المسلك يتسم بالبعد عن الحكمة والنأي عن المنطق والمجافاة للفترة السليمة والإعراض عن المنهج القويم.

إن الأسباب الموضوعية دون غيرها (إذ لا لزوم لهذا الغير) هي التي جعلت من (أبي الأراذل) أعظم الفصحاء وسيد البلغاء ومقدم المبيينين وزعيم اللسنين وقائد الذربين.

• • •

(عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال رجل: يا رسول الله ما أفصحك ما رأيت الذي هو أعرب منك، قال حق لي وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين)<sup>(٢٢)</sup>.

وليختزن القارئ ما جاء بهذا الحديث الشريف وخاصة في عجزه أو مؤخره الذي ربط حسب تعبيره بين فصاحته هو وبين مجيء القرآن المجيد بلسان عربي مبين.

وفي حديث آخر مرفوع إليه ردا على سؤال مماثل أجاب كيف لا يغدو كذلك، وهو من قريش واسترضع في بداية بني سعد.

إن أحداً لا يجرؤ على أن ينكر (أنه أفصح الناس لساناً وأوضحهم بياناً وأصحهم معاني، لا يظهر فيه هجنة التكلف ولا يتخلله فيهقة التعسف)<sup>(٢٣)</sup>.

أما عباس العقاد فهو لم ينزلق إلى ما ذهب إليه معاصره وغريمه الرافعي في رد علل فصاحة (قطب الأقطاب) إلى قوى ماورائية وغيبية ولا منظورة بل أب بها إلى أسباب موضوعية (فمحمد العربي القرشي الناشئ في بني سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تقوته لهجة يحتاج تبيانه إلى مراجعة... قبيلة نائية في أطراف الجزيرة ولم يكن في كلامه غريب بجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعته)<sup>(٢٤)</sup>.

ومن الغريب أن (سيد الكائنات) أرجع بلاغته إلى الأسباب الموضوعية – (إنه من قريش وقضى طفولته في البادية) وهو منهج علمي ومع ذلك يأتي من بعده من يحاول أسطرة سيرته فيزعم أن ذلاقة اللسان عنده ربانية والفصاحة هبة إلهية ونصاعة البيان عطية سماوية.. يتساوى في ذلك القدامى (الجاحظ مثلاً) والمحدثون (الرافعي على سبيل المثال).

وبداهة لم يتوقف الأمر عند حلوة منطق (صاحب الخلق العظيم) بل تعداه إلى غالب مقاطع سيرته المعطاءة التي هي أطيب ريحا من (الألوة مع الكافور والزعفران) وهم إذ يفعلون هذا الفعل الغلطان ويسلكون هذا المسلك الفسيد وينتهجون هذا المنهج الخطئ يتوهمون أنهم به يعلنون من قدره ويرفعون مقامه ويحمدون مكانته مع أن العكس هو الصحيح والنقيض هو الصواب فهو أولاً ليس في حاجة إلى من يفعله له وأخراً فإن الكتابة الموضوعية هي وحدها التي تقنع من هو في حاجة إلى اقتناع بعظمته وسموه وعبقريته وفذوذته.. الخ بعكس العلل الغيبية إذ يرد المعاند ويجيب اللجوج ويقول الخصيم = وما هو دوره إذا وهبته السماء الفصاحة ونفحته البلاغة ومنحته ذرابة اللسان؟

أما إذا قيل لذلك اللدود المعارض المناوى: إن تلك جماعها من كسبه الشخصي وبجهدته الذاتي وإرادته الفولاذية ودأبه الذي لا يكل.. الخ.

طأطأ رأسه له إجلالا وأحنى قامته له تعظيماً.

سبق لنا أن دعونا الكتبة المحدثين: كفوا عن هذا المنهج الفطير الذي يضر ولا ينفع فإن في السيرة المحمدية الزكية ما يغنيكم عن اللجوء إلى الماورائيات ولكن (لقد أسمعت لو ناديت...).

ولا يخفى السبب الكامن خلف الاستعانة بها فهذا لا يحتاج إلى بذل جهد أو مكابدة عناء أو تحمل مشقة بل يكفي بضع عبارات إنشائية وجمل خطابية وفقرات بيانية وخطب منبرية..

بخلاف البحث الموضوعي فهو يستنفر الحفر في المصنفات والتنقيب في المؤلفات والتدقيق في الكتب مع استعمال طرائق الاستقراء والاستدلال والتحليل والسير والاختبار والمقارنة والشك في بعض الأحايين وسبيل هنا كله شاق ومجهد ومتعب.. الخ.

ولم كل هذا وفي الغيبيات ميدان متسع دون بذل عرق ونطاق فسيح بلا إرهاق ومجال عريض بغير نصب؟

• • •

ثم نأتي إلى السؤال المهم الذي تعين علينا تأخيرته إلى خاتمة هذه الفقرة التي خصصناها لفصاحة (أحمد):

لأية علة تحتم على سيدة نسون قريش الالتفات إليها بل والتثبت منها في والتي في نظرنا شكلت باعثاً حثيثاً لاختياره؟

نحن نرجح أن القارئ اللقن الفطن لا يغيب عن ذكائه الاهتداء إلى الجواب الصحيح.

• • •

إن المرشح كيما يغدو (القادم المنتظر) لا بد أن يمسك بيده كتابا يعلنه على أهل مكة. (هاؤم اقرأوا كتابيه) — مثلما قالها موسى ليهود وابن مريم للنصارى.

والعرب المخاطبون (بفتح الطاء) به أهل لسن وفصاحة وبلاغة.. ليس لديهم من سمات الحضارة غيرها هذا مع التجاوز الكبير في عدها من شارات الحضارة، فهم عراة من العلوم والآداب والفلسفة.. ومن ثم فإن الكتاب الذي يطرح عليهم يجب أن يجيء مثلاً أعلى لهذه السمة اليتيمة المفردة التي يمتلكونها...

وإلا فلا يؤمنون به ولا بمن قدمه إليهم بل إنهم سوف يستهزئون به إذ يصير في مقدورهم أن يأتوا بمثله أو حتى أبعاض منه.

• • •

إن دروس أو معارف أو معلومات الليالي الطويلة والذي ستخترنها الذاكرة الحديدية ذاكرة الشاب الأمي العبقري العربي عن الضروب عديم النظير، يتعين بطريق الحتم واللزوم أن تتلى على أهل مكة والحجاز وغيرهما وبتعبير الذكر المحكم: (الناس) بلسان عربي بلغ القمة في الفصاحة والذروة في اللسن والذؤابة في البلاغة كيما يأتي (الكتاب) بمفعوله الأكيد دون ذرة من شائبة أو حبة من كدارة.

• • •

من هنا وصل إلى إدراكنا حرص خديجة على الاستيثاق من فصاحة (صاحب الختم) وهذا وإن نقدمه كأحد الفروض إلا أنه في نظرنا واقع لا

محالة وإن سكتت عنه المصادر بيد أنه تحتمه طبائع الأمور ويستدعيه ترابط الظروف ويستتفره مقتضى الحال ومن ثم فهو فرض معقول ومقبول.



فوارق عديدة صدعت ما بين سيدة قريش و(راكب الأتان):

في العمر: ما لا يقل عن خمسة عشر عاما في رأي جمهور الباحثين.

في فهرست كتابه (خديجة أم المؤمنين – رض) أورد المؤلف أن هناك فقرة ص ٤٩ عنوانه (تحقيق عمر خديجة عند إتمام هذا الزواج).

وبالرجوع إلى هذا التحقيق نجد أنه لم يستغرق أكثر من ثلاثة أرباع صفحة انتهى فيه على أن أنها قد بلغت الأربعين واعتمد في ذلك (التحقيق!!!) على مقولة لحكيم بن حزام بن خويلد بأن رواها لا ترقى إليهم الشبهات ولم يبين لنا المؤلف كيف؟

وهو لم يذكر منهم سوى مولى للزبير بن العوام وموسى بن عقبة ولم يوضح لنا عدالتهم؟

ويضيف أن كبار مؤرخي السيرة والمغازي أخذوا به وهذا غير صحيح فقد أوردنا من بين أولئك الكبار من أكد أنها عند الزواج وصلت إلى سن السادسة والأربعين.

وتابع المؤلف أن حكيم بن حزام صاحب القولة قد أكرمه واحترمه التيمي أبو بكر والعدوي عمر في خلافتيهما.

أما أن (الجامع) فعل ذلك فهذا مرجعه لقربته من خديجة وقد دأب على إكرام كل من يمت إلى سيدة نسون قريش بأوهى صلة ولأنه من المؤلففة قلوبهم مثل أبي سفيان وابنه معاوية<sup>(٢٥)</sup> ومن الذين أسلموا يوم الفتح فإما إن المؤلف عرف ذلك ودسه وأخفاه وأما أنه لم يعرفه وهذا ما نشك فيه.

إذن هو تعمد إغفال ذكر أن حكيم هذا من المؤلففة قلوبهم حتى لا يوهن مقولته بأن أم هند عندما غدت بعلا ل (لجهضم) بلغت الأربعين.

واستطرد يقول إنه لا يشك أن حكيم حضر زواج عمته خديجة ولا ندري من أين أتاه هذا اليقين مع أن كتب السيرة الذكية لم تورد اسمه بين حضور عقدة النكاح وحتى على الفرض الجدلي أنه فعل ذلك فهل هذا مبرر لترجيح مقولته؟

إن أبسط قواعد التحقيق أن يجمع الروايات التي قيلت بشأن الواقعة ويرجح إحداها ويقدم الدليل أو الأدلة على الترجيح، أما أن ينتقي رواية واحدة ويأخذ بما جاء بها فهذا ليس تحقيقا لأنه خالف أبسط قواعد منهج التحقيق.

ونحن نقدم صنيع صاحب كتاب (خديجة أم المؤمنين – رض) كمثال لما يعلو كتابات المحدثين من خفة وهشاشة وتسطيح ومجانيه<sup>(٢٦)</sup>.

ورحم الله الشيخ عبد الحليم محمود (يسمونه إماما!!!) الذي تربع على

كرسي رئاسة شؤون التقديس في مصر منذ سنوات فقد أدرك مدى ركافة وفهاهة ما يدبحة الكتبة المحدثون عن خديجة وحقيقة صلتها بـ (الجواد) فكتب:

والسيدة خديجة – رض – في صلتها برسول الله تستحق دراسة أوسع وتفصيلا أكثر (٢٧).

ثم نؤوب لاستئناف متابعة سياقة البحث (٢٨).

وفي المكانة الاجتماعية فهي التاجرة الموسرة ذات الحسب والنسب رغم هيمنة النظر الذكورية آنذاك على مجتمع مكة فقد استطاعت بصفات الشخصية أن تحنل فيها مكانة رفيعة.

وهو واحد من ناشئة قريش فقير يحترف رعى الغنم مرة والعُمالة التجارية لدى الغير تارة أخرى.

ومن ناحية المال فهي صاحبة القافلة التي لها فيها ما يساوي سطر ما لسائر أساطين قريش. وهو أجير لديها ونذكر هنا بترجية عبد مناف أو أبي طالب عندها أن تستأجره في سفره الصيف إلى الشام وتعطيه ضعف ما تنفح غيره من العسفاء (٢٩).

وفي جانب النسب أم هند من فرع مليء: بني أسد وفي يقين نفر من البحاث أنه فاق الهواشم مزلة ولو أن هؤلاء ارتفعوا إلى الذؤابة العليا لا في قريش وحدها بل في جزيرة العرب جميعها بعد أن تحول (المستقيم) إلى القادم المأمول والمنتظر المرتقب.

ولا بأس تدليلا وإثباتا للفوارق التي طرحناها حتى الآن (هناك أخرى سوف تتواتر) أن نعيد ما سلفنا: أنه ما صدق أن الطاهرة تقبل أن تباعله وأن الخبر إثر ما وصل مسامع عبد مناف أو أبي طالب ركه الفرع وعمه السرور وهيمن عليه الحبور وفيما تقدم وضعنا أدلة الثبوت الموثقة على ذلك في حجر القارئ.

• • •

وهي ذات تجارب عميقة وخبرات مكينة.

وهي دروب حاذقة مرنت على شتى الوجوه من العديد من الأمور:

فهي صاحبة تجارة وسيدة وهو أجير ولا يقارن ذو لب بين خبيرة رب العمل والأجير.

وهي تزوجت مرتين أنجبت فيهما أولادا وبنات وهو لم يدخل دنيا (٣٠).

وهي تجيد القراءة والكتابة وقد طرحنا البراهين على ذلك وهو أمي لم يمك قلمها ولا ورقة ولم يطالع صحيفة.

وهي ذات ثقافة دينية متميزة في حين لم يعرف عنه ذلك.

وهي من فرع (بني أسد) مرق منه نفر ممن قرأوا الكتب وتبحروا في العلم في حين لم يعهد في

بني هاشم من ذلك شيء.

وأحاطت بسيدة نسون قريش حلقة من أهل الكتاب تقابلهم وتناقشهم وتدارسهم وتباحثهم وهو أثر العزلة وأحب الانطواء ورغب في الابتعاد لأن ظروف نشأته قست عليه وحرمته وظلمته.

• • •

وهي حسبما أبلغنا الإخباريون امرأة برزة تجالس الرجال مع عفة بالغة وطهارة كاملة وتحادثهم وتسامرهم وتسمع منهم وهو خجول كالعذراء المخدرة. وهي ذات حاسية وسيعة من الصواحب والصدقات بحضرن مجلسها ويتجادبن معها أطراف الحكي وينقلن إليها أخبار قرية القداسة وما حولها وما وقع من الأطروقات والأحداث والأعجوبات وخلت مدونات سيرته الفاتحة بريح المسك الأصهب من أسماء من خاله (صادقه) في ذياك الوقت سوى ما رواه عمار بن ياسر عن نفسه أنه خدنه<sup>(٣١)</sup>.

ومعلوم أن الاختلاط خاصة في ذياك المجتمع يضاعف المعلومات وينمي المدارك ويزيد المعارف ويوسع الأفق ويعمق النظرة ويحد البصيرة ويصقل القريحة.. الخ.

• • •

ذاك غيظ من فيض من الفوارق التي باينت بين الهندوز و(قدم صدق) بيد أنها لما تمتعت به من عقل راجح وذكاء حاد وفطنة بالغة ولب عميق وحجى وفير نقهت أن هذه الفوارق سوف تغدو عوناً صادقاً لها في إدارة دفة التجربة إلى الاتجاه الذي تتغياها والوجهة التي تؤمها والمنحى الذي تريده. ذلك أنه بهذه الصورة التي هو عليها وبما بينها وبينه من مسافة وسيعة وبون شاسع وبُعد واضح يراه بعينه الشريفتين ويلمسه بيديه الكريمتين ويدركه بفطرته الذكية أو بذكائه الفطري سوف يغدو خير موضوع للتجربة التي عقدت عزمها الصلب وشكيمتها القوية وإرادتها الحديدية على إنفاذها وسيصبح بلا جدال سلساً مطواعاً هيناً لينا رقيقاً.. الخ.

ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً لأي معارضة ولا فسحة لأي مشاكسة ولا موطناً قدم لأي مخاصمة أنها تمتعت بفراسة ليس لها ضروب وصدق وحسد يعز عن النديد ونظرة مستقبلية تلد عن الشبيه وبرهاننا على ذلك موقف (الخاشع/ الخاضع) في حكاية اختبار ذلك الذي يأتيه: هل هو ملاك الرب أو شيطان ولا نبغي أن نكررها فقد تقدم سردها مع حجج توثيقها.

• • •

تلك فرشة لازمة للدخول في محراب<sup>(٣٢)</sup> أروع تجربة أفرزتها العصور الوسيطة المبكرة وطرحت هي بدورها هذه الثمار التي لا تقدر بثمن ومن بعد تولدت عنها حضارة عظيمة وعلوم متنوعة.

ونحن نقدم محاولة غير مسبوقة لفك طلاسمها وحل ألغازها وفهم



شفراتها وقراءة رموزها التي حيرت منذ قرون عديدة ألوف الباحثين من القدامى والمحدثين والعرب والعجم والفرنجة والصقالبة.. إلخ والتي ملأت الدنيا وشغلت الناس.

فهي قد أنتجت معجزة وهي معجزة بكل المقاييس خاصة في ذلك الإبان وعلى يد من قدمها وهو بإطباق البصيرين ودعك من المتحذلقين والمتفيقيين والمتنتعين – أمي..

وقدم نفر من المستشرقين محاولات ساذجة وطروحات عبيطة وأقوالا خائبة لإزالة الغموض وكشف الحجاب ورفع الستار بيد أنها اتسمت بالفهامة واتصفت بالرك وعلاها التهافت مثل أن مقابلة قس مدة يوم كامل لصبي يافع تكفي للتفسير.



والذي أوقع السابقين واللاحقين والخلف والسلف في هذا المرج وساقهم إلى هذا الخلط ودفعهم إلى هذه الخربة هو عدم التفاتهم إلى الفترة التي نستطيع أن نسميها (الحقبة الغامضة) في السيرة المحمدية التي هي أطيب من عسل الموصل وهي تبدأ منذ أن أصبحت خديجة له بعلا حتى الرؤيا المنامية التي رآها في غار حرى بمقابلة ملاك الرب جبريل وأمره إياه بأن يقرأ باسم ربه الذي خلق.

في ذلك المقطع يكمن السر ويتوارى للغز وتختبئ الأحجية.

ولعدم الانتباه إليه تضاربت الطروحات وتناقضت الحلول وتخبطت الأقوال، وهم معذورون لأن دواوين السيرة المعطار التي هي أحلى مذاقا من تفاح الشام شحيحة بوقائعها بخيلة بأحداثها، كزة بأخبارها يابسة بنوازلهما بيد أننا تمسكنا بأحبال الصبر وطالعنا العشرات منها وقرأناها قراءة هادئة مستأنية وخاصة التراثية عدة مرات (يتضح ذلك من ثبت المصادر) ولسنوات طويلة فانفتحت الأبواب المغاليق واستطعنا بعد عناء وجهد وتعب أن نضع أيدينا على السر ونحل اللغز ونفك الشفرة.



ولكن قبل أن تتابع خطوات أو مراحل أو مقاطع التجربة الفريدة نخرج على نقطة مهمة وهي: هل دخول القادم المأمول والآتى المنتظر التجربة ينزع الموضوع جانبه التبولوجي أو الغيبي أو السماوي إلى آخر هذه التوصيفات التي تعني في نهاية المطاف: المفارق أو المباين أو المفاصل للفعل البشري؟

الدوجماتيقيون أو المتمسكون بالحروف أو الظاهرية (لا نعني سلاح التفسير الظاهري للنصوص. أ. ه). هم وحدهم الذي يذهبون إلى ذلك أما الواسعو الأفق والمستنيرون فلا يرون في ذلك تناقضا ودليلا على ذلك ما جاء

في القرآن الكريم نفسه (ولتصنع على عيني)<sup>(٣٣)</sup>. فالفعل مبني للمجهول أي أن الصانع غير معلوم بيد أن الصناعة تتم تحت رعاية ربه وكيفا يزداد المعنى وضوحاً نقرأ الآية المذكورة كاملة فبعد قذف موسى في التابوت ثم في اليم يأخذه آل فرعون وفي القصر الملكي ينشأ موسى ويشب ويتزعرع وينهل من منابع حكمة كهان مصر القديمة ويتضلع من علومهم وهذه هي الصناعة وهذا هو السر في بناء فعلها للمجهول لأنه ربما يغدو من غير المناسب الكشف عن هنادزة وأساتذة ومعلمي موسى، المهم أن هذا التصنيع هو الذي أهل موسى لكي ينشئ الديانة الموسوية التي تدين بالكثير الذي لا يحصره أو يعده أو يحصيه إلا الله إلى مصر القديمة صاحبة أعظم حضارة عرفها التاريخ حتى الآن وصاحبة الفضل العميم على البشرية جمعاء في العديد من النواحي من الحكمة والفلسفة والآداب إلى العلوم والهندسة والطلب والفلك.. الخ.

المهم الذي نقصده أن العلوم التي تلقاها موسى على أيدي كهان قدماء المصريين ومعلميه في قصر فرعون أو البيت الكبير (برعو) كلها وسائر خطوات الصقل والصنفرة والإعداد والتأهيل والتحضير والتدريب والتمرين والتلميع.. الخ والتي عبر عنها الذكر الحكيم بالصناعة (ولتصنع على عيني) تمت تحت رعاية ربه.

وهي ذات الخطوات التي حققتها الهندوز في التجربة مع (المُخْبِت) بإشراف اليعسوب أيضا وبذات القدر يمكن أو هي حقيقة الصناعة التي ورد ذكرها في الآية المذكورة إنما تحت رعاية الرب وبتوقيفه.

إن الذي حدث لموسى في البيت الكبير — برعو — قصر فرعون على يد الكهنة والمعلمين والأساتذة والحكماء.. تكرر مع (المجيب) على يد الطاهرة والقس وفي الحالتين وقعت التجربتان وهما مكلوءتان برعاية الرب وتحت بصره وبتوقيفه.

ونحن لا نسوى بين كهان وحكماء ومعلمي وأساتذة مصر القديمة بالطاهرة واليعسوب بل ولا نرى وجها للمقارنة بين الفريقين ولعل هذا يظهر بمقارنة الديانة الموسوية بديانة الإسلام.

بيد أن الذي جمع بينهما ودفننا إلى قرنهما ببعض هو أن السماء دأبت على النظر إلى كل منهما والعناية بهما ورعايتهما حتى كتب لكل الفلج والظفر والفوز.

• • •

وقد لا يلقى هذا الرأي قبولا خاصة أن كلمة (ولتصنع) هناك من يذهب إلى أنها بفتح التاء وهو رأي أعجف لأن الرب يرى ما يصنع موسى وغيره ممن خلق فايرادها بالفتح عبث والذكر الحكيم منزله عنه وعن كافة المطاعن وجمهور السلف والمفسرين مطبقون على أنها بالضم.

ولننقر قدر جهدنا ووسع طاقتنا في كتب التفسير العوالي التي تلقتها أمة لا إله إلا الله بالتجلة والتقدير كيما نثبت أن ما ذهبنا إليه من إمكان بل ضرورة تصنيع النبي – أي نبي – بالطرق البشرية تحت رعاية الله له سنده وعليه برهانه وتقوم حجيته من آراء السلف الصالح.

إذا أفلحنا في ذلك بالأدلة القواطع فلا يحق لأي شخص أن يتعرض بل فرض واجب عليه أن يسلم حتى ولو استغرب الفكرة الأولى مرة بل وحتى ولو صدمته لأنه لم يسمعها من قبل.

• • •

### نستفتح بحبر الأمة وترجمان القرآن<sup>(٣٤)</sup>.

(عبد الله بن عباس في تفسير جملة (ولتصنع على عيني) أي وما صنع الله كان في منظري)<sup>(٣٥)</sup>.

(ومعنى في منظري أي إمام عيني وهذا ما أخبرنا به القرطبي: قال ابن عباس يريد أن ذلك بعيني)<sup>(٣٦)</sup>.

أما الإمام الفخر الرازي فيزيد الأمر إيضاحاً.. (قوله تعالى: (ولتصنع على عيني) قال القفال لترى على عيني أي وافق إرادتي ومجاز هذا أن من صنع الإنسان شيئاً وهو حاضر ينظر إليه صنعه له كما يحب... المراد من العين الحراسة لأن الناظر إلى شيء يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً)<sup>(٣٧)</sup>.

فهناك إذن من يصنع ولكن عين الرب ناظرة إلى تصنيعه للقدام المأمول وهي تلاحظه وترقبه وترعاه.

وهذا ما أكده الإمام العلامة الحافظ المفسر محمد بن أحمد بن جزى الكلبي: (ولتصنع على عيني) أي تربي ويحسن إليك بمرأى مني وحفظ والعامل في لتصنع محذوف)<sup>(٣٨)</sup>.

ومعلوم لدى أهل اللغة أن حذف العامل لا يعني نفيه أو عدم وجوده بل يتم لأسباب عديدة منها ضرورة السياق أو ترك معرفته لتقطن القارئ.

أبو عبيدة معمرة بن المثني من أقدم الذين تناولوا القرآن العظيم بالتفسير إذ أنه توفي سنة ٢١٠ هـ وقد أطلق على كتابه (مجاز القرآن) وفي شرحه (ولتصنع على عيني) يقول: (مجازه ولتغذى وتربي على ما أريد وأحب)<sup>(٣٩)</sup>.

فهو هنا يذكر التربية التي تلقاها موسى في طفولته وصباه وشبابه وكيف أنها حدثت وفق ما أحب وما أراد ربه.

أي أن هناك من باشر التربية بيد أن ذلك بنظر الرب وعنايته. ويفصل لنا الإمام النسفي ذلك ويوضحه:

(ولتصنع على عيني) أي لتربي بمرأى مني وأصله من صنع الفرس أي

أحسن القيام عليه – يعني أنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشيء وبعينه إذا اعتنى به<sup>(٤٠)</sup>.  
ومفاد مما سطره أن آل فرعون قد ربوا موسى أحسن تربية وأجادوا القيام بشئونه كله وراعوه واعتنوا به على أكمل صورة بيد أن ذلك كله تم تحت رقابة رب موسى وتوجيهه.

ونفحنا العلامة النفسى بنكته لفظية من الضروري الالتفات إليها لعلاقتها الحميمة بهذه النقطة (من البحث) التي نبحث فيها وهي أن تولى إنسان أو حيوان بالتربية والقيام بأمره على أميز أية (هياة) يسمى صناعة أو صنعا. ويخبرنا أبو البركات أن العرب تقول إن من يقوم بالاعتناء بفرسه كيما يصنع كاملا معجبا يقول عنه إنه صنع الفرس.

وتفريعا على ذلك فإن موسى تلقى صناعة أو تصنيعا أو صنعا ممتازا فائق الجودة في قصر فرعون ولا غرابة في ذلك فمصر مهد الحضارات والعلوم والآداب وعلى أرضها الطيبة تعلم فلاسفة اليونان وغيرهم إنما تم تحت عين الرب.

(ويؤكد الإمام البيضاوي زاوية التربية وإحسانها فيقول (ولتربى ويحسن إليك) ثم يزيد فالشرط الجوهي وهو رعاية الله له (وأنا راعيك وراقبك)<sup>(٤١)</sup>).

أما شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري فذهب إلى أن هذا المقطع من الآية (قيل لتغذى ولتربى على محبتي وإرادتي.. وقل بعيني في أحوالك كلها)<sup>(٤٢)</sup>.

فالطبري ممن يرون أن تغذية موسى وتربيته بشئى ضرورها ومختلف أنواعها وسائر صورها أنجزها أو قام بها فرعون وأسرته ومن ندبهم ولكن على عيني الرب.

ودار في الفلك نفسه مصنفا (تفسير الجلالين).. (أي تربى على رعايتي وحفظي لك)<sup>(٤٣)</sup>.

وكذلك الإمام الختم محمد عثمان الميرغنى:

(ولتصنع تربى.. على عيني.. رعايتي)<sup>(٤٤)</sup>.

ثم نختم برأى رئيس مؤسسة شؤون التقديس في مصر في معنى هذا الجزء من الآية (... ولتصنع على عيني أي تحت رعايتي)<sup>(٤٥)</sup>.

ففضيلته هنا يؤكد أن تربية آل فرعون لموسى بدأت وختمت مشمولة برعاية رب موسى وعنايته وحفظه.

ونكتفي بهذا العدد من التفاسير وهي كما اتضح من أوثقها وتتمتع بمكانة طيبة وقد أجمعت على أن هناك من ينشئ ويربى ويعلم ويدرس ويتقن موسى ويلقنه الحكمة والعلوم اللازمة لكل قادم مع الوضع في الاعتبار الكامل أن ربه ينظر إليه ويراعيه ويراقبه.

إذن هناك قطبان في عملية التصنيع أو بحسب تعبيرنا: (التجربة):

من يتولى التنشئة والتربية والتعليم.. الخ.

والذي يهيمن ويرعى ويبسط العناية والحماية.. الخ.

وإذ انطبق هذا على موسى وهو رأس الديانة اليهودية ومن أولى العزم وأحدثته لها حيز وسيع في القرآن المجيد، فأى مانع يحول دون أن ينطبق على من سار على دربه وأتى بعده من البطارقة المفخمين؟

• • •

وأخيراً فهناك مفسر من المحدثين تناول مكان صنع موسى بما لا يدع مجالاً لذرة من شك (فهو كبير وشب في قصر فرعون وتحت عين فرعون ولكن ربه في ذلك الوقت لم يكف عن حمايته ورعايته)<sup>(٤٦)</sup>.

وما دام موسى نشأ في قصر فرعون وتحت بصر الأخير فلا بد أنه وفر له كافة وسائل التربية الطيبة والتعليم العالي من كهنة وحكماء وعلماء ومدرسين وهذا يبين للوهلة الأولى من قراءة توراة موسى وتعاليم كهنة مصر وحكمائها ويخرج عن سياق بحثنا عقد مقارنة بينهما لإبراز أوجه المماثلة وجوانب المطابقة ونواحي المشاكلة رغم توافر المصادر بين أيدينا.

• • •

إذن نخلص إلى أن أي قادم جديد أو مأمول منتظر من الحتم اللازم أن يمر بفترة إعداد وتهيئة وتشذيب وصفرة وتعليم وتدريب ليغدو أهلاً لحمل ما سيضطلع به والذي وصفه القرآن المجيد بـ (القول الثقيل).

هذا التصنيع ومن البديهي أن يتولى عبئه بشر من اللزيقين به تظل السماء تراقبه فهو عملية بالغة الرهافة والحساسية.

ولكن أن تنفذها القوى العليا بنفسها فهذا ما لا يحبكه عاقل.

حتى من ناحية الصلاحية أو الكفاية فإنه يتعين أن يصير (المأمول) محيطاً بمجريات بيئته وما يدور في مجتمعه وما يحدث في وسطه وهذا لا يتأتى له إلا إذا جاء صانعوه من قلب البيئة ومن باطن المجتمع ومن داخل الوسط وهو ما لا يتحقق إلا في بشر مثله.

بعكس ما إذا تولت صناعته أو تصنيعه كائنات هابطة من الغيب ومجردة أثيرية فهي بالضرورة غير معجونة بتفاعلات زمنه وتجهل مشكلات وقته ولا تدرك احتياجات عصره..

إن هذه الكائنات المعجبة لو باشرت صنفرة القادم وقلوظته<sup>(٤٧)</sup> لتحول إلى صورة قد تبدو كالتحفة الغالية أو الطرفة الثمينة إنما لا توائم التعامل البشري.

ومن هنا فإن التعبير الذي ورد بالقرآن المجيد عن البطارقة أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق — بالغ حد الروعة — لأنه يشى بأنهم أفراد من

مجتمعهم طبيعتهم بشرية مثل طبيعة سائر الناس ومغروزون في قومهم عليهم بهومهم وخبراء بعضلاتهم وعارفون بأحلامهم ومدركون ما يسرهم وما يسوؤهم.. الخ.

وبالإضافة إلى عدم معقولية أن تباشر السماء بنفسها أو بواسطة مندوبين عنها تصنيع أو صناعة (المنتظر) فما هو الخطأ أو الخطيئة في أن ينهض بهذا العمل واحد أو نفر من المحيطين به ممن اتصفوا بالشمائل اللازمة.

لا يوجد في الذكر الحكيم ولا في السنة المحمدية المطهرة نص واحد يحول دونه بل بالعكس فقد رأينا آية من القرآن المجيد تدل على أو تقطع بوقوعه.

• • •

ومن جانب آخر، فإن نهوض فرد أو اثنين أو ثلاثة.. نفر أو جماعة بتهيئة (المنتظر) ل(القول الثقيل) لا يغض من مكانته ولا يخدش كرامته ولا يقلل من مقامه.

وبالنسبة ل(سيد ولد قصي) فقد سبقه في الطريق سلفه الكرام من البطارقة الأماجد فقد أثبتنا بالأدلة الموثقة أن موسى تمت تربيته في (برعو) أو البيت الكبير أو القصر العالي وأن فرعون ذاته أشرف بنفسه على أطوار التنشئة ومراحل التعليم وأشواط التربية فأحضر له الكهان والعلماء والحكماء الذين ليس لهم ضريب في العالم المتحضر آنذاك ولا نبذوا مبالغين إذا قلنا وفي هذا الزمام أيضا.

أما عيسى ابن مريم فالذي تطوع بصنفرته وقلوظته وتلميحه هم:

زكريا وابنه يحيى أو يوحنا (هو الذي تولى تعميده ومن ثم سمي المعمدان) وأمه الصديقة التي قضت شطراً من حياتها الأولى في بيت المقدس وزوج أمه يوسف النجار الذي حصل قدراً لا بأس به من العلوم الدينية وعندما جاء المسيح إلى مصر هربا من بطش الطاغية الروماني مكث فيها حتى بلغ الثالثة عشرة فاتصل بالكهنة المصريين واغترف من علومهم الكثير ومنها الطب (إبراء الأكمه والأبرص) والسحر (إحياء الموتى) وسواء صح هذا المقطع المصلى من التصنيع لابن مريم أم لا فإنه يكفي الشطر الأول.

وهكذا ثبت بالحجة القاطعة أن موسى وعيسى دخلا بوابة التصنيع واجتازا مراحلها وما نال ذلك من قدريهما أو حظ من مكانتيهما بل إنهما رغم مضي قرون عديدة على ظهورهما فإنهما يزدادان تألقا وتعاليمهما وحكمتها تترسخان يوما بعد يوما.

وخلاصة القول إن كشف الحجاب عن مرور (المنصور) ب(التجربة) وقطعة لأشواطها واحد وراء الآخر ليس فيه أدنى مساس بمقامه المحمود ومنزلته

السامية وقدره الرفيع الذي يغطيه عليه الأولون والآخرون ويصبح مثله كمن تقدموه.

وطالما نادى هو بمشابهتهم بعضهم بعضا وأنهم بنو علات<sup>(٤٨)</sup>.

وكثيرا ما نهى عن تفضيله على غيره منهم.

فلماذا لا نطبق حديثه عملا وواقعا فلا نفرق بينه وبين موسى وعيسى إذ نقر أنهما خاضا تجربة التصنيع التي أنجزها بشر ثم نستهل ونستقطع ونحوقل ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذ ثبت لهم بالبرهان المبين أنه كسابقه حدوك القذة بالقذة سار في (تجربة) وقطع أشواطها.

• • •

ولقد أدرك سلفنا الصالح ضرورة خضوع القادم أي قادم لمرحلة التصنيع التي تتم في أحشائها أدوار الصنفرة والفلوطة والتهيئة والتدريب والتأهيل.. ولكنهم استكثروا أن يحمل ثقلها – في حالة (المنفذ) – ناس من الناس فهم من ناحية لا يرون أن واحدا أو نفرا من المخالطين له يصلح لهذا الشرف المنيف ومن ناحية أخرى يتوهمون أنه يغض من قدره ويحط من شأنه ويهبط بمستواه.

### فماذا فعلوا؟

هداهم خيالهم الخصيب إلى أن السماء لم توكل بشرا بمهمة التصنيع أو الصنع أو الصناعة، كما فعلت مع موسى وابن مريم، بل تفرغت هي لإنجازها بواسطة ملاك يسمى (إسرافيل) اضطلع بها على أكمل وجه بأن لازم (المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض) لمدة ثلاثة أعوام قبل أن يظهر له جبرائيل في حرى في المنام ويغته غتا كيما يقرأ باسم ربه الذي خلق.. الخ.

• • •

(وفي حديث عبيد بن عمير في خبر نزول جبريل – س – قال رسول الله – ص – فجاءني وأنا نائم فهذه حالة وحديث وغيرها أنه كان في اليقظة فهذه حالة ثانية ولا تعارض لجواز الجمع بينهما بوقوعهما معا ويكون الإتيان في النوم توطئه للإتيان في اليقظة وقد قالت عائشة: أول ما بدئ به – س – من الوحي الرؤيا الصادقة – وعن الشعبي أن رسول الله ﷺ وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي ثم وكل به جبريل فجاء بالقرآن والوحي فهذه حالة ثالثة لمجيء الوحي: عن قتادة قال: كانت خديجة أول من آمن بالنبي ﷺ من النساء والرجال وهو قول موسى وابن إسحق والواقدي والأموي وغيرهم قال ابن إسحق كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقته ما جاء من عند الله عز وجل وأزرتة على أمره فخفف الله بذلك عن رسوله فكان لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت رضى الله عنها)<sup>(٤٩)</sup>.

والشعبي من خيار التابعين ولكن واضح من سياق الخبر أن هذا مجرد رأى ارتأه ومن هنا فمن حقنا ألا نأخذ به نزولاً على السنة القولية التي استنتها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان شيخ المذاهب: أما (إذا جئنا إلى التابعين فهم رجال ونحن رجال وعبرة يتراءى له غامضة فهل هي من الرؤيا (أي في المنام كما جاءه جبريل في الغار وأمره بالقراءة مع أنه يعلم أو المفروض أنه يعلم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب أ. ه) أم هي من الرؤية الواقعية العيانية – ثم جملة ويأتيه بالكلمة من الوحي ما تفسرها ولأي سبب من الأسباب كتم (المسعود) الكلمات التي أتاه بها إسرافيل وهو منهي بصرامة عن الكتمان.



### والذهبي في السيرة أتحنفا بنفس الأثر:

(عن سعيد بن المسيب قال: أنزل على رسول الله – ص – وهو ابن ثلاث وأربعين سنة فمكث بمكة عشرا وبالمدينة عشرا وعن الشعبي قال: ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنوات فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة وقبض وهو ابن ثلاث وستين)<sup>(٥٠)</sup>.

وفيه أضاف الذهبي (كان يعلمه الكلمة والشيء) فنسب التعليم إلى ذلك الكائن المدهش ولم يقل (الكلمة من الوحي) فهل كلمة إسرافيل الذاتية تعد وحيا من الله أم هي اجتهاد منه ولم يبين لنا الراوي ما هو هذا الشيء الذي علمه إياه:

هل هو من الاعتقاد أو التعبد أو الطقوس أو الشعائر؟ ولماذا لم يورد الذكر الحكيم تعليم إسرافيل (القتول/ القتال) كما نص على تعليم جبريل إياه (علمه شديد القوى)<sup>(٥١)</sup>.

وفي طبقاته ساق إلينا ابن سعد ما يلي:

(حدثنا سفيان الثوري قال: سمعت السدي يقول في قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) قال كان على أمر قومه أربعين عاما.

عن داود بن أبي هند عن عامر أن رسول الله ﷺ أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة وكان معه إسرافيل ثلاث سنين ثم عزل عنه إسرافيل وقرن به جبريل عشر سنين بمكة وعشر سنين مهاجرة بالمدينة فقبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال محمد بن سعد فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر فقال ليس يعرف أهل العلم ببلدي أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ وأن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ)<sup>(٥٢)</sup>.



وعامر الذي جاء في الخبر هو عامر الشعبي أي الراوي في الأخبار الثلاثة واحد وهو الشعبي وبعد قراءته لا بد أن تحركت في رأس القارئ الأسئلة الآتية:

لماذا عزل الملائكة الأعلى إسرافيل؟ هل قصر في عمله (بضم العين أي وظيفته)، أم أن عقد عمله انتهت مدته؟ وإذا صح هذا الفرض: فلماذا لم تجدها له السماء؟

• • •

(ونقل الماوردي عن الشعبي أن الله قرن إسرافيل — س — بنبيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشيء بعد الشيء ولا يذكر له القرآن فكان في هذه المدة مبشراً بالنبوة وأمهله هذه المدة ليتأهب لوحيه)<sup>(٥٣)</sup>.

صاحب (الحلبيّة) روى هذا الخبر عن الشعبي دون سواه بيد أنه يمنحنا صورة مغايرة فهو لم يقل (يتراءى) له ولكنه جزم بعدم الرؤية وبسماع الحس ومعاجم اللغة تشرح لنا أن الحس والحسيس هو الصوت الخفي فلماذا دأب إسرافيل على وشوشة (سعد الله) وما هي ضرورتها ثم يضيف (ويعلمه الشيء بعد الشيء) كما أسلفنا فهو لم يوضح لنا هذا الشيء.

بيد أن الخبر وضع في حجرنا معطى مهما هو أن ما نسبه الشعبي (لا غيره) إلى ملاك الرب إسرافيل إنما بقصد (ليتأهل) (محمد) لوحيه) وهو ذات ما أطلقنا عليه عملية التصنيع فراوي الخبر يعترف بضرورة خضوع أي (قادم) لالتزاماتها ودخولها وولوج مدخلها... حتى يغدو أهلاً لحمل (القول الثقيل).. ولكنه يرفض بإصرار أن يجيء منفذوه والمشرّفون عليها (الصناعة أو التصنيع) من ذرية آدم ولا بد من كائن يحير الأبواب فهو مختلف لا يرى وإذا تحدث فكلامه حسيس وهو يتراءى وهي هيئة ملغزة فلا هي رؤيا (حلم) ولا هي رؤية (واقع) إنما هي بين بين حسب التعبير الشهير للعميد الدكتور طه حسين حتى مادة تعليمه أحجبة<sup>(٥٤)</sup>.

وعلى الماديات (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا)<sup>(٥٥)</sup>.

وعلى المعنويات (لو كان لنا من الأمر شيء)<sup>(٥٦)</sup>.

ودليلنا على إغاز هذا الشيء أن صاحب (الحلبيّة) أصابته الحيرة وركبه الدهش وعمه الربك إزاء هذا الشيء فقال:

(قيل إنه ﷺ مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحياناً ولا يرى شخصاً وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئاً غير ذلك وأن المدة التي بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التي هي اثنتان وعشرون سنة وهذا الشيء الذي كان يعلمه له إسرافيل لم أقف على ما هو)<sup>(٥٧)</sup>.

(عن عامر الشعبي أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة هو ابن أربعين سنة وقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة، والشيء ولم ينزل

القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة عشرا بمكة وعشرا بالمدينة فمات وهو ابن ثلاث وستين.

فهذا إسناد صحيح إلى الشعبي وهو يقتضي أن إسرائيل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثم جاءه جبريل<sup>(٥٨)</sup>.

وبالمثل ضمن الماوردي كتابه (أعلام النبوة) ذات الخبر عن الشعبي:

(روى الشعبي وداود بن عامر أن الله تعالى قرن إسرائيل بنبوته رسوله ﷺ ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشيء ولا ينزل عليه القرآن فكان في هذه المدة مبشرا بالنبوة)<sup>(٥٩)</sup>.



الخبر الآتي أرجأناه وتعمدنا تأخيره نظراً لأنه انطوى على معلومات ذات قدر كبير من الخطر والأهمية وكعادة صاحب (الشامية) فإنه يستقصى ويطنب في إيراد الأخبار ومن ثم تعد سيرته من أطول السير:

— (روى الإمام أحمد في تاريخه بسند صحيح عن عامر الشعبي قال إن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرائيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة: عشرا بمكة وعشرا بالمدينة فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وهذا يقتضي أن إسرائيل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثم جاءه جبريل.

— وقال الإمام أبو شامية — رحم — وحديث عائش لا ينافي هذا فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا ثم وكل به إسرائيل في تلك المدة التي كان يخلو فيها بحراء فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة ولا يقيم معه تدريجا إلى أن جاءه جبريل فعلمه بعدما غطه ثلاث مرات فحككت عائشة ما جرى له مع جبريل ولم تحك ما جرى له مع إسرائيل اختصارا للحديث أو لم تكن وقفت على قصة إسرائيل. انتهى.

وقد أنكر الواقدي — رحم — خبر الشعبي قال ولم يقرن به من الملائكة إلا جبريل<sup>(٦٠)</sup>.

### نلاحظ على الخبر ما يلي:

١ — إن الإمام أحمد أورده في تاريخه لا في مسنده أي أن رفعه من مسنده أو لم يذكره فيه ومعلوم أنه تحرى في المسند الأحاديث والأخبار الصحاح.

٢ — الخبر منسوب إلى عامر الشعبي أي هو مصدره الوحيد كما ثبت من سائر المصادر التي ذكرناها.

٣ — أن الملاء الأعلى وكل إسرائيل بـ (حزر الأميين) وهذا يوثق ما قلناه أن الشعبي يستكثر أن يضطلع بالتجربة (التصنيع) إنسان فابتدع حكاية إسرائيل.

٤ — إسرائيل طفق يخلو ب(محمود) في غار حراء أي أنهما كانا على انفراد فلماذا إذن طفق طول ثلاثة أعوام على أن يخاطبه بطريقة الحس أو الوشوشة!!

٥ — كيف غابت حكاية إسرائيل عن عائشة وهي من أعلم الصحابة وانفرد بها الشعبي دون غيره.

٦ — من هنا أصبح خبر الشعبي عن إسرائيل موضع نقد عدد من السلف منهم الواقدي وهو أستاذ ابن سعد الذي أطلق عليه (كاتب الواقدي) وكتابه (الطبقات الكبرى) معروف بل مشهور وصاحب مقام رفيع أما الواقدي ذاته فله اسم لامع بين مؤلفي السيرة المحمدية التي راثحتها أزكى من ريح العود الصنفي.



خلاصة القول إن أحداث إسرائيل خبر آحاد طلع به علينا الشعبي ونحن لا نبخسه حقه ولا نستنهين بقدره ولا ننحف مكانته كل ما في الأمر أننا في المصادر التي رجعنا إليها وهي بحمد الله تعالى غزيرة وعديدة لم نجد من يعاضده.

بل هناك علماء أثبات أنكروه وجزموا أن ملاك الرب الوحيد الذي التقى ب (أبي قاسم) هو جبريل فحسب وهو نائم في مغارة حرى.



إن الذي ينقض خبر الشعبي من أساسه أنه لم يرد في الأحاديث المحمدية الشريفة حتى الضعيفة ولم يأت ذكره في القرآن العظيم ولا ندرى كيف يقص علينا وقائع أقل قدرا مثل الإعراض عن ابن أم مكتوم (عبس وتولى أن جاءه الأعمى)<sup>(٦١)</sup>.

ويغفل هذه الواقعة المهمة خاصة أنها — حسب زعم الشعبي سامحه الله — استمرت أعواما ثلاثة بل إن القرآن المجيد خلا تماما من اسم إسرائيل في حين أنه ذكر اسم جبريل ثلاث مرات اثنتين في سورة البقرة والثالثة في التحريم وهما سورتان مدنيتان.

وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فإن واقعة مغارة حرى ومقابلة جبريل لمحمد فيها مناما لا نقرأها في المصحف الشريف الأمر الذي دعا بعض الباحث لعدم تصديقها أو الأخذ بها<sup>(٦٢)</sup>.

كما أنه من اللافت للنظر أن السور المكية التي ظل (الأمى) يتلوها على تابعيه لمدة ثلاثة عشر عاما خلت تماما من اسم جبريل!!

بعد هذه التفريفة السريعة نؤوب إلى مسلسل الحديث:

إذن هناك من السلف من أدرك ضرورة سبق التجربة أو التصنيع ليزوغ المأمول المنتظر وأنه يستحيل عقلا أن يظهر فجأة دون إعداد وتهيئة وشحن

وصنفرة وقلوطة... الخ بيد أن ذلك إن النفر (من السلف) خريق<sup>(٦٣)</sup> وضل الطريق وتيهه وهمه وخيره فكره فادعى أن الذي مارس التجربة واضطلع التصنيع وياشر الإعداد... الخ كائن غامض لا يرى لا في منام ولا في يقظة كلامه حسيس وحديثه وشوشة مع أنه في خلوة مع من يخاطبه لا تستدعي الإسرار ولا تتطلب الخفوت وما يلقى من علم مجهول ولم يجد من نسبه إليه وصفا له سوى أنه شيء ولم ينبس عنه من التقاه بكلمة واحدة بل حتى لم يلحن ولم يشر إليه ولو مرة واحدة.

كل هذا يقطع باستحالة قيام هذا الكائن المعجب بما أضيف إليه وإنما الذي حمل عبء التجربة الثقيلة على كاهله هم بشر ولكنهم امتازوا بمناقب رفيعة.



هناك أمر آخر تعين على الهدوز أن تقدم عليه إذ بدونه لا تتجح التجربة أو على الأقل يتأخر فلجها أو يصيب نتيجتها المبتغاة قدر من التلبيس وشيء من التخليط وهو تفرغ قلب (القرشى) من هم الرزق تماما وتفريده للتجربة وموجباتها أو التزاماتها إذ إن الجمع بينهما ضرب من المستحيل وتكليف بما لا يطاق وأمر بما لا يستطاع وفي القرآن العظيم (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)<sup>(٦٤)</sup>.

وفي الإنجيل أنه من المستحيل أن يخدم عبد سيدين في ذات الوقت أو في وقت واحد والعاملة في مصر تقول (صاحب بالين كداب)..

وهذا أمر بديهي فالتجارة التي امتنها (المكي) قبل أن تنكحه أم هند تستنزف وقت من يتعاطاها ولا تترك له فسحة لغيرها من الشئون. لهذا قررت سيدة نسون قريش أن ينفرد للتجربة ويوليها كل اهتمامه وينفق فيها وقته كله فأفألتة من عمألتة واضطلعت هي بمشغوليات التجارة ووضعت في حجره أموالها يصرف منها كما شاء دون معقب منها أو من غيرها.

وذلك بعد أغرقته بطوفان حبها وألبسته الحرير وأطعمته الخمير فصار لها عاشقا كما قال وكيف لا يفعل وهي قد نقلته نقلة لم يحلم بها مجرد حلم: من عسيف يكدح من مكة إلى حباشة ومن قرية القداسة إلى الشام لقاء بكر أو بكرين إلى واحد من السادة الغطاريف الذين يلبسون أعلى الثياب وأرقها ويتلذذون بأشهى الأطعمة وأحلى الأشرب وكظته<sup>(٦٥)</sup> إلى التجربة ليرتع فيها على مهل ويمرح على ريث.

... (عن الزهري قال: قال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي أطعمني الخمير وألبسني الحرير وزوجني خديجة وكنت لها عاشقا)<sup>(٦٦)</sup>.

ولبس الحرير وأكل الخمير بعد رعى الغنم تطور مذهل بكل المقاييس.

(في الهدى أنه ﷺ أجر نفسه قبل النبوة في رعيه الغنم.. قال رسول الله - ص - وأنا راعي أهلي بأجباد وأجباد موضع بأسفل مكة من شعب بها)<sup>(٦٧)</sup>.

ولم يحدث ذلك خبط عشواء بل عن رسم وتخطيط ليلقى (المفتاح) دبر أذنيه زمن المعاناة وسنوات الفقر ومرحلة الشظف ولا يفكر فيها أدنى تفكير.

(روى البلاذري أن محمداً بعد أن جاءت الرسالة وبدأ يدعو لها جاءه رجل يكلمه عن مال كان له أي لمحمد عنده فقال محمد شيئاً فيه معنى أن ذلك الأمر والمال لم يعد يعنيه)<sup>(٦٨)</sup>.

هنا نجد أن مدينا أقبل عليه ليوفي ما عليه فيرد عليه بما يفهم منه أن ذيك المبلغ لا يساوي في نظره شيئاً!!!

وكيف لا؟ أليست ثروة خديجة (صاحبة نصف قافلة قريش) أصبحت ملك يديه وفي حوزته ورهن إشارته.

وكيما ننقه عظم النشب الذي أباحت إياه ورحابة التفويض الذي نفتحته نقرأ الخبر الآتي:

— ويروى أنه ﷺ دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك؟ قال الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال بنفذ مالك فأستحي منك وإن أنا لم أبذل أخاف الله.. فدعت قريشا ومنهم الصديق قال الصديق فأخرجت دنائير حتى صبتها وبلغت مبلغاً لم يقع بصري على من كان جالسا قدامي ثم قالت اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه)<sup>(٦٩)</sup>.

• • •

وشد انتباه أغلب الباحثين في سيرته التي هي أذكى رائحة من الند الهندي هذا الملمح البالغ الأهمية فأدرجوه في مؤلفاتهم:

وشغله هذا الدأب عن تجارة خديجة فلم يخرج فيها إلى الشام كما فعل قبل أن يتزوجها بل كفاه منها أن أغناه الله بها وانصرف يلتمس هذا الحق الذي شغلت نفسه بالبحث عنه والتفكير فيه يريد أن يراه واضحا صريحا لا لبس فيه ولا غموض.

وكاتب آخر يرى أنه انشغل في تجارة بعله خديجة قليلا ثم تركها لها ونحن نخالفه في منحاه لأن الأمر وتدبيره ليس في يد (ذى الهراوة) بل هو من إعداد وإحكام من باعلته فهي صاحبة مشيئة تفرغته (وتزوج محمد خديجة بنت خويلد وهو في الخامسة والعشرين من عمره وهي في الأربعين فكان زواجا هادئا، وبقي يعني بأمر تجارتها قليلا من الزمن ثم ترك لزوجته شأن هذه التجارة أخيرا فجعلت تقوم عليها كسابق عهدها)<sup>(٧٠)</sup>.

• • •

أما هيكل (محمد حسين) فهو يوافقنا على ما نذهب إليه ويضيف على أن ذلك التفرغ لم يمنعه عن الاختلاط وما درى هذا الباحث أن ذلك (التفرغ) قننته الهندوز ليغدو مقدمة للاحتفاظ والمشى في الأسواق كما سنوضح في أول مقاطع التجربة الفذة.

(أقام محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة في ذروة من النسب وسعة من المال وأهل مكة ينظرون إليه نظرة غبطة وإكبار.

ولكن ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب في الحياة العامة على ما كان يفعل من قبل)<sup>(٧١)</sup>.

وأن المرء ليتولاه العجب ويتساءل:

كيف أن مؤلفا (بكسر اللام) في قامة هيكل لم يلتفت إلى أن حل خديجة يدي (أحمد) من القيود في ثروتها يزعبقها كما يريد تم عن وعي كامل وبقصد محدد؟

• • •

(كما أن عدم زواجه بأخرى طالما خديجة على قيد الحياة يمكن أن يربط بارتفاع مركزها الاجتماعي ولأن ثروتها كانت عونا كبيرا له خلال صراعه ولكن يبدو أن شخصيتها كان لها وزن كبير بالنسبة إلى زوجها. على أي حال فالأخبار ترسم صورة جذابة جدا للتأييد الأدبي الذي وفرته في أثناء القلق الذي انتابه عندما نزل الوحي عليه لأول مرة)<sup>(٧٢)</sup>.

ونمسك موقتا عن التعليق على ما جاء بفاتحة هذه الفقرة بصدد عدم زواج (الشافع المشفع) على خديجة طوال حياتها إذ سنطرح له تفسيراً جديداً غير مسبوق – والذي يهمننا الآن نص أصحاب الموسوعة الإسلامية الميسرة على أن ثروة سيدة قريش شكلت عونا له خلال صراعه أي إبان مروره بمحطات التجربة.

• • •

(لقد أصبح بعد تزوجه من خديجة هادئ السر وأصبح له منزل يأوي إليه وأهل يسكن لهم)<sup>(٧٣)</sup>.

في تلك الأيام البواهر استقر العرف على سكنى الزوجة بمنزل زوجها الخاص أو بمنزل أسرته بيد أن سيدة نساء الدنيا في سبيل أن تظفر بنكاح (الخافض/ خافض الجناح) وتفوز بمباعلته ضربت بهذا التقليد العربي الراسخ كالأجيل عرض الحائط وأسكنته في دارها هي: والإقدام على ذلك جزء من التخطيط الذي أحكمته بشأن التجربة فمن ناحية ليشعر بلذة وجد المسكن بعد الافتقار إليه. ومن ناحية أخرى ليصبح ويمسى بأعينها وتحت رقابتها وفي رعايتها.

**تقول بنت الشاطي:**

(... فمنذ أن استقرت به الحياة في رعاية الزوجة الرعوم وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي، أتيج له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلى التأمل وميل إلى التفكير)<sup>(٧٤)</sup>.

لا بأس أن نتحدث الدكتورة بنت الشاطي عن التأمل والتفكير وهما

مرحلة متقدمة نوعا في مسيرة التجربة لكن المهم أنها فطنت إلى أن إعفائه من عناء الكدح اليومي هو قياد لما نذرتة أو ندبته إليه بعله.



وفي تفسير القرآن الكريم بيانياً قالت عائشة عبد الرحمن وهي بصدد تفسير سورة الضحى إن الله أغناه بمال خديجة.

— ولذلك فسر جمهور المفسرين آية الضحى بأن الله أغناه في صباه بتربية أبي طالب ولما اختلت أحواله أغناه بمال خديجة، واختصر الشيخ محمد عبده هذه السلسلة الطويلة من الاختلال والإغناء مكتفياً بربح التجارة ومال السيدة خديجة قال: (وكان رسول الله فقيراً لم يترك له والده من الميراث إلا ناقة وجارية فأغناه الله بما ربحه في التجارة وبما وهبته خديجة من مالها)<sup>(٧٥)</sup>.

ثم أوردت أن الأستاذ الإمام محمد عبده أجرى مقارنة بين ما ورثه (الفلاح) من أبيه عبد الله بن عبد المطلب والقدر اليسير الذي اكتسبه من احترافه العمالة التجارية للغير وبين الثروة الأسطورية التي وضعتها سيدة نسون قريش في حجره وبحسب تعبير الشيخ (وهبته) والهبة في قواميس اللغة: (المال يعطى بلا عوض) وهذا تأكيد وتوثيق أن أم هند دفعت له بدون أي مقابل وذلك قطعاً لأي معارضة قد يطرحها لجوج بأن تلك الأموال مقابل عمله لديها في التجارة بيد أن الإخباريين لم يذكروه إما سهواً وإما أنه معلوم ببدائه العقول.



إن ما فعلته خديجة في هذا الصدد أمر محتوم كيما يشعر (الخاشع) بالاستقرار الذي بدونه يتعذر عليه أو يستحيل عليه أن يعطي نفسه وعقله ووجدانه للتجربة لأن الجري وراء لقمة العيش يهد الجبل ويؤرق العين ويجلب الهم ويستحضر الغم:

(وتم الزواج بوفاء سابغ للاثنين وهناء عامر واستقرار ورزقهما الله بالأبناء)<sup>(٧٦)</sup>.

ويؤكد الخربوطلي على أن (جد الحسنين) تلقى من خديجة هدوء السر وراحة البال وأنها منحتة المنزل الذي يأوي إليه والأهل الذين يسكن إليهم:

(لقد أصبح بعد تزوجه من خديجة هادي السر والبال وأصبح له منزل يأوي إليه وأهل يسكن إليهم)<sup>(٧٧)</sup>.

أما جلال مظهر فيقطع بأن أم هند أخلته من مشاغل العمل ومؤنثته وإرهاقه وقرفه<sup>(٧٨)</sup> وأنها هي التي حملت على كتفها كاهل العمل التجاري.

ويؤكد أنها نقلته من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء.

وهي حقيقة لا ينكرها إلا معاند ولا يرفضها إلا مشاكس ولا يماري فيها إلا لجوج.

وبدأت مرحلة جديدة تماما في حياته فما هو يتعرف على المرأة ودفئها وحنانها لأول مرة في حياته وما هو ينتقل من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء.

(خديجة إذ كفت حبيبها محمدا مؤونة العمل وإرهاقه ومشاغله فقامت هي بشؤون البيت وشؤون تجارتها وتركت هذا المتأمل حرا كامل الحرية لا يحمل من هموم الدنيا شيئا لينصرف إلى أفكاره وتأملاته التي كانت تشغل الجزء الأكبر من وقته)<sup>(٧٩)</sup>.

• • •

ولكن كم نفحت سيدة قريش (المسعود) من مالها؟

أي ما هو مقدار المنيحة التي أفاضت بها عليه؟

يذهب باحث عراقي إلى أنها دفعت إليه بكل ثروتها:

(هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى أبوها من أشرف قريش في الجاهلية وأمها فاطمة بنت زائدة القرشي كانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة وتكنى بأُم هند، كانت تحت أبي هالة واسمه هند بن النباش فولدت له هندا وهالة ذكرين ثم خلف عليها بعد وفاته عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي وبعد وفاته ظلت حتى لقائها بالنبي محمد ﷺ ومناجرتة لها بأموالها فتزوجته آنذاك وكانت أول من صدق به وصلى خلفه من النساء ووهبته ما تملك في سبيل الدعوة وكانت له الصدر الحنون ساعات روعه ومحنته.

وظلت إلى جانب الرسول ﷺ تعاضده وتعينه على أمور الدعوة حتى توفاه الله قبل الهجرة بثلاث سنين لعشر خلون من رمضان وهي بنت خمس وستين وقد سمي ذلك العام بعام الحزن)<sup>(٨٠)</sup>.

وقد انضم إليه في هذا الرأي باحثان من إخواننا الشيعة:

١ — (كان من الطبيعي بعد ذلك كله أن تكون أول من يصدقه ويؤمن بدعوته وتضحى في سبيلها بكل ما تملك)<sup>(٨١)</sup>.

٢ — (وكانت (يعني خديجة) إلى جانب حبها امرأة شريفة ذات بصيرة تحسن تصريف الأمور.. ثم كانت من أوائل من صدق رسالته وبذلت كل ثروتها من أجل دعوته)<sup>(٨٢)</sup>. ونحن من جانبنا نؤيدهم في هذا الرأي. كيما تضمن تفرغه الكلي والجزئي للتجربة فلا يشغله غيرها ولا شيء يشتت الذهن ويحير الفكر ويقض المضجع قدر الحوجة.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى

فقد ذاق الحرمان وكابد المسغبة وكواه الفقر فلا يسكن روعه من هذا الجانب ويهدئ باله ويطمئن نفسه ويريح خاطره سوى أن يوضع المال جميعه بين يديه.



## ومن ناحية ثالثة:

بهدف أن تحكم قبضة رعايتها وتشد وثاق عنايتها له وتضاعف من لحظها إياه وجماع ذياك كله يؤدي إلى سهولة المطاوعة ويسر المهادة وسلس الموافقة مما يوصل في نهاية الأمر إلى نجاح التجربة.



إن توفير مسكن لـ(المتين) من قبل الطاهرة وإيواءه فيه مخالف للتقاليد المستقرة لا في مكة وحدها بل في سائر أنحاء الجزيرة العربية إذ حتم لازم على الزوجة أن تنتقل إلى بيت زوجها ولو فرضنا أن هذا البيت في نجع أو محلة أخرى نقلت إليها أو إليها وتسمى (الأخيدة) الذي أخذها زوجها من مضارب أهلها إلى مضارب عشيرته أو رهطه واللفظة ترشح بالمعاني العديدة منها الأسر والاعتراب والبعد والانقطاع ومن ثم درجت النسوة على كراهيتها.



## ثم نستأنف القول:

إذن هو الموضع الثاني الذي تضرب فيه أم هند عرض الحائط بالأعراف (جمع عرف) الرواسخ وسبق أن ذكرنا الموضع الأول.

وهناك الموضع الثالث:

أن تقوم هي (الزوجة) بالعمل وتصر على أنه (وهو الزوج) ألا يمارس أي عمل من أي نوع بل إنها تصب كل ثروتها وما تربحه بعد أن بعلته في جيبه دون أن تسأله ولا لمرة وحيدة فيم أنفقت هذا المبلغ؟

فمن البديهي أن نسطر أن المنحى ترفضه التقاليد لا في مجتمع مكة ولا في قبيلة قريش بل وفي غيرهما من المجتمعات والقبائل.

إذ من المعروف والمجمع عليه أن الزوج هو الذي يكد ويكدح ويعرق لا الزوجة وهو الذي يمنح ويعطي لا الزوجة!!!

بيد أن خديجة لم تعباً بذلك كله ولم تلتفت إليه ولم تعره اهتماماً ولم تأبه لأية أقاويل لا بد أنها أثيرت في (الندوة) وغيرها من مجالس الرجال والنسوة عن تلك الأفعال التي مارسها بنت خويلد ولم يسبقها فيها أحد.

ولا مشاحة أن تفسيرات شتى وتأويلات عديدة تناثرت هنا وهناك وقد سمعتها وأعرضت عنها جمعاء لأن الهدف السامي الذي تتغياه أكبر من أي اعتراض وأنبل من أي احتجاج وأعظم من أي امتعاض.



## يبقى موقف (الأواه)

كيف يقبل أن زوجته هي التي تهيب أو توفر مسكن الزوجية؟

وكيف يوافق أن بعله هي التي تعمل في حين يظل هو بلا عمل خاصة أنه آنذاك في مطلع شبابه وعز فحولته وقمة فتوته وذروة قوته ونحن نعلم عنه أنه يعتز بكرامته ومن رهط (بني هاشم) الذي يأبى الضيم ويفر من الذل ويتمسك بحبال العزة؟

الذي نرجح أنه في البداية عصلج<sup>(٨٢)</sup> وامتنع واحتج.. الخ ولكن الطاهرة بما لها من كيس وفطنة ولباقة وتجربة في معالجة البعول استطاعت أن تثنيه عن موقفه تسئل مدافعتة وتلين قناته وتأخذ منه صك القبول وشارة الرضى وعلامة الوفاق، بدهاة هي لم تفتاحه بشأن التجربة مباشرة إنما أفهمته بطريقة خبيثة أن هناك ما هو خير من العمل والتجارة وأن عليه أن يثق فيها، وفعلا وثق فيها فربح ما هو أعظم من التجارة ربح خلودا على مدى الدهر.



بقيت النقطة الخاصة بانفراد خديجة بعلا ل(صاحب الشملة) ما يزيد على خمسة وعشرين عاما وهو في ذياك الإبان كما أوردنا في ريعان الشباب فضلا عن تمتعه بقسامة ظاهرة ووضاءة بالغة وجمال باهر ووراثة عن أبيه عبد الله الذي أحرق قلوب العذارى والأيامى في قريش لحسنه وطلاقة وجهه.

وسبق أن طرحنا تعليقات عديدة لذلك الأمر المحير لبعض الكتبة المحدثين خاصة أن تعدد الزوجات في ذلك المجتمع يرقى إلى مرتبة العرف المستقر والعادة المرعية والتقليد الراسخ يقدم عليه الذكر ويفتخر به ويعده من شارات غناه وعلامات رجولته ودلائل فحاله.. حتى إن بعضهم احتبس عشر زوجات في وقت واحد مثل غيلان التقفي الذي تزوج عبد الرحمن بن عوف إحدى بناته واسمها بادية التي وصفها هيت المخنث للمسلمين وهم يحاصرون الطائف أنها تقبل بأربع وتدبر بثمانية، وأضاف فمن استطاع منكم فليبادر وينكحها وابن عوف بدوره تزوج في الإسلام عشرين من الحرائر بخلاف ملك اليمين مع المحافظة (الشكلية) على قيد عدم تجاوز حبس أربعة منهن<sup>(٨٤)</sup>.

إن العرف والشباب الوضيء في جانب (القمر) لا بد أنهما وزاه على الزواج على أم هند بيد أن هناك ما قيد حركته عن السير في الاتجاه بل ربما أوقفاه نهائيا حتى لا يستطيع أن يمضي فيه خطوة واحدة ولو بمقدار فتر<sup>(٨٥)</sup> منها المكانة الاجتماعية لخديجة ذاتها ولعشيرتها بني أسد ومنها وضعها الاقتصادي فهي إحدى ركائز أو عمد الاقتصاد في بلدة التقديس إلا لها كما كررنا نصف القافلة، وتقلها المالي فهي تملك من النشب جميع أنواعه

«العروض والعقار والعبدان والإماء... الخ إذن لا بد له أن يضع هذا في اعتباره ويعمل له ألف حساب — هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فليس بيده الشريفة وقت ذاك (طول الحرة) بفتح الطاء والواو<sup>(٨٦)</sup> ولا (ثمن الأمة)<sup>(٨٧)</sup>».

هل من المقبول عقلا أن يصرف مال سيدة قريش في الإضرار بها ضرا فاحشا إذ لا يغيظ المرة وينكد عليها عيشها قدر نكاح زوجها غيرها عليها أي وهي في عصمته.

ولعل من دوافع إغراق سيدة الدنيا لـ(أكل الشعير) في بلهنية العيش والباسه الحرير وإطعامه الخمير وتسليمه مفاتيح خزائن ثروتها الطائلة هو ألا يمد عينيه إلى غيرها من النسوان أو الجوارى فهي تعرف عنه شمائله الرفيعة ومناقبه السامية وأخلاقه الحميدة ويتربع على رأسها العرفان بالجميل ومن ثم فيستحيل عليه أن يقدم على مثل هذه الفعلة.

(ولما بنى بأولى زوجاته خديجة لم تكن لدات الحس هي التي سيطرت على هذا الزواج لأنه بنى بها وهي في نحو الأربعين وهو فتى في ريعان صباه وعنفوان شبابه لم يتجاوز الخامسة والعشرين وهو رجل جميل الخلقة طلق المحيا تتطلع إليه الأبقار وتتمناه العذارى لكنه كان ملهماً بأمر ربه فنظر إلى مكانتها من قومها وموقعها من عشيرتها وطهرها وعفتها وكانت هي التي عرضت نفسها عليه فقضى معها الشباب والفتوة وزمن الرجولة والقوة وقضى زهرة عمره معها خمسة وعشرين عاما زمن الحيوية والشهوة الجنسية وليس له من زوجة غيرها ولم يفكر قط أن يشرك معها غيرها في فراشه)<sup>(٨٨)</sup>.

فطن الباحثان إلى سبب من أسباب إحجام (الفهم) عن الزواج على خديجة أو التسري فقالا (نظر إلى مكانتها من قومها وموقعها من عشيرتها) والحق أن غيرهما من الباحثين المحدثين (على الأقل الذين طالعنا كتاباتهم) لم يجرؤ على البوح به. ولو أنهما عادا مثل سائرهما إلى كن (بكسر الكاف) الغيب يستترون به أو وراءه ويتمسحون بحيطانه والظروف المادية مجرد ظاهرة تقترن ولا تؤثر والعلل التي تتولد عنها هي والعدم سواء ومن ثم ذهب الكاتبان إلى أن نظر (الراضى) إلى مكانة خديجة من قومها أي (وضعها الاقتصادي) وموقعها من عشيرتها (مكانتها الاجتماعية) ثم بإلهام من ربه وأمره لا أن هذا (الوضع الاقتصادي) و(المكانة الاجتماعية) هما اللذان حبساه عن مجاوزة الحد والزواج بغيرها. وأنه ببصره الثاقب وبصيرته النافذة وعقله الراجح أدرك أنه لو فعل لآثار عليه (الملا) الاقتصادي وأسخط الحامة (النخبة الاجتماعية) وهو أدكى من أن يستنفر غضب أولئك أو هؤلاء... فالمسألة بسيطة ليست في حوجة إلى إلهام سماوي إنما هذا هو

ديدن الكتبة المحدثين وهو: إرجاع كل الأسباب والعلل إلى قوة غيبية وكفى المؤمنين عناء البحث ومشقة التحليل ووعورة التنقيب.

ومن هنا طالما نادينا بضرورة دراسة السيرة المحمدية المعطار والحقبة الخلفية بل وسائر مقاطع التاريخ الإسلامي دراسة منهجية موضوعية تتأى بها عن الدروشة والشطحات والماورائيات أو تعليل الأحداث بطريقة الوعاظ وأئمة المساجد وخطباء المنابر.

### عود إلى السياق:

نحن لا نرفض تلك التعليقات التي سيقنت في الفقرة السابقة لتبرير امتناع محمد عن الزواج بغير خديجة حتى توفيت إلى رحمة الله راضية مرضية. بيد أننا نرى أنها غير كافية، إذ في شباب محمد ووضاعته ورفعة نسبه ما يجعل البطون المنافسة لبني أسد مثل بني مخزوم وبني أمية تقبل مصاهرته بذات الطريقة التي استنتها أم هند بل ابتدعتها.

أما النظر بعين الاعتبار ل(ملاً) التجارة والمال و(نخبة) المجتمع فإن أصهاره الجدد لن يتخلوا عنه بل سوف يؤازرونه.

أما قول المحدثين الكتبة والكتبة المحدثين إنها عصمة من الله فإن الرد عليها: هل هي خطيئة ومن قال إنه (نعني الزواج بأخرى) خطيئة سواء قبل الإسلام أو بعده؟

ولو أن الأمر كما تقولون (عصمة ربانية) فلماذا تخلفت عنه عندما نزع إلى يثرب فقد أبلغنا الإخباريون أن عدد زوجاته ناهز الخمسة والعشرين بخلاف ملك اليمين ولو أنه لم يدخل ببعضهن وانتقل إلى الرفيق الأعلى وعلى ذمته تسع منهن<sup>(٨٩)</sup>.

وقد صرح هو أكثر من مرة أن من أحب الأشياء إليه من شؤون الدنيا النسوان.

إذن تلك التعليقات ليست كافية في سبب عزوفه عن اتخاذ ضرة للطاهرة فما هو السبب المانع القاطع في ذلك؟



خديجة الهندوز المحنكة الدروب لم تضع وقتاً في إدخال (الفلاح) في مصنع التجربة وإذ إنه لديه ما يؤهله لقبول هذا العرض فضلاً عن فارق السن بين الطرفين (قلنا إنه يبلغ ربع قرن)، وكذا موضعية سيدة قريش كأم رعوام له ثم فطانتته رويدا رويدا لسمو الدور الذي سيضطلع به وعظم المهمة التي سيجملها على كتفيه ثم إنجازها لما سيوكل إليه من موجبات والتزامات ثم انشغاله فيها على مدى الأربع والعشرين ساعة في اليوم صباحاً المشي في الأسواق والاجتماع بأصحاب الممل والنحل والأديان والعقائد ومحاورتهم وعند

انعقاد الأسواق والمواسم الانتقال إليها وسماع خطبائها وشعرائها من سائر الاتجاهات ثم القيلولة وبعدها في المساء والليل حلقات الدرس والتعليم والتحفيز من الإصحاحات التي ترجمها القس الذي أنقن اللسانين والكتابين العربي والعبراني.

والحصة التالية تتم بحضور اليعسوب مرة في منزل خديجة وأخرى يذهبان هما إليه وفيها تتم المراجعة والاستفسار والتفسير والتسميع والشرح والتوضيح حتى ينفلق الصبح وهكذا.

في هذه البانوراما التي رسمناها في عجلة أين تتموضع الزوجة الأخرى أو الثالثة؟

يوماً بعد يوم تتفتح الآفاق أمام باصرتي (العطوف) ويزداد وعيه ويتعمق إدراكه ويتضاعف فهمه للعمل الجليل الذي تباشره به أو معه سيدة نسون قریش فيعشقها أكثر وأكثر ويتوله لها ويذوب في هواها، كيف لا وهي قد أغنته ماديا وفي طريقها إلى إثرائه روحيا.

ومن الجانب الآخر لخاص بالتجربة ذاته فإنه يزداد تماهيا فيها أي لا يكتفي بالقيام بها بل إنه يندمج (تعبير حديث شائع في مصر المحروسة) فيها فتملك عليه أقطار نفسه وتملاً عقله وتشبع إحساسه وتشحن وجدانه فيزداد بها تعلقاً حتى إنه يغدو أحيداً لها لا يستطيع مفارقتها ولا طاقة له على مباينتها ولا حيلة له في الابتعاد عنها.

إذن هي بدخوله أو بمعنى أصح وأدق وإدخاله التجربة:

تضاعف وتعمق هيامه بالطاهرة وأحاطته التجربة بسياج روعي متين ليس في مكنته الخروج من بابه أو القفز على سوره فأنى له الزواج بأخرى؟



هذا هو التعليل السليم والسديد لعزوفه عن نكاح بعلة أخرى، ونحن نؤكد أنه لم يسبقنا أحد إليه لا من القدامى ولا من المحدثين ولا نزع أنه التعليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بيد أن الذي نؤكد أنه حمل آيات صدقه وبراهين ثبوته وحجج يقينه.

هناك سبب آخر نختم به فاصلة تبيان علل اقتصار محمد على زوجة واحدة هي خديجة في تلك الحقبة المعجبة في سيرته العطرة، هو أن الثقافة الدينية التي سيطرت على عشيرة بني أسد أن ذلك تحرم تحريماً قاطعاً الزواج بأخرى، فحتى لو فرضنا فرضاً جديلاً أنه فكر في ذلك، فإن الرد سوف يجيء من الطاهرة أم هند: أذكرك يا أبا القاسم (هكذا دأبت على مناداته أ. ه) بأن ثقافتنا الدينية تحظره حظراً باتاً. وماذا يقول بحيرى وورقة وعداس وناصح وميسرة عني!!!

وحتى يزداد القارئ بهذا السبب — الذي لم يسبقنا إليه أحد — اقتناعاً نلفت انتباهه: إن الذي تولى مراسم العقد هو ورقة بن نوفل وهو (قس)، أليس كذلك؟!



(الشكار) عندما نكحته الطاهرة في مقتبل شبابه وتمتع بالصفات الجسدية التي ألمنا بشطر منها وبشمائل باهرة ومناقب منيفة وخصائص حميدة منها: طلاقة اللسان وقوة العقل وسلامة الفطرة ونفاذ البصيرة وسعة الأفق وحدة الذكاء وصلابة الشكيمة ومضاء العزيمة واستقامة الخلق وصدق القول وأداء الأمانة والوفاء بالعهد ونكتفي بهذا لأننا لا نستطيع حصرها وكاتب هذه السطور يؤمن أن أمة العرب عقت عن إنجاب ضروب له.

بيد أنه من جانب آخر فهو أُمي لم يقرأ صحيفة ولم يكتب كلمة ولم يمك قلماً ولم يخط حرفاً وذلك بشهادة القرآن العظيم. إنما عوض الأمية بذاكرة واعية وحافظة تسمع الجملة فتخترنها وتستوعبها لا تخرم منها لفظة مفردة. هذه الذاكرة العبقورية لعبت دوراً لا مثيل له في الخطورة إبان التجربة فقد وسعت جميع الدروس والمعلومات والمعارف التي طفتت تتلقاها في جلسات المدارس وحلقات التعليم وليالي المراجعة إن على يد الهندوز أو اليعسوب. إن اعتماد الأُمي على ذاكرته أمر شائع معروف ليس في حاجة إلى دليل. كما يبدو أن بني هاشم امتازوا بها فقد حكيت عن الإمام علي كرم الله وجهه في هذا المضمرة الأعاجيب ثم عن (مسائل نافع بن الأزرق) رأس فرقة الأزارقة من الخوارج أنه: في مقطع من حياته تلقى العلم عن حبر الأمة عبد الله بن العباس في المسجد الحرام.

إن الحبر حفظ قصيدة غزل ملتهب طويلة لعمر بن أبي ربيعة ألقاها عليه مرة واحدة.

وقيل إن الإمام الشافعي ويرتفع نسبه إلى بني هاشم حفظ حواراً جرى بين يونانيين حدث بينهما خلاف فاستشهد به أحدهما فأدلى بالحوار كما هو أمام القاضي فأحضر مترجماً وبعد أن أقر الخصمان بصحة الشهادة وسلامة الترجمة قضى لصاحب الحق<sup>(٩٠)</sup>.



وفي وقت لاحق امتاز البخاري صاحب الصحيح الذي يوصف بأنه أصح ما كتب بعد القرآن المجيد بذاكرة حديدية وقد ورد في سيرته أنه حفظ سبعين ألف حديث وبداهه لا يعني هذا أن البخاري أُمي ولكن نقدم الخبر لنثبت أنه وجد من يتمتع بحافظة واعية تثير العجب والدهش:

وقد جاء في حق البخاري صاحب (الصحيح) ما يلي:

(يقول سليمان بن مجاهد كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال لو جئت قبل لرأيت (صيبا) يحفظ سبعين ألف حديث فخرجت حتى لحقته فقلت له: أنت تحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومسكنهم ولست أروي حديثاً من حديث الصحابة والتابعين إلا ولي من ذلك أصل أحفظه من الكتاب والسنة)<sup>(٩١)</sup>.

### ونحن لا نقارن البخاري بمحمد فأين الثرى من الثريا؟

إنما من حق المرء أن يتساءل إذا تمتع هذا الأعجمي بهذه الذاكرة المعجبة فكيف حال ذاكرة (راكب الأتان) العبقري الذي لا يفري فريه أحد وذلك باعتراف جميع خصومه وأعدائه.



ولقد أطلنا في التفريجة الخاصة بأمية (الفارق) وفي مقابلها ذاكرته الفاذة عديمة النظير لأنها شكلت ركيزة هامة في بنية التجربة العظيمة وسببا مؤثرا في فلجها وهي التي دعت الناس في المشرق والمغرب في القديم والحديث يسألون ويلحفون في السؤال وما انفكوا يسألون: أئى لأمي كل هذا الثراء في المعارف والغنى في العلوم والملاءة في المعطيات؟

وإذ إنهم لم يتفرسوا في الحقبة المتوارية من السيرة المحمدية التي هي أطيب ريحا من نشر القطر ونعني بها منذ أن غدت أم هند له بعلا حتى الرؤيا المنامية العجيبة التي خايلته في مغارة حرى، ولم يمعنوا النظر فيها ولم يحدقوا في قوادمها وخوافيها ولم ينفذوا إلى باطنها — كما فعلنا نحن، واستنفد (بالدال) ذلك من عمرنا سنين عددا انقطعنا فيها لها بالكلية حتى قراءة الصحف أمتنعنا عنها، ودعك من مشاهدة التلفاز وغيره من وسائل الميديا، نقول إذ إنهم لم يفعلوا تجنباً للإرهاق وفرارا من المجهود وضنا بالعرق وهروبا من التعب وإيثارا للراحة وتفضيلا للسهولة وأخذا بالمجانبة.. الخ لجأوا إلى الماورائيات واعتصموا بالقوى الخبيثة والعوامل المحجوبة والكائنات غير المنظورة والأفاق الخفية ونسبوا إليها ما حدث وأضافوا إليها ما وقع وألصقوا بها ما تم، ووقى الله الكتب والبحاث مؤونة الحفر ومصاعب التنقيب ومعاناة أعمال العقل فأمنوا على التفسير اللاعياي<sup>(٩٢)</sup>. والتأويل اللاحياتي والشرح اللامعاشي واستكانوا إليه عاما بعد عام وعقدا وراء عقد وقرنا إثر قرن حتى تكلمت تلك الحكايات وتجمدت وتحجرت وغدت حقيق مطلقا.

قط لم تقف أمية (أبي إبراهيم) حجر عثرة في طريقه ولا عائقا أمامه ولا سدا في وجهه فقد تسابق معاونوه — الذين مكنتهم ظروفهم من الإفلات

من الأمية التي هيمنت على مجتمع القداسة – في كتابة ما يمليه عليهم ورصده وتدوينه بكل قداسة ورهبة.

• • •

### كالمرات السابقات نعود أدرجنا إلى سياقة القول:

في تلك الأيام المعجبة (المضخم) شاب مكتمل الفتوة على أبواب مرحلة الشيبية سوى الخلق (بفتح الخاء وسكون اللام) رضى الخلق (بضم الخاء واللام) يتمتع بأعلى المواهب العقلية وهو أُمي بيد أن الأهم من ذلك كله ليست لديه ثقافة دينية من أي نوع.

### وتركمت الأسباب لتقتعنا بالمسبب:

فهو قد تجرع مرارة اليتيم صغيراً فطبعه بطابع الحزم ثم ذاق شظف العيش مع راعيه وكافله فاستشعر بأن الحياة ظلّمتها مما ضاعف أساه وانتهى به الأمر إلى إيثار العزلة والبعد عن الناس، والنفور من الاختلاط بهم.

ولما شب وغادر أيام الطفولة اضطرتّه ظروفه المادية إلى امتهان حرفة فوق أنها لا تليق به شخصياً ولا تتناسب مكانته أو رتبته مما زاد الأزمة النفسية فإنها بطبيعتها تستلزم مفارقة الناس وهي رعى الغنم فالراعى يتسلم القطيع من صاحبه ويسوقه إلى موضع يصلح للرعى وفي حالة (المصطفى) هو أجياد – ويظل معه حتى الغروب فيعيده إلى مالكة ويتسلم منه جعالتة وهي زهيدة قال عنها قراريط ثم يعود إلى داره، وبالنسبة إليه دار عمه عبد مناف (أبي طالب) ويعطيه ما حصل عليه من أجر مساهمة منه في تكاليف المعيشة وهكذا لم تتح له هذه المهنة فرصة أن يغدو خليطاً<sup>(٩٣)</sup>.

• • •

وبعدما عمل أجيراً تجارياً وحفظت لنا دواوين سيرته التي هي أطيّب رائحة من بنفسج الكوفة سفرتين له إلى سوق حباشة ورحلة إلى الشام مع ميسرة لحساب خديجة. وحدثنا العبد عن عزوفه عن الاجتماع برجال القافلة، وحتى لو فرضنا أنه لم يفعل واندمج معهم ومع المشترين والبائعين فهم جميعها بلا ريب مليطون من أي ثقافة وخاصة الدينية جل حوارهم ينحصر في المعاملات التجارية وأثمان البيع والشراء.

• • •

والسبب الثالث والأخير أن الذي حاز الثقافة الدينية آنذاك هم نفر من النخبة القرشية، أما الآخرون وهم العامة الذين يكدون في سبيل لقمة عيش جشِب «خشن» فلا يفكرون فيها مجرد تفكير إذ هي بالنسبة إليهم ترف لا يقدرّون عليه، ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة عقلانية مجردة لا بد أن



نتساءل: أنى لفتى صغير خرج بالكاد من مرحلة الطفولة واشتغل برعى الغنم ثم لما شب قليلاً عمل أجيراً تجارياً بيكر من الإبل.. أنى له أن يحوز ثقافة دينية أو ثقافة من أي نوع؟

ونرجح أن السيدة خديجة تحققت بنفسها فقد دأبت على استقباله غب إبانه من سوق حباشة منفرداً أو مع زميله في العمل وتقدم الأطروفة التي خبأتها له أولهما كما أسلفنا، وفي أثناء تناولها لا بد أنها تحدثت معه فعرفت خلوه من أي منزع ثقافي.. ديني..

وعند عودته من الشام إلى دارها يسبق ميسرة الذي تخلف بالبضاعة مع القافلة في مرّ الظهران جلست إليه وحوارته فيما حدث وسألته عن التقى، فتأكد لها أن صفحته الثقافية الدينية بيضاء من غير سوء<sup>(٩٤)</sup>، فضلاً عن أنه لم يعرف شيء من ذلك عنه وإلا لوصل إلى مسامع أم هند.. ولقد رضيت كل الرضا لأنه بهذه المثابة يغدو هو المطلوب تماماً لأن حاويته أو وعاءه فارغ بالكلية من أي أخلاط عقائدية أو شوائب ومن ثم فهو الأصلح لأن يمتلئ بما تصبه فيه تحت إشراف اليعسوب الماهر المجرّب.



وربما يحق لنا أن نعتبر ما تقدم توطئة أو فرشاة أو تمهيدة ننتقل منها على مهل شديد وريث بالغ وتأن مضاعف لندلف إلى مقاطع التجربة الفاذة التي لم تشهد العصور الوسيطة لها مثيلاً ورغم دخولها القرن الخامس عشر من ميلادها المجيد فهي ما انفكت عذراء طازجة تستنفر الباحثين للحفر في أعماقها والدارسين للغوص في بحورها لاستخراج لآئها.

المرحلة الأولى التي رأت هندوز التجربة أنها تناسب «راكب الجمل» وهي في الحالة التي وصفناها هي الاختلاط بالناس وأمت «قصدت» أمرين:

الأول: أن تكسر طوق العزلة التي تعود عليها قبل أن تتكحه ف«القادم المنتظر» من باب الحتم واللازوم لا بد أن يعي أحوال مجتمعه ويتعرف على الذين سوف يخاطبهم ويلمس بيديه عقلياتهم وهمومهم ومشاكلهم والأمهم وآمالهم ويزداد علماً بطبقاتهم وطرائق تفكيرهم وآليات فهمهم كيما يجيء خطابه إياهم مؤثماً وهناك حديث شريف منسوب إليه نصح فيه تبعه أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم وهذا الكم الرائع ثمرة للخطوة البدائية التي قطعها وهو يخب ويضع في مشوار التجربة.

الآخر: من بين من سوف يخالطهم أصحاب شتى الملل والنحل والعقائد والأديان مثل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس الذين ماجت وازدحمت بهم مكة علاوة على سدنة وكهان الأصنام.. الخ.

«إن محمداً كان في هذه الفترة يختلف إلى الأسواق والمنتديات يستمع إلى

أخبار اليهود وكهنة النصارى ما يبشر به كل منهم في أمر دينه وما يعارضون به العراب في شأن الأصنام»<sup>(٩٥)</sup>.

والتماس بهم على قدر وفير من الأهمية إذ من البديهي أن «أعظم الكائنات» ناقلم الحديث واستمع منهم معتقداتهم واستوضحهم إياها ورويداً ورويداً حاورهم فيها.. الخ.

الأمر الذي يرضى أصحابها لأن من بينهم نسبة كبيرة من الدعاة إليها والداعي لا يسره شيء قدر إنصات الناس له والتفاتهم إلى ما يدعو إليه والإقبال على ما يبشر به.

ويوماً بعد يوم تنمو ثقافته الدينية ويزداد معجمه العقائدي ويتعمق فهمه لسائر الأديان وفروعها والنحل ومذاهبها والملل وانشقاقاتها.



إن القرآن الكريم سجل هذه الفترة من حياة «المعطي الوسيلة» وهو شأن بالغ الثمالة عظيم النفاسة. مديد الغلاء مرتفع السعر، كبير القيمة لأن ما ينص عليه الذكر الحكيم في آياته البيّنات تعنو له جبهة كل مسلم ولا يجروء على أن ينبس ببنت شفة من معارضة<sup>(٩٦)</sup>.

وقد جاء كرّتين:

**الأولى:** في سورة النحل وهي مكية في الآية الثالثة بعد المائة وقد علقنا عليها في «القيدام» وليس ثمة موجب لتكراره فليتنفضل القارئ بالرجوع إليه.

**الأخرى:** في الآية السابعة من سورة الفرقان وهي أيضاً مكية ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾<sup>(٩٧)</sup>.

وبدياً يلفت النظر أن القرآن الحكيم ذكر المشي في الأسواق دون غيره من شؤون الحياة الدنيا مثل الزواج والإنجاب وتملك العقار والسفر والنوم والصحة والمرض. إن العبارة تتفح دلالة أعمق من المتاجرة أي البيع والشراء، إن القرآن المجيد لا يعجزه أن ينص: ويتاجر أو يبيع ويشترى. ولذا فنحن نعارض من ذهب إلى أنها تنحصر في هذا المعنى وتسبح داخله، منهم ابن كثير «ويمشي في الأسواق أي يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة»<sup>(٩٨)</sup>.

خاصة وأن كلمات البيع والشراء والكسب والتجارة لها وجود كثيف في المصحف الشريف.



ومن المؤسف أنه حتى من فسر القرآن من المحدثين لم يفتن إلى هذا الملحظ الدقيق «وانظر إليهم وقد ساقوا صفات للنبي ﷺ زعموا أنها تتنافى مع الرسالة وهذه الشبه إن دلت على شيء فإنما تدل على قصر في العقل

وسوء في الرأي ومادية غالية أضلتهم السبيل وأعمتهم عن الصراط المستقيم: — أكل الطعام — يمشي في الأسواق... الخ»<sup>(٩٩)</sup>.

وهو إن لم يصرح بأن «المشي في الأسواق» يعني التجارة فحسب إنما يفهم من سياق سرده. ومفسر آخر ذكره دون موارد «... ما باله يأكل الطعام كما نأكله ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد؟»<sup>(١٠٠)</sup>.

ونكتي بهما لأنهم جميعا دأبوا على النقش<sup>(١٠١)</sup>، ممن سبقهم مع تحوير في الألفاظ وتغيير في الكلمات إلا قلة أندر من الكبريت أحمر.

وهذا الحكم ينسب على من يصنفون في سائر العلوم الفقه — أصول — الناسخ والمنسوخ، أسباب النزول، القراءات... الخ ونرجعه في المقام الأول إلى الكسل العقلي، ثم بعده إلى الرعب من أصحاب العقالية الدوجماتيقية سدنة الإسطير وحراس النص وأحلاس النقل<sup>(١٠٢)</sup>.

### ثم نعود فتستأنف الدراسة:

إذن الفصل الأول من كتاب التجربة المذهلة هو الاختلاط بأهل مكة بكافة طبقاتهم وأجناسهم وألوانهم وألسنتهم دون تفرقة بين ملهم وعقائدهم وأديانهم والاستماع إلى سائر طروحاتهم حتى أساطيرهم ومخاريقهم وشعبياتهم، بل نرجح أن أم هند أوصت بهذا الشق بل إن تشديدها بلغ الغاية وأوفى على النهاية في الإلاح والإلحاف والتأكيد، ليكسب ما نطلق عليه حديثا موسوعة أو دائرة معارف دينية للزومها له.

إذ كيف يتصور «بضم الياء أي بصيغة المبنى للمجهول» أن تعلنه لأهل بكة «المأمول» الذي طال شوقهم إلى مجيئه وهو مليط من الفكر الديني مرت<sup>(١٠٣)</sup> من الثقافة العقائدية، قفر من المعرفة بالملل والنحل والمذاهب.. فإذا حاجوه وخاصموه وجادلوه وحاوروه فكيف يرد عليهم وجعبته خالية وكنانته فارغة ووعاؤه فاض؟

وبداهة اعتمدت على ذكاء «أول من تنشق عنه الأرض» وفطنته وبالأخص على ذاكرته الفاذة في فهم واستيعاب وتخزين كل ما يصل إلى سمعه الشريف لا تند عنه كلمة ولا تلفت منه لفظة ولا تقوت منه عبارة.

ولك أن تحسب بدقة مدى ما حصله من معلومات ومعارف طوال أعوامها لأننا في حلقة التحنث بالمغارة سوف نرى أنه ينجزه في مدة محدودة في السنة لا تزيد على أسابيع.



إذن هو كما أثبتنا تفرغ لـ «المشي في الأسواق» لا يشغله عنه شيء ولا يحول دونه مانع بعد أن ضمنت له أم هند العيش الرغيد.. ومداومته عليه

في كل يوم صيفاً وشتاءً لفتت أنظار المكاكوة «أهل بكة» فصاحوا قائلين أو قالوا صائحين:  
ما له يأكل الطعام كناية عن توفير الطاهرة المعاش له، وما يقض مضاجع الناس ويتعبهم  
ويشقيهم مثله، وبعد أن اطمأن نفساً وارتاح بالاً وقر عيناً ما له بعده «يمشي في الأسواق»؟  
فهم ذكروا الحالتين اللتين هو عليهما إبان هذا المقطع:

«يأكل الطعام» الذي أمنت له بعلة خديجة البالغة الثراء، ثم «يمشي في الأسواق» إذ لم يعرفوا  
له شغلة سواهما. وبه شهدت دواوين السيرة المنيفة التي هي أطيب من رائحة الألوّة مع الكافور  
والزعفران.

إن العادة جرت على أنه لا يقال «مال كذا» إلا بصدد أمر غير عادي. مثل: ما لك مسرع؟ أو  
ما له مسرور؟ أو ما لها مريضة؟ وهو بعينه أتى في الذكر الحكيم: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ  
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)﴾<sup>(١٠٤)</sup>.

فالإنسان عندما أحس أن الأرض زلزلت سأل: ما لها.. ما حكايتها؟

كذلك القرشيون عندما لاحظوا أن «المعصوم من الناس» دأب ولسنوات متواترة يجول في  
دروب مكة وفي أسواقها لا يكمل ولا يمل.. تساءلوا ما له وما حكايته؟

لعطن تفكيرهم وضيق أفقهم وركاكة فهمهم وضحالة عقولهم وفهاهة ذكائهم لم ينقها أنه وهو  
يفعله إنما يؤدي بمهارة أحد الأدوار المهمة في التجربة العظمى التي بموجبها يتأهل كيما يصبح الذي  
طالما الذي طالما تحدثت حامتهم = «نخبتهم» عنه وعن قدمه وتقطعت أعناقهم تطلعاً لمجيئه الميمون.



في زمن التجربة دأب العرب على إقامة أسواق في كافة بقاع جزيرتهم المباركة والذي يتصل  
بدراستنا التي تنصب على منطقة الحجاز ومنها عكاظ ومجنة وذو المجاز وأشهرها هو الأول وعلاوة  
على البيع والشراء والمقايضة وسائر ضروب التجارة، انتهز الشعراء الفرصة لنشر قصيدتهم والدعاة  
من مختلف الأديان والملل والنحل للدعاية إلى عقائدهم ومناصرة من يخاصمهم والرد على مناوئهم، أي  
أن الأسواق مجال انتعاش اقتصادي ورواج فكري من جانبه الديني إذن فلا بد ألا تفوت هذه المناسبات  
الثرة بالأفكار «المصطفى» والعقل يحتم أنه لا بد أن يؤمها من أول ساعة تبدأ فيها حتى تنفض لا  
يتخلف عنها يوماً ويدور عليها أينما أقيمت لا ليبيع ويشترى ويتاجر ويفاضل، إذ لا حاجة لها بها بعد أن  
دلقت الهندوز الدروب مالها بين يديها كما أخبرنا النيمي عتيق أو أبو بكر بن أبي قحافة ليتم طقساً من  
الطقوس المهمة في مجال التجربة وهو الاستماع لكل من يدعو إلى دين ومن يبشر بملءة وينشر عقيدة

ويذيع نحلة ويروج لمذهب ويتعمق أقوالهم ويختزن معلومها في حافظته الواعية ويحاورهم ويجادلهم حيناً ويستوضحهم ويستفهم منهم حيناً آخر.

والمبشرون في الأسواق — كما في كل زمان ومكان — أطول باعاً وأشد تمكناً وأرسخ قدماً من أنداهم المحليين «إن صح التعبير» لأهمية مناسباتها وكثرة عدد شهودها وكثافة حضورها ممن اعتنقوا المسيحية قبل ظهور الإسلام تأثير نصارى نجران الذين سكنوا بلاد العرب وأرسلوا دعواتهم إلى الأسواق والمواسم التي كان يجتمع فيها العرب للتجارة وغيرها.

وجاء عن أولئك أنه كانوا يقصون على الناس حالات البعث والحساب والجنة والنار ويدعون إلى التتكر للدنيا وملذاتها وإلى النظر إلى الكون والاستفادة من تقلباته وأحداثه»<sup>(١٠٥)</sup>.

إن حتم على هندوز التجربة أن تشير على «إمام الأولين والآخرين» بضرورة إلفها ووجوب ملازمتها وحتمية اللزوق بها مع استحضر الوعي الكامل لما يقال جميعه واليقظة التامة لكل خطبة والانتباه البالغ لأي محاورة أو منافرة أو مجادلة حتى لا تفوته شاردة ولا واردة ثم برمجته جميعا في الذاكرة المدهشة ليخرج وقت الحوجة إليه ويصير مدداً إبان الاقتضاء إليه وعونا ساعة العوزة له وسندا عند طلبه ووجوه أخرى للفائدة أو إن شئت الدقة للفوائد:

إن يصبح جماعها كنزاً ثميناً وبحراً زاخراً ومحصولاً وفيراً أعلى من الجوهر والذهب عندما تحين بعد سنوات معدودة ساعة الإملاء ووقت الكتابة وزمن التدوين.

• • •

ذكر في وقت متقدم أن معطيان دواوين السيرة المحمدية التي هي أطيب رائحة من مسك تبت<sup>(١٠٦)</sup>. عن الحقبة الخبيثة والتي حددناها منذ أن صارت السيدة خديجة بعلاً لـ«الشاهد الداعي» حتى رؤياه الملاك في مغارة الجبل «حرى» وهو نائم «المعطيات» شحيحة ونادرة ومتناثرة هنا وهناك.

وكدأبنا في كل ما نكتب نحرض أشد الحرص على التوثيق تمسكاً بالمصدقية واحتراماً لعقلية القارئ المثقف الواعي الذي يفرق بين الغث والسمين والرديء والجيد والرخيص والثمين فنحن نطرح الخبر وفي ذيله دليل ثبوته أما الرأي فلا يحتاج إليه.

وقدمنا منذ قليل البرهان على اختلاط «محمود» بأهل مكة وجاء هذه المرة من أوثق المصادر وأجلها قدراً وأصدقها قيلاً وهو القرآن الكريم عندما أخبرنا أنهم تعجبوا لمشيه في الأسواق بعد تناوله الطعام.

• • •

أما الأمر بالنسبة لحضور «أحمد» الأسواق الموسمية التي ذكرناها فهو أكثر وعورة والحجة القوية التي تؤيده هي ما جاء في كتب التراث من مقابلته لقس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ وإنصاته لخطبته وبداهة حفظه إياها «وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال رجل منهم: «يبدو والله تعالى أعلم أنه رأى محمداً في عكاظ يستمع إلى قس. أ. هـ» هل تعرف قس بن ساعدة فقال رسول الله ﷺ: ليس هو منكم هذا رجل من إياد تحنف في الجاهلية فوافى عكاظ والناس مجتمعون فيعلمهم بكلامه الذي حفظ عنه»<sup>(١٠٧)</sup>.

هذا الخبر ينقل إلينا أن «المعصوم من الناس» ذاته هو الذي تحدث عن قس ابن ساعدة وخطبه في سوق عكاظ واستماع الناس إليه وحفظهم إياه ومن الطبيعي أنه واحد منهم:

«قس بن ساعدة الإيادي من شخصيات ما قبل الإسلام «يسمعون هذه الفترة الجاهلية» من الحنفاء أو المتحنفين الذين رفضوا عبادة الأصنام وبحثوا عن دين إبراهيم وقيل إنه اعتنق النصرانية وكان يخطب في الأسواق مثل عكاظ خطباً بليغة يدعو فيها إلى التوحيد وثبت أن محمداً سمع عدداً منها...»<sup>(١٠٨)</sup>.

إنما حتى هذه اللحظة ما قدمناه لا يبلغ إلا إلى مرتبة القرينة البسيطة لا إلى الدليل القاطع بيد أن الأصفهاني صاحب الأغاني يهدي إلينا هذا الخبر.

«عن ابن عباس قال: لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال ما فعل قس بن ساعدة. قالوا: مات يا رسول الله. قال: كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام ما أجدني أحفظه فقال رجل: أنا أحفظه يا رسول الله. قال: كيف يقول. قال: سمعته يقول: أيها الناس اسمعوا وعوا... الخ. فقال النبي: يرحم الله قسا إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده»<sup>(١٠٩)</sup>.

ولا يغض من قيمة ما رددناه عن قوة ذاكرة «خيرة قرابين الله» قوله في الخبر «ما أجدني أحفظه» ذلك أنه مضى على إنصاته لتلك الخطبة أكثر من عشرين عاماً مرت فيها عليه أهوال وخطوب وشدائد وحروب، ولنتكئ على ما جاء بعجز الخبر من رجائه أن يبعث قس أمة وحده وما ذلك إلا بسبب أن ما وعاه أو استوعبه من خطب «قس» وقع في نفسه «لابس الصوف» موقعاً طيباً.

• • •

نحن نعلم أن ابن الجوزى طعن في صحة حديث قس لأن طرائقه ضعيفة في نظره، ومع تقديرنا لابن الجوزى فإن كتب التراث عدت خطباً لابن ساعدة والطعن فيها جميعاً بالبطلان أو الضعف فيه شطط ومغالاة لم يفلت منها ابن الجوزى كما يعرف عنه علماء الحديث.

### هذا من ناحية.

ومن أخرى فالجاحظ على ما عرف عنه من حرص على تحقيق الأخبار ونقدها لم يشك في حديث قس وقد فضل قساً على خطباء العرب جميعاً وجعل لإياد بن ساعدة خصلة ليست لأحد من العرب «لأن رسول الله ﷺ» هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمل بعكاز وموعظته وهو الذي رواه لقريش والعرب وهو الذي عجب من حسنه<sup>(١١٠)</sup>.

ونضيف أن الجاحظ ليس أديباً مفلحاً ومن أعلام أدب العرب فحسب بل تضلع في العلوم الإسلامية وهو أحد كبار فرقة المعتزلة ورأس شعبة منها سميت بـ «الجاحظية» فعندما يجزم ويؤكد ويصحح خير لقاء «المهاجر إلى يثرب» بقس وسماع خطبه وروايته إياها لقريش وللعرب فلا يناقضه إلا شكس لجوج.



بهذا يغدو مشى «من تنام عيناه ولا ينام قلبه» في عكاز حقيقة تاريخية ومن ثم فمشيه في غير عكاز مثل مجنة وذى المجاز أمر طبيعي لأنه من غير المعقول أن يقتصر عليها دونهما — حقيقة أن عكاز أشهر منهما لأنها أكثر وافادة بيد أنه ليس هذا مسوغاً لإغفالهما إذ ربما يضمن دعاء أفصح لساناً وأعمق ثقافة وعلينا أن نفرق بين كثافة الحضور في السوق ونوعية المبشرين بالعقائد والخطباء والبلغاء والفصحاء والشعراء فقد يوجد منهم في السوق التي هي أقل شهرة أو أضعف شاهداً ما لا يتوافر للأشهر والأكتف.

وهكذا فالشطر الأول من المرحلة الأولى أو المقطع الأول من التجربة الفاذة المدهشة وهو الاختلاط بأهل الأديان وسائر الملل والنحل والاستماع إليهم وحفظ كلامهم وخطبهم ومحاورتهم قامت الشواهد على صحته وجاء في القرآن المجيد ما يسانده وفي مؤلفات السلف ما يؤزره ويعاضده.

إن إشارة الهندوز الدروب بضرورة البدء به أمر بديهي فضلاً عن أنه يدل على حنكتها وفراستها فإن حالة «الصادق المصدوق» في فجر التجربة لا تصلح لها إلا هذه الجرعة الخفيفة الوزن السائغة الطعم وكأنني بسيدة قريش «بما فيهم بنو هاشم آنذاك ولندع جانباً ارتفاع أسهمهم بعد ظهور —

المعروض عليه مفاتيح خزائن الأرض – وعلو شأنهم فيما بعد أ. هـ» تناديه من موقع الأم الرؤوم التي تكبره بربع قرن وتقول له:

اذهب يا أبا القاسم واختلط بأهلها والوافدين عليها وناقلم الحديث واستمع إليهم واحفظ عنهم واستوعب كلمهم خاصة أصحاب الأديان والملل والنحل مثل اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وافهم عقائدهم وحاورهم واستفسر منهم ولا تدع صغيرة أو كبيرة دون فقه وإدراك وتمحيص. وعندما تشتد حمارة القيظ في الهاجرة سوف تجدني مهياً في انتظارك وقد أعددت لك طعاماً طيباً.

فيسأل متعجباً: ولكن ماذا عن البيع والشراء والمتاجرة؟

وقبل أن يكمل كلامه تقاطعه اطرح كل هذا وراء ظهرك ودبر أذنك ولا تفكر فيه البتة فسوف أكفيك مؤونته كله فإنك لم تخلق للصفق في الأسواق بل لما هو أعظم منه وأجل شأنًا وأسمى قدراً.. هيا يا حبيبي يا أبا القاسم<sup>(١١١)</sup>.

• • •

وهذا يؤكد ما قلناه أنها هي هندوز التجربة وهو موضوعها وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فإن «ذوابة قريش» بشر عشرة من أصحابه «ثلاثة منهم حاربوا بعضهم بعضاً حرباً ضروساً» بالجنة إنما لم يصف لهم بيوتهم في الجنة كما وصف لسيدة نسون قريش بيتها الرائع فيها.

• • •

وبعد أن يسير شوطاً كبيراً في الفصل الأول من فصول التجربة تتدرج به في الشطر الآخر من ذات الفصل وهو مدارسته فيما سمع وحفظ واستوعب ومذاكرته فيما جمع فأوعى وتبسيط الصعب وحل المعقد وفك الملغز وتقريب البعيد وشرح المشكل وتفسير الغامض وتوضيح المتشابه... خاصة أن الأديان والعقائد والملل حوت كل منها الثر الغزير منها، حتى إنه يمكنك أن تقول بغير افتئات إنها تقوم على الإبهام وتنبني على المحير «بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الياء» وتأسس على الخارق للمألوف ولولا المروق عن السياق لوضعنا في حجر القارئ العشرات من الأمثلة من الديانتين الساميتين الإبراهيميتين.

• • •

**ونستأنف البحث:**

نذكر بأننا ألمعنا إلى أن أم هند تمتعت بثقافة دينية ذات قدر معقول جاء متوافقاً لسد موجبات الشطر الآخر، هذا بمعنى أنه أتى كفيئاً للإجابة على استفسارات واستيضاحات وتساؤلات «سيد أهل الله» ونأسف للتكرار إذ لا بد



أن نكرر في ذياك الوقت جاوز العشرين من عمره المبارك بما لا يزيد بحال من الأحوال عن ثلاثة أعوام فضلاً عن حداثة عهده بهذه المسائل التيولوجية العميقة ومن ثم فإن ما يطلب الرد عليه لا يرتفع عن مستوى ما حصلته هي من معارف دينية – ولا مشاحة أنها بلماحيثها وزكانتها نقهت ووعت وأدركت أنه «سيد ولد عدنان». بدأ يغوص رويداً رويداً في أمواج التجربة ويستمرئ طرحها وطفقت أسئلته تتعمق واستبياناته تتعمق واستيضاحاته تتشابه وهنا أيقنت أن ديك المرحلة الثانية أوشك على الصياح بأن فجرها على وشك البزوغ وأنه قاب قوسين أو أدنى من الطلوع.



العلاقة الحميمة التي ربطت بين الطاهرة خديجة والقس ورقة وقد شرحناها ودللنا عليها أنفاً أباحت لها أن تستعير الأبعاض والإصحاحات التي نقلها الأخير من اللسان العبراني إلى لسان العرب من التوراة ومن إنجيل العبرانيين أو إنجيل متى قبل أن يفسده شاولول أي بولس وتبعه. يضيق المجال عن حصر أو حتي ضرب الأمثال لمخاريق هذا البولس والخربقات التي أدخلها على الدين الذي جاء به ابن مريم فحواله من دين توحيدي خالص إلى عقيدة تثليث وجعل عيسى إلهاً يعبد في الأرض في حين أنه واحد من البطارقة أولى العزم مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم بشر، ومن أطرف الشعبذات التي روجها بولس في الديانة العيسوية فكرة روح القدس أو الروح الأمين التي جعلها ترفرف دائماً على اجتماعاته المبروكة بيد أنه لم يقل إن لها أجنحة<sup>(١١٢)</sup>. ويستمر فيذكر في حين «أن الصدوقيين في عهد المسيح لم يكونوا يؤمنون بالروح ولا بالملائكة إذ كانوا متشبهين بالدين العتيق»<sup>(١١٣)</sup>.

وقد انضوت التوراة على قصص الخلق وأحدوثه<sup>(١٤)</sup> آدم وحواء وإبليس والجنة والإغراء على الأكل من الشجرة المحرمة والطررد من الجنة والطوفان ونوح وسفينته المذهلة التي أنقذت نسل آدم من الفناء ثم إبراهيم وإسحق ويعقوب وخلفائهم الأكارم وقصصهم وأطروقاتهم.

أما البشارة الفاذة والمشهورة بالإنجيل فقد احتوت على الحمل الخارق لمريم والولادة العذراوية لها وكيف أنها ولدت ابنها عيسى ولم تقض وظلت بكرأ والمعجزات والمخاريق المتنوعة التي تمت على يديه الميمونتين وصلبه وقيامته المدهشة من قبره ورفعته إلى السماء ثم ظهوره لتلاميذه أو حواريبه بتعبير القرآن الكريم.



في ليالي مكة الطويلة وخاصة في الشتاء والربيع تشمر أم هند عن ساعديها وتجلس إلى ابنها وزوجها «الأمين» تقرأ له على مهل وتطالع له بنوذة صفحات من تلك الأبعاض والإصحاحات وتشرحها له بقدر ما تتسع ثقافتها الدينية التي حصلتها من المنبع والروافد الأخرى التي رفعنا الستار عنها فيما سلف وسنوردها فيما يأتي.

وتطلب منه أن يجد معها «يعني يحفظها» كلها لا يترك منها شيئاً وتستقبل هي استيضاحاته وتربط له ما قرأته عليه مع ما ينقله لها مما وعاه متعلقاً بذات الموضوع وما سمعته بخصوصه، كل هذا مع استمراره في المشي في الأسواق والسماع والمحاورة لأن هذه شعيرة أساسية قنواتها متباينة ودائمة الفيض.

• • •

وإذا أشكل عليها أمر أو التبس عليها شأن أو أعجزتها مسألة هرعت إلى اليعسوب ورقة تستوضحه ليفسر لها ما أبهم ويبين لها ما غمض ويشرح ما خفى، إذن ابن نوفل هو المرجعية التي توضع على أعتاب بابها التساؤلات والاستفهامات والاستفسارات والاستبيانات... الخ.

هو الذي ينهض بعبء الشروح والتفسيرات والكشوف والتأويلات الخ، أي تتسع حلقة المذاكرة بانتقال خديجة و«أحمد» إلى بحر العلوم وكهف المعرفة نعني ورقة بعد أن تقدم به العمر وأخذ بصره يخبو وفي داره تأسست مدرسة من أميز مدارس العلم الديني التي عرفها تاريخ القرون الوسطى والتي غفل عنها مؤرخو هذا النوع من المدارس، بيد أنه من الآن فصاعداً سيكفرون عن خطئهم وينفحونها حقها من العناية والاهتمام.

• • •

في تلك المدرسة أعطى اليعسوب خلاصة علمه وحشاشة معارفه وزبدة تحصيله إلى «المعصوم» بحضور الطاهرة واستمع إلى ملاحظاته وتساؤلاته واستبياناته فشرحها وأوضحها وكشف الستار عن غوامضها وأزاح الغمة عن معضلاتها وسلط الأضواء الكواشف على خوافيها.. وخديجة تتصت وتلاحظ وتشجع «بطل التجربة» على مزيد من التدقيق ومضاعفة التمحيص والإكثار من المراجعة وتدفعه إلى التعمق في الحفر والانغماس في التنقيب والانهماك في البحث.

لأنها بما قرأته قدر طاقتها أوسع مكنتها وحصلته حسب جهدها أيقنت أن «القادم المأمول» من باب الحتم واللازم يتوجب أن يجيء مخزونه من الثقافة الدينية وفيراً فهي لا شك قرأت ما ترجمه ابن عمها من البشارة أو

الإنجيل فعرفت ما لقيه ابن مريم من رؤساء الكهنة والفريسيين من سفالات وردالات وتحديات وإجراجات ومن ثم نقهت أنه إذا لم يقف «صفوة البادي والقار» على أرض صلبة من المعارف الدينية فلن يصمد لمنازلات أحبار اليهود ومنافرات قساوسة النصارى فتتهار التجربة على رؤوس أصحابها هذا الثلاثي الباهر المبهر.

• • •

وقد صدق حدسها فقد وقف — فيما بعد — علماء بني إسرائيل له بالمرصاد وسألوه عن أصحاب الكهف والرقيم وعن الروح... الخ.

وتحققت فراستها فعندما جاء وقد نصارى نجران إليه في يثرب في عام الوفود وظلوا بضعة أيام ينازعونه ويحاورونه ويناقشونه وأثبت بجدارة منقطعة النظير أنه كفيئ لهم ولما أيقن عنادهم وتشبثهم بعقائدهم الفواسد طلب مباهلتهم فأصابهم الذعر وركبهم الخوف وشملهم الهلع فتراجعوا وخنسوا وتقهقروا.

فلولا الثقافة الدينية التي حصلها في ذلك الزمن المضيء لما استطاع أن يلقمهم حجراً ولما صار نداً لأحبار يهود الذين أكثروا من جداله في يثرب بعد أن نزع إليها وعدن فيها<sup>(١١٥)</sup>.

• • •

ولعله بعد أن كتب له الفلج على هؤلاء وأولئك ترحم علي الهندوز واليعسوب فلولاهما لما تم له شيء منه. إن هذا الجانب الممتاز من حياة أم هند يوضح لنا لماذا سمي عام وفاتها بـ«عام الحزن» وظلت ذكراها حية نابضة في عقله وقلبه ووجدانه ونفسه حتى آخر نفس من حياته المباركة لأنها لم تكف بإسداء الفضل المادي «وهو إعفاؤه من الجري وراء لقمة العيش وإطعامه الخمير وإلباسه الحرير» بل أضافت إليه جميلاً معنوياً يبيزه ويفوقه.

إن المذاكرة مع خديجة ثم المدارس والمراجعة مع ابن نوفل هما عماد الشطر الآخر من المقطع أو الباب الأول من التجربة ولا يعني هذا التقليل بأي حال من الأحوال من الشطر الاستهلاكي ونعني به المشي في الأسواق أو الاختلاط بالناس وخاصة أصحاب الأديان العقائد فهو التوطئة والتمهيد والمدخل الذي ظل ممتداً ومستمراً حتى نام محمد في مغارة حرى وظهر الملك له في المنام وبعدها أعلنت خديجة أنه هو «القادم المنتظر».

• • •

شكل القس المرجعية المباشرة لسيدة نساء الدنيا وهي تنتقل بـ«أكرم

«الخلق» من شوط إلى شوط ومن مرحلة إلى أخرى في مسيرة التجربة الفذة ووجد إلى جانبه نفر من ذوي الثقافة الدينية يتفاوتون في استيعابها أي ليسوا على درجة واحدة من التضلع منها.

يأتي في مقدمهم بحيرى وهو الذي أشار على الطاهرة منذ سنوات طوال أن تتكح «راكب الجمل» ويبدو أنه فعله غب مقابلته إياه وهو في أولى سفراته مع عمه عبد مناف وهو ما دلته عليه فراسته فيه من أمارات تشير إلى أنه القادم المأمول.

«بحيرى الراهب الذي توسم في رسول الله ﷺ النبوة وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجار من أهل مكة وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة فرأى الغمامة تظله بينهم فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم...»

وذكر ابن عساكر أن بحيرى كان يسكن في قرية يقال لها الكفر بينها وبين بصرى ستة أميال وهي التي يقال لها «دير بحيرى» قال ويقال: إنه كان يسكن قرية يقال لها ميفعة بالبلقاء وراء وزيراً<sup>(١٦)</sup>.

وقد رجحنا أن بحيرى هذا هو رأس الكنيسة النصرانية في إقليم الحجاز.



«... فإني لا أقف نفس الموقف من حديث بحيرى الراهب ومن الجائز أن يكون قد رأى النبي إذا صح أنه سافر إلى الشام مع عمه أبي طالب وهو في الثالثة عشرة من عمره أو في تجارة خديجة مستقلاً عن عمه أبي طالب ولكن دوره معه إذا صح أنه قد التقى به لا يعدو أن يكون دور من يترقب له النبوة عندما وجد فيه بعض العلامات التي وصفته بها الكتب القديمة كالنوراة والإنجيل وغيرهما»<sup>(١٧)</sup>.

هذا الباحث المعاصر يرجح لقاء بحيرى مع «صاحب النعلين» في سفرتة الأولى بصحبة عمه عبد مناف «أبي طالب» إلى الشام وأن مأمورية الراهب انحصرت في تنبؤه بأنه القادم المنتظر ولنطرح جانباً ما ذهب إليه من تحجيم مهمة بحيرى إلى هذا الحد القميء بيد أننا نلقى نظرة واسعة على الخبر عموماً: فما دام بحيرى تفرس في «صاحب المدرعة» أن المأمول الذي تشوق الناس لظهوره فيصبح ما رقمناه قبل الآن أنه مع ناصح عبدها أشارا عليها بأن تتخذه بعلاً له وجاهته إذ ما دام الأمر هكذا فحتم لازم عند بلوغه سن الزواج تتخذه بعلاً له وجاهته إذ ما دام الأمر هكذا فحتم لازم عند بلوغه سن الزواج أن تتكحه كيما تغدو له أما رؤوماً ثم ما يأتي مصلياً «تالياً» بعده مباشرة عملية التصنيع وطبعاً يتم كله بعين الله وحمايته وحراسته.

أما الخبر الآتي بعد فيشف عن علاقة أم هند ببحيرى الوطيدة:

«وذكر ابن دحية أيضا أنه ﷺ لما أخبرها «خديجة» بجبريل ولم تكن سمعت به قط كتبت إلى بحيرى الراهب فسألته عن جبريل فقال لها: قدوس قدوس يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعلى وابن عمي أخبرني بأنه يأتيه فقال إنه السفير بين الله وبين أنبيائه وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يسمى باسمه»<sup>(١١٨)</sup>.

إن بحيرى لم يوجد في مكة على مقربة من الطاهرة عندما ظهر ملاك الرب في النوم لـ«النجم» في مغارة حرى وطلب منه أن يقرأ... الخ.

وإذا بها تكتب إليه «بحيرى» تخبره بأن الشجرة أثمرت، ونحن نسأل هل تكتب له عن هذا الأمر المدهش فجأة؟

إن العقل يرفضه ويحتم وجود فرشات<sup>(١١٩)</sup> سوابق له وهي أن بحيرى من المتابعين والمتابعين لسيدة قريش وهي تغزل خيوط التجربة بحنكة وإحكام مع العزم الحديد والصبر الجميل.

ونلاحظ أنه ناداها بلقبها الذي يخاطبها به أهل مكة مما يقطع بمعاشه في قرية التقديس وأنه يردح «يقيم» فيها شطراً من كل عام.

وفيما تقدم اتخذنا من كتابة أم هند لبحيرى قرينة قوية على إجادتها الكتابة والقراءة ولم نقل دليلاً قاطعاً لأن صاحب «فتح المبدى» أورد خبراً فيه «أنها ركبت إلى بحيرى بالشام فسألته عن جبريل ﷺ فقال لها: يا سيدة قريش أنى لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعلى وابن عمي أخبرني أنه يأتيه.

وقال: ما علم به إلا نبي فإنه السفير بين أنبيائه وأن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى باسمه<sup>(١٢٠)</sup>. أن ركوبها إليه ينفحنا بمعطيات عديدة منها:

١ — اهتمامها المفرط بنجاح التجربة حتى إنها تجشمت عناء الركوب إليه والسفر من بكة إلى الشام وسنها في ذياك الوقت جاوزت الخامسة والخمسين بل إنها شارفت الستين وهي التي تعودت على العيشة الهنية.

٢ — لهفتها الشديدة على معرفة التفسير الديني الصحيح للرؤيا المنامية التي حدثت لبعليها الحبيب في مغارة حرى.

٣ — لم تذكر لنا كتب السيرة التي هي ألد طعماً من عسل الموصل أن خديجة ولو مرة يتيمة سافرت مع قافلة قريش التي تملك نصفها لا إلى اليمن ولا إلى الشام ومع ذلك فإثر سماعها الرؤيا المنامية المدهشة التي حدثت في المغارة لم تتردد في أن ترقل<sup>(١٢١)</sup> وتسافر على عجل إلى بحيرى لتحيطه بها علماً ولكي تستوثق من فلج التجربة.

إن هذه الأخيرة أهم لديها بما لا يقاس من تجارتها وأموالها.

وهذا الخبر أورده الزبيدي والشرقاوي وهما من هما ثم حققه الشيخ أحمد عمر هاشم وهو من ناحية متخصص في علم الحديث المحمدي الشريف ومن أخرى فهو رئيس الجامعة التابعة للأزهر فلو أن الحديث معلول لكشف عن العلة في التحقيق لكنه لم يفعل مما يقطع بصحته ويؤكد سلامته من الجرح وبرأته من العيوب ولخلوه من العوار.

• • •

ونحن نقوله لأن د. حسين مؤنس وهو أستاذ تاريخ حاول أن يطعن في خبر مشابه حول ركوب أم هند وسفرها لبحيرى ويوهنه ويحيطه بالرهبان ويلطخه بالشكوك مع أن مؤنسا ليس ابن بجدتها فلا هو من علماء الحديث الشريف ولا حتى ممن يؤخذ برأيه فيه إنما قد تعودنا من الكتبة المحدثين خاصة من جوقة المداحين والمفخمين والمهللين والمعظمين مثل هذا الصنيع الأعوج والفعل الذميم والمسلك الرديء والمنحى الفسيد والاتجاه العطن وخلصته أنه عندما يقف خبر أو أثر أو حديث حجر عثرة في سبيلهم ولا يوائم كتاباتهم الإنشائية غير الموضوعية يطعنون فيه بلا برهان ويعيبونه دون دليل ويهزلونه من «التهزيل» بغير حجة.

• • •

#### ثم نعود إلى سياقة التنقيح:

إذن ثبت بأسانيد راسخة رسوخ الأجل أن سيدة قریش كبيرها قبل صغيرها ركبت إلى بحيرى أو كتبت إليه واستبعدنا أن يأتي على غرة أو يتم فجأة بل بمقدمات أو تمهيدات. ودلالته أنها على علاقة سابقة حميمة به وأنها دأبت على مدارسته أحوال التجربة ومذاكرتها معه والاستماع لنصحه والانتباه لإرشاده والإنصات لتوجيهه كيف لا وقد أشار عليها وكدت أكتب أمرها بنكاح محمد.

• • •

ولكن من هو بحيرى؟... هل كان بحيرى الذي مر ذكره راهباً نصرانياً؟

إنه راهب نسطوري على مذهب أريوس ونسطور وكان ينكر لاهوت المسيح، وبدأ هذا التعريف بداية خاطئة إذ إن بحيرى ليس مسيحياً ولم يعتنق عقائدها بل هو نصراني وبرهاننا على عواره أنه لا أريوس ولا نسطور اللذان يقال إن بحيرى هذا على مذهبهما من المسيحيين وأن بحيرى ولو صدق عليه وصف مسيحي لما أنكر لاهوت المسيح لأن أول ركن في المسيحية الإيمان به بل اعتباره إلهاً، وإنكار لاهوت المسيح هو ما جاء به الذكر الحكيم

بل حمل على القائلين بنقيضه حملة شعواء وسفه أحلام من يأخذون بهذه العقيدة الفسيدة.

• • •

«بحيرى أو نسطورا ونحوهما ممن صدق بأنه ﷺ نبي هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام لأنهما لم يدركا البعثة»<sup>(١٢٢)</sup>.

صاحب السيرة الحلبية يؤكد أن بحيرى صدق بأن «الخاتم» هو القادم المأمول الذي طال انتظاره وهذا يعطي أدلة الثبوت على عدة أمور منها:

أولاً: أنه لإيمانه به وز الطاهرة أم هند أن تباعله ولا يقدر فيه أنه تم قبل الزواج بسنوات طويلة.

ثانياً: متابعته للتجربة التي بدأتها خديجة بعد أن نكحته إذ لا معنى لإيمانه بأنه «القادم المنتظر» ولا بإشارته لها بأن تغدو بعلاً له دون أن يعطى يداً مؤثرة لإنجاح التجربة.

ثالثاً: أنه «بحيرى» له علم غزير بالكتاب ومن نافلة القول أن نرقم أنه قرأ في التوراة والإنجيل أن أي قادم جديد لا بد أن تسبق ظهوره فترة تأهيل وإعداد وهي التي سماها القرآن المجيد «التصنيع» على عين الله وأن هذا حدث مع البطارقة العظام مثل موسى وعيسى ومن ثم فإن «بحيرى» قد شارك بصورة أو بأخرى في التجربة المفردة بأن عاون خديجة الطاهرة أو الطاهرة خديجة بكل ما استطاع إليه سبيلاً من ضروب المعاضدة وأشكال المساعدة وأنواع المؤازرة.

• • •

سطرنا في الفصول الأولى أن «سيرة الزهرى» مفقودة ويبدو أنه تفرد بذكر الأخبار الغربية التي لم يؤيده فيها أحد كما أوضحناه في أحداثه إسرافيل الذي نسب إليه دون غيره من الرواة والإخباريين عملية تصنيع محمد كأنما استهول أن تتجز على أيدي بشر أي أناس عاديين وأنها كلما نسبت إلى قوة غيبية وكائن غير مرئي عظمت مكانة «المتوكل» مع أن عظمته ليست في حاجة لهذا الدليل المنحول.

في الخبر التالي يطلع علينا الزهري في سيرته بتوصيف مغاير لبحيرى فهو «حبر من يهود تيماء» وكل الشواهد تقطع بعدم صحة هذا الخبر وأنه راهب نصراني.

• • •

السهيلي صاحب «الروض الأنف» الذي كشفنا عن مكانته بين كتب السيرة المحمدية التي يفعم «بفتح» طبيها سدة المزكوم في الخبر نفسه ربط بين

بحيرى والثالث المنتظر أي محمد وهو تعبير له دالته التي لا تخفى عن الفطن وإذ أنه وجد رباط في النتيجة إذن لا بد وحتماً من قرينة في السبب نعني التجربة الفأدة.

«في قصة بحيرى وسفر أبي طالب بالنبي ﷺ وقع في سير الزهري أن بحيرى كان حبراً من يهود تيماء، وفي المسعودي: أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس، وفي المعارف لابن قنينة قال: سمع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة: بحيرى ورباب بن البراء والثالث المنتظر فكان الثالث المنتظر رسول الله ﷺ»<sup>(١٢٣)</sup>.

ما ذكره المسعودي أن بحيرى من عبد القيس ربما اقترب من الحقيقة أي أنه عربي وقبيلته تدخل في زمرة قبائل الجزيرة العربية التي اعتنقت ديانة ابن مريم مما يهدي الفرض الذي قدمناه أنه تولى أبرشية الحجاز مزيداً من الصدق إذ سبق أو وثقنا خبراً عن وجود قس لمضارب الخيام.

كيف لا نعين الكنيسة الأم أسقفا لعموم الحجاز؟ ومن هو أكثر صلاحية لهذا المنصب من عربي؟ ومن هنا تصبح الألفة بينه وبين الطاهرة أكثره معقولة وأدنى إلى القبول وأشد سوغاً.

أما أن المسعودي ذكر أنه اسمه ذكر أنه اسمه سرجيس فقد بينا في ما تقدم أنه حدث اختلاف كثير في هذا الشأن بل إن الأسماء في مرحلة التاريخ الإسلامي المبكر امتازت بهذا الاختلاف الشديد ولنضرب مثلاً سريعاً باسم الصحابي المعروف أبي ذر الغفاري<sup>(١٢٤)</sup>.



عالم دين ثالث اتصلت به أم هند إبان اضطلاعها بأعباء التجربة الفريدة ولو أن علاقتها به وإن شئت دوره فيها يقل عن دوري القس والراهب، أي ورقة وبحيرى ونعني به سرجيوس وهو راهب نصراني تمرد على خريقات شاؤول أو بولس ومخاريفه وشعبذاته وإفساداته لدين ابن الصديقة، ومن ثمة جاء وصفه بالزنديق لأن شيعة المفسد للمسيحية نعني شاؤول أو بولس تعطفت ولاحقت معارضيها بباقة من الألقاب البذيئة منها المارق والزنديق والهرطيق... الخ.

«يقص تيوفانيس «طبعة كلاس» وجورجيوس «طبعة بيكر» أنه بعد أن ارتجف محمد بعد ظهور جبريل له أول مرة – توجهت خديجة وقد استولى عليها قلق شديد إلى سرجيوس وكان راهباً زنديقاً منفيًا فطمأنها بأن أكد أن «الملك» كان يرسل إلى كافة الأنبياء»<sup>(١٢٥)</sup>.

وهناك احتمال لا نستبعده أن يصدق اسم سرجيوس على بحيرى ولعل ما



يؤيده ما جاء في خبر المسعودي «واسمه سرجيس» ويغدو ما جاء في خبر الموسوعة الإسلامية قد تعلق ببخيري.



أما آخر المعاونين وخاتم المعاضدين ونهاية المساعدين فهو الراهب عداس وله حضور متميز على صفحات كتب التراث، وأمر غريب أن تتجاهله المؤلفات الحديثة والمعاصرة في السيرة المحمدية التي هي أطيب ريحاً من مجمر المسك المخلوط بالعنبر ولا تذكر سوى لقائه بـ «الإسان الكامل» في الطائف بعد أن صده غطاريف ثقيف بعنف وأن هناك مسجداً في الطائف يسمى «مسجد عداس» بنى في مكان اللقاء المبرور، وتشيح «تلك المؤلفات» وتعرض بجانبها عن لقب حمله بجدارة وهو «الراهب» وقد سطرناه قبلاً وفي ذيله سنده.

ولقد وقفت ملياً أمام هذه النقطة عليّ أجد لها تعليلاً مقبولاً.

هل إعراضها عنه ينفية أو يرفعه أو ينسخه من كتب السلف الصالح؟

لعل في نظرهم أن تسطيره في كتبهم وإطلاع عامة القراء عليه سيلفت الأنظار ولو بدرجة واحدة أو يلقى بصيصاً من الضوء ولو نحيلاً على التجربة الفريدة وهم يؤمنون «يقصدون» أن تظل في الظلام وتبقى في العتمة وتستمر في الغيبش أو أنهم — وهذا الراجح أو المؤكد أن التجربة لم تخطر لهم على بال ولم ينتبهوا إليها ومن ثم لم يدركوا أهمية سهم عداس فيها.



«وفي بعض الروايات أن خديجة قبل أن تذهب إلى ورقة ذهبت إلى عداس وكان نصرانياً من أهل نينوى: قرية سيدنا يونس — عليه السلام — فقالت له: يا عداس أذكرك الله إلا ما أخبرتني هل عندكم علم عن جبريل — أي فإن هذا الاسم لم يكن معروفاً بمكة ولا بغيرها من بلاد العرب — فقال عداس: قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه؟ قال: هو أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى — عليهما السلام — ثم رأيت أن عداساً المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبير السن قد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له أنعم صباحاً يا عداس، فقال: كأن هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش، قالت: أجل. قال: ادنى مني فقد ثقل سمعي فدننت منه ثم قالت له: ما تقدم.

ففي كلام ابن دحية: عداس كان غلاماً لعنتبة بن ربيعة من أهل نينوى عنده علم من الكتاب فأرسلت إليه خديجة تسأله عن جبريل فقال: قدوس قدوس... الحديث»<sup>(١٢٦)</sup>.

هذا الخبر ثري فقد أجزل لنا العطاء في دلالاته:

فهو يقطع بأن عداساً راهب وعلى صلة وثقى بسيدة نساء قريش ونظراً لقدمه في السن وسقوط حاجبيه على عينيه فقد عرفها من صوتها ونادها باللقب الذي يناديها به أهل مكة كلها وهو برهان على متانة العلاقة بينهما، وعلى كثرة تردها عليه أو بالأقل تعدد مقابلاتها له ولو باستضافته في دارها.

وإذ إنها أرقلت «هرعت» إليه فهذا يشي بقوة الوثائق بينهما إذ لو أنه واه لما جرّوت على مفاتحته في أمر بلغ الذروة في الخطر والقمة في الأهمية وسنام السرية ونعني الرؤيا المنامية لـ«المنصور بالرعب مسيرة شهر» في مغارة حرى ودليل على اتئمانها إياه.

ونحن نرى أنه ما انفك يقوم بأعباء البديل أو القائم قام لأسقف الحجاز ومكة «بحيرى» في حالة غيابه أو سفره خارجها ولا يقدر فيه أنه عبد أي مملوك لكل من عتبة وشيبة ولدى عتبة ابني ربيعة إذ قرأنا فيما بعد أن نافعاً مولى ابن عباس بلغ من العلم شأواً جعل العديد من الجلة من التابعين يجلسون بين يديه يأخذون منه فقه ومسند الخبر.

«وفي رواية أن عداساً قال لها: يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أموراً خذى كتابي هذا فانطلقى به إلى صاحبكم فإن كان مجنوناً فإنه سيذهب عنه وإن كان من الله فلن يضره فانطلقت بالكتاب معها فدخلت منزلها فإذا هي برسول الله ﷺ مع جبريل يقرؤه الآيات ﴿ن والقلم...﴾ فلما سمعت خديجة قراءته اهتزت فرحاً ثم قالت للنبي ﷺ: فذاك أبي وأمي امض معي إلى عداس فلما رآه عداس كشف عن ظهره فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه فلما نظر عداس إليه خرّ ساجداً يقول: أنت والله النبي الذي بشر بك موسى وعيسى»<sup>(١٢٧)</sup>.

من أراد حجة على تردد عداس على أم هند أو كثرة زيارتها هي إليه فليتمعن في مطالعة هذا الأثر فسوف يلقاها بين سطوره فهنا عداس يعطيها كتاباً لاختبار ذلك الذي يأتي «الفائق» أهو طائف من الجنة أم غيره؟

ولما وصلت دارها سمعت آيات سورة القلم تتلى بين جنباته ومعلوم أن «أحمد» قرأها على تبعه بعد سورتي ﴿اقرأ﴾ و﴿المدثر﴾ أي أنها تأخرت تسبباً مما يشف عن استمرار العلاقة بعد واقعة رؤيا المغارة وأثبتنا متانتها قبلها.

ومناولة عداس لها كتاباً فيه الشفاء لتنتلق به لصاحبها على حد عبارته لمعرفة ما إذا ألم به مس شيطاني أم لا دليل يرتفع بذاته دون حاجة إلى

سواء على قوة العلاقة وأنها منفتحة على الجانب الديني أو اللاهوتي تحديداً وأن الراهب عداساً حريص على فلج أم هند في عملية التصنيع التي تمارسها بعونه ومن سبق ذكرهم.

وأيضاً مضت «بمحمد» إليه فلما تثبت من أمارات مادية فيه قرأه في أسفاره المقدسة بالإضافة إلى أنه بالقطع جرت محاوره بينهما عرف منها أحواله المعنوية فانحنى له تقديراً إذ ثبت في يقينه أنه «المنتظر» وهو بهذا الصنيع يؤكد للطاهرة نجاحها بامتياز في إدارة سكان سفينة التجربة الفذة بتمكن واقتدار حتى رست على شاطئ الفلج وميناء الفوز وبر الأمان.



ينكر د. هشام جعيط المعجزات التي حدثت لمحمد شأنه فيه شأن الكتبة المحدثين المعاصرين فيقول: «وقصة علامة النبوة بين كنفه ونبوءة بحيرة الراهب وتظليله بالسحابة كل هذا مختلق ولا أساس له في التاريخ إنما يدخل في المخيال الديني الشعبي الذي أخذ يتنامى في آخر العهد الأموي»<sup>(١٢٨)</sup>.

ومما يؤسف له أن هذا مجرد كلام وبعيد عن العلم والموضوعية ونفذه على وجه السرعة بالآتي:

١ — من قال إن المخيال الديني الشعبي أو غير الديني مثل المخيال الشعبي الملحمي كسير أبي زيد الهلالي وعنتر بن شداد والأميرة ذات الهمة مختلق ولا أساس له؟ كل ما في الأمر أنه لا يخلو من المبالغة لزوم الإبهار ولضرورات الحكي والقص.

٢ — أي تاريخ هذا الذي استند إليه جعيط في الاستعلاء على تنبؤ بحيرى وعلامة النبوة في الكتف ولماذا لم يشر إلى المصادر التاريخية المعتبرة والمحترمة التي تقول بالاختلاق واللاأساسية وما رآه في المصادر التاريخية التي تحظى بكل الاحترام وبالغ التقدير التي تؤكد لها، هل نفذها في المحيط ونأخذ باستكباره هو ومن على شاكلته؟

وبالمناسبة شك هشام في وجود موسى تاريخياً (ص ١٢٤) ونحن لا نصادر حق أي باحث في وصف حادث تاريخي بالاختلاق والافتقار إلى الأساس ونفي وجود أي شخصية تاريخية ولكن بشرط أن يقدم أسانيده النقلية والعقلية معاً أما إلقاء الكلام على عواهنه فهو لا يليق بباحث جاد رصين مثله.

٣ — من المعلوم أن العهد الأموي بفرعيه السفيناني والمرواني ليس من صالحه تضخيم صورة «المصطفى» وأسطرتها في المخيال الشعبي لأنهم لو فعلوا

لزدوا إقناع المحكومين بأحقية بني هاشم رهطه في الحكم بدلاً منهم.

٤ — اختلاق هذه المعجزات وأسطرتها في زمن بني أمية علاوة على سقوطه عقلياً فإنه باطل تاريخياً لأن من أوائل من كتب في سيرة «خيرة ولد قصى» هو عروة بن الزبير بن العوام أخو عبد الله بن الزبير أحد أشد أعداء بني أمية الذي انتزع منهم الخلافة في الحجاز والعراق وغيرها لمدة سبع سنوات كما أن عروة كاتب السيرة ولد قبل أن يغتصب بنو أمية الخلافة من أصحابها الشرعيين بني هاشم.

• • •

وفي الخير أن الطاهرة إثر سماعها «أكرم الخلق» يتلو آيات سورة ﴿بن والقلم﴾ اهتزت فرحاً، ونذكر القارئ أنها في تلك اللحظة شارفت الستين مع رصانتها ورزانتها.. الخ، ألا يدل هذا الفرح الاهتزازي أو الاهتزاز الفرح على شدة الحبور وعمق السرور وقوة الانبساط وعساه ينضوي على تنفيذ مُفخم للذين يرددون كالبيغاء دون أدنى تفكير ولا أقل مسكة من تدبر ولا ذرة من تعقل أن الطاهرة أول من آمن به وبعضهم يقول من الرجال والنسوان والآخريقدمها على النساء فحسب!

إن عجبني لا ينتهي من هؤلاء ومن المؤسف أن ينقلها الخلف عن السلف والمصلى عن المجلى واللاحق عن السابق الأمر الذي يقطع بأنهم طالعوا السيرة المحمدية التي هي أذكى رائحة من نفحات المسك الأصهب مطالعة خفيفة هوجاء.

• • •

والأخبار التي حملتها إلينا دواوين السيرة المحمدية المعطار تدلنا على استمرارية لقاء أم هند بعداس فبعد أن أخبرها «محمود» بمنامه المدهش في المغارة وهرولتها إلى عداس تسأله عنه إذا بها فور أن يخبرها باستعلاء جبريل إليه تسرع إليه «إلى عداس» مرة أخرى وتقص عليه الواقعة الجديدة.

«قال الزهري: كانت أول من آمن بالله وقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه وانصرف إلى بيته وجعل لا يمر على شجر ولا صخرة إلا سلمت عليه فلما دخل على خديجة قال: أريتك الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام فإنه جبريل استعلن علي أرسله إلى ربي، وأخبرنا بالوحي. فقالت: أبشر فوالله فلا يفعل الله بك إلا خيراً فأقبل الذي جاءك من الله فإنه حق.

وانطلقت به إلى عداس غلام عتبة بن ربيعة نصرانياً من أهل نينوى فقالت: أذكرك الله ألا ما أخبرتني هل عندك علم بجبريل؟ فقال عداس: قدوس قدوس. قالت: أخبرني بعلمك فيه. قال: فإنه أمين الله بينه وبين

النبيين وهو صاحب موسى وعيسى - عليهما السلام - فرجعت من عنده إلى ورقة وذكر الحديث»<sup>(١٢٩)</sup>.

إن الذي وضع تحت أبصارنا هذا الأثر الثمين هو الذهبي في «السيرة النبوية» والذي شد انتباهي فيه أيضاً علاوة على توثيقه لمئانة الصلة بين الهندوز والمعاون أنها بعد أن سمعت منه «رجعت من عنده إلى ورقة» إلى اليعسوب، وهذا يقطع بأن أم هند أيام ذلك لم تهدأ ولم تكل بل في حركة دائبة نشيطة رغم سنها ورفاهية عيشها ومكانتها الاجتماعية السامقة ولحرصها المضاعف على سرية الأمر لم ترسل مراسلاً من قبلها بل انطلقت بنفسها رغم ما فيه من مشقة.

ألا تقدم كل هذه الوقائع التي تفضلت بها علينا أمهات مؤلفات الأكابر في سيرة «سعد الله» أدلة ثبوت قواطع على حدوث التجربة فعلاً وواقعاً وعلى قيادة سيادة قريش لحركتها؟



نظراً للأهمية الشديدة لإحكام الرباط بين كل من خديجة وعداس فإننا نستطيع القارئ عذراً في أن نعرض عليه فيما يلي ما جاء «بخلاف ما سبق» في ثلاث من القمم الشوامخ التي تناولت سيرة «الحبيب» ونرجى التحليل التعقيبي أو التعقيب التحليلي فيما بعد:

«عن الواقدي عن نجيح أبي معشر عن محمد بن قيس: أن خديجة لما أتتها رسول الله ﷺ فأخبرها بما بدئ به جمعت عليها ثيابها وأنت ورقة فحدثته وقالت له: ما جبريل؟ فقال ورقة: سبحان الله القدوس جبريل ناموس الله الأكبر وسفيره إلى أنبيائه لئن كان صاحبك رأى هذه الرؤيا إنه لنبي لو ددت أن يكون ذلك فأكون له وزيراً وابن عم، ثم خرجت فحدثت عداس غلام عتبة بن ربيعة وكان نصرانياً فقالت: يا عداس أخبرني عن جبريل؟ فقال: قدوس قدوس وما ذكر جبريل في البلد الذي أهله عبدة أوثان؟ جبريل ناموس الله الأكبر ولم يأت قط إلا إلى نبي، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بما قال الرجلان وبشرته بذلك»<sup>(١٣٠)</sup>.

«ثم انطلقت من مكانها فأنتت غلاماً لعنتبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له عداس فقالت له: يا عداس أذكرك بالله ألا ما أخبرتني هل عندك علم عن جبريل. فقال: قدوس قدوس، ما شأن جبريل يذكر بهذا الأرض التي أهلها أهل الأوثان. فقالت: أخبرني بعلمك فيه؟ قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى - عليهما السلام

— فرجعت من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فذكرت له ما كان من أمر النبي وما ألقاه جبريل فقال لها ورقة: يا بنية أخي.. ما أدري لعل صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل وأقسم بالله لئن كان إياه ثم أظهر دعواه وأنا حي لأبلىن الله في طاعة رسوله وحسن مؤازرته للصبر والنصر، فمات ورقة رحمه الله»<sup>(١٣١)</sup>.

«ثم انطلقت حتى أتت غلاماً لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له «عداس» فقالت له: يا عداس أذكرك بالله ألا ما أخبرتني هل عندكم علم من جبرئيل؟ فقال عداس: ما شأن جبرئيل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه؟ قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى، فرجعت خديجة من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فأخبرته فقال: لعل صاحبك النبي الذي ينتظره أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ثم أقسم بالله لئن ظهر دعآؤه وأنا حي لأبلىن الله في طاعة رسوله وحسن مؤازرته، فمات ورقة»<sup>(١٣٢)</sup>.

لا يماري أحد في القيمة العلمية لهذه المؤلفات الثلاثة ولا أن الأمة تلقتها بالقبول ولم يطعن فيها طاعن ولا غض من مكانة مصنفها فرد أما الطريقة الانتقائية التي يلجأ إليها جل الكتبة المحدثين والمعاصرين بعيدة عن الموضوعية بعد السماء عن الأرض، ونعني بها أخذهم لبعض ما فيها إذا راق لهم وناسب طريقتهم التفخيمية ونبذ البعض الآخر لا طعناً في الرواة أو السند إنما بسبب أنه يعارض منهجهم الفسيد ويناوئى منحاهم الباطل ويضاد مسلكهم المعوج.

إن البلاذري وابن كثير والسيوطي شمس ساطعة في سماء الفكر الإسلامي ينحني لهم كبار رجال الدين الإسلامي المعاصرون إجلالاً فإذا اتخذناهم سنداً لنا في تدعيم أفكارنا وآرائنا فيتعين على هؤلاء إذن أن يسلموا بها لأننا نتوكأ على مؤلفين مغمورين أو متهمين ببدعية أو مغموز في دينهم وأخلاقهم.

فبالإضافة إلى ما قدمناه من مصادر تساميتها في الدرجة وتساويها في الرتبة وتناظرها في المكانة فإنها جمعاء تتضافر على القطع بانعقاد حلقة متينة ثلاثية الأطراف «القس — الراهب — الطاهرة» موضوع حلفها هو التجربة وما يقع فيها من وقائع وإصدار مشورتها بشأنها وأن مهندستها اجتازت الامتحان بكفاية عليا وأن نتاجها هو القادم المأمول «الذي ينتظره أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل».

## نساء الكتيبة المحدثين والمعاصرين:

لماذا لم تسأل الطاهرة «نساءها» وعلى رأسهن نفيسة بنت منية التي لعبت دوراً بارزاً في صيرورتها بعلاً لـ«صاحب التاج» وأمينة سرها؟

أو إحدى زوجات أعمامه مثل فاطمة بنت أسد زوجة عبد مناف «أبي طالب» وهي في ذات الوقت أم عليّ، أو أم الفضل زوجة العباس ابن عبد المطلب وهما من لداتها فضلاً عن أن مستقبل «الشاهد» يههما؟

ولا نذهب بعيداً فلماذا لم تتجه إلى عمه وكافله عبد مناف «أبي طالب» أو إلى عميه الآخرين العباس وحزمة ولدى عبد المطلب خاصة وأن الأخير حضر عقد القران والحفل الذي أعقبه؟<sup>(١٣٣)</sup>.

الإجابة معروفة: لو أن الأمر عادي وليس خارقاً ولم تتكتمه مدة تقرب من عشرين عاماً لأغذت إليهم أو إلى أحدهم إغذاً<sup>(١٣٤)</sup>.

ولكن من المحال أن تفعل، وقد يرد معترض أن الشأن يخص مسألة دينية أو تيولوجية ولم يعرف عن هؤلاء رجال ونسوان أي اهتمام بمثل هذه الشؤون!

فنجيبه أن قرية القداسة آنذاك عجت باليهود والنصارى ولو أن الأخيرين أصحاب النصيب الأوفر في الكثافة لا فيها وحدها بل في أطرافها كما وضحناه في حينه، ومنهم رهبان أطباء في عدة نواح ومنهم من ربطته صلة بعلية القوم أو بالملا القرشي كما سطرناه في وقته فلم لم تهرع الطاهرة إليهم أو إلى نفر منهم أو إلى أحدهم وتستشيرهم فيما وقع لزوجها في المغارة أو فيما بعدها أو فيما قبلها؟

نعتقد أننا لن نسمع رداً مقنعاً أو إحاطة شافية.



إن الحقيقة التاريخية الموثقة أن هناك علاقة وطيدة ربطت بين الطاهرة والقس وبحيرى وعداس وإلى حد ما سرجيوس لأن ما جاء بشأنه من آثار قليل حتى يمكن التغاضي عنه دون أن يؤثر على التجربة أو يمس بها أدنى مساس، وأنها اقتصررت عليهم وأنهم أخفوها وأسدلوا عليها ستائر ثخينة كيما لا يتسرب خبرها إلى أحد خاصة وأن أعداء كثيرين وشرسين يقفون بالمرصاد وعلى استعداد لبذل كل مسعى وسلوك أي طريق ودفع أعلى ثمن لا لإجهاضها فحسب بل لتدميرها عن آخرها حتى لا يبقى لها أثر.



فرد واحد من غير هؤلاء أسندت إليه هندوز التجربة دوراً صغيراً حقيقة إنه لا يعدو ما يؤديه «كومبارس» في شريط سينمائي أو مسرحية بيد أنه بكل المقاييس يعد مشاركة ولو أنها عجفاء هزيلة ضامرة ناحلة. إن السبب في

خروج الطاهرة عن قاعدة السرية ومبدأ التكتّم والتزام الحذر يؤوب إلى أمرين: ثقتها فيه وحميمية الصلة التي ربطته ربما منذ أعوام بـ«سيد ولد عدنان» والفرد الذي نعينه هو أبو بكر بن أبي قحافة وكنيته «عتيق» من تيم<sup>(١٣٥)</sup>. والأخبار التي طالعتنا بها مصنفات السيرة المحمدية الأطيب رائحة من بنفسج الكوفة عن علاقة صاحبها بابن أبي قحافة تشي بمتانة الصلة بينهما:

«وأخرج البيهقي وأبو نعيم من وجه آخر عن أبي ميسرة أن النبي ﷺ كان إذا برز سمع من يناديه يا محمد فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فأسر ذلك إلى أبي بكر وكان نديماً له في الجاهلية.

وأخرج أبو نعيم من وجه آخر عن أبي ميسرة أن النبي ﷺ كان إذا برز سمع من يناديه يا محمد فإذا سمع الصوت انطلق هارباً فأسر ذلك إلى أبي بكر وكان نديماً له في الجاهلية وأخرج أبو نعيم بسند موصول عن بريدة مثله<sup>(١٣٦)</sup>.

في الخبر أن «صاحب السيف» وعتيقاً نديماً قبل الإسلام ومن ثم أسر إليه بالذي ما انفك يسمعه من أصوات تناديه إذا جاوز العمران.

والسيوطي نقله عن البيهقي وعن أبي نعيم وثلاثتهم من الوزن الثقيل والمقام الطيب.

أما عن ثقة سيدة نسون قريش بابن أبي قحافة فإنها تتمثل في مناداته بكنيته «عتيق» فإن من يفعلها يقدم القرينة على أنه رفع الكلفة بينه وبين من يخاطبه<sup>(١٣٧)</sup>.

«فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ثم ذكرت له خديجة فقالت: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة<sup>(١٣٨)</sup>» وبقية الخبر أنه امتثل لأمر الطاهرة وأخذ بيد محمد «هكذا!» وانطلق به إلى ورقة بعد أن سأله: من أخبرك فأجاب: خديجة.

ولنرجع إلى قصة مغزى وهي أن المراحل التي تنقل فيها «الشهم» في مسيرة التجربة وقصص أنبياء بني إسرائيل التي دأبت الطاهرة وابن عمها القس بحكيانها له مترجمة عن التوراة ما انفكت تؤتى ثمارها المرجوة بأن تفرز إichاءات متنوعة عليه منها سماع أصوات إذا أبعد وخلا دون أن يرى مصدرها، وقد عبر عنها مرة بـ«نداء» وثانية تخاطبه باسمه ففزع وخشى على نفسه إما من الجنون أو أنها مس من الشيطان فينطلق هارباً وكالعادة لا يجد ملجأً أو منجى إلا بين نراعى الأم الرؤوم، وفي الحزن الدفيء للبعل الحبيب. خديجة فتهدئه وتتهنئه وتطمئنه وسرى أن الفعل تكرر مرات



عديدة وأهدته إيانا مصادر كثيرة بيد أن كل واحد منها يقص علينا رواية مغايرة مما يؤازرنا فيما نذهب إليه عن «تكرار الواقعة».

«عن ابن إسحق بسنده إلى أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إنني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر. قالت: معاذ الله ليفعل ذلك به فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثم ذكرت خديجة له فقالت يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده وقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: من أخبرك؟ قال: خديجة.

فانطلقا إليه فقص عليه فقال: إنني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً من خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هاربا في الأرض، قال: لا تفعل إذا أتاك فأثبت حتى تسمع ما يقول لك ثم انتني فأخبرني، فلما خلا ناداه يا محمد يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربي العالمين.. حتى بلغ ولا الضالين.. قل: لا إله إلا الله.

فأتى ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة: اثبت فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنتك على مثل ناموس موسى وأنتك نبي مرسل وأنتك ستؤمر بالجهاد بعد يومك ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

فلما توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: لقد رأيت القس في الجنة وعليه ثياب من حرير إنه آمن بي وصدقني — يعني ورقة»<sup>(١٣٩)</sup>.

في هذا الأثر سمع «خيرة بن هاشم» نداءً ثم أضاف أنه تكرر بالاسم مرتين والمناسبة هي البعد عن الناس أو العزلة عنهم «إذا خلوت وحدي» وأن الذعر أصابه فوخذ السير<sup>(١٤٠)</sup>. إلى الطاهرة ليجد عندها الأمن والأمان.

وإن ابن قحافة من المترددين على دارهم وأن أم هند نادته بكنيته بيد أنها أمرته بالذهاب مع محمد إلى ورقة ولا ننسى أنهم في مجتمع ذكوري الهيمنة فيه للرجال مما يقطع بمكانتها السامية التي أتاحت لها أن تأمر الرجال فينصاعون على الفور لا على التراخي إذ ما إن يدخل «الضحاك» حتى يأخذ بيده ويهرول به إلى القس.

وإن ورقة هو يعسوب التجربة الذي تعوذ به عند كل حدث فيسمع منه ويطلب إليه أن يثبت ولا يهرب لأن «القادمين» وخاصة من يؤهلون لتأسيس ديانة جديدة لا يزوغون.

وهذه الواقعة تعلق بها سورة فاتحة الكتاب وهي بإجماع لاحقة لسورة ﴿اقرأ﴾ وإن جاء ترتيبها في المصحف الشريف أنها المجلية أو السابقة أو المتقدمة.

وإنه امتثل لما أشار به القس وثبت وسمع ما قاله الصوت وإن لم يعين مصدره ولما انتهى من قصه كرر القس شهادته له بأنه الذي بشر به ابن مريم.. الخ.  
وقد أوردها البلاذري بكلمات مشابهة أو مطابقة ووثق تعلقها بسورة الفاتحة<sup>(١٤١)</sup>، ومثله صنع ابن كثير<sup>(١٤٢)</sup>.



إننا صاحب السيرة الشامية يحدد مصدر الصوت ويذكر انه جبريل، إنما لم يذكر أن حواراً دار بينهما بل مجرد تعريف من ملاك الرب بنفسه.

وفيه أيضاً: أمرت سيدة قريش كلها أبا بكر «هذه المرة خاطبته باسمه لا بكنيته» بالتوجه مع محمد إلى ورقة.. الذي أمره بالثبات أي عدم الهروب ففعل ولكن لبرهة يسيرة بقدر السلام عليكم، ثم هرع إلى أمه الحنون ونظراً لما تمتعت به من ثقافة دينية جيدة فقد أدركت على الفور أن الذي خاطبه كائن خير لأن الأشرار لا يعرفون السلام.

«فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل فإنه رجل يقرأ الكتب فيذكر ما يسمع فانطلقا إليه فقصا عليه فقال:

إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد أنا جبريل فانطلق هارباً، فقال ورقة: سبوح وما لجبريل يذكر في هذه الأرض التي يعبد فيها الأوثان، جبريل أمين الله بينه وبين رسله، لا تفعل فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم انتني فأخبرني.

فخرج ذات ليلة فسمع: السلام عليكم. قال: فظننا فجأة الجن فجاء مسرعاً حتى دخل على خديجة فقالت: ما شأنك فأخبرها، فقالت: أبشر فإن السلام خير»<sup>(١٤٣)</sup>.

وواضح من ثنايا الخبر أنه يحكى عن حادث مغاير لما سبق وأن اللجوء إلى اليسوب مستمر ومتكرر مما يثبت صورته كمرجعية لا غنى عنها.

أما السيوطي: فإن الأثر الذي نفحنا به في خصائصه الكبرى جمع بين تعليم الصوت الخفي «راكب الأتان» للركن الأول في الإسلام ونعني به الشهادة وبين قراءة فاتحة الكتاب معا بعد أن شدد عليه القس على ضرورة الثبات، وأنه لما نقل إليه الحدث شهد أنه المأمول المنتظر الذي بشر به ابن مريم — كما علم من مطالعته في التوراة والإنجيل — وعندما تمضي سنوات عديدة نسمع «المصطفى» يحدث أنه بشرى عيسى.

وصحبه أبو بكر بأمر صارم من سيدة نسون قريش كما حدث في الكرات السوابق.

— فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه وقالت له: اذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا فقصا عليه، فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هاربا في الأرض، فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم انتني فأخبرني.

فلما خلا ناداه قال: يا محمد قل اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين، ثم قال: قل لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وإنك على مثل ناموس موسى وأنت سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركني ذلك لأجاهدن معك.

فلما توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: لقد رأيت القس عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني — يعني ورقة»<sup>(١٤٤)</sup>.



هذا هو الدور اليتيم الضعيف الذي اضطلع به ابن أبي قحافة في التجربة ولا نعرف له سواه. الآثار التي طرحناها في هذه الخصوصية اطلعت القارئ على مقطع مهم في التجربة وهو مرجعية اليعسوب الأكيدة والتي لا غنى عنها لا من ناحية الطاهرة ولا من جانب «صاحب المدرعة» وزادت في قناعته «القارئ» بصدق ما ذهبنا إليه والذي أزرناه بمصادر تقف على أرض صلبة.



«حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»<sup>(١٤٥)</sup>.

هذا الحديث في نظرنا يعلن بداية مرحلة جديدة وهامة من مراحل التجربة العظيمة ورغم أنه يكفي لصحة وروده في صحيح البخاري فإن دواوين السنة المحمدية العوالي وثقته وعلى رأسها صحيح مسلم وهو المصلى «التالي» للبخاري في مجموعة الصحاح الستة.

«حديث عروة بن الزبير عن عائشة: أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة.. أخرج عبد الرزاق في مصنفه، وأحمد في مسنده والبخاري ومسلم في صحيحيهما وابن جرير الطبري وغيرهم في سند متصل»<sup>(١٤٦)</sup>.

ويؤكد لنا السيوطي في الخصائص الكبرى أن الشيخين أخرجاه في صحيحيهما والشيخان في نطاق علم الحديث هما البخاري ومسلم، أما الشيخان في التاريخ الباكر للإسلام فهما التيمي أبو بكر بن أبي قحافة والعدوي عمر بن الخطاب – أخرج الشيخان «عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

«أخرج أبو نعيم عن علي بن الحسن قال: إن أول ما أتى رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئاً في المنام إلا كان كما يرى»<sup>(١٤٧)</sup>.

وأهدانا السيوطي مصدراً آخر هو أبو نعيم صاحب حلية الأولياء وأن راويه علي بن الحسن ونرجح أنه من العترة الطاهرة آل البيت عليهم أركى السلام.



مؤلفات السيرة المحمدية الزكية كما المسك الفائح نستطيع أن نؤكد أنها أجمعت على صحة الخبر الذي جاء على لسان التيمية عائشة بنت أبي بكر:

- ١ – «السيرة النبوية» لابن إسحق، ص ١٩١، من المجلد الأول، طبعة أخبار اليوم، مصدر سابق.
  - ٢ – «السيرة النبوية» لابن هشام، الأول، ص ٢٣٤ سابق.
  - ٣ – «السيرة الحلبية» الجزء الأول، ص ٣٧٧، سابق.
  - ٤ – «السيرة الشامية» الجزء الثاني، ص ٣٠٨ سابق.
  - ٥ – «مولد النبي ﷺ» للبرزنجي، ص ١٣ سابق.
  - ٦ – «السمط الثمين» للمحب الطبري، الأول، ص ٤١ سابق.
  - ٧ – «السيرة النبوية» لابن كثير، الأول، ص ٤١ سابق.
  - ٨ – «إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأبناء والحفدة والمتاع» للمقرئزي، الأول ص ٣٨ سابق.
  - ٩ – «السيرة النبوية» لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، الأول، ص ٣٨٥ سابق.
- وفي مضمار المراجع ونعني الكتب الحديثة في السيرة المعطرة:
- ١ – «تهذيب سيرة ابن هشام» الأول، ص ٥٨، لعبد السلام هارون، سابق.
  - ٢ – «خديجة أم المؤمنين» لعبد المنعم محمد عمر، ص ٩١، سابق.
  - ٣ – «خلاصة السيرة النبوية وحقيقة الدعوة الإسلامية» تأليف السيد محمد.
  - ٤ – «خاتم النبيين ﷺ» لمحمد أبو زهرة، الأول، ص ٣٠٣ سابق.
  - ٥ – «فقه السيرة» لمحمد الغزالي، ص ٩٢، سابق.
  - ٦ – «سيرة النبي محمد» تأليف كارين أرمسترونج ترجمة د. فاطمة نصره، د. محمد عناني، ص ١٣١، ١٩٩٨م كتاب «سطور» الأول.

## ولكنها تضيف الآتي:

— وفيما بعد كان يتلقى الرؤى إلى جانب الجبل وكان أيضاً في كل مرة يسرع إلى خديجة راجياً إياها أن تحتضنه وتدثره في عباة<sup>(١٤٨)</sup>.



لقد عمدنا إلى هذا التوثيق الشديد الذي ربما يرى فيه البعض مبالغة لأهمية مرحلة «الرؤيا» لأن موضوعها شديد التركيب والتعقيد إذ له جذور في العقائد القديمة وله أصل في الديانتين الساميتين الإبراهيميتين السابقتين على ظهور الإسلام، كما أن الفلاسفة والمتصوفة وأهل الشريعة لهم فيه نظريات وقدم علم النفس في دائرته إضافات ثرة عميقة. وجماعها من الحتم اللازم لا نقول الإحاطة به بل على الأقل الإمام به.

### هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن «الرؤيا الصادقة أو الصالحة» هي التي أدت بالتدرج إلى الرؤيا التي أخبر «الصادق المصدوق» أنه رأى فيها بمغارة حرى الملاك أو جبريل أو الكائن العلوي الذي أمره بأن يقرأ فقراً، وأفرزت طاعته له أو استجابته للأمر افتتاحية لأخطر ما أنتجته أو ولدته التجربة وعليه بصفة رئيسة تمحورت الديانة التي أسسها محمد، فإذا عد هو من مؤسسي الديانات الكبرى مثل إبراهيم وموسى وعيسى وكونفوشيوس ومانى وبوذا فإن الكتاب الذي بدأه بسورة ﴿اقرأ﴾ يعد من أعظم الكتب التي خلفها المؤسسون الأكابر والبطارقة الأمثال المذكورون.

و«رؤيا» مغارة حرى اعتبرتها سيدة نسون قريش إعلاناً على نجاح التجربة بدرجة امتياز وأنه قد أن لها الأوان أن تهدأ بالاً وتستنقر نفساً وتستريح خاطراً وتتأكد أنه القادم أو المنتظر أو المأمول من «العرب» وقد غدا حقيقة بعد أن ظل سنوات حلماً وطيفاً.



أما أن ما حدث في المغارة مع ملاك الرب أو جبريل أو الشخص أو الكائن العلوي فهو مجرد «رؤيا» فهذه حقيقة مؤكدة جاءت بها المصادر العوالي في سيرة «سيد الناس وديان العرب» ولا شأن لنا بالمعارضين الذين يناوئون دون دليل أو حجة أو بالتجاهل أو لي أعناق النصوص أو بالتعليل المضحك أنها وقعت في المنام مرة ثم في اليقظة كأنما الحضرة الإلهية انحصرت اهتمامها في مغارة حرى ولديها من الفراغ ما يسمح لها أن تكرر الحدث مرتين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وسوف نقدم الأدلة الدوامغ في الفاصلة القادمة الخاصة بـ «الخلوة» على صحة ما نذهب إليه.  
بيد أنها وهي «رؤيا» فقد تحتم علينا هنا أن نخرج عليها ونمسها ولو مساً رقيقاً. ثم كالعادة نعود إلى سياقة البحث.

• • •

يلزم في البدى أن نورد تعريف «الرؤيا» كما سطره أصحاب كتب المفردات والتعريفات والمعاجم:

١ — «الرؤيا ما يرى في المنام وهو فعلى»<sup>(١٤٩)</sup>.

٢ — «رأيته بعيني رؤية ورأيته رأى العين ورأيته في المنام رؤيا»<sup>(١٥٠)</sup>.

٣ — «الرؤية المشاهدة بالبصر حيث كان أي في الدنيا والآخرة»<sup>(١٥١)</sup>.

٤ — «ورؤية العين معاينتها للشيء — يقال رؤية العين — ورأى في منامه رؤيا على فعلى غير منصرف لألف التأنيث»<sup>(١٥٢)</sup>.

في هذه التعريفات نلغى تركيزاً شديداً على أنها «= الرؤيا» مجالها المنام في حين أن «الرؤية» مضمارها اليقظة والتها العين أو البصر.

أما الأولى «الرؤيا» فإذا إن الشخص نائم فإن بصره معطل ومن ثم فإن إدراكها يتم بالمخيلة ولهذا العلة «يرى المعتزلة أن الأحلام أصغات وأوهام»<sup>(١٥٣)</sup>.

والمعتزلة هم فرسان العقل في كتائب الفكر الإسلامي.

وباحث حديث ذهب إلى أوعر مما قرره المعتزلة إذ أنكر بجرأة فكرية نادرة المثال أن «الرؤيا الصادقة» جزء أو مقدمة أو إرهابص للنبوة لأنها تقع للفاسق والخمير والمدنس وناقص الأهلية فكيف يصح في حكم العقل أن واحداً منهم يحوز على شطر من النبوة لأن الرؤيا الصادقة أو الصالحة في رأى الفكر الإسلامي جزء من ستة وأربعين أو سبعين من النبوة «ولكن هذا الحكم الإسلامي شرعي بحت إذ الرؤيا الصادقة تقع للكافر وكذلك للفاسق أو السكير وغير الطاهر والطفل من المسلمين فتكون صادقة أحياناً ولكنها في هذه الأحوال لا تكون جزءاً من النبوة»<sup>(١٥٤)</sup>.

أما أن الإسلاميين يرون أنها جزء من النبوة فهذا لا مشاحة فيه.

«كانت الرؤيا ستة أشهر ومدة النبوة ثلاثاً وعشرين سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً.. في رواية أنها جزء من سبعين جزءاً — لاحظ أن السبعين عشرة أضعاف السبعة أ. هـ — وذكر الحافظ ابن حجر أن أصح الروايات مطلقاً رواية ستة وأربعين ويليها رواية أنها جزء من سبعين جزءاً.. فعلم أن الرؤيا المذكورة جزء من مطلق النبوة»<sup>(١٥٥)</sup>.

يبين من هذا الخبر وجود حديث محمدي عنه له روايات عديدة أصحها في تقدير الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب الفتح أنها جزء من ستة وأربعين فعندما يتصدى الدكتور توفيق الطويل أحد أساتذة الفلسفة في مصر والذي أقام له المجلس الأعلى للثقافة ندوة خاصة وأصدر له كتاباً تذكاريًا — نقول عندما يتصدى فينكر اعتبار الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة فإما أنه لم تثبت لديه صحة الحديث أو أنه يرفض أي حديث ينسب إلى «راكب الأتان» إذا تناقض مع العقل لأنه «لا ينطق عن الهوى» ومجافاة المنطق ومخالفة العقل ومنافاة الإدراك السليم تدخل جميعها في دائرة النطق بالهوى الذي عصمه الذكر الحكيم منه.



وعند أهل الكتاب نجد أن معنى «الرؤيا» قريب جداً من الذي أمه «قصده» الإسلاميون:

«رؤيا وجمعها رؤى وفيها يرى النبي ما لا يراه غيره من إعلانات الله عن ذاته ويسمع ما لا يسمعه غيره من أقواله بطريقة الإلهام المعصومة — أن الله لا يمكن أن يعرف إلا بإعلان منه وقد سر الله أن يعلن أفكاره سواء في الحلم أو في منظر «رؤيا» عندما يكون النبي تحت تأثير روح الله لما كان صموئيل صبياً صغيراً أعلنت له كلمة الله في وقت لم تكن رؤيا كثيرة — وقد رأى دانيال النبي رؤى كثيرة وكذلك غيره من الأنبياء.

وفي المستقبل عندما ينسكب الروح القدس سيتنبأ بنوهم وبناتهم ويرى شبابهم رؤى سفر الرؤيا في العهد الجديد هو سلسلة رؤى»<sup>(١٥٦)</sup>.

ولا غرابة في الأمر فإن النبوة في الإسلام سارت على منوال النبوات اليهودية — المسيحية واتخذت «النسق الديني» وفاصلت «النسق الميثولوجي» الذي سارت عليه نبوءات عرب ما قبل الإسلام.

وإذ إن مسار حركة «النسق الديني» تهبط من أعلى إلى أسفل أو من الله إلى الإنسان فتعين أن تغدو «الرؤيا» إحدى الوسائل المهمة في نقل رسالة الأعلى إلى الأسفل ولذا نجد للرؤى مكاناً فسيحاً لدى أنبياء بني إسرائيل وسنأتي بمثل أو اثنين.



«يبدو أن فعالية الإنسان هي البنية الجوهرية التي تبلورت حولها طرق التنبؤ عند العرب مما يؤكد أن نبوءات عرب ما قبل الإسلام تنتمي إلى نبوءات «النسق الميثولوجي» الذي تتأسس فيه النبوءة على «مبادرة إنسانية خالصة» يكون «الرد الإلهي» جواباً مباشراً عليها، ولذا كان ضرورياً أن

تتناقض «نبوة الإسلام» مع نبوءات «النسق الميثولوجي» إذ تنتمي «نبوة الإسلام» إلى ما أسميناه نبوءات النسق الديني الذي تتخذ فيه النبوة مساراً لحركتها يتجه – على عكس «النسق الميثولوجي» – من الأعلى «الله» إلى الأسفل «الإنسان» أو بعبارة أخرى تتأسس فيها النبوات على مبادرة «إلهية خالصة» دون طلب مباشرة من الإنسان»<sup>(١٥٧)</sup>.

لم يقدم صاحب كتاب النبوة تعليلاً لسياحة النبوة العربية في مجرى النبوة اليهودية المسيحية بل اكتفى بالتوصيف ولعله وقف حائراً ينبش عن السبب الخبيء الكامن وراء مفاصلة النبوة العربية نبوات عرب ما قبل الإسلام<sup>(١٥٨)</sup> بيد أننا على ثقة أنه بعد أن يقرأ مؤلفنا هذا سيعثر عليه وربما يضيفه إلى مصنفه إذا قرر أن يطبعه مرة أخرى.



من بين الرؤى التي رآها «الأكرم» آنذاك والتي لها دلالتها العميقة وهي في ذات الوقت تعاضد على فهم الشروح التي سنطرحها بعد قليل: رؤيا شق بطنه.

«عن ابن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزام قال: كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى في المنام فشق عليه فذكر ذلك لصاحبته خديجة رضي الله عنها بنت خويلد فقالت: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً قال فذكر لها أنه رأى بطنه أخرج فطهر وغسل ثم أعيد كما كان. قالت: هذا خير فأبشر – أخرجها الدولابي»<sup>(١٥٩)</sup>.

هذا المصدر من علوم القرآن من أمهات كتب التفسير.

وإذ أخبرنا القمي النيسابوري صاحب الغرائب أن الشق حدث للبطن فإن السيوطي في «الزهر» جاءنا بموضع مغاير وهو القلب وأنه غسل من ماء زمزم البئر المقدسة التي حفرها جده عبد المطلب والتي كاد أبوه «عبد الله» أن يدفع حياته ثمناً لها وفاءً لنذر الجد وليس هذا فحسب بل أضاف: نفحه الخاتم الذي يوثق أنه القادم المنتظر وأنه مسك ختامهم.

«قال الحافظ ابن حجر وهو أثبت من القولين الأولين: وفي حديث عائشة عند الطيالسي وابن أبي أسامة وأبي نعيم في الدلائل:

أن جبريل وميكائيل لما نزلا إليه عند المبعث هبط جبريل فألصقاني بحلاوة الفقا ثم شق على قلبي فاستخرجه ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم ثم أعاده مكانه ثم ألصقني وختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم في قلبي وقال: اقرأ»<sup>(١٦٠)</sup>.

وروى الزهري عن عروة عن عائشة بنت التيمي ابن أبي قحافة ومن وجهة



أخرى رواها كل من البيهقي وصاحب الحلية أبو نعيم عن عروة أيضاً أي أن للحديث رواية فرد هو عروة إنما بطريقتين نقلها إلينا أعلام في ميدان الحديث المحمدي وقد جمعه السيوطي وأورده على الوجه التالي:

«ثم خرج البيهقي وأبو نعيم من وجه آخر عن عروة بن الزبير نحو هذه القصة وفي أولها بعد فشق عليه ورأى أنه بينما هو في مكة أتى إلى سقف بيته شبة «عوداً عوداً» حتى إذا نزع أدخل فيه سلم من فضة نزل إليه رجلان قال رسول الله ﷺ: فأردت أن أستغيث فمنعت الكلام فقعد أحدهما إلى رأسي والآخر إلى جنبي فأدخل أحدهما يده في جنبي فنزع ضلعين منه فأدخل يده في جوفي وأنا أجد بردها فأخرج قلبي فوضعه على كفة فقال لصاحبه: نعم القلب قلب رجل صالح ثم أدخل القلب مكانه ورد الضلعين ثم ارتفعا ورفعاه سلمهما فاستيقظت فإذا السقف مكانه هو فذكرها لخديجة فقالت: إن الله لن يفعل بك إلا خيراً.. ثم إن جبريل فجر عيناً من ماء فتوضأ ومحمد ﷺ ينظر إليه فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين ثم نضح فرجه وسجد سجدتين مواجهة البيت ففعل محمد كما رأى جبريل يفعل»<sup>(١٦١)</sup>.

وأخرجه أبو نعيم من وجه ثالث عن الزهري عن عروة عن عائشة.

وفي الثقافة التي هيمنت أيام «صاحب النعلين» يستقر العلم والفكر والحفظ والفقهاء في القلب أو الصدر ومن ثم نقرأ في الذكر الحكيم: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾<sup>(١٦٢)</sup>.  
وعن الصدر: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾<sup>(١٦٣)</sup>.

هذه الرؤيا المعجبة أوردناها بأكثر من رواية كيما تغدو المنطلق الذي نبدأ منه تحليل حدوث «الرؤيا» أو «الرؤى» بالجمع لـ«سيد ولد عدنان» وهذا يستلزم لفظة خاطفة إلى الخلف وهي أن التجربة بدأت بالمشي في الأسواق ثم بالمدارس بسائر ضروبها من قراءة عليه وتحفيظ وشرح وتفسير.. الخ، جماع كله شكل شحنة بالغة الكثافة في نفسه وطفق بعد أن أدرك غاية المسعى وهدف التجربة وقصد المجهود، ولسنا بحاجة أن نذكر أنه عبقرى فطن لماح جعلته يتوق أن يصبح واحداً من أولئك الرجال الذين أحاط خبراً بحكاياتهم.

وإذ إن الأمر يحتاج للوصول إلى الملاء الأعلى والكائن الأسمى فلا بد وبطريق الحتم واللزوم أن يصير الجسم حصراً وتحديداً الأعضاء أو الأوعية التي تتلقى فيوضانه وإشراقاته مهياً لاستقبالها فمن الضروري غسلها وتطهيرها وحبذا لو يتم بماء مقدس — هذه الطلبة العارمة التي ملأت عليه

أقطار نفسه وحنايا عقله وجوانب قلبه وبواطن وجدانه يقول لنا علم النفس إنها تتحول إلى حلم أي رؤيا. «تسمى نظرية فرويد بنظرية «الحافز النفسي» وهي بهذا الاعتبار تقابل نظرية «الحافز النفسي» التي ألمحنا إليها من قبل وهو يحصر نظريته بكلمتين حيث يقول بأن الحلم ليس سوى «تحقيق رغبة».. جعل «تحقيق الرغبة الأساس التي تقوم عليها الأحلام»<sup>(١٦٤)</sup>.

أما أدلر تلميذ فرويد فينضم إلى أستاذه في أن غرض الحلم الرئيسي هو أن يحقق النائم وهو ولسان ما يشتهي بقوة في اليقظة بيد أنه بدأ يفاصل أدلر أستاذه في الغرض «يعني هدف التحقيق» ويذكر أنه التعالي والسيطرة.

«ويفسر أدلر الأحلام في ضوء ما جاء به من نظرية الشعور بالنقص فالأحلام في رأيه ليست سوى تحقيق لما كان الإنسان يشتهي أثناء يقظته من التعالي والسيطرة»<sup>(١٦٥)</sup>.

• • •

ولكن ما هو دور الهندوز واليعسوب في هذه المرحلة؟

لا نظن أن الإجابة على هذا السؤال في حاجة إلى فطانة كبيرة فهما اللذان يتوليان وخاصة خديجة ملازمته وإعداده وحفره ودفعه وتشويفه وتشويقه كيما يتشكل إلى «المنتظر» و«المأمول».

• • •

ابن خلدون سبق فرويد وأدلر وخطا خطوة أوسع وهي أن الإنسان المتشوف أو المتمنى لا يجيء موقفه سلبياً حتى تتحقق الرؤيا بل قبل أن يضع جنبه على السرير ليضطجع عليه أن يشحن بطاريتة النفسية بالفكرة التي يحن إليها ويرجوها ويؤكد ابن خلدون أنه سيراه في نعاسه.

«يقول ابن خلدون: إن الإنسان إذا أعد نفسه قبيل النوم إعداداً نفسياً في سبيل فكرة فإنه سيرى تلك الفكرة في منامه ويستفيد منها...»

فهو يعتقد أن النفس البشرية إذا تشوفت إلى شيء قبيل نومها وقع لها في المنام ما كانت متشوفة إليه»<sup>(١٦٦)</sup>.

فما بالكم إذا انضم إلى الشخص المتشوف اثنان من اللزيقين به أحدهما يظل معه حتى يأوي إلى فراشه ويستمر في تعبئته حتى يداعب الكرى جفنيه الشريفين.

• • •

## بتهادى سؤال مهم:

ما أهمية ذيك العمل «الشحن والتعبئة والحفز... الخ» بالنسبة لأم هند بالدرجة الأولى ثم للقس في المقام المصلى «التالي»؟

لأنهما — بما لهما من علم بتقافة أهل الكتاب — فإن «الحميد» سيرى في البداية رؤى تمهيدية مثل شق البطن أو القلب أو الصدر ثم تتدرج حتى تظهر على شاشة مخيلته وهو وسنان رؤيا الإعلان أو التدشين.

«وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا وطلبت المعين إذ به شبه إنسان واقف قبالي وسمعت صوت إنسان بين أولادي فنادى وقال: يا جبريل فهم هذا الرجل الرؤيا فجاء إلى حيث وقفت، وقال أما الكبش الذي رأيتَه ذا القرنين فهو ملوك مادي وفارس والتيس العافي ملك اليونان»<sup>(١٦٧)</sup>.

الإسرائيليون ليسوا هم الذين ابتدعوا تلك الفكرة بل نقشوها أو اقتبسوها كما فعلوا في الكثير من العقائد والعبادات إما من قدماء المصريين أو من الديانات السامية العتيقة وأخصها البابلية والآشورية، وتلك الفكرة بالذات جاءت إليهم من الأخيرين فيما نرجحه:

«أما البابليون فقد اعتقدوا «أن الإله يكشف عن نفسه في الحلم» معلناً إرادة السماء وكاشفاً المستقبل».

في هامش الصفحة: ومن هنا اتسم التنبؤ في إطار المدن بطبائع شخصي جعله يقوم أساساً على الأحلام — وهكذا التنبؤ مرآة عصره — أو كما قال هيجل عن الفلسفة — وليد عصره»<sup>(١٦٨)</sup>.



ويرى د. توفيق الطويل أن المفكرين المسلمين توصلوا إلى فكرة أن الحلم أو الرؤيا تتحقق عندما ينام الشخص وتفكيره مستغرق في موضوع معين وصرفه عن استخدام حواسه ففي هذه الحالة تقوى مخيلته وتنشط في القيام بمهام وظيفتها فتطبع عليها صور ومعاني الموضوع الذي استحوذ عليه وهو يقظان.

«وإذا كان المفكرون المسلمون قد أنكروا على أرسطو رفضه للرؤيا وصدقه فإنهم قد تأثروا برأيه في المرئيات الغيبية بوصفها أحلاماً من صنع المخيلة وهذا ما أخذه عنه الكندي الذي رأى أن المخيلة كقوة تتوسط القوة الحساسة والقوة الناطقة أداة تحصل بها المرئيات من غير مادة أي في غيبة موضوعاتها عن الحواس لأن المخيلة على عكس الحواس تقوى على تركيب الصور وبخاصة عندما تنشط أثناء النوم ودليل ذلك أن الإنسان كلما استوعبه التفكير في موضوع ما وصرفه عن استخدام حواسه قويت مخيلته

وصارت أنشط في أداء وظيفتها وما النفس إلا طابع الصور التي تركيبها المخيلة ومحل معانى الأشياء معقولة أو محسوسة»<sup>(١٦٩)</sup>.

تأثر محمد تأثراً عميقاً إذن بما قرئ عليه بمعرفة الطاهرة من الإصحاحات والأبعاض التي ترجمها ورقة إلى اللغة العربية وما حصله قلبها وهو يجوب الأسواق من قصص أنبياء بني إسرائيل والرائين جمع «راء» «من رؤى: جميع رؤيا بالألف» وما يسمونه من أصوات مثل أشعيا وعاموس: «والرائي: كان النبي قديماً يقال له «الرائي» لأن الله أعطاه أن يرى الحوادث مقدماً قبل أن تحدث وهذا ما قيل أيضاً في إش ٣٠: ١٠ أن الإسرائيليين المتمردين قالوا للرائين: لا تروا ولم يروا شيئاً»<sup>(١٧٠)</sup>.

«اسمعي أيتها السموات وأصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم»<sup>(١٧١)</sup>.

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم اصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة»<sup>(١٧٢)</sup>.

فهنا سمع أشعيا صوتاً اعتقد أنه كلام الرب فنقله بدوره إلى بني إسرائيل – ومثله عاموس «فقال إن الرب يزمجر من صهيون ويعطى صوته من أورشليم...»<sup>(١٧٣)</sup>.

«اسمعوا هذا القول الذي تكلم به الرب عليكم يا بني إسرائيل على كل القبيلة التي أصعدتها من أرض مصر... الخ»<sup>(١٧٤)</sup>.

وجدير بالذكر أن هذا العاموس راعي غنم وهو يفتخر بعُملته هذه «فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل»<sup>(١٧٥)</sup>.

ونكتفي لأننا لسنا بصدد بحث في علم الأديان المقارن.



هذه القصص المعجبة التي سمعها «المصطفى» سواء في أسواق مكة أو التجمعات الموسمية أو في جلسات القراءة في لياليها الطويلة أو في حلقات المدارس والمراجعة على يدي اليعسوب، تركت في نفسه ووجدانه أحاديث عميقة وأصبح على اقتناع بأن «القادمين» و«المنتظرين» بفتح الظاء و«المأمول مجيئهم» لا بد أن يسمعوا أصواتاً يقولون عنها آتية من الملائكة الأعلى.

وإذا استمر جميعه بلا كلل ومن غير ملل ودون نصب سنين عدداً وأعواماً طويلاً تسربت الفكرة إلى الأعماق وتغلغلت في الغور وهو ما سوف يحدث مع الخطوة القادمة ونعني بالفكرة: الرؤى التي بدأت بأصوات يسمعها تماماً مثلما حدث مع أشعيا وعاموس وغيرهما من بني إسرائيل. فيحق للمنتظر

العربي أن يؤكد لمن يتلقون حوله أنه يسمع أصواتاً ويرى أضواءً معها في بعض الأوقات، إنما لم يحل زمان البوح بمصدرها أو لأن «أحمد» أمين فلم ينسبها لشخص معين أو جهة مخصوصة.

— «أخرج أحمد وابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لخديجة: إني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً، فذكرت ذلك لورقة قال: هذا ناموس موسى فإن يبعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأعينه»<sup>(١٧٦)</sup>.

هذا المقطع بمقدورنا أن نسميه «فترة الصوت والضوء» فقد نقل إلينا ابن سعد في كبرى طبقاته أخبارها من روايتين الأولى عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام أي ابن أخت التيمية عائشة بنت ابن أبي قحافة وهي من أكثر زوجاته رواية لأحاديثه.

والأخرى عن طريق حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن العباس<sup>(١٧٧)</sup>.

«عن هشام بن عروة أن رسول الله ﷺ قال: يا خديجة إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً، فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله إنك تصدق الحديث...»

عن ابن عباس: ان النبي ﷺ قال: يا خديجة إني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً وإني أخشى أن يكون بي جنن.

فقالت: لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله.

ثم أتت ورقة فذكرت له ذلك فقال إن يك صادقاً فهذا ناموس موسى فإن يبعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأؤمن به»<sup>(١٧٨)</sup>.

• • •

وفي عجز الخبر أن الطاهرة بعدما سمعت من المكي رؤيته للصوت والضوء وأنه خاف على نفسه وظن أنه ألم به جنن أو سيتحول إلى كاهن من كهان الوثنية لاذ بالطاهرة الملجأ الوحيد لها فهذأت روعه وطمأنته أن ربه لن يسمح بأي شر يمسه لأنه يصل الرحم ويصدق الحديث.. ثم اندفعت إلى اليعسوب تستخلص منه المشورة.

«زملته فانجاب عنه كل شيء ودعته فثاب إليه هدأه كي يسمعها تقول له: والله ما يخزيك الله أبداً فأخذ يبيتها هواجسه الباقية في نفسه ويقول: إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً وإني لأخشى أن أكون كاهناً فنفت عنه هذا الخوف. قالت: كلا يا ابن عم لا تقل ذلك... إن الله لا يفعل ذلك أبداً إنك لتصل... الخ»<sup>(١٧٩)</sup>.

• • •

طلع علينا صاحب «السيرة الحلبية» بأثر فيه إشكال ملخصه أن «الحبيب» ما انفك يرى الضوء ويسمع الصوت وهو يقظان وليس نائماً، مما

يشي بأن غيره من الآثار يفهم منه أنهما يتمان في النوم وبرجوعنا إلى الأخبار التي مسحت هذا المقطع من مقاطع التجربة الهائلة لم نجد ما يفهم منه على الإطلاق حدوثهما وهو وسنان.

وفي أثر صاحب السيرة الحلبية لفظة تقدم دليلاً على تمكن الطاهرة من الثقافة الدينية بقدر لم يتح لكثير من رجال زمنها فهي ربطت بين حسن الخلق وبين الانعتاق من أسر الشيطان والوقوع في حباله وشبائه.

وقد جاء هذا المعنى فيما بعد في القرآن العظيم: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>(١٨٠)</sup>، والعكس صحيح أي من لا يتابع الشيطان لا يقارف الفحشاء ولا يقترب من المنكر وهو عين ما قالته الطاهرة قبل سنوات: «إن خلقك كريم فلا يكون للشيطان عليك سبيل».

كما أنه يقطع بأن دروس أم هند انحرفت في ذاكرة «سيد ولد آدم» وأنها ظلت كامنة فيها فإذا أتحت لها فرصة مرقت من مخبئها.

— «جاء عن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إذا خلوت سمعت نداءً أن «يا محمد» وفي رواية: أرى نوراً أي يقظة لا مناماً وأسمع صوتاً وقد حسبت أن يكون والله لهذا أمر. فقالت: كلا يا بن عم ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث، وفي رواية أن خلقك كريم أي فلا يكون للشيطان عليك سبيل»<sup>(١٨١)</sup>.



ويؤكد صاحب السيرة الشامية أيضاً ثقافة سيدة نسون قريش بالربط بين الخلق واستحالة قرب الشيطان أي أن من يجيء مسلكه حميداً وشمائله طيبة وأفعاله زكية لا يستطيع الشيطان أن يقترب منه أو يمسه بسوء جن أو غيره.

«روى البيهقي عن الزهري قال: بلغنا أن أول ما رأى رسول الله ﷺ أن الله أراه فشق ذلك عليه ذكرها لخديجة فقالت: أبشر إن الله لا يصنع بك إلا خيراً، وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: يا خديجة إنني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً. قالت: إن الله تعالى لا يفعل ذلك بك، إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم»<sup>(١٨٢)</sup>.

أورد باحث معاصر أن الضوء يأتي «المصطفى» في نومه ولم يكشف لنا عن مصدره وسبق أن رقمنا ملاحظات على كتاباته وكيف أنها اتسمت بالخفة وعدم التثبث كما يفعل كثير من أنداده من الكتبة المحدثين وخط هنا بين «النور الباهر» والرؤى «جمع رؤيا» التي أخذ «راكب الأتان» يراها كقلق

الصباح قبل رؤياه «المنامية» في المغارة وهو ما جاء على لسان التيمية بنت ابن أبي قحافة أم عبد الله في الحديث الذي رواه البخاري في «باب بدء الوحي» وهو خلط غير محمود من جانبه أنتج اللبس لديه في شأن رؤية الضوء وسماع الصوت وهل هما في اليقظة أم في المنام.

ولم يكتف الخربوطلي بذلك بل حدد مدة الصوت والضوء بأنها عشرة شهور تقدمت المنام الذي رآه «صاحب الهراوة» في مغارة حرى والخاص بسورة العلق ولا ندري كيف توصل الكاتب إلى هذا التحديد الدقيق وما هي أسانيده فيه، إنما ثمة - لمحة سطرها دون قصد - تحسب له لا عليه - هي أن كل المراحل: سماع الصوت ورؤية الضوء ثم الرؤى التي تتحقق كأنها انفجار الصباح شكلت إرهابات لرؤيا مغارة حرى التي رآها وهو مستغرق في نوم عميق وهي التي اهترت فرحاً السيدة خديجة غب علمها بخبرها لأنه دشنت نجاح التجربة.

أضاف الخربوطلي أن جماعها خطوات تهيئة له بيد أنه عزاها إلى ربه وسبق أن ألمعنا أن التجربة يمارسها بشر من الناس «بني آدم» والرب هو الذي يربها ويبارك خطاها ويكلاها بعنايته ويحفظها برعايته:

«طيلة العشرة شهور التي تقدمت الوحي كان يتخلل نومي نور باهر يشبه فلق الصباح وكنت حينما أبتعد عن الديار أسمع أصواتاً تتادي: يا محمد يا محمد فكنت أنظر يمناً ويسرة ومن خلف فلا أرى إلا شجيرات وصخوراً فيأخذني القلب والحيرة.

إنني ما أبغضت شيئاً بغضى للكهان والسحرة وقد خشيت أن أكون قد أصبحت على غير علم مني واحداً منهم فيكون الذي يناديني خفياً مستوراً تابعاً من الجن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء ويساعدونهم على القيام بمهنتهم الأثمة...

أسر الرسول ﷺ بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى وأنه يخاف عبث الجن به فطمأنته الزوجة المخلصة الوفية وجعلت تحدثه بأنه الأمين وأن الجن لا يمكن أن يقترب. وإن لم يدر بخاطرهما أن الله عز وجل يهيئ مصطفىاً بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم وإلى النبأ العظيم يوم الوحي الأول ويهيئه إلى البعث والرسالة»<sup>(١٨٣)</sup>.

• • •

أما ابن عباس ونحن ننقله عن ابن الجوزي فيؤكد أن رؤية الضوء والنور استمرت سبع سنين ونميل بدورنا إلى صحته إذ في الأعوام السبعة استمرت حلقات الدرس والتحفيظ والمراجعة بالإضافة إلى الاختلاط بأهل الكتاب

وغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى وتخزين جماعة من الذاكرة العبقريّة لتخرجه بياناً رائعاً وقت اللزوم.

وقبل أن نغادر هذه النقطة نلفت الانتباه إلى أن تحديد المدة بسبعة أعوام يعود لقداسة هذا الرقم في الديانتين الساميتين نقشاً عن الديانات السامية القديمة.

• • •

أما الإمام الخازن فهو يختار لها عامين قبل منام المغارة وثلاثاً بعدها قبل أن يصدع بدعوته أي أن مجموعها من الأعوام خمسة.

ونحن لا يعيننا التحديد الدقيق للمدة إنما الذي يهمننا وضعه تحت باصرة القارئ الفطن أن مرحلة الضوء والصوت مقدمة لمرحلة الرؤى «في جمع رؤيا» وهما معا تقليد ديني راسخ لدى بني إسرائيل وأن «الأمين المأمون» سمع بهما من أهل الكتاب الذين ماسهم في دكاكين مكة، وفي الأسواق الخارجية الموسمية ثم تعلم دقائقهما في حلقات الدرس والمراجعة وأن إحياءها كلها كثيف حتى أخبر الهندوز أنه أصبح صاحب أصوات وأصواء «هنا حتم لازم أن نذكر القارئ بأشعيا وعموس» ثم لا يمضي إلا زمن يسير فيبلغها أنه ترقى إلى أصحاب الرؤى المدهشة مثل دانيال كما سنسطر بعد قليل:

«ويروي ابن الجوزي عن ابن عباس قال: أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة سبعا يرى الضوء والنور ويسمع الصوت وثمانين سنين يوحى إليه.

وقال الخازن: وهذا إن صح فيحمل على سننين قبل النبوة فيما كان رسول الله ﷺ يراه من تباشير النبوة وثلاث سنين بعد النبوة قبل إظهار الدعوة وعشر سنين معلناً بالدعوى بمكة»<sup>(١٨٤)</sup>.

• • •

يتفق المفكرون المسلمون «القدامى» في اعتقادهم في صدق الرؤى، وأنها تتراءى للقدام أو المنتظر أو المأمول وإن اختلف في تفسيرها أهل الشريعة وأهل الحقيقة والفلاسفة ونحن لسنا بصدد استقصاء اختلافاتهم بل الذي يهمننا أنهم على اجتماع بضرورة ترئيبها للقدامين:

«ولكن الأغلبية من المفكرين المسلمين هم الذين يعتقدون في صدق الرؤى وعلاقتها بالوحي والنبوة والولاية، سواء أكانوا رجال شرع أم متصوفين أو حتى فلاسفة، وعلى رأسهم الكندي الذي فسر الرؤيا الصادقة بصفاء النفس وبعدها عن الأغراض التي تفسد قبول قواها، وقد شاع هذا التعبير بين الصوفية ورجال الشرع بصفة خاصة ويتفق كل من الفارابي وابن سينا وابن



رشد في الرأي القائل بأن الوحي والرؤيا يحدثان عند اتصال النفوس الناطقة بعالم علوي فوق عالمنا فيحدث لها إشراقات على حقائق الكون المنبثقة في العالم العلوي، وهذا الاتصال ممكن عن طريق المخيلة التي تقوى في النوم إلى درجة تتمكن فيها عند بعض ذوي المواهب الروحية من الاتصال بالعقل الفعال الخالي من المادة فتأخذ عنه ما يفيض عليها من عالم الغيب»<sup>(١٨٥)</sup>.

من المعلوم أن مغارة حرى التي تقع في قلة جبل حراء تنسم بالقداسة التي تستمدتها منه إذ هو واحد من أجبل الحرم.

والحجة طرحناها فيما سلف حينما رقمنا أن الجد شبيهة الحمد أو عبد المطلب ومن هذا حذوه طفقوا بتحنتون في مغارته في شهر رمضان من كل عام ولولا قداسته لما اختاروه لتحنتهم.

ويخبرنا علماء الأنثروبولوجيا الدينية والاجتماع الديني أن النوم في الأماكن المقدسة أو التي تحظى بقدر من التقديس يفتح النائم فيما رؤى لها صلة وتقى وبالمسائل التبولوجية ونذكر القارئ بواقعتين:

**الأولى:** رؤيا الجد شبيهة الحمد أو عبد المطلب بحفر بئر زمزم وهو نائم في رحاب الكعبة وأنها تكررت.

**الأخرى:** رؤيا الإسراء والمعراج التي سوف يراها «سيد الناس» ففي إحدى رواياتها أنها أتته وهو نائم بجوار الكعبة.

وهذه الرؤيا الفاذة هي التي ألهمت عدداً من المبدعين منهم أبو العلاء المعري في «رسالة الغفران» والشاعر الإيطالي العظيم دانتي الجيرى في «الكوميديا الإلهية»<sup>(١٨٦)</sup>.

ومن جانب آخر نتعرف فيها على تأييد لما ذهب إليه عدد من علماء النفس والفلاسفة أن اللحم تعويض للنعسان عما لاقاه من إخفاق في بعض أيام حياته إذ إن «راكب البغلة» رأى الإسراء والمعراج بعد وفاة الحبيبة الطاهرة الأم الرؤوم وموت الكافل والحامي والعم عبد مناف أو أبي طالب وعقب أن صده طواغيت ثقيف بجلافة وبدعوة عندما نزع إلى الطائف يدعوهم إلى ديانة الإسلام التي بدأ في تأسيسها في بكة.

ونضيف من جانبنا أن من بين أهداف تلك السفارة علاوة أيضاً: مقابلة الراهب عداس آخر الأحياء من أعضاء الحلقة الخارجية واستشارته أو الاتفاق معه على ما يتخذ من خطوات بعد وفاة خديجة<sup>(١٨٧)</sup>.



النوم في حمي الأماكن المقدسة لجلب رؤى لها نكهة تيولوجية أو للتواصل مع الملائكة الأعلى أو لتحسس اتجاهات السماء أو معرفة الأمور المغيبة تقليد

قديم اهدت إليه العقائد والأديان القديمة في العديد من بلاد المعمورة.

«وبالمعروف عن حكام أسبارطة أنهم كانوا يعتمدون النوم في معبد معين لكي يتلقوا أثناء نومهم فيه أنباء الغيب»<sup>(١٨٨)</sup>.

ومما يجلب الرؤى بالإضافة إلى ما ألمعنا إليه إقدام النائم على الصيام أو على الأقل التخفف من الطعام والتجافى عن الأكلات الشهية والاقتصار على الوجبات الخشنة الجشبة:

«في تلك الأيام أنا دانيال كنت نائماً ثلاثة أسابيع أيام لم أكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع أيام وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول كنت على جانب النهر العظيم وهو دجلة رفعت عيني ونظرت فإذا برجل... الخ»<sup>(١٨٩)</sup>.

وهذا يكشف لنا الغطاء عن العلة في اختيار سيدة قريش «الكعك بالزيت» وهو ما أورد أحد الشراح: طعام الرهبان ليغدو طعام «لابس الشملة» إبان دفعه للخلوة في المغارة وهي الخطوة التالية لحقبة الرؤى بما فيها فاصلة «الصوت والضوء» أي مقدمها وإذ إن الشيء بالشيء يذكر وهو ما يطلق عليه تداعي الأفكار فلقد تعلمت ألا أمر على واقعة أو خبر أو أثر أو حدث في السيرة المحمدية المعطار مروراً عابراً مهماً بلغ حجمه.

فالقارئ العادي من المؤكد أنه يقرأ خبر إمداد الطاهرة لـ«سيد بني هاشم» بالكعك الملتوت بالزيت دون أن يشد انتباهه أو يلفت نظره أو يدير بصيرته فلا يتساءل لماذا اقتضت سيدة نساء الدنيا على هذا الصنف الفقير من الإدام<sup>(١٩٠)</sup>.

مع أنه من الميسور عليها أن توفر له الأكل الدسم.

عندما وقعت على هذه الجزئية البالغة الصغر أخذت أفكر فيها عدة مرات خاصة وقد ساعدني الشراح الذي وصفه بأنه «طعام الرهبان» ففطنت إلى أن الذي يملأ معدته من الطعم المرئ الشهى اللذيذ لا تتراءى له في نومته الرؤى المنشودة في هذا المقام وهو ذات ما أدركته الطاهرة من ثقافتها الدينية ومن قراءة سير البطارقة والتراث اليهودي – المسيحي.



الفرقة الوحيدة في سماء الفكر الإسلامي التي ذهبت إلى أن الأحلام ما هي إلا أضغاث وأوهام: هي المعتزلة<sup>(١٩١)</sup>.

«ويرى بعض المتصوفة أن النوم يقظة واليقظة نوم، فالنفس البشرية مشغولة أثناء اليقظة بصور المحسوسات وهموم البدن وهي عندئذ نائمة لا

تفهم سوى ما يأتي به الحس من أوهام وأباطيل أما في النوم فينجلي عن بصرها الغشاء وتحلق في سماء طليقة لا يشغلها شاغل»<sup>(١٩٢)</sup>.



أما الغزالي فله وجهة نظر على قدر لا بأس به من الجرأة الفكرية فهو يذهب إلى أن الناس أنبياء بدرجات متفاوتة ونرجح أنه أدلى بهذا الرأي وهو في الحقبة العقلانية «إن صح هذا التعبير» من حياته وقبل أن «ينجذب» فهو يعتقد الغزالي أن ما يبصره الإنسان أثناء نومه أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس ويعد الغزالي الرؤيا طوراً ضعيفاً من أطوار النبوة ومعنى هذا أن الناس جميعاً أنبياء على درجة متفاوتة وكلما صفت النفس وتخلصت من أدرانها الدنيوية انكشف بين يديها عالم الغيب وارتفعت في سلم النبوة والوحي»<sup>(١٩٣)</sup>.

أو لعله «= الغزالي» من شدة «انجذابه» صرح بهذا المعتقد إذ من المعلوم أن فلاسفة التصوف أو المتصوفة المتفلسفين يذهبون إلى أن النبوة درجة سامية من صفاء النفس والقدرة على التغلب على شهوات البدن وكدوراته وأوهام الحس وأباطيله وبذلك كما اعتقد الغزالي أنه كلما ترقى الإنسان في هذا السبيل ارتقى صعوداً وحصل قدراً من النبوة.

وعموماً ففي أي حقبة فاه الغزالي بهذا الرأي فقد حالفته الشجاعة الفكرية فيه وربما شكل وأضرابه الدوافع التي وزّت مناوئيه إلى حرق كتبه.



«وذهب البعض من المسلمين إلى القول بأن النبي نفسه تلقى الوحي في أول أمره عن طريق الرؤيا الصادقة ثم تدرج بعد ذلك في مراتب النبوة»<sup>(١٩٤)</sup>.

الذي لا شك فيه أن هذا الكاتب ثقافته الإسلامية وشلة وهذا عيب يسم الكثير من الكتابة غير الإسلاميين بل إنه يلطأ «يلصق» بأغلبية من يتناولون الإسلاميات خاصة ممن ركبوا الموجة الإسلامية مؤخراً كرامة للبتروبولار، إذ إن أي مبتدئ في فضاء العلوم الإسلامية يعلم أن «صاحب زمزم» أول طريقه الرؤى:

«عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح... ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه والتعبد الليالي أولات العدد»<sup>(١٩٥)</sup>.

وسبق أن أوردنا أنه جاء في صحيح البخاري في السيرة الحلبية:

«عن عائشة رضي الله عنها أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة... إلا جاءت كفلق

وفي رواية كفلق الصبح أي ضيه وإنارته.. فلا يشك فيها أحد كما لا يشك أحد في وضوح ضياء الصبح ونوره.

وفي لفظ فكان لا يرى شيئاً في المنام إلا كان أي وجد في اليقظة كما رأى فالمراد بالصالحه الصادقة»<sup>(١٩٦)</sup>.

ولاحظ حرص مؤلفها أو مصنفها وهو علي بن برهان الدين الحلبي على شرح أو توضيح حقيقة الرؤى التي طفق «الصفوح» يراها وهو وسانان فهي صالحه وصادقة وهما بمعنى، وهو لا يشك فيها مثل ما أنه لا تخالغ عاقلاً ذا بصيرة ذرة من ريب في وضوح ضوء الصبح ونوره، وأن ما يراه محمد وهو نعسان يراه وهو صاح.

وتعليه ما أسلفنا: مضاعفة الشحن وشدة الحفز وقوة الوز من الطاهرة والقس وعمق الشوق وعرامة التوق وكثرة التشوف من قبله فإذا كل ما يراه ولو في سنة خاطفة أو نعسة سريعة أو نومة عجلي يراه وهو يقظان.

مما يؤسف له أن كتب سيرته التي هي أزكى ريحاً من مسك التبت لم تضرب مثلاً عن تلك الرؤى المدهشة التي تحققت في صحوه ما خلا رؤيا شق البطن أو الصدر.



لعل ما يلفت الانتباه ويتعين اللبث عنده قليلاً وعدم المرور عليه سريعاً هو أن تلك الرؤى شديدة الوطأة على «المبتهل» يقول ابن كثير:

«وكان أول شيء اختصه من النبوة والكرامة رؤيا كان يراها فقص ذلك على زوجه خديجة فقالت أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً.. فلما انتهى إلى زوجه خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه فأفزعها ذلك فقامت إليه فلما دنت منه جعلت تمسح وجهه وتقول: لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم فقال: يا خديجة أرايت الذي كنت أرى في المنام والصوت الذي كنت أسمع في اليقظة وأهل منه... الخ»<sup>(١٩٧)</sup>.

إن هذا الأثر غنى بالمعطيات التي تبلغ درجة مهمة من الخطر منها:

(أ) أنه دأب على قص رؤاه على الطاهرة ولا غرابة في ذلك فهي الأم الرؤوم من جهة والهندوز الضروب من أخرى.

(ب) أن أم هند لم تستغربها أو تستهولها أو تتكرها وكيف تفعل وهي التي شحنت بطارية المخيلة التي تظهر على شاشتها تلك الرؤى.

(ج) أنه يهال من الصوت الذي يسمعه وهو يقظان.

(د) يتغير لونه من الرؤى ويظهر جلياً على وجهه.

(هـ) أنه فور ما يحدث له شيء منه لا يجد أمامه إلا حضن بعله الحبيبة

خديجة فيرتمي فيه ويلجأ إليه ويجد فيه الطمأنينة، إذن عبارة «دثريني يا خديجة» التي صاح بها إثر الرؤيا التي عرضت له في مغارة حرى وانتهت بتقرئته الشطر الأول من سورة العلق ليست الأولى من نوعها.

(و) إن سيدة نسون قريش فور ما يلوذ بصدرها الحنون تقوم بدور الأم الرؤوم فتهدئه وتهنئه حتى يفارقه الروح ويذهب عنه الخوف ويغادره الهلع.

(ز) قرأنا في الخبر موضع التحليل أن خديجة أفزعها ما أبصرت بوجهه من تغير في لونه وحق لها أن تفعل لأنها تخشى أن يؤثر عليه فلا يمضى في التجربة قدماً وبدا يذهب ما أنفقته من مال وجهد... الخ بدداً.

(ح) أنها لم تكنف بالطمأننة والتفريح والتسكين بل تمده بالبشرى وتقدم سندها حتى يزداد اقتناعاً أنه المأمول والمنتظر والمرقب.

(ط) ولعل مما ضاعف فزع سيدة نساء الدنيا من تغير لونه أن التجربة آنذاك تمر بالمرحلة الأخيرة وقاربت النهاية وشارفت الوصول إلى هدفها المنشود.

• • •

أما بقية الأثر فيسطرها ابن كثير على الوجه الآتي:

«فإنه جبريل استعلن لي وكلمني وقرأني كلاماً فزعت منه ثم عاد إلي فأخبرني أنني نبي هذه الأمة فأقبلت راجعاً.. فقالت خديجة: أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيراً وأشهد أنك نبي هذه الأمة الذي تنتظره اليهود. قد أخبرني به ناصح غلامي وبحيرى الراهب وأمرني أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة»<sup>(١٩٨)</sup>.

فيه أخبر «العزیز» أنه فزع من الكلام الذي أقرأه إياه ولنلاحظ أنه سماه كلاماً ولم يسمه وحياً أو قرأناً «هناك فرق بينهما أ. هـ» لأن ثقافته الدينية حتى ذلك الحين لم تترسخ بعد.

وفيه «= الخبر» بشرته سيدة نساء قريش لها وأقسمت وهذا له دلالة العميقة إذ يشي بوثاقة الاعتقاد لديها بأنه «المأمول والمنتظر» لا مشاحة، ثم شهدت له أنه الذي ينتظره اليهود.

من أين علمت إن لم تطلع على علوم أهل الكتاب وتقرأ الأبعاض والإصحاحات التي نقلها القس اليعسوب إلى اللسان العربي.

في مؤخرة الحديث تقبع النصيحة أو المشهورة التي ألقاها إليها بحيرى الراهب مقدم الحلقة الخارجية وناصح غلامها أحد أعضاء وليجتها بأن تصير بعلاً لـ«المذكور» وأنها صدرت من عشرين سنة سابقة على الرؤيا المنامية.

وقلنا فيما سبق إن هذه المشورة شاطرت غيرها من الدوافع على إقدام الطاهرة على نكاحه ومبايعته.



ويؤكد المحب الطبري ما ذهب إليه ابن كثير وعلى برهان الدين الحلبي.

«أول شيء أراه الله تعالى من النبوة: الرؤيا في المنام فشق ذلك عليه فلما دخل على خديجة رضى الله عنها، قال: يا خديجة أرأيت ما كنت أراه في المنام وأحدثك به أستعلن وإنه جبريل عليه السلام أرسله ربه. وأخبرها بالذي رأى وسمع فقال: أبشر فوالله لا يفعل إلا خيراً، وأنا أقبل الذي أتاك من الله تعالى فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقاً»<sup>(١٩٩)</sup>.

يعلل كتاب السيرة المحمدية التي هي أدكى ريحاً من بنفج الكوفة رؤى «المبيح» بأنها تمرين لقواه البشرية لتحتمل «القول الثقيل» وأنها من تباشير الكرامة وأوائل خصائص «القادم المأمول»:

«وبدئ إلى تمام ستة أشهر بالرؤيا الصادقة الجليلة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق صبح أضاء سناه وإنما ابتدئ بالرؤيا تمريناً للقوى البشرية لئلا يفجأه الملك بصريح النبوة فلا تقوى قواه وحبب إليه الخلاء فكان يتعهد بحراء الليالي ذوات العدد فيه. إلى أن أتاه صريح الحق ووافاه وذلك في الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر الليلة القدرية»<sup>(٢٠٠)</sup>.

وإلى هذا المعنى أيضاً ذهب صاحب «السيرة الشامية»:

«قال القاضي وغيره: وإنما ابتدئ رسول الله ﷺ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تتحملها القوى البشرية فبدئ بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة وصدق الرؤيا وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضوء وسماع الصوت وتسليم الحجر والشجر عليه بالنبوة حتى استشعر عظم ما يراد به واستعد ما ينتظره فلم يأتيه الملك إلا بأمر عنده مقدماته»<sup>(٢٠١)</sup>.

وما رقمناه هو تعبير عما أسميناه «مراحل التجربة» وإن اختلف أسلوباهما في الحديث عنها.

أما عبارة «أوائل خصائص النبوة» فهي إشارة واضحة لا تستبهم على اللقن ولا تخمض على الفطن ولا تستشكل على الذكي إلا أن هذا الدور ذاته هو ما مر به أنبياء إسرائيل الذين ذكرنا منهم على سبيل المثال: أشعيا وعاموس ودانيال.



ومن المحدثين نكتفي بما سطره عبد السلام هارون في «التهذيب» وهو محقق ثبت ومدقق عميق.

«عن عائشة الله عنها أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نوم إلا جاءت كفلق الصبح وحبب الله إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده» (٢٠٢).

ومما يعطى رأيه وزنا أنه نقله من «سيرة ابن هشام» عمدة السير التي قام بتهديبها. ولعلنا بما قدمنا في هذه الفاصلة قد أوفينا هذا المقطع من هذه المرحلة ونعني به «مقطع الرؤى» تنمة «مقطع الصوت والضوء حقه من التمحيص والتفكير والتحليل الموضوعي. ثم يحين الأوان لتناول المرحلة الأخيرة «من مراحل التجربة» وهي كبرها ونعني بها «الخلوة» التي حدثت في ختامها المسك رؤيا مغارة حرى.



إعلان نجاح التجربة العظيمة وبوقوعها حق لخديجة أن تخاطب أهل مكة بأعلى صوتها: ها هو «القادم المأمول» الذي طال انتظاركم له وكذا سائر عرب الجزيرة لتفاخروا به اليهود ولتتافروا به النصارى. إذ لم يعد لأي منهما فضل عليكم وسوف يرفع بيمينه كتاباً مثل كتبهم وسترونه رائعاً معجباً. كيف لا وهو من قریش ونشأ في بادية بني سعد فغدا أفصحكم وأعربكم وأبلغكم ومن ثم فإن كتابه كأنه هو سيأتي مثلاً في الإبانة وقمة في الطلاقة وذرورة في الإنشاء.

من الذين جاءت أسفارهم بليغة فصيحة تبعاً لذلاقة لسانهم ونصاعة بيانهم: «النبى يشوع ياهو بن أموص» المشهور عند عامة ممن يقرأون «الكتاب المقدس» بأشعياً فهو عبقرية أدبية ليس هناك من فاقه في براعة التعبير وتألّق الخيال وأسلوبه قمة في الأدب «العبري» وهو فنان بارع في اختيار الكلمات ومن ثم تميز سفره بجملة وتعبيراته الوصفية الدقيقة رفيعة المستوى وفي عمومها يتسم بالجمال والقوة معا ويمتلئ بالعبارات البارعة والاستعارات الجملة» (٢٠٣).

أي أن الكتاب يدور مع صاحبه القادم به فصاحة وركة تماماً، كما في المذهب التجريبي — يدور الحكم مع العلة وجوداً وعدمياً فإن وجدت العلة وجد الحكم وإذا لم تظهر اختفى أو انتفى، وباختصار إذا امتاز القادم بطلاقة القول وحلاوة المنطق جاء كتابه مثله أما إذا لم يحظ بتلك الموهبة: طرح كتاباً فاتراً ضاويماً ذاويماً وهذا ما نلمسه في بعض أسفار العهد القديم بمنتهى الوضوح.



«عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبيب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد.. إلى آخر الحديث»<sup>(٢٠٤)</sup>.

هذا الحديث يكاد يبلغ حد التواتر إذ حمله العديد من كتب الأحاديث ومصنفات السيرة المحمدية الزكية فلا حاجة بنا إلى توكيده أو زيادة توثيقه ويكفى أنه بين دفتي صحيح البخاري الذي أطبق أهل السنة والجماعة على أنه أصح كتاب بعد القرآن العظيم.

ومما لا يفوت العين الفاحصة وهي تطالعه أن لفظة «حبيب» بنيت للمجهول وبحسب تعبير الإمام ابن حجر العسقلاني في «الفتح»:

«لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك»<sup>(٢٠٥)</sup>.

وعبارة صاحب الفتح «لعدم تحقق الباعث على ذلك» عميقة المعنى قوية الدلالة خاصة وأن صاحبه هي التيمية بنت ابن أبي قحافة التي كشفنا فيما سلف عن غيرتها الطاغية لسيدة نساء الأرض خديجة هندوز التجربة الماهرة المحكنة.

ونحن لا نوافق ابن حجر فيما قاله: «... وإن كان كل من عند الله أول نبي على أنه لم يكن من باعث البشر أو يكون ذلك من وحي الإلهام»<sup>(٢٠٦)</sup>. فالعسقلاني يسير في ركاب من يرى أن التصنيع والتهيئة للقادم أو المأمول أو المنتظر لا بد أن يوكل إلى قوى ماورائية وغير منظورة.

ولو صح ما ذهب إليه لنصت عليه التيمية أم عبد الله «عائشة» ولقالت «حبيب ربه إليه الخلاء» وقد وصفها شيعتها أنها من علماء الصحابة<sup>(٢٠٧)</sup>.

ونرد على ابن حجر أن الخلوة أو الخلاء تم فعلاً من باعث من البشر الطاهرة المطهرة خديجة إذ لم يعرف عن «الفرط» حبه للخلاء قبل أن تصر هي له بعلا.

حقاً إنه في سنوات حياته الأولى مال إلى العزلة أو الانفراد وسبق أن أرحنا الغطاء وفرعنا الستار عن العلة.

ومن ناحية أخرى فيوجد بون شاسع وفرق واسع واختلاف كبير بين الانفراد بالنفس أو اعتزال الناس أو البعد عن البشر وبين الخلاء أو الخلوة التي تحمل معنى تيولوجياً ويفوح منها عبق ديني وتتضخم برائحة عقائدية.

• • •

بيد أنه من أين علمت خديجة أن الخلوة مرحلة ضرورية يتعين على القادم المنتظر أن يمر بها؟



سبق أن وثقنا مطالعتها للأبغاض والإصحاحات التي نقلها إلى اللسان العربي ابن عمها ورقة الضليع في علوم الكتاب المقدس وتحدثنا عن علاقتها الحميمة به وما طففت تسمعه منه من أقوال ومواظ ودروس ومن بينها أقاصيص البطارقة الذين ذكرهم ذلك الكتاب المعجب.

نبدأ بأحد أكابرهم ومؤسس أعرق الديانات العظمى: موسى «وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلاً: هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل... الخ»<sup>(٢٠٨)</sup>.  
«ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل فصعد موسى...»<sup>(٢٠٩)</sup>.

«... فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد إلى جبل سيناء لأنك أنت حذرتنا قائلاً أقم حدوداً للجبل وقده.. فقال له الرب اذهب انحدر ثم اصعد أنت وهارون معك، وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبیطش بهم فانحدر موسى إلى الشعب وقال لهم»<sup>(٢١٠)</sup>.

فهناك يلقاه ربه على انفراد في أعلى جبل سيناء الذي غدا مقدساً وتحديداً تم اللقاء بين المكلم والكليم على رأس «قلة الجبل» كناية عن ذروة الخلوة أما ألفاظ الانحدر والاقترحام والصعود فهي تثبت معاني الارتفاع والعلو والذروة والقمة والقلة حيث تمت الخلوة أو الانفراد وحرم على الشعب أن يصعد إلى بقعة اللقاء وتلقى الأحكام والوصايا.

والحق أنها قطعة أدبية رائعة وإن سرت في كثير من جوانبها الرائحة الذكية المعطار لنصائح ووصايا حكماء مصر القديمة من أمثال: «بتاح حوتب» «مخوتب» و«حردادف».

إذن في الخلوة التي استمرت أربعين يوماً وبأعلى الجبل التقى الرب موسى؛ إذ من المحال أن يقابله في زحمة وفي سفلى، ويبدو أن هذه التجربة لم تعجب الرب إذ نراه بعدها ينيب عنه رئيس الملائكة جبريل ليظهر للبطارقة والقادمين وموسسي الأديان ويبلغهم كلامه ونرجح أن هذا التطور يرجع إلى تحول اجتماعي طراً على العلاقة بين الملوك وشعوبهم<sup>(٢١١)</sup>.

«ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعام يوحنا المعمدان «الذي كان يكرز في برية اليهودية» جرداً وعسلاً برياً»<sup>(٢١٢)</sup>.

وهذا المقطع صريح النص والدلالة معاً على أن يحيى أو يوحنا المعمدان تعود على الخلوة في برية اليهودية فالذي يتدثر بوبر الإبل ويقتات بالجراد والعسل البري لا بد أنه في خلوة.

• • •

أما ابن مريم فـ «... أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليغرب من إبليس فبعدها صام أربعين نهراً أو وأربعين ليلة جاع أخيراً»<sup>(٢١٣)</sup>.

عبارات تكشف بذاتها عن أن عيسى مر بطقس أو مرحلة الخلوة، ولم يكتف ابن مريم بالخلوة الخاصة به بل أخذ يدرب تلاميذه عليها<sup>(٢١٤)</sup>.

«وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين»<sup>(٢١٥)</sup>.

وسوف يرى القائل بعد قليل أن المغارة موضع خلوة «محمد» تقع في قلة<sup>(٢١٦)</sup> جبل حراء الذي يبعد عن مكة بثلاثة فراسخ.

الأمثلة الأخيرة هي من إنجيل متى الذي رجّح الباحثون الإثبات فيما أسلفنا أنه بيد النصارى الهاربين من اضطهاد شاول أو بولس قبل أن يحرفه ويضيف إليه ما يؤيد عقيدة التثليث التي دسها في ديانة يسوع الناصري فأفسدها وبالتالي فهو «الإنجيل» الذي وصل إلى القس فترجمه أو أجزاءً منه إلى اللغة العربية.

أما إنجيل مرقس فقد وصف يوحنا المعمدان أنه صوت صارخ في البرية وأنه كان يعمد فيها<sup>(٢١٧)</sup>.

ونحن لا نذهب إلى أن اليعسوب اطلع عليه إنما أتينا بهذه الفقرة لندعم خبر خلوة يحيى أو يوحنا المعمدان.

وثق هذا الإنجيل مقولة تدريب أو تمرين الناصري ابن مريم لتلاميذه أو حواريه على الخلوة في الجبل العالي منفردين<sup>(٢١٨)</sup>.

وبذا غدت هذه الواقعة حقيقة تاريخية ثابتة.



أما إنجيل لوقا فيحدثنا عن خلوة زكريا في الهيكل وظهور ملاك الرب له واقفاً عن يمين مذبح البخور.. «فلما خرج لم يستطع أن يكلم جموع الشعب ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يومئ إليهم وبقي صامتاً»<sup>(٢١٩)</sup>.

ولنلاحظ ارتباط ظهور ملاك الرب لزكريا بالخلوة، وقد جاءت هذه الأصوصة في القرآن المجيد فيما بعد<sup>(٢٢٠)</sup>.



ويشير إلى خلوة مريم أم عيسى بعيداً عن أهلها في المكان الشرقي وظهور ملاك الرب جبريل لها في الخلوة ليهب لها الغلام الزكي الأعجوبة عيسى أو يسوع<sup>(٢٢١)</sup>.

ثم حكى هذا الإنجيل خلوة ابن مريم في البرية أربعين يوماً وعدم تناوله أي طعام إبانها وعند تمامها عضه الجوع<sup>(٢٢٢)</sup>.

وفي موضع آخر جاء به: «ولما صار النهار خرج وذهب إلى موضع خلاء» (٢٢٣).

**ومما هو جدير بالالتفات مجيء كلمة «خلاء» بنصها وفصها.**

وهكذا يثبت بالأدلة أن الخلوة أو الخلاء تقليد أو تراث يهودي – نصراني طالعه في العديد من المواضع في الكتاب المقدس: كتاب اليهود والنصارى، الذي تبحر في علومه القس ورقة وتضلع منها حتى صار بحراً فيها ووصفته كتب التراث أنه بلغ في إتقانها درجة منيفة حتى إنه لم يوجد في مدينة القداسة في أيامه من يساميه فيها وأنه أعلم رجال مكة بها.

ولقد نقل الكثير من إصحاحات وأجزاء الكتاب المقدس إلى اللسان العربي والظاهرة أجادت القراءة والكتابة وطرحنا البراهين على هذه الحقيقة وإذ ربطتها أصرة وثقى بابن عمها ورقة؛ فاستوعبت ترجماته وحضرت دروسه وشروحه وتفسيره، ومن جماعه انتهى إلى علمها أن الخلوة أو الخلاء مرحلة لازمة للقادم المأمول وتيقنت أن ملائكة الرب لا يحلو لها أن تظهر للبطارقة والأشخاص المباركين ومؤسسي الديانات إلا فيها وهذا يصل إلى حد البدهة إذ كيف يتسنى لها أن تبدو لأحدهم وهو في جلوة!!

• • •

ثمة سؤال على قدر وفير من الأهمية لا بد أن يرفرف في ذهن: ما الأدلة على أن الظاهرة هندوز التجربة البالغة الروعة هي التي وزت «الرقيب» على الخلوة أو الاختلاء؟

قبل أن نجيب عليه ونقدم البراهين السواطع والمكينة الموثقة نبدأ بطرح فرض قريب التصديق موجزه أن «مرحلة الخلوة» بدأت قبل سنوات خمس من حدوث الرؤيا المنامية التي رآها «الضياء» في مغارة حرى وإذ إنها وقعت له وهو في الأربعين من عمره المبروك فبالتالي يصير بدء المرحلة الأخيرة «الخلوة» وهو في الخامسة والثلاثين، وإذ إن أهل السنة والجماعة أطبقوا على أن فارق العمر بينه وبين أم هند خمسة عشر عاماً إذن عند ذياك البدء وصلت إلى الخمسين ولو أننا نصر على أن المسافة العمرية بينهما لا تقل عن العشرين عاماً وقدمنا الأدلة النقلية والعقلية المثبتة.

ومع التسليم الجدلي البحت بالفارق الأول فمن حقنا أن نتساءل: ما الذي دفع خديجة إلى مرافقته واصطحابه إلى جبل حراء كيما يؤدي طقس الاختلاء في المغارة التي تقبع في قلته؟

هنا نلمح قارئاً فطناً يرفع أصبعه ليستعلم: هل هذا فرض من الفروض التي ذكرتها فيما سلف، أم هو حقيقة تاريخية وما هي حججك عليها؟  
والحق أنه استفهام وجيه نرد عليه بالآتي:

بل هو حقيقة تاريخية وضعتها في جهورنا المؤلفات العوالي التي غطت السيرة المحمدية التي تزرى حلاوتها بطعم تفاح الشام.

ونظراً لأهميتها القصوى في لحة هذا البحث وسداه فإننا نستميح القارئ المعذرة ونحن نطيل في الاستشهاد بها ونحن إذ نفعل نؤم «نقصد» إقناعه بها «الحقيقة التاريخية».

• • •

١ — نبداً بسيرة محمد بن إسحق التي متح منها ما جاء بعده والتي تعد من أقدم السير التي وصلت إليها «لأن سيرة الزهري — كما أسلفنا ما زالت مفقودة» — «حتى إذا كان الشهر الآخر الذي أراد الله عز وجل ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك شهر رمضان فخرج رسول الله ﷺ كما كان يخرج لجواره وخرج معه بأهله...»<sup>(٢٢٤)</sup>. ومعلوم أن أهله هي بعلة سيدة نسون قريش.

٢ — وننتهي بعمدة السير ونعني سيرة ابن هشام: «حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله...»<sup>(٢٢٥)</sup>.

٣ — «عن محمد بن إسحق... فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية والتحنث: التبرر قال أبو طالب: «وتور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق في حراء ونازل» فكان رسول الله ﷺ يجاور في ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره — معه أهله»<sup>(٢٢٦)</sup>.

إن تاريخ الطبري من أوثق مصادر التاريخ الإسلامي وتفسيره من أجل التفاسير.

٤ — «عن عبيد بن عبيد: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء كل سنة شهراً

وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية والتحنث التبرر فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم المساكين فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله فيه ما أراد من كرامته وذلك الشهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ فقرأتها ثم انتهى فهبت من نومي فكأنما كتبت في قلبي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك فحدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفسي بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة»<sup>(٢٢٧)</sup>.

٥ — «بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكاني ذلك.. ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة أي في الغار فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها مستنداً إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إلى أقول، وهذا يدل على أن خديجة رضي الله عنها كانت معه بغار حراء وهو الموافق لما تقدم من قوله ومعه أهله أي خديجة رضي الله عنها على ما تقدم<sup>(٢٢٨)</sup>.

هنا نجد صاحب «السيرة الحلبية» يؤكد أن أم هند دأبت على مرافقته في ذهابه إلى المغارة واللبيت معه وأن المقصود بكلمة أهله خديجة.

٦ — «وحتى إذا كان الشهر الذي أراد الله كرامته وذلك الشهر رمضان خرج ﷺ إلى حراء ومعه أهله.

جاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ فقرأتها ثم انتهى عني وهببت من نومي وجعلت أصرف وجهي عنه في أفق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتك كذلك فما زلت واقفاً حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة».

فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة<sup>(٢٢٩)</sup>.

الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد الذهبي صاحب التصانيف المشهورة يذكر بجلاء لا لبس فيه ووضوح لا غموض يشوبه أن «الأمي» لا يتوجه إلى مغارة حري إلا وسيدة قريش معه<sup>(٢٣٠)</sup>.

بيد أنها تظل في سفح وأوسط الجبل بينما يصعد إلى المغارة في الذروة وسوف نشرحه تفصيلاً.  
٧ — «... حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك الشهر  
رمضان خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله...»<sup>(٢٣١)</sup>.

• • •

سبعة مصادر من الذرى الشامخة والقمم العالية والقلل المنيفة من كتب التراث في السيرة  
المحمدية التي هي أطيب من ريح الخزامى تنص صراحة وبلا جمجمة على وجود الطاهرة المطهرة مع  
«أبي القاسم» وهو يتحنت أو يتحدث في الغار الكائن أعلى جبل حراء.

ألم تصبح بعد كل ما قدمناه حقيقة تاريخية لا يمارى فيها إلا شكس ولا يعارضها إلا  
مناكف<sup>(٢٣٢)</sup>. ولا يشكك إلا معاند ولا يقدرح فيها إلا لجوج ولا يعيبها إلا يلندد<sup>(٢٣٣)</sup>.

• • •

بعدها نقدم أدلة إضافية على مصاحبتها له في كل مرة بين مرات الخلوة التي تخبرنا المصادر  
الموثوقة أنها تتم في شهر رمضان — وعندما رأى وهو نائم فيها ملاك الرب جبريل وأمره بقراءة  
الشطر الأول من سورة العلق، أو رآه لأول مرة عند باب المغارة أو في أفق السماء على تعدد الروايات  
التي جاوزت الثلاثين بخصوص هذه الواقعة، انتابه الفزع من هول المفاجأة فخرج من المغارة وأبعد في  
طريق الجبل واستبطأته أم هند فبعثت رسلها يبحثون عنه وهذا يقطع بأنها وحاشيتها معها يمكنون في  
وسط الجبل أو في سفحه وهذه مسألة طبيعية لأنها مثلها لا تغادر مسكنها إلا وهي محفودة<sup>(٢٣٤)</sup>  
محمودة<sup>(٢٣٥)</sup>. حتى وصلوا مكة، فلو أنها مقيمة في دارها آن ذاك فكيف ترسلهم إليها؟

إن العقل والمنطق يرفضانه.

• • •

ولقد تنبه صاحب «السيرة الحلبية» كما سطرناه في الدليل السادس الذي قدمناه في الفاصلة  
السابقة — إلى دالة عبارة «فبلغوا مكة» وخرج منها بالنتيجة المنطقية وهي بحسب حروفه «وهذا يدل  
على أن خديجة كانت معه بغار حراء وهو الموافق لما تقدم من قوله: ومعه أهله» أ. ه.

وممن ذكر بعث أم هند رسلها في طلبه حتى بلغوا مكة ابن سيد الناس في عيون الأثر وقد  
رقمناه في الدليل الرابع.

• • •

## إذن قدمنا من الأدلة الإضافية اثين ونواصل فيما يلي باقياها:

«وأخرج ابن إسحق أنه ﷺ جاءه جبريل ﷺ بما جاءه من كرامة الله عز وجل وهو بحراء في شهر رمضان وكان يجاور بحراء في كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية والحنث التبرر.

قال وكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر ويطعم من جاء من المساكين فإذا قضى رسول الله جواره من الشهر كان أول ما يبدأ إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف سبعا أو ما شاء الله تعالى من ذلك ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله فيها، وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل ﷺ بأمر الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. قال: قلت ما اقرأ، قال: فغنتي حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ. ماذا اقرأ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لمثل ما صنع قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى... ما لم يعلم فقال، فقرأتها ثم انتهت فانصرف عني فهببت من نومي كأنما كتبت في قلبي كتاباً قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقف في فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أو أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في أفق السماء فلا أنظر في ناحية إلا رأيته كذلك فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا وأنا واقف في مكاني ذلك ثم انصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعث رسلني في طلبك حتى بلغوا مكة ثم رجعوا إلي، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عمي وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم ذكر معنى حديث ورقة بن نوفل بتغيير بعض لفظه»<sup>(٢٣٦)</sup>.

### هذا الخبر مع طوله انطوى على الحقيقتين:

الأولى: أن «الأمين المأمون» لا يخرج إلى حراء إلا بملازمة بعله خديجة.

الأخرى: أنها وزّت رسلها يطلبونه حتى بلغوا مكة.

«حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت عنه راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها «متلصقاً بها».. فقال: يا أبا

القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي، فحدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عمي وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة»<sup>(٢٣٧)</sup>.  
وأهمية هذا الخبر أنه حديث مرفوع إلى «المصطفى» ذاته أي أنه هو الذي يقص الوقائع لا غيره يحكيها.

• • •

وبرهان أخير نقدمه على صحبة خديجة له إبان وجوده في المغارة وهو حديث صحيح مشهور ورد في العديد من كتب السنة ذات المقام المحمود والدرجة الرفيعة وعلّة شهرته هو إعلام جبرائيل لـ«الأزهر» أن ربه يأمره أن يقرئ خديجة السلام ويبشرها ببيت في الجنة:

«حدثنا أبو اليد قال: حدثني جدى أحمد بن محمد حدثنا عبد الجبار بن الورد المكي قال: سمعت بن أبي مليكة يقول:

جاءت خديجة إلى النبي ﷺ بحيس وهو بحراء فجاءه جبريل فقال: يا محمد هذه خديجة قد جاءت تحمل حيساً معها والله يأمرك أن تقرئها السلام وتبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فلما أن رقيت خديجة قال النبي ﷺ: يا خديجة إن جبريل قد جاءني والله يقرئك السلام ويبشرك ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فقالت خديجة: لله السلام ومن الله السلام وعلى الله وعلى جبريل السلام»<sup>(٢٣٨)</sup>.

وقبل أن نشرع في تحليل هذا الحديث الثر بالمعطيات نشرح للقارئ معنا كلمة «الحيس» التي جاءت في ثناياه:

الحيس تمر ينزع نواه ويدق من أقط ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى الثريد وربما جعل معه سويق<sup>(٢٣٩)</sup>.

• • •

سيدة نساء الأرض مع تعدد من حولها ممن يخدمونها من العبيد والإماء تحرص بنفسها على أن تقوم بواجباتها فتترقى من وسط أو سفح الجبل حاملة إناء فيه حيس إلى المغارة في القلة لتقدمه له.

لماذا؟ ولم لم تكلف واحداً من العبدان أو الجوارى به؟

لعل الجواب لا يحتاج إلى زكّانة أو فطانة.

ليشعر أنها معه لا تفارقه وكيفا لا يمل من الخلوة ولا يضيق بالوحدة ولا ينفر من العزلة ولا يفر إذا ما ظهر له ملك أو سمع حسيماً أو رأى ضوءاً.

وكلمة «ترقى» تؤكد وجودها في الحبل ولكن في مستوى أخفض وعندما نصل إلى الفاصلة الخاصة بـ«وصف جبل حراء» سوف يدرك القارئ مدى



المشقة التي طفقت سيدة نسون قريش تكابدها سواء في الانتقال من دارها إلى الجبل أو الصعود إلى المغارة ناهيك عما يلاقيه أي شخص من متاعب عندما يفارق داره فما بالك بسيدة غنية مترفة تعيش في بلهنية وقد جاوزت الخمسين من عمرها أو الخامسة والخمسين.



نأمل أن التوفيق حالقنا ونحن نضع تحت باصرة وبصيرة القارئ الأدلة الدامغة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة سواء من المعقول أو صريح المنقول على أن خديجة هي التي دفعت محمداً على ولوج مرحلة «الخلوة» لأنها من ناحية هي طقس لازم مر به من سبقه من القادمين والمنتظرين والمأمولين.

ومن ناحية أخرى أنها المكان الوحيد الذي يظهر فيه ملاك الرب فيغدو إعلاناً بنجاح التجربة العظمى.

قد ينبري أحدهم فيعترض: وماذا فيه إن خديجة إذ ترافق محمداً إلى حراء فإنها تفعله من باب التسرية عن النفس أو كما تقول العامة في مصر «تغير جوا».

وهذا يفرض علينا أن نلقي ولو نظرة عجلية على ذياك الغار لنقيم هذا الاعتراض وهل الذهاب إليه للمتعة والفسحة والترويح عن النفس أم هو عناء وشقاء وقطعة عذاب وأنه لولا الدافع الحثيث والباعث الشديد لما أقدمت عليه بل ولا فكرت فيه ولم يحمل لنا تاريخ تلك الحقبلة الباهرة خبراً يبنى أن النسوة كن يتحنفن أو يتحنثن فيه كما فعل شبيبة الحمد أو الجد عبد المطلب ومن سار على دربه وسلك مسلكه.

«جبل حراء: وهو الذي كان يتحنث فيه رسول الله ﷺ قبل الوحي وفيه نزل عليه جبريل أول ما أوحى إليه وفيه بشره بالنبوة وبينه وبين مكة ميل ونصف، وهو جبل منفرد على طريق حنين من مكة وهو منيف صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا من موضع واحد في صفاة ملساء.

والموضع الذي نزل فيه جبريل عليه السلام في أعلاه من مؤخره، فبنى آدم البيت الحرام «الكعبة» من خمسة أجبل من طور سيناء وطور زينا ولبنان والجودي وبنى قواعده من حراء»<sup>(٢٤٠)</sup>.

هذا وصف أحد الجغرافيين العرب الذين عنوا بـ «المسالك والممالك» أي الطرق والبلدان ويلفت النظر في طرحه قوله عن حراء إنه: منيف وصعب المرتقى ولا سبيل للصعود إلى أعلاه إلا من موضع فرد في صخرة ملساء أي أن ارتقاؤه عملية شاقة.

وعندما زار د. محمد حسين هيكل الحجاز وعاد وكتب مصنفه «في منزل الوحي» حرص على أن يقدم للقارئ أبعاد جبل وغار حراء وهما متميزان ونأمل أن يعيه القارئ لأننا نؤكد حقيقة تاريخية ثابتة – ولو حاول كثير من المحدثين تمييعها – هي أن الطاهرة عندما دأبت على أن تصحب «المختار» إلى الخلوة اقتصر على المكوث في الجبل بعد صعوده أما هو فيواصل الارتقاء إلى المغارة ثم نعود إلى سياقة القول:

فهيكل قاس المسافة «بالمتر» من الأرض أو السفح إلى القمة وأفاد بأنها عشرون متراً ومثلها ما بين القمة والغار أي أن الصعود يقتضي من الصاعد عشرين متراً والارتقاء يلزمه أربعين متراً.

ولا سبيل إلى المغارة إلا بالمرور بين صخرتين متلاصقتين يمر بينهما النحيف بصعوبة أما الغار ذاته فقد حجبه الصخور عما حوله ولا يمنح لمن أراد النوم فيه إلا غفوة خشنة جافية أي الأفضل له أن يظل مستيقظاً.

«من الأرض إلى القمة عشرون متراً... وبين الغار والقمة عشرون متراً أو نحوها وهو مقدار ما بين السطح الأول والقمة وللوصول إليه «الغار» يقتضي المرور بين صخرتين تكادان تتلاصقان فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلا بمشقة وإن كان نحيفاً.

فإذا تخطاها وجد الغار في داخل الجبل محجوباً عن كل ما حوله بالصخور الضخمة وهو أشد من كل ما في الجبل وحدة وعزلة وهو لا يتسع لأكثر من شخص ينام نوماً خشناً جافياً كل الجفاء»<sup>(٢٤١)</sup>.



ويبعد الجبل عن مكة بمسافة قدرها ثلاثة أميال في رأي كاتب آخر فحتى لو قطعت ركوباً على ناقة أو جمل فإنها لا شك تضنيه وترهقه فما بالك إذا عرفنا أنها سيدة قاربت الستين أو بالقدر المتيقن جاوزت الخمسين.

«يقع غار حراء في جانب من جبل النور ذلك الجبل الذي يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة شمال طريق عرفة وقد اختار محمد هذا الغار الذي هيأته الطبيعة داخل حجر الصوان الأحمر ليتحنث فيه شهراً كل عام مراعيًا ليلاً ونهاراً الخلوة التامة وكان يحمل معه الزاد المكون في جوهره من الكحك»<sup>(٢٤٢)</sup>.

بيد أن المتحنفين أو المتبررين أو المتحنثين ذوي الشحنات الدينية المرتفعة لا تهمهم المشقة لأن ذلك الجبل وفي ذروته المغارة يتيحان لهم الفرصة كاملة للخلوة والاعتزال والتفرد:

«اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمناً كل عام يقضونه بعيداً عن

الناس في خلوة يتقربون إلى الله تعالى بالزهد والدعاء ويلتمسون عنده الخبر والحكمة وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف أو التحنث»<sup>(٢٤٣)</sup>.

أطبق الباحث قدامى ومحدثون على صلاحية جبل حراء ومغارته للانقطاع فيه ومن يؤمه يعزل عن دنيا الناس كيما يتفرغ لما نذر نفسه إليه.

«غار حراء كهف صغير بأعلى حراء، وحراء جبل في الشمال الشرقي في مكة يبعد عنها بأقرب من ثلاثة أميال، وهذا ليس بذئب زرع ولا غرس بل هو مملوء بالصخور لا عمران به ولا يأوى إليه الناس ولا يستأنسون به، ويمشي الماشي فيه طريق مد عثر لا يصل إليه إلا في مقدار من الزمن قد يسير في طريق غير ممهد إلى نحو الساعتين.

فإذا وصل إلى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع إلى الغار إلا فيما يقرب من الساعة وإذا ارتفع وجده موحشاً يحس فيه الداخل برهبة وهو إلى الجبل فيزداد المقبل عليه عزلة عن الناس بل عن الأرض وما فيها ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله، وقد ضيق الله ما بينهما وإذا تجاوزها ودخل الغار أحس بأنه صار معزولاً عن العالم عزلة كاملة»<sup>(٢٤٤)</sup>.

ونحن نرجح أن هذا الوصف التفصيلي الذي نفحنا إياه المؤلف نتاج زيارة شخصية لجبل النور الذي شهدت قلته الرؤيا المنامية.

وابن كثير يذكر أن المغارة تشرف على الكعبة وهذا ملمح مهم إذ إنها قدس الأقداس سواء في الحقبة السابقة على الإسلام «يسمونها الجاهلية» أو في الإسلام ذاته:

«وحراء يقصر ويمد ويصرف ويمد ويصرف ويمنع «أي من الصرف» وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أمثال منها على يسار المار إلى منى له قلة مشرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية وما أحسن قول رؤبة بن العجاج: فلا ورب الأمانات القطن ورب ركن من حراء منحني»<sup>(٢٤٥)</sup>.

• • •

واختيار حرى المطل على الكعبة إرث إبراهيم وأبي العرب وكبير البطارقة أمر له دلالة عميقة وهو أن «القادم المنتظر» يسير على دربه ويعظم بنيته وسوف يتضح ذلك عندما سيقراً «متمم مكارم الأخلاق» على صحابته: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ويأمرهم وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾<sup>(٢٤٦)</sup>.

• • •

أخطأ د. على حسن الخربوطلي عندما ذكر أن «غار حراء بجبل أبي قبيس»<sup>(٢٤٧)</sup>.

وهذا مثل لما ذكرناه من قبل أن غالبية المحدثين تناولت السيرة المحمدية العطرة التي هي أحلى من عسل الموصل بقدر لا تحسد عليه من العجلة والخفة.

وكيما لا يقال إننا نتحامل على المحدثين فإننا نورد خطأ أفدح تردى فيه واحد من القدامى من النجوم الساطعة والبدور اللامعة في سماء الفكر الإسلامي إذ ادعى أن من «سيفه على عاتقه» لم يأمره بالاختلاء في المغارة أحد ولا رأى أسوة قبله فعله:

«كان رسول الله ﷺ ينفرد متقرباً إلى الله عز وجل في غار معروف بحراء حبيب إليه ﷺ لم يأمره بذلك أحد من الناس ولا رأى من يفعل ذلك فتأسى به إنما أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى لَذَلِكَ فَكَانَ يَبْقَى فِيهِ ﷺ الأيام والليالي ففيه أتاه الوحي»<sup>(٢٤٨)</sup>.

وكنا نأمل ألا ينزلق من هو في قامة ابن حزم إلى هذا الغلط: أما أن أحداً لم يأمر به «صاحب القدم» وإنما إرادة الله تعالى له فينضوي على تحليل مجاني مرده الإحجام عن بذل أي عناء في قراءة الأسباب الموضوعية التي تكمن وراء أي حدث تاريخي وإرجاعه إلى السماء، وعن زعمه أنه لم يتأس بأحد قبله فيه فهذا يكشف لنا عن أن ابن حزم سامحه الله لم يكلف نفسه مطالعة ما كتب عن التحنث والمتحنثين والتحنف والمتحنفين وخاصة في شهر رمضان وعلى رأسهم عبد المطلب جدّه وورقة وأبو أمية بن المغيرة وغيرهم... الخ.

بل إن ذلك شكل طقساً من الطقوس المستقرة لديهم أو سنة من سنتهم: «قال الحافظ وكانت قريش تفعله «التحنث أو التخلي أو التحنف» بغار حراء كما كانت تصوم عاشوراء.. لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش»<sup>(٢٤٩)</sup>.

ونكتفي بهذه المصادر الخمسة التراثية ذات الدرجة الرفيعة لإثبات خطأ ابن حزم لا حباً في التجريح ولا رغبة في التشهير ولا وداً في التجريس إنما لنبين أن من يقصدون ابن حزم ومن على شاكلته أو في منزلته ويأخذون أقوالهم حجة مسلمة وآراءهم حقيقة مطلقة لا يأتونها الباطل من أي جانب، إنهم كما قلنا لهم مراراً وتكراراً بشر من البشر يخطئون وكل بني آدم خطأ، بل إن منهم من يأتي بأغلاط فواحش ويسقط سقطات وجيعة وهم أيضاً يصيبون، فضعومهم في مواضعهم الصحيحة وانزعوا عنهم هالات القداسات الزيوف التي تصنعونها بأيديهم ثم تضعونها على رؤوسهم، وهم أنفسهم ما ادعوا لأنفسهم عصمة ولا نعتوا ذواتهم بغير البشرية متأسين في ذلك

بـ«الحبيب المصطفى» الذي جاء في حقه في القرآن العظيم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾<sup>(٢٥٠)</sup>.

فإن قصد الأندلسي ابن حزم من وراء زعمه أن ينفخ «العروة الوثقى» منقبة هي أنه أول من سن الاعتكاف في مغارة حراء في شهر رمضان.. فهذا منهج فاسد:

ففي البدء هو ليس في حاجة إلى منقبة مصنعة إذ في جانبه من المناقب الحقيقية الثابتة ما يفوق العد ويعجز الحصر.

وفي المختتم فإنه عندما سيكشف أن المنقبة التي أضيفت إليه مزورة ونسبت إليه كذباً ففي هذا ضرر أكيد إذ غيها سيرد المشاكس ويعلق المخاصم ويعقب المعاند أنه لولا حاجته إلى مناقب لما اضطر تبعه إلى تزييفها ونسبتها إليه.

وطالما بح صوتنا وجف حبر قلمنا في تنبيه الكتبة المحدثين إلى مخاطر هذا المسلك المعيب.

وشبيه به الإرقال «الهرولة» إلى نسبة أي نظرية عملية أو طبية أو هندسية يعلن عنها الفرنجة، نسبتها إلى القرآن المجيد فيتمحلون آية كريمة فيه ويدعون أن النظرية كامنة في أحشائها وبذا سبق الذكر الحكيم علماء الغرب الكفرة الملاحين بأربعة عشر قرناً في الكشف عن هذه النظرية!!

بعد هذه التفرقة نستأنف العودة إلى سياق البحث والتنقيب.



هل الغار هو الكهف أم هما أمران مختلفان.

«وهو = حراء جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال على يسار الذهاب إلى منى له قلة مشرفة على مكة «لم يقل على الكعبة» منحنية والغار نقب فيه وهو بمعنى الكهف»<sup>(٢٥١)</sup>.

ويذهب مجمع اللغة العربية في مصر إلى أن الكهف هو المغارة الواسعة في الجبل<sup>(٢٥٢)</sup>. ويسوى الفيروز آبادي بينهما فيقول: والكهف كالمغارة والمغار والغار... والغار كالبيت في الجبل<sup>(٢٥٣)</sup>.

ونكتفي بهذا، ونتساءل: هل في مخطط هندوز التجربة ويعسوبها أن يغدو «حبيب الله» مثل أصحاب الكهف آية عجباً؟

إن الخروج إلى البرية وهو ما يوازي الاختلاء في المغارة طقس من أبرز طقوس الديانتين الإبراهيميتين السابقتين على الإسلام وله معنى روحي عميق والأهم أنه رمز التمحيص وشارة الامتحان ومعلم الابتلاء «... فكانت البرية = القفر» مكان الاختبار لإسرائيل، وهي أيضاً مكان اختبار المسيحيين

كلما قال الرب لإسرائيل: وتذكر كل الطريق التي فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر لكي بذلك يعرف ما في قلبك - تث ٨ / ٢. ففي البرية نعرف ذواتنا ونعرف نعمة الله التي تحفظنا لكي نتعلم أن نتكل على الرب الذي لا يفشل في معونتنا»<sup>(٢٥٤)</sup>.



إن الاختلاء أو الاعتزال تجربة روحية مر بها البطارقة الأوائل وهي في مدلولها الذي طالعناه قبيل قليل لا تخرج عن دلالة كلمات الاعتزال أو الاعتكاف أو الاختلاء أو التحنف أو التحنث أو التبرر كما وردت في الكتب التراثية والحديثة وهذا ما سنطرحه عنه في الفترة المصليية «التالية».

«وكان محمد ﷺ يهجر مكة كل عام ليقضي شهر رمضان في غار حراء وهو على مسافة بضعة أميال من «القرية» الصاخبة.. يتعبد ويصقل قلبه وينقي روحه ويتقرب من الحق جهده ويتعبد عن الباطل»<sup>(٢٥٥)</sup>.

«في سيرة ابن هشام والحنث هو التبرر»<sup>(٢٥٦)</sup>.

وأورد المحقق السرجاني في هامش الصفحة ما يلي: «التبرر تفعل من البر والحنث من الحنث وهو الحمل الثقيل وأما التحنف فهو من باب التبرر لأنه من الحنيفية دين إبراهيم».

«وعند صاحب السيرة الحلبية أنه الانقطاع عن الناس»<sup>(٢٥٧)</sup>.

ويرى ابن كثير أنه: التعبد هكذا بإطلاق.

«ولما أراد الله تعالى رحمة العباد وكرامته بإرساله إلى العالمين حبيب إليه الخلاء وكان يتحنث «يتعبد» في غار حراء كما يصنع ذلك متعبو ذلك الزمان كما قال أبو طالب في قصيدته المشهورة اللامية:

«ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق ليرقي حراء ونازل»<sup>(٢٥٨)</sup>.

ولصاحب «السيرة الحلبية» تأويل آخر للحنث وهو التأله وهو قريب من التعبد ومن ثم فهو يطلق على المتحنثين وصف «المتألهين» ويضع في مقدمتهم الجد عبد المطلب وأن من فعل ذلك بعده تابع خطاه ومنهم اليعسوب ورقة:

«عن عبيد بن عمير رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء في كل سنة شهراً كذلك كما تتحنث فيه قريش في الجاهلية أي المتألهين منهم وكان أول من تحنث فيه من قريش جده ﷺ عبد المطلب فقد قال ابن الأثير: أول من تحنث على ذلك من كان يتأله «يتعبد» كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة»<sup>(٢٥٩)</sup>.

وفي «السيرة الشامية» تفسير آخر: التحنث فهي تعني السلب أو

الاجتناب أو البعد مثل تأثم أي أعرض عن الأثام وتحوب نأى عن الحوب ويفرق بينه وبين التحنف وهو اتباع الحنيفية:

«يتحنث وفي رواية يتحنف وهو من الأفعال التي معناها السلب أي اجتناب فاعلها لمصدرها مثل تأثم وتحوب إذا اجتنب الإثم والحوب، وبالفاء يتحنف أي يتبع الحنيفية دين إبراهيم»<sup>(٢٦٠)</sup>.

أما أبو ذر الخشني وهو الشارح لغوياً لسيرة ابن هشام فهو يعارض الأخير فيما ذهب إليه أن التحنف والتحنث متساويان في الدلالة فإن التحنف وحده هو الذي يعني الدخول في الحنيفية أما التحنث فينظره خلاف ذلك إذ يدل على الخروج من الإثم أو الحنث:

«مما تحنث به قريش قد فسره ابن هشام على أنهم يريدون به الحنيفية فأبدلوا من الفاء ثاء كذا قال ابن هشام، والجيد فيه أن يكون التحنث هو الخروج من الحنث أي الإثم كما يكون التأثم الخروج عن الإثم لأن تفعل قد تستعمل في الخروج عن الشيء وفي الانسلاخ عنه ولا يحتاج فيه إلا الإبدال الذي ذكره ابن هشام»<sup>(٢٦١)</sup>.



بعدها نؤم شطر ضرب آخر من الشراح وهم اللغويون أصحاب المعاجم والقواميس – تحنث: تعبد واعتزل الأصنام مثل تحنف وتحنث أيضاً من كذا أي تأثم منه<sup>(٢٦٢)</sup>. تحنث: إذ فعل ما يخرج به من الحنث قال ابن فارس: التحنث التعبد ومنه كان النبي ﷺ يتحنث في غار حراء<sup>(٢٦٣)</sup>.

– حنث الحانث نقيض بره – هو يتحنث من القبيح يتحرج ويتأثم – وكان رسول الله ﷺ يتحنث بحراء أي يتعبد ويتأثم وقالوا: تحنث بصلتك وبرك. ويجوز أن تعاقب الثاء الفاء من التحنث<sup>(٢٦٤)</sup>.

– تحنث: تعبد الليلي ذوات العدد واعتزل الأصنام وتحنث من كذا تأثم منه<sup>(٢٦٥)</sup>. هؤلاء كما هو واضح لم يبعدوا كثيراً عما رمى إليه كتاب السيرة المحمدية التي تفوق رائحتها الذكية ريح عنبر الشحر<sup>(٢٦٦)</sup>. بل إن أفراسهم مرجت في ذات المرعى. وزبدة البحث أن الخلوة في مغارة جبل حراء، وهي إحدى العلامات الفارقة في طريق التجربة الفاذة، تدور في ذات الفلك الذي رسمه البطارقة الطيبون. وقد ذكرنا بعضاً منهم على سبيل المثال منعاً للملالة – وهم يفرون إلى البرية ونعني بالفلك مجموع الطقوس والتمرينات والرياضات والمجاهدات

الروحية توصلنا إلى قوى علوية وعوالم خفية وكائنات لا مرئية واستعداداً وتأهيلاً ليغدو الواحد منهم فم السماء والقادم المنتظر من قبلها والناطق بلسانها.

والذي لا مرية فيه أنه بعد أن تنصر اليعسوب بإجماع كل من كتب عنه من القدامى والمحدثين وقرأ الكتب وتضلع في النصرانية وشرب منها نهلاً بعد علل وصار أعلم أهل الحجاز بها: أحاط خبراً بهذا المنسك الذي نسكه السلف من البطاريق وهم بين السرى «السير في أول الليل» والإسراء «السير في آخر الليل» إذ يقطعون الطريق إعداداً «سرعة السير» للحاق بآخر الشوط ونهاية المطاف ومحط الوصول، كيما يتحول الواحد منهم إلى شخصية قدسانية بينه وبين الأملاء العليا وشائج «محكمات القوى بعقد شديد»<sup>(٢٦٧)</sup>.

وفي ليالي مكة الطويلة وفي جلسات البحث الجادة وعت الطاهرة درس وحفظته واستوعبته، ومن ثم أدخلته ضفيرة قوية في نسيج التجربة الكبرى ونفذت المنسك أو الطقس بكل حنكة ودربة.

وكيما تتجح تلك الشعيرة وتطرح ثمرتها أصرت السيدة ذات العزم الصلب والإرادة التي لا تلين والشكيمة القوية على مصاحبة بعلمها «الألمعي» وهو يؤديها. فهي وقد بلغت الخامسة والخمسين في مذهب من يدعى أنها نكحته وسنها أربعون تترك دارها المليئة بالإمام والعبدان وتنسى أنها سيدة غنية منعمة قد أفاض الله عليها من نعمه وخيراته الشيء الكبير، وتسير معه إلى الجبل والمغارة اللذين قدمنا أوصافهما من مصادر موثوق بها، ولقد حاول كثير من الكتبة المحدثين نزع هذه المنقبة عن أم هند ونفيها عنها والادعاء بكل جرأة على الحق أن «صاحب النعلين» دأب على الذهاب منفرداً إلى حرى وسبق أن قدمنا الأدلة على فساد هذا الزعم من واقع كتب السيرة عالية الدرجة وهذا مثال لما يزعمه أحدهم:

«كانت خديجة ترسل إليه طعامه وشرابه هناك وأحياناً تعيش معه في الغار لمعاونته ومشاركته فيما أعده الله له والتفكير في خالق الشمس والقمر والسموات والأرض»<sup>(٢٦٨)</sup>.

وكذلك شايحه فيه آخر عهدنا فيه كما سبق أن أوضحنا مخالفته دون سند لما هو ثابت في أمهات كتب السيرة لمجرد مصادمتها لهواه ونذكر القارئ بهجومه الضاري على الإمام التيمي لأنه كتب في سيرته أن الطاهرة كتبت أو ركبت إلى بحيرى وهو بالشام تسأله رأيه عن رؤيا «راكب الجمل» المنامية في المغارة.

هذا الكاتب هو د. حسين مؤنس: «ولهذا كانت ترافقه في ذهابه إلى الغار



فإما بقيت معه وإما عادت لتتظر أوبته وكل ذلك كان تقديراً من الله سبحانه وتعالى لأن محمداً ﷺ إذا كان الله قد هياه لتلقى الوحي فلا بد أن يكون قد هياً خديجة أيضاً»<sup>(٢٦٩)</sup>.

لا الأبراشي ولا مؤنس بين لنا سنده فيما نخعه<sup>(٢٧٠)</sup>، إنما كالعادة جاء ادعاء كل منهما مرسلًا وعاطلاً عن السند الذي يشد أزره.

وعلاوة على البراهين القوية التي طرحناها تأكيداً لما نذهب إليه من ملازمة الهندوز له طوال مدة مكوثه بالمغارة فإننا ندع اثني من الباحثين يردان عليهما:

**أولهما:** قريب العهد بهما وبنا وله مكان مرموق في محاولة إنهاض الأمة من كبوتها ونعني به الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي بك:

«كان ﷺ يختلي في كل سنة شهراً مع أهل بيته في غار حراء يقرب من مكة فيتعبد الليالي ذوات العدد»<sup>(٢٧١)</sup>.

**وأخرهما:** هو الشيخ عبد السلام هارون وهو باحث محقق مدقق — معاصر — ذو ثقافة إسلامية ثرة اكتسبها من تحقيق بعض من أمهات ذخائر التراث الإسلامي والعربي ويحظى بتقدير هو أهله أو أهل له:

«حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذ كان الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى»<sup>(٢٧٢)</sup>.

ومع تقديرنا لمؤنس والأبراشي وعدم بخسهما حقيهما فإنه لا وجه للمقارنة بينهما وبين الشيخ رفاعة الطهطاوي والشيخ عبد السلام هارون في فضاء العلوم الإسلامية ولو وضعنا مؤنسا والأبراشي في كفة والطهطاوي وهارون في أخرى لشالت كفة الأولين ولربما طارت في الهواء.

ألم يفكر مؤنس والأبراشي فيما يحدث للتجربة الرائعة لو أن ملاك الرب جبريل أو غيره ظهر له في منامه بالمغارة ولم يتحمل وقع الرؤيا عليه وأصابه الروح كما حدث فعلاً وواقعاً والهندوز بعيدة عنه على بعد ثلاثة أميال في رواية أو ثلاثة فراسخ في أخرى؟

أليس من الجائز أن تتعرض التجربة التي أنفقت فيها الكثير من المال والجهد والصحة والأعصاب... الخ إلى الخربقة والإفساد.

نحن هنا نستعير لسان الطاهرة المطهرة أم هند ونعرض تفكيرها.

ألا يحتم العقل عليها ألا تفارقه لحظة واحدة وهي صاحبة الحجى الوفير؟

وهذا ما حدث بالفعل فعندما علمت بغيابه عن المغارة وتركه إياها، فوراً أطلقت رسلها في طلبه في سائر الاتجاهات حتى وصلوا قرية التقديس.  
إن ما سطره هذان الكاتبان في هذه الخصوصية قدمنا الأدلة النقلية والعقلية على فساده وعطنه وطفاسته.

• • •

إن الثابت من جماع ما طرحنا أمام بصيرة القارئ وباصرته.

أ — أن الطاهرة هي التي وزّت «الماحي» على دخول آخر مراحل التجربة الفاذة وهي مرحلة «الخلاء».

ب — أنها في كل مرة لازمته فيها ملازمة الظل لا تتركه يغيب عن عينها لحظة واحدة أو حتى طرفة عين.

ج — أنها اختارت له هذه المرحلة لأنها من ثقافتها الدينية ذات المصادر المتعددة أدركت خطرها.

د — أنها لم تفكر مجرد تفكير في المتاعب والمصاعب والجهود والمشاق التي سوف تتعرض لها وهي تذهب معه في كل عام شهراً كاملاً إلى الجبل إذ نقهت أنه ثمن قليل لنجاح التجربة.

هـ — أنه في إحدى المرات نضجت الثمرة وتمثل نضجها في الرؤيا المنامية في المغارة بظهور كائن علوي له في أماكن اختلفت الروايات في تحديدها وأشهرها مغارة حرى.

وهنا تنفست الهدوز الصعداء فقد تكلم صبرها بالنجاح الباهر.

• • •

إن التقاء ملاك الرب جبرئيل بمحمد الذي اعتبرته خديجة ختم التصديق على فلج التجربة حملت لنا كتب السيرة المحمدية أكثر من ثلاثين رواية له كل واحدة منها بصورة مختلفة وموضع مغاير ووقت مباين ووصف مفارق أما الكائن العلوي الذي التقاه فمرة هو ملاك وأخرى شيء وثالثة جبريل مع أن اسمه لم يرد في السور المكية بل المدنية في هذه الخصوصية.

وهذه المسألة برمتها تحتاج إلى دراسة معمقة تحيط بها من كافة أقطارها وسائر ملابساتها وتتعمق دخالها وتنقرس في ملامحها الخارجية إلى آخره... نظراً لأهميتها القصوى.

بيد أن الكتابة المحدثين والخطباء والوعاظ تبع مؤسسة شؤون التقديس ومن خارجها لا يلوكون إلا حكاية واحدة هي أن جبريل ظهر لـ«المسدّد» في مغارة حرى في إحدى ليالي شهر رمضان التي أصبحت ليلة القدر وخير من

ألف شهر، وقال له ﴿اقرأ﴾ ثم غته أو غطه ثلاث مرات وهو يقظان وفي كامل وعيه وبعد انصرافه كأنما نقشت أو كتبت في قلبه.

حقيقة أن بعض البحوث المعاصرين لم يطاوعه ضميره العلمي ولم يفرض في أمانة الكلمة فرقم في مصنفه أن المسألة لا تعدو رؤيا وأنها لم تغادر نطاق الأحلام وفيما سبق أوسعنا مسألة الأحلام بحثاً ودراسة لدى الجميع.

إنما الإصرار ما زال مستمراً على أن المقابلة بين القطبين تمت في الصحوة وفي كامل الوعي، وبعض المتحذلقين من القدامى والمعاصرين عندما يستيقظ ضميره العلمي ويشرع في عضه بل نهشه يأتي بالحيلة الخائبة التي تصادفها في كثير من مصنفات العلوم الإسلامية وهي تكرار الحديث الذي يحارون في تعليقه تعليلاً عقلانياً وبالمثل فإنهم يدعون أن اللقاء تم في المنام أولاً ثم في الصحوة!!

لماذا؟ لتمرين «سعد الخلائق» على لقاء جبريل عندما يظهر عياناً بياناً فلا يصيبه الهلع إذن فما رأيكم وقد حدث الرعب والفرع وارتجاف البوادر فعلاً كما أخبرتنا كتب السيرة بل أطبقت عليه؟ إذن تعليكم هذا غير مقنع.

• • •

والذي ندره على وجه التحقيق أنه لا يغض من قدر «الأطيب» أن يأتي لقاءه بجبريل أو ملاك الرب أو الشيء... إلخ في المنام وأنه مجرد رؤيا لأن إبراهيم أبا الأنبياء رأى مع المنام أنه يذبح ابنه<sup>(٢٧٣)</sup>. ويوسف الجميل المليح الذي استأثر بشطر الحسن وترك لسائر البشر ذكوراً وإناثاً منذ زمانه حتى الآن الشطر الآخر<sup>(٢٧٤)</sup> رأى عدة أحلام نص عليها القرآن المجيد بل يمكن أن نصفه بأنه خربت في تفسير الرؤى والأحلام، فضلاً عن أن عدداً من أنبياء بني إسرائيل رأى رؤى بل إن من بين هؤلاء من أخذ يصرح بأن كلام الرب الذي ينقله إلى بني إسرائيل إنما جاءه وحياً منامياً.

• • •

إذن لو درس أولئك الكتاب المعاصرون ورجال مؤسسة شئون التقديس نتقاً في علم الأديان المقارن أو طرفاً من تاريخ لفقها أن بُدو الملاك جبرائيل لـ «البهى» وهو نعسان في مغارة حرى أمر لا غبار عليه ولا يهبط بوصة واحدة بمقامه العالي ودرجته الرفيعة.

• • •

بعد هذه الفرشة السريعة التي لا محيص عنها نسرد البراهين والحجج والأدلة على أن واقعة مغارة حرى حدثت في المنام، فهي مجرد رؤيا مثل

باقي الرؤى التي رآها من قصصناهم، ونذكر القارئ بما ذهب إليه الإمام الغزالي بأن كل إنسان على درجة من النبوة لأنه يرى رؤى ولا تستطيع مؤسسات شؤون التقديس سواء في مصر المحروسة أو في غيرها من دول أهل السنة والجماعة إلا أن تحني هاماتها القدسانية إجلالاً لحجة الإسلام.

#### أولاً: المصادر أو كتب التراث:

- ١ — «... فقال رسول الله ﷺ: جاءني — أي جبريل — وأنا نائم فقال اقرأ...»<sup>(٢٧٥)</sup>.
- ٢ — «... قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ...»<sup>(٢٧٦)</sup>.
- ٣ — قال رسول الله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط وهو ضرب من البسط، وفي رواية: جاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب أي كتابة فقال: اقرأ فقرأتها فانصرف عني وهببت أي استيقظت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاباً»<sup>(٢٧٧)</sup>.
- ٤ — «وفي حديث عبيد بن عمير أنه ﷺ رأى في منامه أيضاً جبريل ومعه نمط من ديباج فيه كتاب فقال له: اقرأ. فقال له: ما أقرأ فغته به حتى ظن رسول الله ﷺ أنه الموت ثم أرسله فقال: اقرأ. قال: ماذا أقرأ. ما قال ذلك افتدأ منه أن يعود إليه بمثل ما صنع قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق... فقرأها رسول الله ﷺ ثم انتهى فانصرف جبريل وهب رسول الله ﷺ من نومه قال: فكأنما كتب في قلبي كتاباً فذكر ذلك لخديجة فقالت: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً»<sup>(٢٧٨)</sup>.
- ٥ — «قال رسول الله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ فقرأتها ثم انتهى فانصرف وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاباً»<sup>(٢٧٩)</sup>.
- ٦ — «قال رسول الله ﷺ: فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ فغطني حتى ظننت أنه الموت ثم كشفه عني فقال: اقرأ، قلت وما أقرأ فعاد لي بمثل ذلك ثم قال: اقرأ، قلت وما أقرأ فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى قوله: ﴿ما لم يعلم﴾، ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما صورة في قلبي كتاباً»<sup>(٢٨٠)</sup>.

ونقتصر على الستة مصادر هذه وهي من القمم الشوامخ بين دواوين السيرة المحمدية العطرة التي هي أجمل رائحة من نشر القطر ويكفي أنه جاء على رأسها سيرة ابن إسحق وسيرة ابن هشام.

## آخرأ: المراجع الحديثة والمعاصرة:

- ١ — «وفيما هو نائم يوماً جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال له: اقرأ. فأجاب مأخوذاً: ما اقرأ فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له: اقرأ، قال محمد: ما اقرأ فأحس كأن الملك يخنقه كرة أخرى ثم يرسله، ويقول: اقرأ. قال محمد وقد خاف.. فقرأها فانصرف الملك عنه وقد نقشت في قلبه»<sup>(٢٨١)</sup>.
  - ٢ — «فأقبل عليها ﷺ وجلس إليها ملتصقاً بها فقالت له: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعالي مكة ورجعوا... فقال ﷺ: جاءني جبريل وفي يده منديل من حرير فيه كتاب فقال: اقرأ فجدبني بشدة حتى احتبس مني النفس فظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما اقرأ فضمني إليه حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ماذا اقرأ؟ فقال: ﴿اقرأ باسم ربك...﴾ ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي فخرجت»<sup>(٢٨٢)</sup>.
  - ٣ — «قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ باسم ربك.. حتى ما لم يعلم.. قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً»<sup>(٢٨٣)</sup>.
  - ٤ — «حدث ومحمد ينفق وقته في الغار فأدركته سنة خفيفة من النوم.. ولكنه سمع صوتاً كأنما يأتي من بعيد.. قال له الصوت: اقرأ.. فنظر النبي في منامه فإذا شيء يشبه اللوح قد سطرت عليه سطور لم يفقه منها شيئاً فقال في صوت به رجفة: ما اقرأ.. وانصرف عنه هذا الطارق الذي ألم به في نوم فهب من فراشه.. فقال: فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً...»<sup>(٢٨٤)</sup>.
  - ٥ — «وبينما محمد نائم في الغار ذات يوم وكان قد بلغ الأربعين من عمره في ذلك الوقت إذ به يسمع صوتاً يقول: اقرأ. فقال محمد: ما أنا بقارئ. فقال: اقرأ. فقال: ماذا اقرأ؟ قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق...﴾ إلى ﴿ما لم يعلم﴾ فقرأها محمد ثم هب من نومه فزعاً»<sup>(٢٨٥)</sup>.
  - ٦ — «قال الرسول: أتاني جبريل في غار حراء وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب يقول: اقرأ.. وهببت من نومي كأنما كتبت في قلبي كتاباً»<sup>(٢٨٦)</sup>.
- إن أهمية المرجع الأخير لا تعود إلى أن مؤلفه الأول من الفرنج حتى ولو اعتنق الإسلام فكاتب هذه السطور من الذين لا يتلقون علوم دينهم من هؤلاء لأن حاجز إتقان اللسان العربي وإجادته يحول دون فهمهم للإسلام فهماً سديداً وقد قرأت لعدد منهم تعليقات وتحليلات تبعث على الضحك لعدم

معرفتهم باللغة العربية على وجهها الصحيح ولو أن هذا لا يمنعني من تقدير ما بذلوه أو كثير منهم في هذا المضمار خاصة تحقيق كتب التراث بيد أن هناك صدعاً يفصل بين تقديرك لأي شخص وبين صيرورته لك أستاذاً... الخ ثم سياق الكتابة.

إنما يؤوب «أهمية المرجع» إلى أن من عربيه هو الشيخ عبد الحلیم محمود «يسمونه الإمام» الذي تربع فيما بعد على عرش مؤسسة شؤون التقديس الرسمية في مصر ومعه ابنه وهو أستاذ في جامعة الأزهر ولعله نقل أن نزير «يعني نكتب» لو أن خبر الرؤيا المنامية مضروب<sup>(٢٨٧)</sup>.

لبادر هذان الشيخان إلى الاعتراض عليه وتبيين بعده عن المصادقية.



هذه ستة مراجع «نعني مؤلفات حديثة أو معاصرة» تؤكد أن واقعة المغارة مجرد رؤيا ولم تطاوع مصنفوها نزاهتهم الفكرة أن ينكروها كما يفعل غيرهم وهم يعدون بالعشرات ودعك من الوعاظ وأئمة المساجد وخطباء الجمعة فهؤلاء مع تقديرنا لهم لا يطرحون بحثاً علمية أو دراسات موضوعية إنما كل همهم ينحصر في دغدغة عواطف الجماهير والحصول على صيحات إعجابهم... الخ.

لا نريد أن نجور على الكتبة المحدثين أو المعاصرين فهم لم ينفردوا بهذا المسلك المعيب والمنهج الخاطيء والمنحنى المعوج بل سبقهم على الدرب شيوخ من السلف نكتفي بـ:

«فقول أم المؤمنين عائشة «ولما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» يقوى ما ذكره محمد ابن إسحق بن يسار عن عبيد بن عمير الليثي أن النبي ﷺ قال: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. فقلت: ما أقرأ فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني، وذكر نحو حديث عائشة سواء فكان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من اليقظة وقد جاء مصرحاً بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في اليقظة.

وقد قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه «دلائل النبوة»:

«حدثنا... عن علقمة بن قيس قال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد وهذا من قبل علقمة بن قيس نفسه وهو كلام حسن يؤيده ما بعده»<sup>(٢٨٨)</sup>.

وواضح أن ما أتوا به لا يصل إلى مرتبة الدليل بل قرائن واهية اتسمت بالتمحل وعلاها الفتور وبدا على ملامحها الخور وظهر على قسماتها

الإعياء وشابها البوخ «الانطفاء» وامتطأها البهر «شدة التعب» وركبها الإفلاس، وفندناها ولا داعي لتكراره.



وليس معناه أن واقعة مغارة حرى إذ حدثت في المنام وليست سوى رؤيا أن «الحميد» لم يقابل ملاك الرب جبريل على الإطلاق فهذا ما لا نذهب إليه البتة ولم ولن يخطر لنا على بال إذ أن القرآن الكريم والسنة المطهرة فيهما نصوص تقطع به وأنه في مرات نزل على هيئة الصحابي دحية الكلبي الذي نافس الفتى الحليوة يوسف في حسنه وبهائه لدرجة أنه «الكلبي» تعود عند الخروج من داره على أن يضع نقاباً على وجهه كما تفعل المرأة الحسنة لأن نسون يثرب «ثيبات وأبكاراً» عندما يرونه سافراً يتدلهن به ويفتتن بجماله – بيد أن الذي لم أفه عليه: هل فعل جبرائيل مثله عندما تشكل على صورته أم لا؟ ولو أنني أرجع أنه لا حاجة له به «بالنقاب» لأن جماهير المسلمين «إناثاً وذكوراً» لم تتح لهم الفرصة أو الصلاحية لمشاهدة رسول السماء إلى الأنبياء.

ومقابلة جبرائيل لـ «الغطمم» عقب رؤيا المغارة المنامية لا يدخل في إطار بحثنا الذي يتوقف عند هذه الواقعة المدهشة التي أعلنت نجاح التجربة المذهلة بأن قدمت «المأمول» الذي أوشك صبر العرب أن ينفذ وهم ينتظرونه.

تلك التجربة التي خطت لها الطاهرة المطهرة خديجة ثم نفذتها بمهارة يعز نظيرها وأثبتت أنها هندوز لا يشق لها غبار وأشرف عليها الشيخ الجليل والقس العالم اليعسوب ورقة بن نوفل.

ونأمل أن التوفيق حالفنا في عرضها عرضاً موضوعياً وتحليلها تحليلاً علمياً خاطباً عقل القارئ الحصيف الفطن قبل وجدانه ولاقياً منه القبول والافتتاح.



## الهوامش

- (١) ونحن نلتزم العذر لصاحب هذا الرأي فقد طالعت — من بين المراجع التي قصدتها — واحداً ضخماً ومع ذلك فلم تتجاوز مصادره مراجعه العشرة إلا بواحد أو اثنين ومؤلفه له اسم لامع وطبع عدة مرات ومن ثم فلا عجب أن يمتلئ بالجمل الخطابية.
- (٢) الأنصار فيما بعد وهي تسمية تعبوية لا نسبية جاءت على خلف مع تقاليد العرب. أ. هـ.
- (٣) أخبرتنا كتب السيرة التي هي أحلى من سكر الأهواز أن زوجات «صاحب السيف» بلغن أكثر من العشرين بخلاف ملك اليمين ولو أنه لم يدخل ببعضهن وخصف العدد على تسع بخلاف من تهب نفسها إليه — في «القاموس المحيط»: الصفصف المستوى من الأرض أ. هـ. في حين أنه ظل مع سيدة نسون قريش ما ينيف على ربع قرن، لم يتزوج غيرها ومكتف بها مع أنه في ذباك الوقت في عرامة الشباب وقمة الرجولة وحنفوان الفحولة وهذه مسألة تحتاج إلى دراسة مستفيضة من كافة النواحي وخاصة الجانب السيكلوجي أ. هـ. والديني.
- فهو «محمد» قد تزوج خديجة رضى الله عنها وكانت أكبر منه بعدة سنوات وسبق أن تزوجت عتيق بن عابد بن مخزوم وأنجبت له ثم تزوجت من أبي هالة بن مالك وأنجبت له وكان رسول الله ﷺ في الخامسة والعشرين وقيل الواحد والعشرين، أو نحو ذلك أي في شرح الصبا وريعان الشباب.. ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجته ما يقرب من ثمان وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين. «زوجات الرسول ﷺ وتعدد الزوجات في الإسلام: إعداد أصلان عبد السلام حسن، ص ١١، ط ١٩٨٧، العدد ٤١٨ من سلسلة المكتبة الثقافية الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٤) دراسات في السيرة وعلوم السنة: لموسى شاهين لاشين وآخر، ص ١٦.
- (٥) الرحمة المهداة محمد ﷺ: للشيخ محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، ص ١٩٢، الجزء الثاني، هدية مجلة الأزهر ربيع أول ١٤١٩ هـ.
- (٦) يوكى: يملاً وأوكى الطائف بين الصفا والمروة، مألها سعيًا، من «كتاب الأفعال» تأليف أبي عثمان سعيد بن محمد المعافى والسرقسطى، الجزء الرابع، القسم الأول تحقيق د. حسين محمد محمد شرف. ود. محمد مهدي علام مجمع اللغة العربية. الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٧) في صحيح اللغة لا يقال يتم الولد إلا إذا فقد أباه ومن غير الأدميين إذا ماتت أمه، انظر على سبيل المثال «كتاب الأفعال» لأبي عثمان السرقسطى، مصدر سابق.
- (٨) الرسول في رمضان: ص ص ١٦ — ١٨.
- (٩) نقلا عن المسالك والممالك: لأبي عبيد البكري.
- (١٠) سبق شرحها.
- (١١) الأيتان: ٦، ٧ من سورة العلق.
- (١٢) الآية الأولى من سورة النكاثر.
- (١٣) الأيتان الأولى والثانية من سورة الماعون.
- (١٤) الأيات ١، ٢، ٣ من سورة الهمزة.
- (١٥) الأيتان الأولى والثانية من سورة المسد.
- (١٦) الأيات ١١، ١٢، ١٣ من سورة المندر وهي من أوائل سور القرآن العظيم.
- (١٧) محمد رسول الله: مولاي محمد على، رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور ترجمة مصطفى فهمي وعبد الحميد جودة السحار، ص ٥٤، ١٩٧٨ م، مكتبة مصر، الفجالة، مصر.
- (١٨) في المعجم الوجيز: المنرب اللسان.
- (١٩) الغتمة هي العجمة والأغم الذي لا يفصح شيئاً من «المختار من صحاح اللغة».
- (٢٠) العى وقد فهفه أي كل لسان «المعجم الوجيز».
- (٢١) عقد في الكلام من «نظام الغريب في اللغة» للوحاظى الحميرى، مصدر سابق.
- (٢٢) السيرة النبوية: للذهبي، ص ٣٢٧، مصدر سابق.
- (٢٣) أعلام النبوة: لأبي الحسن الماوردي، ت ٤٥٠ هـ، ص ٢١٢، الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (٢٤) عبقرية محمد: عباس محمود العقاد، ص ٨٢، مرجع سبق لنا ذكره.
- (٢٥) والد الخمير السكير اللاعب بالطنابير يزيد.
- (٢٦) خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها: تأليف عبد المنعم محمد عمر، ص ٤٩ من الطبعة الثالثة ١٩٩٤ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.



- (٢٧) دلائل النبوة ومعجزات الرسول: عبد الحليم محمود وآخر، ص ٢٢٠، سابق.
- (٢٨) ونحن نرى أنه «الفارق ناهز الربع قرن».
- (٢٩) في معاجم اللغة: العسيف هو الأجير.
- (٣٠) تعبیر شعبي مصري معناه أنه فتى بكر لم يتزوج ولا نرى بأساً من استعارته.
- (٣١) عمار هذا مولى لبنى مخزوم رهط سامق في قريش وفيما بعد أخطأ في حق خالد بن الوليد المخزومي في حضور «سيد ولد آدم» فقال: أتترك هذا العبد يشتمني.
- (٣٢) في المعجم الوسيط: المحراب: صدر البيت وأكرم موضع فيه.
- (٣٣) الآية ٣٩ من سورة طه.
- (٣٤) أحد الكتبة المحدثين أطلق على واعظ ونجم تليفزيون أنه ترجمان القرآن مشبها إياه بعبد الله بن عباس ولا ندري كيف وصلت به الجرأة إلى هذا المدى الفلوت!!
- (٣٥) تنوير المقياس تفسير ابن عباس: لصاحب القاموس الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ، الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م، نشرته مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ونحن نعلم أن هناك من يشك في نسبة ما ورد به إلى الخبر.
- (٣٦) الجامع لأحكام القرآن: المشهور بتفسير القرطبي، طبعة كتاب الشعب.
- (٣٧) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: للإمام فخر الدين الرازي ٥٤٤ / ٦١٠هـ، المجلد العاشر، الطبعة الأولى ١٩٩٣م / ١٤١٣هـ، الناشر دار الغد العربي، العباسية، مصر.
- (٣٨) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: لابن جزى الكلبي، الجزء الثالث، د. ت. ن، دار الكتب العربي بيروت.
- (٣٩) مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، الجزء الثاني، تعليق د. محمد فؤاد، سركيس، د. ت. ن، الناشر مكتبة الخانجي بمصر.
- (٤٠) تفسير النسفي: للعلامة أبي البركات عبد الله النسفي، الجزء الثالث، د. ت. ن، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- (٤١) أنور التنزيل وأسرار التأويل: المسمى تفسير البيضاوي: تأليف الإمام ناصر الدين الشيرازي البيضاوي، د. ت. ن، دار الفكر للطباعة والنشر دون ذكر المدينة.
- (٤٢) المختصر في تفسير القرآن: مختصر تفسير الإمام الطبري لابن صمادح التجيبي، تحقيق د. عدنان زرزور، الطبعة الأولى ١٣٩ / ١٩٧٩م مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٤٣) تفسير الجلالين: تأليف الإمامين الحلبي والسيوطي، دون تاريخ نشره عبد الفتاح عبد الحميد مراد، مكتبة الجمهورية العربية، الأزهر، القاهرة.
- (٤٤) تاج التفاسير لكلام العلامة الكبير: المجلد الثاني، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة القرآن والسنة، مصر.
- (٤٥) التفسير الميسر: ل. د. محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، هامش على مصحف الأزهر، وهو بذلك حاز التوثيق الرسمي من جهتين: — الجهة التي أصدرته: الأزهر. — الذي حرره هو شيخه.
- (٤٦) في ظلال القرآن: سيد قطب، المجلد الرابع ص ٢٢٣٥، الطبعة الحادية عشرة، دار الشروق بمصر.
- (٤٧) في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية: قلوطة: صنعه على هيئة القلاووظ وهو المسمار ذو السن الملولب الذي يثبت بالتدوير لا بالدق.
- (٤٨) في مختار الصحاح للرازي: بنو علات: أولاد الرجل من نسوة شتى أي إخوة غير أشقاء.
- (٤٩) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ٩١ — ٩٤، من المجلد الأول د. ت. ن، الناشر: دار المعرفة ببيروت.
- (٥٠) السيرة النبوية: للذهبي، ص ٦٥.
- (٥١) الآية الخامسة من سورة النجم.
- (٥٢) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ١٧٥.
- (٥٣) السيرة الحلبية: الأول: ص ٣٨٠.
- (٥٤) العامة في مصر نقول: فزورة — فهي شيء والشيء يطلق على الكل بديا بالذات العلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الآية الحادية عشرة من سورة الشورى.
- (٥٥) الآية ٦٠ من سورة القصص.
- (٥٦) آية ١٥٤ من سورة الإسراء.
- (٥٧) السيرة الحلبية: ص ٣٨١، الأول.
- (٥٨) السيرة النبوية: لابن هشام، الأول، ص ٣٨٨ — ٣٨٩.
- (٥٩) أعلام النبوية: للماوردي، ص ٢٥٤ — ٢٥٧.
- (٦٠) السيرة الشامية: الثاني، ص ٣٠٩، لمحمد يوسف الصالحي الشامي.
- (٦١) الآية الأولى من سورة عبس.

- (٦٢) انظر على سبيل المثال «قصة الغار ولماذا اختلفت؟» ص ٣٣ وما بعدها وهو الفصل الثالث من كتاب «في السيرة النبوية، القسم الأول، الوحي والقرآن والنبوة» د. هشام جعيط، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الطليعة، بيروت، لبنان.
- (٦٣) خريق المحل: أفسده «المعجم الوسيط».
- (٦٤) سورة الأحزاب الآية: ٢٣.
- (٦٥) وكظه أي دفعه من «كتاب الأفعال» لأبي عثمان سعيد المعافى السرقسطي، الجزء الرابع، القسم الأول، مصدر سابق.
- (٦٦) المستدرک: للحاكم النيسابوري، الحديث ٤٨٤٠ / ٣٠، المجلد الثالث.
- (٦٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٠٦.
- (٦٨) دراسات في السيرة النبوية، د. حسين مؤنس، ص ٧٩، مرجع سابق.
- (٦٩) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للقمي النيسابوري تحقيق حمزة النشري وآخرين، ص ٤٢٨، المجلد الحادي عشر.
- (٧٠) محمد النائر الأعظم: فتحي رضوان، ص ص ٩٢ — ٩٣.
- (٧١) حياة محمد: لهيكل، ص ١٤٦.
- (٧٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة: أشرف على تحريرها نياية عن الأكاديمية الهولندية، الملكية: ه. أ. وجب. كالمرز ترجمة د. راشد البراوي، الجزء الأول، طبعة ١٩٨٥م، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٣١٣، ٣١٤.
- (٧٣) الرسول في رمضان: الخربوطلي، ص ٢٠ وما بعدها.
- (٧٤) نساء النبي: ص ٣٤، بنت الشاطي.
- (٧٥) التفسير البياني للقرآن الكريم: الجزء الأول، ص ٤٨، د. عائشة عبد الرحمان — بنت الشاطي — مكتبة الدراسات الأدبية، ٢٥ الطبعة الثانية ١٩٦٨م، دار المعارف بمصر.
- (٧٦) سلام على النبي وأصحابه: مصطفى بهجت بدوي، ص ٤٩، الطبعة الأولى مايو ١٩٨٦م، العدد رقم ٤٢٥، في سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال بمصر.
- (٧٧) الرسول في رمضان: ص ٢٠ الخربوطلي.
- (٧٨) في المعجم الوسيط: القرف: مخالطة ما يستكره.
- (٧٩) محمد رسول الله: جلال مظهر، ٤٦.
- (٨٠) أوائل العرب عبر العصور والحقب: طاهر جليل حيوش، الجزء الثاني، الخلافة الراشدة: هامش ص ١٠٦، د. ن بغداد، العراق.
- (٨١) سيرة المصطفى — نظرة جديدة: تأليف هاشم معروف الحسني، ص ١١٩، ط أولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.
- (٨٢) سيرة المصطفى ﷺ: لعبد الزهراء عثمان محمد، ص ١٥، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، مؤسسة الفكر الإسلامي للثقافة والإعلام، بيروت، لبنان.
- (٨٣) كلمة عربية فصيحة وتدل على ذات المعنى الذي تهدف إليه العامة في مصر.
- (٨٤) عبد الرحمن بن عوف هو أحد المبشرين العشرة أو العشرة المبشرين بالجنة والذي قام بدور بالغ البطو في حرمان أبي الحسنين من حقه الشرعي في الخلافة وتولية الأموي عثمان بن عفان إياها فبدأ بتحويلها إلى ملك عضوض ثم أكمل المسيرة ابن عمه معاوية ومن جاء بعده من السفينيين والمروانيين الأماجد!!
- (٨٥) في معاجم اللغة: الفتر ما بين السبابة والإبهام.
- (٨٦) صداقها وكلفتها.
- (٨٧) ما يشرى به الجارية.
- (٨٨) دراسات في السيرة وعلوم السنة: موسى شاهين لاشين وآخر، ص ٩١، سابق.
- (٨٩) هذا الرقم من خصائصه إذ المسلم لا يحل له سوى أربع زوجات في وقت واحد.
- (٩٠) نحن نرجح أن الشافعي تعلم اليونانية وقرأ كتب أرسطو واستفاد منها كثيراً في ابتداعه علم «أصول الفقه» كما أننا نذهب إلى أن أول من تكلم فيه هو الإمام الأعظم أبو حنيفة وجاء الشافعي بعده فقعه ومنهجه لأن العقل العربي ليس مؤهلاً لإبداع علم في المنطق.
- (٩١) الطبقات الكبرى: ابن السبكي الجزء الثاني ص ٢١٨، نقلاً عن ترجمة فتح المبدي، «شرح مختصر الزبيدي» للشرقاوي، الجزء الأول ١٤٢٠هـ / ١٩٩٠م، كتاب الشعب، دار الشعب بمصر.
- (٩٢) مرات عديدة نقلت إلينا كتب السنة المشرقة أن «الفضيلة» كثيراً ما قال لصحبه وتبعه «إني داع فأمنوا» فيهرعون إلى التأمين على الفور لا التراخي لأن البركة في الإذعان والتسليم والاتباع أما المبتدعون فلهم نار الحطمة وما أدراك ما هي ولذا قال «كل بدعة ضلالة في النار».
- (٩٣) الخليط الذي يختلط بالناس كثيراً وجمع خطأ من «المصباح المنير» للمقرى الفيومي.

- (٩٤) تقول العامة في مصر: انظف من الصيني بعد غسله.
- (٩٥) محمد رسول الله: ص ٤٧، جلال مظهر.
- (٩٦) تقول العامة في مصر: ما يقدرش يكح.
- (٩٧) اتبعنا في هذا الترتيب ما جاء من المصحف لا الترتيب الذي تلاه «محمد» على صحابته لأنه معضل لم يتوصل إلى ضبطه أحد لا من السلف ولا من الخلف.
- (٩٨) التيسير خلاصة تفسير ابن كثير: المتوفى ٧٧٤ بقلم محمود محمد سالم، خريج الأزهر ص ٨٠٢، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، نشرته دار الشعب في مصر.
- (٩٩) التفسير الواضح: لمحمد محمود حجازي من علماء الأزهر، الجزء التاسع عشر ص ٧، الطبعة الأولى «دون تاريخ» دار الكتاب العربي بمصر.
- (١٠٠) المصحف المفسر: د. حمزة عبد الله النشترتي، ص ٣٠٥، الطبعة الأولى ١٤١٩ / ١٩٩٩م دون ذكر الناشر.
- (١٠١) كلمة عربية صحيحة سبق شرحها وأنها تنفتح أو تمنح الدلالة ذاتها التي تقصدها العامة في مصر.
- (١٠٢) في أساس البلاغة: للزمخشري: أحلاس الشيء — الملازمون له والألفون له.
- (١٠٣) في المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية: مكان مرت — لا نبات فيه ورجل مرت الحاجب — ليس على حاجة شعر.
- (١٠٤) سورة الزلزلة الأيتان الثالثة والرابعة.
- (١٠٥) سيرة المصطفى — نشرة جديدة: لهاشم الحسني، ص ٢٠ — ٢١ سابق.
- (١٠٦) سبق شرحها.
- (١٠٧) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الجزء الثاني، ص ٨٠، مصدر سابق.
- (١٠٨) دولة يثرب — بصائر في عام الوفود: خليل عبد الكريم، ص ٧٤، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
- (١٠٩) الأغاني: للأصفهاني، الجزء ١٥، ص ٩٥ نقلا عن «قبيلة إياد من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي» د. محمد إحسان النص ص ٤٦، الحولية الثامنة، الرسالة السابعة والأربعون ١٤٠٧ / ١٤٠٨ / ١٩٧٨م، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت.
- (١١٠) البيان والتبيين: للجاحظ، الجزء الأول، ص ٥٨، نقلا عن «قبيلة إياد» للنص ص ٤٧، مرجع سابق.
- (١١١) ما برحت الطاهرة تتاديه يا أبا القاسم ولم يحدث أنها خاطبته بيا رسول الله إلا في ما ندر أي استثناءً والاستثناء لا يقاس عليه — هذا فيما طالعه من كتب تراثية دعك من المؤلفات الحديثة التبجيلية — ولم ترو عنه حديثاً واحداً بل هو الذي نقل إليها تحيات الله والروح الأمين ذي القوة وتبشيرها إياها ببيت في الجنة أ. هـ.
- (١١٢) في السيرة النبوية: لهشام جعيط، الجزء الأول، ص ١٢٠، مرجع سابق.
- (١١٣) ص ١٢ من ذات المرجع.
- (١١٤) سبق شرحها والعامة في القاهرة تقول: حدوتة، أما في صعيد مصر فتقول: حكيوة أ. هـ.
- (١١٦) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول ص ١٤٠.
- (١١٧) سيرة المصطفى — نظرة جديدة: لهاشم الحسني، ص ٥٥، مرجع سبق ذكره.
- (١١٨) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٤.
- (١١٩) فرشت فرشا — بسطت فرشا أو كلاماً من «كتاب الأفعال» لأبي عثمان السرقسطي، سابق.
- (١٢٠) فتح المبدئ شرح مختصر الزبيدي: للشرقاوي، تحقيق الشيخ أحمد عمر هاشم، ص ٩١، الجزء الثاني، طبعة ١٤١١ / ١٩٩٠م، كتاب الشعب، الشعب للنشر بمصر.
- (١٢١) معناها أن تهول أو تسرع وقد سبق شرحها أ. هـ.
- (١٢٢) السيرة الحلبية: الأول، ص ١٩٨.
- (١٢٣) الروض الأنف: للسهيلي، الأول، ص ٣٠٦، ط شقرون.
- (١٢٤) أبو ذر الغفاري من القلة القليلة وربما النادرة من صحابة محمد الذين عاشوا حياتهم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كما عاشوها في حياته، أما الأغلبية العظمى فقد غيرتهم الدنيا باعتراف العدوى عمر بن الخطاب ومن أراد المزيد من العلم بهذه النقطة فعليه بكتابنا «شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة» بأسفاره الثلاثة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، دار سينا للنشر بالاشتراك مع مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
- (١٢٥) الموسوعة الإسلامية الميسرة: المجلد الأول ١٤١، ص ١٤٢، سابق.
- (١٢٦) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٣.

- (١٢٧) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٩٤.
- (١٢٨) في السيرة النبوية — ١ — الوحي والقرآن والنبوية: لهشام جعيط، ص ١٢٥، مرجع سابق.
- (١٢٩) السيرة النبوية: للذهبي، ص ٧٠.
- (١٣٠) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ١١١.
- (١٣١) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٤٠٣ — ٤٠٦.
- (١٣٢) الخصائص الكبرى، للسيوطي، المجلد الأول ص ٢١٦.
- (١٣٣) لا بد أن الحمزة هذا شهد رقص الجوارح في حفلة العرس وعب وتصلع من «الخمرة» حتى ثمل فقد عرف عنه تعاطيها وعندما نزع إلى يثرب نقلت كتب السيرة المحمدية العظيمة واقعة عن سكره البين إذ عقر ناقة مملوكة لابن أخيه علي بن أبي طالب الذي استتجد به «الحبيب المصطفى» فما إن بدأ في معاتبة عمه المخمور حتى وجه إليه كلاماً فالتأ لا يجرؤ مسلم على مخاطبته به فتركه وانصرف إذ إنه ظل طوال حياته كريم الأخلاق حليماً صبوراً لم تر قريش ولا جزيرة العرب مثله في عظم شمائله.
- (١٣٤) الإغداد: سرعة السير من كتاب «نظام الغريب في اللغة» لعيسى الحميري، مصدر سابق.
- (١٣٥) هو فرع متدن من قريش ولو أن واحداً من بنيه يسمى عبد الله بن جدعان جمع مالاً ممدوداً من الربا والنخاسة وعرق العبدان وأفخاذ الجوارح صواحب الرايات الحمر، حاول أن يرفع من قدره دون جدوى وحتى بعد أن اغتصب هذا «العتيق» الخلافة من صاحب الحق الشرعي فيها على بن أبي طالب لم يترشح بنو تيم عن موقعهم الخفيض من قريش.
- (١٣٦) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول ص ٢٢١.
- (١٣٧) رفعت الصداقة الكلفة بينهما: رفعة ما يتجشم من أنواع المجاملات، «المعجم الوسيط».
- (١٣٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول ص ص ٣٩٨ — ٤٠١، مصدر سبق ذكره.
- (١٣٩) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٨٢ — ٨٤، المجلد الأول، د. ت. الناشر دار المعرفة، لبنان.
- (١٤٠) وخذ: سار بخطى واسعة «أساس البلاغة» للزمخشري.
- (١٤١) أنساب الأشراف: للبلاذري، الأول، ص ص ١٠٥، ١٠٦.
- (١٤٢) السيرة النبوية: لابن كثير ذات الجزء أو المجلد وذات الصفحة.
- (١٤٣) السيرة الشامية: ص ٢١٣ وما بعدها.
- (١٤٤) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢١٩ السيوطي.
- (١٤٥) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، الحديث الثالث.
- (١٤٦) الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول أي الذكر الحكيم: لحمزة النشترتي وآخرين، المجلد الأول، ص ٢٠٧، د. ت. د. ن.
- (١٤٧) الخصائص الكبرى: للسيوطي، ص ٢١٥.
- (١٤٨) مما هو جدير بالذكر أن لبس العباءة من قبل رجل الدين هو تقليد يهودي أخذوه عن رجال الدين في مصر القديمة عندما لجأوا إليها هرباً من المجاعة والقط أ. ه.
- (١٤٩) المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، سابق.
- (١٥٠) أساس البلاغة: للزمخشري.
- (١٥١) كتاب التعريفات: للجرجاني ٧٤٠/٨١٦، حققه إبراهيم الأبياري، الطبعة ١٤٠٥/١٩٨٥، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (١٥٢) المصباح المنير: للفيومي.
- (١٥٣) الأحلام بين العلم والعقيدة: د. علي الوردي، ص ٣٩، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، دار كوفان، لندن.
- (١٥٤) الأحلام: للدكتور توفيق الطويل، ص ٩٤ نقلاً عن بحث «تحليل كتاب الأحلام» ل. د. حسن الساعاتي في الكتاب التذكاري لتوفيق الطويل، ص ١٠٠.
- (١٥٥) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٧.
- (١٥٦) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ترجمة مختصرة لقاموس موريش، ص ١٩٦، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، الناشر مكتبة كنيسة الأخوة، شبرا مصر.
- (١٥٧) النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ: تأليف علي ميروك، ص ٩٨، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار التنوير، بيروت، لبنان.
- (١٥٨) نحن نحبيه لأنه لم يقل عنها: الجاهلية أ. ه.
- (١٥٩) غرائب القرآن: للنيسابوري، مجلد ١١، ص ٤٢٦.
- (١٦٠) في هامش الصفحة: انظر «دلائل النبوة» لأبي نعيم حيث أورده من حديث طويل رقم ١٠٣٦/٢١٥/٢١٦، وحلاوة القفا: وسطه كما في «المعجم الوسيط». «زهر الخمائل على الشمائل — أوصاف النبي ﷺ» جلال الدين السيوطي ٤١ — ٩١١، تحقيق مصطفى عاشور، ص ٤٧، ط ١٩٨٨، مكتبة القرآن.

- (١٦١) الخصائص الكبرى: للسيوطي، المجلد الأول ص ٢١٦.
- (١٦٢) الإسراء: الآية ٤٦.
- (١٦٣) العنكبوت: الآية ٤٩.
- (١٦٤) الأحلام: د. علي الوردي، ص ٧٤، سابق.
- (١٦٥) الأحلام: د. علي الوردي، ص ٩٦، مرجع سابق ذكره.
- (١٦٦) الأحلام: د.د. علي الوردي، مرجع سابق لنا ذكره.
- (١٦٧) دانيال ٨: ٥ - ٢٢.
- (١٦٨) النبوة - من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ: علي مبروك، ص ٦٢، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار التنوير، بيروت، لبنان.
- (١٦٩) الأحلام: د.د. توفيق الطويل، ص ١٢٥، نقلا عن دراسة د. حسن الساعاتي «تحليل كتاب الأحلام لتوفيق الطويل» بالكتاب التذكاري د. توفيق الطويل مفكراً عربياً ورائداً للفلسفة الخلقية بحوث عنه ودراسات مهداة - إشراف وتصدير د. عاطف العراقي ١٩٩٥م، المجلس الأعلى للثقافة، وزارة الثقافة، مصر.
- (١٧٠) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ص ١٩٦، مرجع سابق.
- (١٧١) ١٧٢ أشعيا الأول: ١٠.
- (١٧٣) عاموس الأول: ٢.
- (١٧٤) عاموس: الثالث، ١، ٢.
- (١٧٥) عاموس: السابع، ١٥.
- (١٧٦) الخصائص الكبرى: الأول، ص ٢٢٢، للسيوطي.
- (١٧٧) نحن نشك في نسبة هذه الأوصاف إلى محمد ونرجح أنها أضيفت إلى جانب ابن عباس إبان خلافه أحفاد العباسيين - لأن هذا العبد الله عندما لحق «من جعلت له الأرض مسجداً» بالرفيق الأعلى بالكاد - العامة في مصر نقول: يا دويك - راقق الثانية عشرة من عمره فكيف يطلق «الفارق بين الحق والباطل» على حدث «حبر الأمة وترجمان القرآن».
- وبعد سنوات ولاء ابن عمه الإمام علي مفاتيح بيت مال الكوفة فلما سمع عنه أبو الحسن أشياء تمس الذمة طفق يحاسبه وضيق عليه الخناق فاستولى على جميع ما فيه وكنته ورشه وهرب لبليل في حراسة أصهاره واشترى بالمال جاريتين وضبيتين من السبايا وعدن في الطائف ليجتمع له طيب هوائها مع جمال... أ. ه.
- (١٧٨) الطبقات الكبرى: لابن سعد، الأول، ص ص ١٧٨ - ١٨١.
- (١٧٩) محمد النائر الأعظم: لفتحي رضوان، ص ١٠٤.
- (١٨٠) الآية ٢١ من سورة النور.
- (١٨١) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٠.
- (١٨٢) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٣٠٦، ٣٠٧ سابق.
- (١٨٣) الرسول في رمضان: على الخربوطلي، ص ص ٢٠ - ٢٤.
- (١٨٤) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ص ٣٠٦، ٣٠٧.
- (١٨٥) الأحلام: للدكتور توفيق الطويل، ص ص ١٢٨ - ١٣٥، نقلا عن دراسة د. حسن الساعاتي، مرجع سابق.
- (١٨٦) من الذين اتجهوا إلى تأثر دانتى بالتراث الإسلامي وخاصة حديث الإسراء والمعراج ورسالة الغفران للمعري وكتابات بعض المتصوفين مثل محيي الدين بن عربي: المستشرق الأسباني ميغيل أسين بلاثيوس ولقد أيده بعض الباحثين وعارضه آخرون، ص ص ٦٠ - ٦١ من «الكوميديا الإلهية» النشيد الأول، الجحيم، لدانتى أليجييري - ترجمة حسن عثمان الطبعة الأولى ١٩٥٩، دار المعارف بمصر.
- (١٨٧) هنالك شبه إجماع من المؤلفين قدامى ومحدثين في السيرة المحمدية التي هي أزكى ريحاً من المسك الأصهب على التضييب على هذه الحادثة مع أنها في نظرنا تتسم بقدر من الأهمية أ. ه.
- (١٨٨) الأحلام بين العلم العقيدة: د. علي الوردي، ص ٣٣، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، دار كوفان، لندن.
- (١٨٩) دانيال: ١٠.
- (١٩٠) آدم: مس الخبز بالأدام مساً رقيقاً ثم أخذت معنى اقتصر.. «المعجم موسوعة لغوية علمية فنية» القسم الأول، للشيخ عبد الله العلايلي، الطبعة الثالثة، ١٩٠٩٧، دار الجديد، بيروت، لبنان.
- (١٩١) الأحلام: د. علي الوردي، ص ٣٩، مرجع سبق ذكره.
- (١٩٢) ذات المراجع والصفحة.
- (١٩٣) ذات المراجع والصفحة.
- (١٩٤) الأحلام: د. علي الوردي، ص ٤٠ سابق.
- (١٩٥) السمط الثمين: للمحب الطبري، ص ٤١.

- (١٩٦) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون — الشهير بالسيرة الحلبية: لعلي بن برهان الدين الحلبي ٩٧٥ — ١٠٤٤ الجزء الأول، ص ٣٧٧، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، بمصر.
- (١٩٧) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ص ٤٠٧ — ٤١٠.
- (١٩٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الجزء الأول، ص ص ٤٠٧ — ٤١٠.
- (١٩٩) السمط الثمين: للمحب الطبري، ص ٣٩، وما بعدها سابق.
- (٢٠٠) مولد النبي ﷺ: للإمام السيد جعفر البرزنجي، تصحيح وضبط ومراجعة أبو الفضل الصديق الغماري، ص ١٣ — ١٥، د. ت. ن مكتبة القاهرة الصناديقية بمصر.
- (٢٠١) السيرة الشامية: الثاني، ص ٣٠٨.
- (٢٠٢) تهذيب سيرة ابن هشام: الأول، لعبد السلام هارون، ص ٥٨.
- (٢٠٣) دائرة المعارف الكتابية: الجزء الأول، ص ٣٠٧، مصدر سابق.
- (٢٠٤) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي.
- (٢٠٥) فتح الباري: للعسقلاني، ص ٣١ في شرح الحديث الثالث، إصدار المطبعة السلفية، مصدر سابق.
- (٢٠٦) ذات المصدر والصفحة.
- (٢٠٧) يلاحظ أنه عندما انتقل «الإنسان الكامل» إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها!!!.
- (٢٠٨ — ٢١٠) خروج: ١٩.
- (٢١١) وإذ إن الشيء بالشيء يذكر فهناك خناقة لرب السماء «حسب تعبير عامي شائع في مصر» بين المسلمين والنصارى «المسيحيين حاليا» على من يستحق لقب رئيس الملائكة أهو جبرائيل أو ميكايل؟ ولا أدري ما أهمية أن يحمل اللقب هذا أو ذلك!
- (٢١٢) إنجيل متى: الإصحاح الثالث.
- (٢١٣) إنجيل متى: الإصحاح الرابع.
- (٢١٤) المسلمون يسمونهم الحواريين والمسيحيون يلقبونهم بالرسول أ. هـ.
- (٢١٥) إنجيل متى: الإصحاح السابع عشر.
- (٢١٦) في المختار من صحاح اللغة: القلة أعلى الجبل وقلة كل شيء أعلاه.
- (٢١٧) إنجيل مرقس: الإصحاح الأول.
- (٢١٨) إنجيل مرقس: الإصحاح التاسع.
- (٢١٩) إنجيل لوقا: الإصحاح الأول.
- (٢٢٠) الآية العاشرة من سورة مريم.
- (٢٢١) الآية السادسة عشرة وما بعدها من سورة مريم.
- (٢٢٢) إنجيل لوقا: الإصحاح الرابع.
- (٢٢٣) نفس الإنجيل وذات الإصحاح.
- (٢٢٤) السيرة النبوية: لابن إسحق، ص ٩١، المجلد الأول، من إصدارات القطاع الثقافي، بدار أخبار اليوم، مصدر سابق.
- (٢٢٥) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، ص ٢٤٤، من الجزء الأول، سابق.
- (٢٢٦) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، ص ٢٩٨ — ٣٠٢ الطبعة الرابعة ١٩٧٧، دار المعارف بمصر.
- (٢٢٧) عيون الأثر: لابن سيد الناس، ص ص ٨٥، ٨٦، من المجلد الأول، د. ت الناشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (٢٢٨) الجزء الأول من «السيرة الحلبية» ص ٣٨٦.
- (٢٢٩) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي — المتوفى سنة ٧٤٨، المجلد الأول، السيرة النبوية الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار الغد العربي، مصر ص ٥٩.
- (٢٣٠) العامة في مصر نقول: رجلها برجله.
- (٢٣١) السيرة النبوية: لابن كثير، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، الجزء الأول، ص ٤٠٢، مصدر سابق.
- (٢٣٢) في أساس البلاغة: للزمخشري نكف: امتنع وانقبض أنفا وحمية.
- (٢٣٣) من اشتدت خصومته.
- (٢٣٤) حولها الحفدة وهم الخدم والأعوان من «المصباح المنير» على الفيومي.
- (٢٣٥) في «أساس البلاغة» للزمخشري: رجل محفود محضود— مجتمع عليه.
- (٢٣٦) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين: للمحب الطبري، ص ص ٤٠ — ٤٣، مصدر سابق.
- (٢٣٧) الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: للكلاعي، ص ٥٦٥ — ٦٣٤ — تحقيق مصطفى

- عبد الواحد، ص ٢٦٥ — الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٣٨٧، ١٩٦٨م، الناشر مكتبة الخانجي، مصر.
- (٢٣٨) أخبار مكة: للأزرقي: الثاني، ص ٢٠٤.
- (٢٣٩) المصباح المنير للمقرئ الفيومي.
- (٢٤٠) كتاب المسالك والممالك: لأبي عبيد البكري الجزء الأول، حققه أدريان فان ليفن وأنديه فيري، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، بيت الحكمة، تونس.
- (٢٤١) في منزل الوحي: هيكل، ص ٢٥٢.
- (٢٤٢) محمد رسول الله: لناصر الدين آتئين دينيه وسلمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ محمود عبد الحليم وابنه الشيخ محمد، ص ١٠٨ — ١٠٩، ط أولى سنة ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.
- (٢٤٣) الرسول في رمضان: د. علي حسن الخربوطلي، ط أولى ديسمبر ١٩٦٧، العدد ٣١١ من سلسلة «اقرأ» دار المعارف بمصر.
- (٢٤٤) خاتم النبيين ﷺ: للشيخ محمد أبو زهرة، هامش ص ٣٠٦ — ٣٠٧، المجلد الأول.
- (٢٤٥) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ٣٨٩ وما بعدها، سابق.
- (٢٤٦) البقرة: ١٤٤ — ١٥٠.
- (٢٤٧) الرسول في رمضان: ل.د. علي حسن الخربوطلي، ص ٦ وما بعدها سابق.
- (٢٤٨) جوامع السيرة النبوية: لابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ، ص ٣٦، ط ١٩٨٢م، «أول طبعة» مكتبة التراث الإسلامي، الأزهر، القاهرة.
- (٢٤٩) السيرة الشامية، الجزء الثاني، ص ٢١٦ وما بعدها سابق — سيرة ابن هشام: الأول، ص ٢٤٢، تحقيق السرجاني سابق — السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٢ سابق — الفصول في اختصار سيرة الرسول: لابن كثير، ص ٨٣ وما بعدها، سابق — شرح السيرة النبوية برواية ابن هشام: لأبي ذر الخشني، ٥٣٣/٦٠٤، ص ٧٥ وما بعدها سابق.
- (٢٥٠) فصلت: ٦.
- (٢٥١) فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي: ص ٧٠ — ٧٤، سابق ذكره.
- (٢٥٢) المعجم الوسيط: والغار — مكان منقور في الجبل يشبه البيت.
- (٢٥٣) القاموس المحيط.
- (٢٥٤) القاموس الموجز للكتاب المقدس: ص ٥٥، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، مرجع سابق.
- (٢٥٥) فقه السيرة: لمحمد الغزالي، ص ٩٠ وما بعدها، مرجع سابق.
- (٢٥٦) سيرة ابن هشام: الأول، ص ٢٤٢، ت السرجاني.
- (٢٥٧) السيرة الحلبية: الأول: ص ٣٨٣.
- (٢٥٨) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ: لابن كثير، ص ٨٣ — ٨٤ — ٨٥.
- (٢٥٩) السيرة الحلبية: الأول، ص ٣٨٢.
- (٢٦٠) السيرة الشامية: الجزء الثاني، ص ٣١٦ — ٣٣٠.
- (٢٦١) شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام: لأبي ذر الخشني ٥٣٣/٦٠٤، ص ٧٥ تصحيح بولس برونلث د. ت: دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٢٦٢) مختار الصحاح: للرازي.
- (٢٦٣) المصباح المنير: للمقرئ الفيومي.
- (٢٦٤) أساس البلاغة: للزمخشري.
- (٢٦٥) القاموس المحيط: للفيروزآبادي.
- (٢٦٦) سبق توضيحها وشرحها.
- (٢٦٧) شطر استشهد به أبو عثمان كما جاء في «كتاب الأفعال» للسرقسطي، الجزء الرابع، القسم الأول، في باب الثلاثي الصحيح من «الواو» فعل «وشج» ص ٢٥٥، سابق.
- (٢٦٨) حياة سيد المرسلين محمد ﷺ: لمحمد عطية الإبراشي، ص ٤٣ — ٤٤، طبعة أولى ١٩٨٠م، مكتبة مصر، القاهرة.
- (٢٦٩) دراسات في «السيرة النبوية»: د. حسين مؤنس، ص ٩٠ — ٩١، مرجع سابق ذكره.
- (٢٧٠) في الحديث «إن أنزع الأسماء أن ينسب الرجل بملك الأملاك» أي أشدها إهلاكا والعامية في مصر تقول «فلان ينخع» أي يحكى الأهاويل التي لا أساس لها أ. ه.
- (٢٧١) نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز: لرفاعة رافع الطهطاوي، تحقيق وتعليق د. فاروق أبو زيد، الجزء الثاني، ص ١٢ — ١٤، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، دار الفكر والفن، القاهرة.
- (٢٧٢) تهذيب السيرة ابن هشام: الأول، عبد السلام هارون، ص ٥٦ سابق.
- (٢٧٣) ما زالت المعركة مستمرة بين تبع موسى وتبع محمد على اسم هذا الابن هل هو إسحق أم

- اسماعيل ورغم مرور أربعة عشر قرناً لم تصل الطائفتان فيها إلى حل.
- (٢٧٤) و تنتهز هذه المناسبة لنسطر أن عبد الله بن عبد المطلب — أبا محمد — أطلق عليه القرشيون «يوسف مكة» لأنه من شدة وضاعته وقسامته أحرق قلوب نسونها ثيبات و عذارى أ. ه.
- (٢٧٥) السيرة النبوية: لابن إسحق، الأول، ص ١٩١ سابق.
- (٢٧٦) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق السرجاني، الأول ص ص ٢٢٤، ٢٤٥.
- (٢٧٧) السيرة الحلبية: ص ٣٨٥.
- (٢٧٨) السيرة الشامية: الثاني، ص ص ٣١١ — ٣١٢.
- (٢٧٩) الاكتفاء في مغازي رسول الله و الثلاثة الخلفاء: لأبي الربيع الكلاعي، الجزء الأول، ص ٢٦٢ وما بعدها، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى ١٣٨٧ — ١٩٦٨، مطبعة الخانجي، بمصر.
- (٢٨٠) الخصائص الكبرى: للسيوطي، الأول، ص ٢١٦.
- (٢٨١) حياة محمد: لهيكل ص ٤٨.
- (٢٨٢) قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، ص ٣٠٢، ٣٠٤.
- (٢٨٣) تهذيب سيرة ابن هشام: لهارون الأول، ص ٦٠.
- (٢٨٤) بحث جديد عن القرآن الكريم: لمحمد صبيح، ص ٢٠ — ٢١، الطبعة السادسة، دار الثقافة العامة بالقاهرة.
- (٢٨٥) محمد رسول الله: ص ٤٨، جلال مظهر.
- (٢٨٦) محمد رسول الله: ناصر الدين آتئين دينه و سلمان بن إبراهيم، ترجمة الشيخ عبد الحلیم محمود و ابنه الشيخ محمد، ص ص ١٠٩ — ١١٠، ط أولى ١٩٧٩م، دار المعارف بمصر.
- (٢٨٧) العامة في مصر تقول عن الشيء الزائف أو الفسید مضروب «هو تعبير جديد» مثل الشبك بدون رصید أو قطعة الغيار المغشوشة أو العملة الورقية المزيفة... الخ أ. ه.
- (٢٨٨) السيرة النبوية: لابن كثير، الأول، ص ص ٣٥٨ — ٣٨٨.



#### أولاً: المصادر

- القرآن العظيم  
الكتاب المقدس
- ١ — «أخبار مكة وما جاء بها من الآثار» للأزرقي.
  - ٢ — «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لعز الدين بن الأثير الجزري.
  - ٣ — «أعلام النبوة» لأبي الحسن علي الماوردي.
  - ٤ — «الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ و الثلاثة الخلفاء» للكلاعي.
  - ٥ — «إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأبناء و الحفدة و المتاع» للمقريزي.
  - ٦ — «إنجيل لوقا».
  - ٧ — «أنساب الأشراف» للبلادري.
  - ٨ — «أنوار التنزيل و أسرار التأويل» ناصر الدين الشيرازي البيضاوي.
  - ٩ — «تاريخ الإسلام» للذهبي.
  - ١٠ — «تاريخ الطبري» تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.
  - ١١ — «تاريخ اليعقوبي» لليعقوبي.
  - ١٢ — «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزى الكلبى.
  - ١٣ — «تفسير الجلالين» للحلي و السيوطي.
  - ١٤ — «تفسير النسفى» لابن بركات عبد الله النسفى.
  - ١٥ — «تنوير المقباس في تفسير ابن عباس» للفيروز أبادي.
  - ١٦ — «ثمار القلوب» لأبي منصور الثعالبي.
  - ١٧ — «الجامع لأحكام القرآن — تفسير القرطبي» للقرطبي.
  - ١٨ — «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم الأندلسي.
  - ١٩ — «الخصائص الكبرى» للسيوطي.
  - ٢٠ — «الدرر في اختصار المغازي و السير» لابن عبد البر.
  - ٢١ — «الروض الأنف» للسهيلى.
  - ٢٢ — «زهر الخمائل على الشمائل — أوصاف النبي ﷺ» لجلال الدين السيوطي.



- ٢٣ — «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» للمحب الطبري.  
 ٢٤ — «السيرة الحلبية» لبرهان الدين الحلبي.  
 ٢٥ — «السيرة الشامية» للصالحي الشامي.  
 ٢٦ — «السيرة النبوية» لابن إسحق.  
 ٢٧ — «السيرة النبوية» للذهبي — تحقيق حسام الدين القدسي.  
 ٢٨ — «السيرة النبوية» لابن كثير.  
 ٢٩ — «السيرة النبوية» لابن هشام — تحقيق السرجاني.  
 ٣٠ — «شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام» لأبي ذر الخشني.  
 ٣١ — «الطبقات الكبرى» لابن سعد.  
 ٣٢ — «الطبقات الكبرى» لابن السبكي — غير مباشر.  
 ٣٣ — «عيون الأثر» لابن سيد الناس.  
 ٣٤ — «غرائب القرآن و رغائب الفرقان» للقمي النيسابوري.  
 ٣٥ — «كتاب المسالك والممالك» لابن عبيد البكري.  
 ٣٦ — «كتاب نسب قريش» لابن عبد الله بن المصعب الزبيرى.  
 ٣٧ — «مجاز القرآن» لابن عبيدة معمر بن المثنى.  
 ٣٨ — «مختصر سيرة الرسول» لمحمد عبد الوهاب مقدمة لمحمد حامد الفقى.  
 ٣٩ — «المختصر في تفسير القرآن» أو «مختصر تفسير الطبري» لابن صمادح التجيبي.  
 ٤٠ — «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» لفخر الدين الرازي.  
 ٤١ — «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزى.

#### ثانياً: كتب الأحاديث وشروحها:

- ١ — «جمع الجوامع» أو «الجامع الكبير» لجلال الدين السيوطي.  
 ٢ — «صحيح البخاري».  
 ٣ — «صحيح مسلم».  
 ٤ — «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني.  
 ٥ — «فتح المبدى شرح مختصر الزبيرى» للشرقاوي.  
 ٦ — «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» لفواده عبد الباقي.  
 ٧ — «المستدرک» للحاكم النيسابوري — تحقيق مصطفى عبد القادر.  
 ٨ — «المسند» لأحمد بن حنبل.  
 بخلاف العشرات من كتب الصحاح والمسانيد والجموع والسنن والموطآت والمختارات والمنقبات والمستخرجات والزوائد والمصنفات والزوائد... الخ التي وردت بمتن الكتاب.

#### ثالثاً: المراجع:

- ١ — «الأحلام» لتوفيق الطويل — غير مباشر من بحث بعنوان «تحليل كتاب الأحلام» بقلم د. حسن الساعاتي ص ١٠٠ من الكتاب التذكري  
 عن توفيق الطويل من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة بمصر.  
 ٢ — «الأحلام بين العلم والعقيدة» لعلي الوردي.  
 ٣ — «إظهار الحق» للشيخ رحمت الله بن خليل الهندي «غير مباشر».  
 ٤ — «أوائل العرب عبر العصور والحقب» لحبوش.  
 ٥ — «تاج التفاسير لكلام العلامة الكبير» لمحمد عثمان الميرغنى — الختم.  
 ٦ — «تاريخ الشعوب العربية» لجورج حوراني، ترجمة نبيل صلاح الدين.  
 ٧ — «تاريخ الصحابة والتابعين» لحمزة النشترتي وآخرين.  
 ٨ — «تاريخ القرآن» لعبد الصبور شاهين.  
 ٩ — «التفسير البياني للقرآن الكريم» لبنت الشاطي د. عائشة عبد الرحمن.  
 ١٠ — «التفسير الميسر» لمحمد سيد طنطاوي.  
 ١١ — «التفسير الواضح» لمحمد محمود حجازي.  
 ١٢ — «التيسير خلاصة تفسير ابن كثير» لمحمود محمد سالم.  
 ١٣ — «تهذيب سيرة ابن هشام» لعبد السلام هارون.  
 ١٤ — «حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين» للنبهاني — تحقيق حمزة النشترتي وآخرين.  
 ١٥ — «حياة الصحابييات» لحمزة النشترتي وآخرين.  
 ١٦ — «حياة سيد المرسلين» للأبراشي.

- ١٧ — «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل.
- ١٨ — «خاتم النبيين» لمحمد أبو زهرة.
- ١٩ — «خديجة أم المؤمنين» لعبد المنعم محمد عمر.
- ٢٠ — «خلاصة السيرة النبوية وحقيقة الدعوة المحمدية» للسيد محمد.
- ٢١ — «دائرة المعارف الكتابية» المحرر ولیم وهبة.
- ٢٢ — «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» غير مباشر.
- ٢٣ — «دراسات في السيرة النبوية» لحسين مؤنس.
- ٢٤ — «دراسات في السيرة وعلوم السنة» لموسى شاهين وآخر.
- ٢٥ — «الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول أي الذكر الحكيم» لحمزة النشترتي. وآخرين.
- ٢٦ — «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين» لمحمد أبو شهبة.
- ٢٧ — «دلائل النبوة ومعجزات الرسول ﷺ» لعبد الحلیم محمود ومحمود بن الشریف.
- ٢٨ — «دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى» لآمال قرادش بنت الحسين.
- ٢٩ — «دولة يثرب بصائر في عام الوفود وفي أخباره» لخليل عبد الكريم.
- ٣٠ — «الرحمة المهداة محمد ﷺ» لمحمد سيد طنطاوي.
- ٣١ — «الرحيق المختوم» للمبارك فوري.
- ٣٢ — «الرسول في بيته» لعبد الوهاب حمودة.
- ٣٣ — «الرسول في رمضان» لمحمد حسني الخربوطلي.
- ٣٤ — «الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه» لعبد الحلیم محمود.
- ٣٥ — «زوجات الرسول ﷺ وتعداد الزوجات في الإسلام» لأصلان عبد السلام حسن.
- ٣٦ — «سلام على النبي وأصحابه» لمصطفى بهجت بدوي.
- ٣٧ — «سيرة المصطفى ﷺ» لعبد الزهراء عثمان محمد.
- ٣٨ — «سيرة المصطفى — نظرة جديدة» لهاشم معروف الحسن.
- ٣٩ — «السيرة النبوية» لأبي حسن الندوي.
- ٤٠ — «سيرة النبي محمد» لكارين أرمسترونج.
- ٤١ — «شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ» لمحمد علي الصابوني.
- ٤٢ — «شدة الرابطة بأحول مجتمع الصحابة» ثلاثة أسفار لخليل عبد الكريم.
- ٤٣ — «صفوة السير» إعداد محمد حبش.
- ٤٤ — «عقرية محمد» لعباس محمود العقاد.
- ٤٥ — «عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية» لحسن يوسف الأطير.
- ٤٦ — «العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخلفي» لخليل عبد الكريم.
- ٤٧ — «علم الفولكلور — دراسة في المعتقدات الشعبية» لمحمد الجوهري.
- ٤٨ — «فقه السيرة» لمحمد الغزالي.
- ٤٩ — «في السيرة النبوية — الوحي والقرآن والنبوة» لهشام جعيط.
- ٥٠ — «في ظلال القرآن» لسيد قطب.
- ٥١ — «في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل.
- ٥٢ — «قبيلة إياد في العصر الجاهلي حتى العصر الأموي» لمحمد إحسان النص.
- ٥٣ — «القديسة مريم أم المخلص» لملاك لوقا.
- ٥٤ — «قصص الأنبياء» لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين.
- ٥٥ — «الكوميديا الإلهية — النشيد الأول — الجحيم» لدانتي إلبيري — ترجمة حسن عثمان، الطبعة الأولى ١٩٥٩، دار المعارف بمصر.
- ٥٦ — «محمد الثائر الأعظم» لفتحي رضوان.
- ٥٧ — «محمد» لتوفيق الحكيم.
- ٥٨ — «محمد رسول الله» لجلال مظهر.
- ٥٩ — «محمد رسول الله» لمحمد رضا.
- ٦٠ — «محمد رسول الله» لمولاي محمد علي.
- ٦١ — «محمد رسول الله» ناصر الدين آتئين دينيه وآخر، ترجمة عبد الحلیم محمود وابنه محمد.
- ٦٢ — «المسيح بين الحقائق والأوهام» لمحمد وصفي.
- ٦٣ — «المسيحية» لأحمد شلبي «غير مباشر».
- ٦٤ — «المسيحية والحضارة العربية» لجورج قنواتي.

- ٦٥ — «المصحف المفسر» لحمزة عبد الله النشرتي.
- ٦٦ — «مع المصطفى في عصر المبعث» لبننت الشاطي.
- ٦٧ — «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي.
- ٦٨ — «مكة والمدينة» لأحمد إبراهيم الشريف.
- ٦٩ — «المولد» دراسة للعادات والتقاليد البعثية في مصر، لفاروق أحمد مصطفى.
- ٧٠ — «موسوعة آباء الكنيسة» المحرر المسئول عادل فرج عبد المسيح.
- ٧١ — «موسوعة أمهات المؤمنين» لعبد الصبور شاهين وأخرى.
- ٧٢ — «الموسوعة الإسلامية الميسرة» إشراف راشد البراوي.
- ٧٣ — «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» للدكتورة فاطمة محجوب.
- ٧٤ — «النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ» لعلي مبروك.
- ٧٥ — «نساء النبي» لعائشة عبد الرحمن.
- ٧٦ — «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» للخضري.
- رابعاً: المعاجم والقواميس وكتب المفردات:**
- ١ — «قاموس وبستر للعالم الجديد».
- ٢ — «المعجم الوسيط» لمجمع اللغة العربية.
- ٣ — «القاموس الموجز للكتاب المقدس» الطبعة الثانية ١٩٩٢م، مكتبة كنيسة الأخوة بمصر.
- ٤ — «مفردات غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- ٥ — «لسان العرب» لابن منظور، باب أنقاب الحروف وطبائعها وخواصها، المجلد الأول، نقلاً عن كتاب «نقد العقل العربي — إشكاليات العقل العربي» لجورج طرابيشي، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار الساقى، بيروت، لبنان.
- ٦ — «القاموس المحيط» للفيزوز أبدي.
- ٧ — «المصباح المنير» للمقري الفيومي.
- ٨ — «مختار الصحاح» للرازي.
- ٩ — «تاج العروس من جواهر القاموس» للزبيدي.
- ١٠ — «المعجم الوجيز» لمجمع اللغة العربية.
- ١١ — «المعجم الكبير» لمجمع اللغة العربية.
- ١٢ — «تنقيف اللسان وتنقيح الجنان» لابن مكي الصقلي.
- ١٣ — «أساس البلاغة» للزمخشري.
- ١٤ — «نظام الغريب في اللغة» لعيسى الربيعي الوحاظي.
- ١٥ — «المذكر والمؤنث» لأبي بكر الأنباري.
- ١٦ — «قاموس العادات والتقاليد المصرية» لأحمد أمين.
- ١٧ — «تصحيح الفصيح وشرحه» لابن درستويه.
- ١٨ — «المختار من صحاح اللغة» لمحمد محيي الدين عبد الحميد وأخر.
- ١٩ — «إصلاح المنطق» لابن السكيت.
- ٢٠ — «مختصر العين» لأبي بكر الزبيرى الأشبيلي.
- ٢١ — «كتاب الأفعال» لأبي عثمان سعيد المعافى السرقسطي.

#### ملحوظة تهتم القارئ:

تاريخ النشر ودار النشر والمدينة التي صدر فيها الكتاب جميعها مرقوم تفصيلاً في الهوامش.

#### ملحوظة أخرى:

هناك العديد من المصادر والمراجع والمعاجم... إلخ لم يتم رصدها في هذا المثبت.

